التاريخ السياسي
للدولة العربية

عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين

١

تأليف

الدكتور عبد المنعم ماجد

المدرس بكلية الآداب بجامعة عين شمس

١٩٥٦

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

للمؤلف

- نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٣ . (مكتبة الانجلو المصرية) .

- مقدمة لدراسة التاريخ الاسلامى . تعريف بمصادر التاريخ الإسلامى ومناهجه الحديث ، القاهرة ١٩٥٣ . (مكتبة الانجلو المصرية) .

- السجلات المستنصرية . سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، إلى دعاة اليمن وغيرهم قدس الله أرواح جميع المؤمنين ، تقديم وتحقيق ، القاهرة ١٩٥٤ .
(مكتبة دار الفكر العربى) .

- نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر . دراسة شاملة لنظم القصر الفاطمى ورسومه ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٥٥ . (مكتبة الانجلو المصرية) .

التاريخ السياسي

للدولة العربية

عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين

١

تأليف

الدكتور عبد المنعم ماجد

المدرس بكلية الآداب بجامعة عين شمس

١٩٥٦

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

مطبعة الرسالة

شارع [illegible] ٣ عابدين

« إن التأليف على سبعة أقسام ، لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها ، وهي : إما شيء لم يسبق إليه فيخترعه ، أو شيء ناقص يتممه ، أو شيء مغلق يشرحه ، أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه ، أو شيء متفرق يجمعه ، أو شيء مختلط يرتبه ، أو شيء أخطأ فيه مصنفه فيصلحه » .

حاجي خليفة

فهرس الكتاب


افتتـــاح

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

يتناول هذا الكتاب التاريخ السياسى للدولة العربية ، أى تاريخ الدولة التى قامت بقيام الإسلام حتى سقوط دولة بنى أمية فى سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م ؛ إذ أن الدولة التى جاءت بعد بنى أمية ، وهى الدولة العباسية ، بدأت عصراً اختلف طابعه كل الاختلاف عمّا سبق : فالدولة العربية طابعها عربى ، أما الدولة العباسية فغلب عليها طابع الشعوب التى تحولت إلى الإسلام : الفرس أولاً ثم الترك ، وقد لاحظ المؤرخون القدامى ذلك فقالوا : إن دولة بنى العباس أعجمية ودولة بنى أمية عربية ، مما جعل تاريخ الدولة العربية قطاعاً قائماً بذاته فى تاريخ الإسلام العام .

ونحن لا ندعى أننا عثرنا على مصادر جديدة مكنتنا من خلق تاريخ دولة العرب خلقاً جديدا ، لأن هذا الموضوع تناولته كتب عديدة من تأليف مؤرخى الشرق والغرب الحديثين ، الذين استنفدوا معظم مراجعه ، إلاّ أنه فى الشرق — على الخصوص — ينقصنا عرض دقيق لتاريخ الدولة العربية على أساس منهجى حديث ، فضلاً عن أننا وضعنا نصب أعيننا الاعتماد على مصادره الأولى من وثائق وآثار ونقوش ومسكوكات ، وهى مصادر لم تستغل فى البحث التاريخى الإسلامى إلا منذ عهد قريب .

وإنى لأرجو أن يكون هذا الكتاب إسهاما منى فى جعل تاريخ الدولة العربية أكثر جلاءً ، وأيسر فهما ، خصوصاً وأنه فترة مجد وعظمة للعرب : ففيها طعنوا بسيوفهم فى كل مكان ، وامتدت سيطرتهم من سور الصين حتى قرب باريس ، كما تكونت فيها حضارتهم الكلاسيكية أو التقليدية التى لا زالت شعوب الاسلام تحيا على تراثها حتى الآن .

المؤلف

* كل نسخة مباعة تكون ممضاة من المؤلف .

موارد تاريخ الدولة العربيــة

وثائق ــ آثار ــ نقوش ــ مسكوكات ــ مصادر أصلية ــ مصادر حديثة .

إن المصادر الخاصة بتاريخ الدولة العربيــة كثيرة ومتنوعة ، وسنرتبها فى الصفحات التالية حسب أهميتها :

* * *

فمن الممكن أن نستند قبل كل شىء فى دراسة تاريخ الدولة العربية إلى الوثائق السياسية ، إذ أنها من أوثق مصادر التاريخ[1] . ولكن البحث شاق عن المستندات الرسمية لأمة العرب السابقة على ظهور الإسلام — ونقصد بها العرب المتحضرة فى أطراف الجزيرة — لطبيعة هذه الأمة البدوية فى عدم ميلها للكتابة كثيراً ، ولذلك فمعلوماتنا عن وثائقها قليلة جداً[2] .

كذلك لم نعثر — لسوء الحظ — على معظم أصول المستندات الرسمية الخاصة بالدولة العربية نفسها — ونقصد بها فى الإسلام — على الرغم من أن هذه المستندات كانت تكتب من عهد النبى[3] ، وذلك لأن الدولة العربية كان أعداؤها كثيرين ، بحيث أننا نسمع عن احتراق الديوان فى الكوفة فى سنة ٨٢هـ/٧٠١م[4] ، بما فيه من أصول الوثائق أثناء إحدى الثورات ضد الحجاج بن

---

(١) انظر Sauvaget. : Introduction à l'Histoire de l'Orient Musulman, Paris 1946, p. 19, 122. ؛ ماجد : مقدمة لدراسة التاريخ الاسلامى ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ١٧ .

(٢) انظر بخصوص هذه الوثائق النادرة (وهى مكتوبة بخط اليد) Cohen : Documents Sud-arabiques. Paris 1934, p. 57 Sqq.

(٣) انظر مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة ، جمعها حميد الله الحيدر آبادى ، القاهرة ١٩٤١ .

(٤) أبو يوسف ، كتاب الخراج ، القاهرة ١٣٤٦هـ ، ص ٦٨ .

يوسف الثقفى . ومن ناحية أخرى قد يفسر أيضا ضياع المستندات الخاصة بالدولة العربية بقيام الدولة العباسية التى أتت بعدها ؛ فقد كانت هذه الدولة عدواً لدوداً للعرب ، فلم تكتف بالقضاء على دولتهم ، وإنما قضت أيضاً على أوراقها الرسمية .

وإذن فلم يبق لنا من مستندات الدولة العربية غير مجموعة قليلة خاصة بمصر على الخصوص فى مجموعة الأوراق البردية[١] المكتوبة بالعربية واليونانية والقبطية[٢] ، وهى تفيد — إلى حد ما — فى التعرف على أحوال الدولة العربية فى ممتلكاتها فى مصر . وفوق ذلك لدينا نصوص وثائق كثيرة خاصة بجميع عصور الدولة العربية : من العهد النبوى ، والخلافة الراشدة[٣] إلى نهاية العصر الأموى ، فى كتب المتأخرين أمثال : ابن سعد (م ٢٣٠/٨٤٥) والبلاذرى (م ٢٧٩/٨٩٢) والقلقشندى (م ٨٢١/١٤١٨)[٤] وغيرهم ، وهى يشتمل أغلبها على كتب الأمان والمحالفات والخطب والمراسلات . ومع ذلك يجب أخذ هذه النصوص بحذر شديد ، لأنها قد نُقل معظمها من كتب متقدمة ، وليس من الأصل ، كما أنها قد لا تخلو من تزييف ، مثل العهود التى زعم أن النبى كتبها للنصارى واليهود والمجوس[٥] .

---

(١) البردى هو المادة المستعملة قديما للكتابة ، وتتكون من ألياف لزجة لنبات مائى كان ينمو فى مستنقعات الدلتا ، ومن الكلمة Papyrus ، اشتقت الكلمة الدالة على الورق فى العصر الحديث فى أوربا . انظر . بل ، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ترجمة عواد وعبد اللطيف ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٩ — ١٠ هامش (١) .

(٢) للبحث عن كل ما يتعلق بمجموعات الأوراق البردية الخاصة بالدولة العربية . انظر. La Documentation papyrologique de l'époque arabe. : Cheïra Catalogue des papyrus grecs publiés d'époque arabe concernant Introd. p. 19, 122. : Sauvaget وأيضاً ؛ l'Egypte. Alexandrie 1948.

(٣) عن وثائق العهد النبوى والخلافة الراشدة ، انظر. حميدالله ، مجموعة الوثائق، القاهرة.

(٤) توجد أغلب النصوص الخاصة بوثائق الدولة العربية فى كتاب القلقشندى : صبح الأعشى ، الجزء السادس . انظر .

(٥) انظر. Sauvaget : Introd. , p. 20 . كذلك نحن لا نستطيع مثلا أن نؤكد صحة الكتب التى أرسلها النبى للملوك زمانه يدعوهم إلى الإسلام ، وذلك — كما يقول Caetani — للاختلاف فى تواريخ ارسالها ، وأسماء حامليها ، وكيفية مقابلتهم للملوك ، وللاختلاف فى أشخاص نقلتها. انظر. Caetani : 50—54 : Annali del'Islam, 1905 , anno 6 . وعلى العكس يؤيد Hamidullah صحة كتاب النبى لهرقل ، انظر . La lettre du Prophète à Héraclius cf. Arabica. Janvier 1955, t 2. fasc. 1 p. 97 - 110.

ويلى الوثائق السياسية الآثار[١] ، وهى التى وصفها ابن خلدون بأنها تكون على نسبة قوة الدولة[٢] ، مما يدل على أهميتها فى فهم تاريخ العرب[٣] . وهذه الآثار الباقية يرجع بعضها إلى ما قبل الإسلام ، وبعضها الآخر إلى ما بعد ظهوره حتى سقوط دولة العرب ، فنجد من آثار العرب قبل الإسلام[٤] آثار ممالك النبط والآراميين فى الشام ، وآثار ممالك العرب الجنوبيين فى اليمن[٥] ، أما فى الحجاز فإن أهم آثار العرب « الكعبة » فى مكة .

ونجد من آثار الدولة العربية آثاراً كثيرة فى معظم البلاد التى فتحها العرب من أقصى الغرب فى اسبانيا إلى أقصى الشرق فى التركستان ، تجلو لنا طابع الدين الجديد[٦] . ولكن أهم آثار الدولة العربية هو من عهد الدولة الأموية[٧] ، التى أراد خلفاؤها — الذين أعجبوا بفخامة الكنائس النصرانية — أن يُظهروا قدرتهم على إقامة مبانى لا تقل عظمة عن مبانى البيزنطيين ، بحيث أننا نستطيع أن نكمل نظرتنا فى تاريخ دولتهم بتتبع آثارهم فى الشام من مساجد وقصور ، وعواصم صحراوية . ولا ريب أن بقاء آثار الدولة العربية شامخة بأنفها إلى الآن يدفعنا

---

(١) ماجد ، مقدمة ، ص ٢١ ؛ انظر . Sauvaget : Introd, p. 51 - 53.

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ص ١٣٩ فما بعدها .

(٣) الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٣٥٦ / ١٩٣٨ — ١٣٦٦/١٩٤٧ ، ١ ص ٧٢ .

(٤) انظر . Kammerer : La Mer Rouge. L'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquité. Essai d'Histoire et de Geographie Historique. Mém. de la Soc. Roy. de Geog, d'Eg. t.xv. Le Caire 1929, p. 83 sqq.

(٥) انظر على الخصوص Nabih Faris : The Antiquities of South Arabia. Princeton 1938.

(٦) انظر . تراث الإسلام ، ترجمة زكى حسن ، القاهرة ١٩٣٦ ، ٢ ص١١٥ — ١١٦ .

(٧) انظر Creswell : Early Muslim Architecture, I : Umayyads, Oxford 1932 ؛ انظر أيضاً Jaussen et Savignac : Les Chateaux arabes de Qeseir'Amra, Kharâneh et Tūba. Paris. 1922.

إلى القول بأن ابن خلدون قد بالغ حينما ذكر أن المبانى التى يختطها العرب كان يسرع إليها الخراب[١] .

كذلك تعتبر النقوش عماد البحث الحديث[٢] فى تاريخ هده الدولة ، فهى تحل محل المصادر الأرشيفية فى سرد وقائع تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده ؛ إذ هى الكتابة الموجودة على الآثار . فقد عُرف النقش — منذ قديم الزمان — فى مواطن استقرار العرب بخطوط الجزيرة العربية القديمة[٣] ، مثل : الخط السبئى والحميرى أو مايعرف عند العرب بالخط المسند[٤] فى اليمن ، حيث أكثر النقوش القديمة مكتوبة به ، والخطوط اللحيانية والثمودية والصفوية[٥] والآرامية والنبطية

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٢٨٥ .

(٢) انظر . Sauvaget : Introd, p. 48 - 50. ؛ ماجد ، مقدمة ، ص ٢٣ .

(٣) معظم النقوش القديمة أوردها الرحالة الأوربيون ، وللبحث عن كل مايتعلق بها . انظر . على الخصوص المجموعة الهائلة المعروفة باسم : Corpus Inscriptionum Semiticarum t. 4. vol I. 1889, 1892, 1900, 1908. t 4. vol 2. 1911, 1914 ؛ وأيضاً الكتاب الهام : Réper'oire d'Epigraphie Sémitique Publié par la commission du Corpus. Faris. 1900 sqq.

(٤) ابن النديم ، كتاب الفهرست ، تحقيق Flugel طبعة Leipzig ص ٥ — ٦ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٣٢ س ٤ ؛ جواد على ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، بغداد ١٣٧٩ / ١٩٥٠ ، ١ ص ٥٠ فا بعدها . هذا الخط كما يبدو ليس له علاقة بالخط العربى (انظر . يحيى نامى ، أصل الخط العربى وتاريخ تطوره بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ، «جامعة القاهرة» ، القاهرة ١٩٣٥ ، ص ٣—٤) ويقال إنه أول خط فى الجزيرة (جواد ، نفس المرجع ، ١ ص ١٨٦) ، وإن قيل إن أصله فى الخط النبطى فى شمال الجزيرة (انظر . Hommel : Gundriss der Geogr. und Gesch. des Alten Orients, München 1904, I, p. 157. جواد ، نفس المرجع ، ١ ص ١٨٨) . ولم يفسر العلماء سبب تسمية « المسند » مسنداً ، ولعله بسبب أن الحروف على شكل العمارة التى تستند إلى أعمدة (جواد ، نفس المرجع ، ١ ص ١٩٧) .

(٥) نسبة إلى شعوب من الجنس العربى ظهرت فى شمال الجزيرة العربية وفى الشام ، وقد اندثر معظمها قبل الاسلام . جواد ، نفس المرجع ، ١ ص ٢٠٠ .

والعبرانية فى الشام ؛ وأغلبها يشبه الكتابة الكوفية فيما بعد . أما عن النقوش القديمة بالعربية قبل الإسلام[١] ؛ فهذه نادرة ، وليس لدينا منها غير أربعة نقوش ، أقدمها — وهو الأهم — نقش نمارة الخاص بقبر امرىء القيس ، وهو مكتوب بالخط النبطى .

ولكن أصبح الخط العربى أساس النقش فى الإسلام ، وبخاصة حينما أمر الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥—٨٦/٦٨٥—٧٠٥) بجعل اللغة العربية اللغة الرسمية[٢] ؛ بحيث أن الخطوط القديمة فى الجزيرة العربية، أو فى الامبراطورية بدأت تنعدم أمام الخط العربى[٣]، مثل: النبطية والآرامية والسريانية والفارسية. ومع ذلك فإن نقوش الدولة العربية قليلة جدا ، وأغلبها يوجد على الآثار المعمارية الأموية فى الشام[٤] .

المسكوكات[٥] هى الأخرى من مصادر الدرجة الأولى فى تاريخ الدولة العربية ، وهى تشمل العملة الرسمية أو ما يسمى « بالسكة »[٦] ، فهى تساعدنا أيضا على

---

(١) انظر. Combe و Sauvaget و Wiet : Répertoire Chronologique d'Epigraphie arabe t. I, p. 1 - 4. ؛ ناجى ، أصل الخط العربى . النقوش الأربعة هى: نقش نمارة فى ٣٢٨م ، ونقش زبد فى ٥١٢ م ، ونقش حران فى ٥٦٨ م ، ونقش آخر من القرن السادس الميلادى .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٩٣ س ٧ .

(٣) حاجى خليفة « ملا كاتب شلبى » ، كشف الظنون ، استنبول ١٣١١ هـ ، الطبعة الأولى ، ١ ص ٤٦٤ .

(٤) انظر. توجد نقوش الدولة الأموية فى موسوعة Van Berchem : Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum t 2 . (Inst. F. d'Arch. Or. t 44) Le Caire 1927 ؛ وفى مجموعة Combe و Sauvaget و Wiet : Répertoire Chronologique, d'Epigraphie arabe t. I, p. 7 - 29. أما عن النقوش قبل الدولة الأموية فلدينا منها ثلاثة نقوش فقط عديمة الأهمية ، الأول فى سنة ٢٢ هـ ، والثانى فى سنة ٢٩ هـ ، والآخر فى سنة ٣١ هـ . انظر Répertoire, t. 1, p. 5-6.

(٥) انظر. Sauvaget : Introd, p. 51. ؛ ماجد ، مقدمة ، ص ٢٧ .

(٦) المقريزى ، النقود الاسلامية ، قسطنطينة ١٢٩٨ هـ ، ص ٦ .

تتبع التطور السياسى . ولم يكن العرب — فى أول عهدهم — يعرفون العملة إلا فى يد تجار قريش[1] ، وإن عرفتها ممالكهم قبل الإسلام[2] ، مثـــل : اليمنيين واللخميين والنبط والغساسنة . ومع ظهور الدولة العربية بمجىء الإسلام ، فقد بقيت العملة المتداولة هى العملة التى كانت سائدة فى الأقطار المفتوحـة ، تحمل نقوشاً بيزنطية أو فارسية أو لاتينية ، وإن نقش عليها أيضا — فى بعض الأحيان — العقيدة الإسلامية ، واسم الخليفة أو الأمير عامل الدولة العربية ، ولم تصبح عملة إســلامية صرفة إلا على يد عبد الملك بن مروان[3] ، الذى أمر أن تنقش بالعربية وحدها .

بعد هذه المصادر من الدرجة الأولى نذكر مصــدرين هامين فى تاريخ الدولة العربية قائمين بذاتهما : أحدهما القرآن ، والآخر الحديث ، فكلاهما جـــدير بالتخصيص ؛ لاحتوائهما على رسالة الإسلام من دين وتشريع .

---

(١) المقريزى ، النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ، طبعة Leyden ، ١٨٨٨ ، ص ٩ . ذكر ذلك بصدد التنافس التجارى بين الأمويين والهاشميين قبل الاسلام .

(٢) انظر . Catalogue of the Greek Coins of : Arabia, : Hill Mesopotamia and Persia (British Museum) London 1922 .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٧ س ١٠ — ١٤ ؛ Catalogue, : Lavoix des monn. musul. de la Bibl. Nat. khalifes Orientaux t. 1. Paris1887, Préf.pIV, 59 - 131 (59 - 552) لدينا فصول قيمة عن تاريخ العملة الإسلامية بما فيها عملة الدولة العربية من تأليف المؤرخين : البلاذرى وابن خلدون والمقريزى والقلقشندى وغيرهم (انظر . انستـاس مارى ، النقود الإسلامية وعلم النميات ، القاهرة ١٩٣٩ ؛ Sauvaire : Matériaux pour servir à l'histoire de la numismatique et de la metrologie musulmanes. Paris 1882) . أما عن قوائم النقود وصورها فتوجد فى كتاب Lavoix انظر .

فالقرآن : هو الكتاب العربي[١] المقدس ، ظهر في السنين الأولى من الهجرة، وإن كان جمعه النهائي تأخر إلى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (٢٣ — ٣٥ / ٦٤٤—٦٥٦) ؛ الذي جمعه على أساس طول السور وقصرها ، وليس بحسب ترتيبها التاريخي[٢] . وتظهر أهمية القرآن التاريخية في أنه يبين تطور دعوة النبي[٣]، ويشير في مناسبات عديدة إلى الدور الذي قام به الرسول في تكوين الدولة الإسلامية ؛ بحيث أن كل سورة فيه تذكر بفترة معينة في حياته أو حادثة[٤] . وفوق ذلك تضمن القرآن معلومات هامة عن الجاهلية وأخبار دولها — أيدتها الاكتشافات الأثرية الحديثة[٥] — بحيث لدينا سورة على اسم مملكة في جنوب الجزيرة قبل الإسلام اسمها : «سبأ »[٦] ؛ بل إن بعض أسلوبه يوافق ألفاظ وتصور الجاهلية[٧] . ولكن لما بعد المسلمون عن عهد النبي أصبحوا في حاجة ملحة إلى

---

(١) بقي القرآن زمناً لم يحاول أحد ترجمته ، وترجم في أوربا لأول مرة باللاتينية على يد الأب Cluny (١٠٩٢ — ١١٥٦ م) ، بقصد الدعاية ضد الإسلام . وقد كان اهتمام الجمهور الأوربي بمعرفة محتوياته سبباً في أن وجد في القرن ١٧م أكثر من خمس ترجمات له في فرنسا وهولندا وانجلترا والمانيا ، ولكن في القرن ١٩ م كثرت الترجمات له في كل بقاع الأرض ، وامتدت حتى الهند . بل إن المسلمين أنفسهم مثل الفرس والترك ترجموه إلى لغاتهم الأصلية .

انظر . Introduction au Coran, Paris1947. p.VII—XIX: Blachère

(٢) انظر القرآن حيث نجد في أوله سوراً مدنية وأخرى مكية . ولقد حاول بعض المستشرقين في ترجمتهم للقرآن ترتيب سوره ترتيباً تاريخياً على حسب نزولها . انظر. مثلا: Blachère:
La Coran. Traduction selon un essai de reclassement des sourates, 3vol. Paris 1949—1951 (وهو أربعة أجزاء بالمقدمة) ؛ Bell : The Qur'ân. Translated, with a critical rearrangment of the Surahs, 2 vol. Edinbourg. 1937 — 1939.

(٣) انظر . Gibb : La Structure de la Pensée religieuse de l'Islam, traduit de l'Anglais par Félix Arin, Paris 1950, p. 20 .

(٤) انظر . هيكل ، حياة محمد ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١٨ .

(٥) انظر . جرجي زيدان ، كتاب العرب قبل الإسلام ، القاهرة ١٩٠٨ ، ١ ص ١٠ . (فصل المصادر الكتابية) .

(٦) سورة (٣٤) وهي مكية إلا آية (٦) فمدنية .

(٧) القرشي ، جمهرة أشعار العرب ، بولاق ١٣٣٨ هـ ، ص٣ — ٤ ؛ انظر. طه حسين ، في الأدب الجاهلي ، القاهرة ١٩٢٧ م ، ص ٧٠ .

توضيح ما يغلق عليهم من معانى القرآن وتعابيره ، مما كان سبباً فى ظهور علم «التفسير»[١] ، بحيث أن الكتب[٢] التى ألفت فى هذا العلم تلقى لنا — هى الأخرى — ضوءاً ساطعاً على مضمونه ؛ وتفيد فى السرد التاريخى .

أما الحديث ، فيقصد به أقوال النبى وأفعاله[٣] التى نقلت عنه فى مناسبات عديدة بالرواية الشفوية[٤] ، أو من صحائف[٥] قديمة دونت فيها . ومع أن الحديث قد دون فى وقت متأخر ، وذلك فى أواخر القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى — بعد سقوط الدولة العربية — إلا أنه يعتبر من أصح المصادر فى تاريخ القرنين

---

(١) السيوطى ، كتاب الأتقان فى علوم القرآن ، الطبعة الثالثة ، مصر ١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ ، ١ ص ٤ ؛ ٢ ص ٢٩٤ ؛ انظر . Geschichte, des : Nöldeke Qorâns, Göttingen 1860, p. xxvii sqq.

(٢) انظر . الطبرى (م ٣١٠ / ٩٢٣) ، جامع البيان فى تفسير القرآن ، ٣٠ جزءاً ، القاهرة ١٣٢١ هـ /١٩٠٣ ؛ وطبعة دار المعارف ، ظهر منها جزءان ؛ البغوى (م ٥١٦/ ١١٢٢) ، معالم التنزيل ، جزءان ، طبعة بومباى ١٣٠٩/١٨٩١ ؛ الزمخشرى (م ٥٢٨/ ١١٣٤) ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٦٥/١٩٤٦ ؛ وتحقيق Lees ، طبعة كلكتا ١٨٥٦ ؛ الرازى «فخر الدين» (م ٦٠٦/ ١٢٠٩) ، التفسير الكبير ، ٦ مجلدات ، القاهرة ١٢٧٨ / ١٨٦٢ ؛ البيضوى (م ٦٨٥ / ١٢٨٢) ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، جزءان ، بولاق ١٢٨٢ — ١٢٨٣/١٨٦٥ — ١٨٦٦ ؛ وتحقيق Fleischer ، جزءان ، طبعة Lipsiae ، ١٨٤٦ — ١٨٤٧ . انظر أيضا ما كتبه : Barth ؛ Geschichte des Qorâns. p. xxvi. sqq : Nöldeke Studien zur Kritik und Exegese des Qorans Strassburg 1915.

(٣) انظر . حاجى خليفة ، ١ ص ٤٢٢ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Hadîth) t2, p. 201.

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ص ٣٤٩ ؛ انظر . Le dogme et la loi de l'Islam, trad. Felix, : Goldziher Paris, 1920. p. 33.

(٥) اليعقوبى ، تاريخ ، تحقيق Houtsma ، طبعة Lugduni Batavorum ، ٢ ص ١١٤ — ١٢٨ ؛ انظر . Etudes sur la tradition islamique. : Goldziher Extrait du tome II des "Muhammedanische Studien", traduites par Léon Bercher, Paris 1952, p. 10 — 11.

الأولين فى الإسلام[١]، بسبب الدقة التى اتبعت فى نقله: فقد كانت الأحاديث تروى عن طريق سلسلة الحفاظ أو ما يعرف «بالسند» أو «الإسناد»[٢]، حتى تصل إلى النبى أو إلى السلف[٣] الأول من الصحابة أو التابعين أو تابعى التابعين؛[٤] وقد استحدثت هـذه الطريقة حتى يطمئن جامعو الحديث إلى صحتها. ويعرف الحديث باسم آخر هو «السنة»[٥]، أى ماتعود عليه المسلمون Usus، وإن كان الشيعة يسمونه «بالأخبار»[٦]، حيث أن الأحاديث لا تنتقل عندهم بالسـند من الحفاظ الموثوق بهم، وإنما عن أئمة الشيعة وحدهم. ويبدو الحديث فى مظهره أنه مصدر فقهى أكثر منه تاريخى[٧]، إلا أنه يعيننا على فهم حقائق كثيرة فى تاريخ الدولة العربية، ويربط لنا حلقات مفقودة من حكم الخلفاء الأوائل[٨].

---

(١) انظر. Gold : Etudes, p. 6.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٥٢ س ١١؛ انظر. Gold Etudes, p. 6.

(٣) انظر. Gold : Etudes, p. I.

(٤) انظر حاجى خليفة، كشف الظنون، ١ ص ٤٢٣؛ انظر أيضا. Ency. de l'Islam (art Hadîth) t 2. p. 201.

(٥) ابن خلدون المقدمة، ص ٣٥٠—٣٥١. ؛انظر. Gold : Etudes, p. 3sqq; 13sqq ؛ Lamairesse et Dujarric : Vie de Mahomet, d'après la Tradition, Paris 1897, Ip. 50.

(٦) النعمان، دعائم الإسلام، تحقيق فيضى، القاهرة ١٩٥٠، ١ ص ٦١.

(٧) انظر. Blachère : Le Problème de Mahomet, Paris 1952, p.7.

(٨) انظر. Wellhausen : Das arabische Reich und sein Struz. Berlin 1902. trad. angl. Graham Weir : The Arab Kingdom and its Fall. Calcutta 1927. Préf. XIII.

عن متون الحديث، انظر. مالك (م ١٧٩/٧٩٥)، الموطأ، ١٣٠٧ هـ؛ البخارى (م ٢٥٦/٨٧٠)، صحيح، ٤ أجزاء، القاهرة ١٢٧٨/١٨٦١؛ مسلم (م ٢٦١/٨٧٥)، الجـامع الصحيح، مجلدان، بولاق ١٢٩٠/١٨٧٣؛ ابن ماجـه (٢٧٣/٨٨٦)، السنن، مجلدان، القاهرة ١٣١٣/١٨٩٥؛ أبو داود (٢٧٥/٨٨٨)، كتاب السنن، القاهرة ١٢٨١/١٨٦٤؛ الترمذى (م ٢٧٩/٨٩٢ — ٨٩٣)، جامع الصحيح، مجلدان، بولاق ١٢٩٢/١٨٧٥؛ النسائى (م ٣٠٣/٩١٥)، السنن، مجلدان، القاهرة ١٣١٢/١٨٩٤. وفوق ذلك لدينـا عـدة شروح للبخارى ومسلم منها: النووى (م ٦٦٧/١٢٦٨)، شرح مسلم، على هامش كتاب القسطلانى (م ٩٢٣/١٠٥١٧)، ارشاد السارى لشرح صحيح البخارى، ١٢ جزءاً، مصر ١٣٢٦ هـ؛ العسقلانى (م ٨٥٢/١٤٤٩ =

بعد القرآن والحديث نرجع إلى المصادر الأصلية ، ونقصد بها النتاج الأصلي من الكتب لمؤرخي الدولة العربية ، ينقلون فيها حوادث معاصرة ، أو يعتمدون على مصادر معاصرة ليس من السهل الرجوع إليها[١] . ولكن هذا الانتاج الأصلي — مع أهميته — يجب أن نأخذه بحذر شديد ؛ لأن معظم ماوصلنا منه عن تاريخ الدولة العربية يعتمد على الرواية الشفوية — وهو طابع أولي لكتابة التاريخ الإسلامي — لتأخر التدوين حتى العصر العباسي بسبب طبيعة العرب البدوية التي كانت تميل إلى الحفظ أكثر من التدوين[٢]. ولكي يطمئن المؤرخون الأوائل إلى صحة الرواية الشفوية التجأوا كجامعي الحديث إلى الأسانيد[٣]: بأن كل حادثة تاريخية تكون مسبوقة برواتها الذين كان بعضهم أيضا من رواة الحديث[٤] ، لذلك كان يطلق على المؤرخين الأوائل: «أصحاب الأخبار»[٥] أو «اخباري»[٦] أو « راوية »[٧] ؛ لقصدهم جمع الأخبار . ومع أن معظم الرواية الشفوية وصلتنا

= فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ١٣ جزءاً ، مصر ١٣٤٨ / ١٩٢٩ ؛ العيني (٨٥٥ / ١٤٥١) ، عمدة القارىء في شرح صحيح البخاري ، ١١ جزءاً ، طبع القسطنطينية ، ١٣٠٩ — ١٣١٠ هـ / ١٨٩١ — ١٨٩٣ . ولتسهيل البحث عن الاحاديث انظر الكتاب الحديث : فنسك ، مفتاح كنوز السنة ، معجم مفهرس تفصيلي نقله إلى العربية فؤاد عبد الباقي ، القاهرة ١٣٥٣ / ١٩٣٤ .

(١) ماجد ، مقدمة ، ص ٣١ .

(٢) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ١ ص ٢٦ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٥٢ — ٤٥٣ .

(٤) مثل : وهب بن منبه (م ١١٤/ ٧٣٢) . انظر. ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، بولاق ١٢٧٥/ ١٨٥٩ ، ٢ ص ٢٦٧ — ٢٦٨ ؛ أو علي بن محمد المدائني (م٢٢٥/ ٨٤٠) انظر . ياقوت ، معجم الأدباء ، ١٤ ص ١٢٤ — ١٣٩ ؛ انظر . Sauvaget : Introd, p. 30.

(٥) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، تحقيق Brockelmann ، طبعة Berlin ، ١٩٠٠ ، ٤ ص ٧١ س ٤ .

(٦) السخاوي ، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، دمشق ١٣٤٩ هـ ، ص ٤٨ ؛ النويري ، نهاية الأرب ، طبعة دار الكتب ١٩٢٣ ، ١ ص ٣٧٤ س ٦ ؛ انظر . العبادي ، التاريخ عند العرب ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٥٧ .

(٧) ابن النديم الفهرست ، ص ٣ .

فى اسلوب شعرى أو قصصى أو أساطير ، فقــد كان من حسن الحظ أن العرب كانوا أحفظ من غيرهم(١) ، فوصلنا من تاريخهم الشىء الـكثير . ومن ناحية أخرى يجب الحذر فى تلقى هذه الروايات لأن معظم الـكتب عن الدولة العربيــة وصلتنا من العهد العباسى ، الذى كان فى عداء مع العرب . وعليه فإن مؤرخ الدولة العربية الحديث عند اطلاعه على الـكتب الأصلية مضطر إلى تقبل تـكرار أسماء الرواة وتحرى صحة الحقيقة التاريخية بنفسه ، لأن قصد مؤرخى الإسلام الاوائل لم يكن غير استيعاب الأخبار ، والمحافظة على كيفية اتصـالها(٢) . ومع ذلك فإن الـكتب الأصلية هى الأساس الذى يعتمد عليه مؤرخ الدولة العربية الحـديث ، لـكثرتها وتنوع موضوعاتها .

فنعتمد على الـكتب التى ألفت فى السيّرة النبوية ، وبخاصة الـكتاب المشهور باسم : « سيرة ابن هشام » أو « سيرة سيدنا محمد رسول الله »(٣) ، من تأليف أبى محمد عبـــد الملك بن هشام (م ٢١٣/٨٢٨ أو ٢١٨/٨٣٤(٤)) . ومع أننا لا نعلم كثيراً عن حياة هذا المؤرخ القديم غير أنه من البصرة ، وأنه من كبار المحدثين ، فـكتابه هو أول كتاب تاريخى متصل وصلنا عن سيرة النبى وتاريخ العرب قبل الإسلام ، لذلك نجده يعتمد غالباً فى نقل أخباره على الرواية

(١) حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ١ ص ٢٦ ؛ انظر. الالوسى ، بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، الطبعة الثانية ١٣٤٢/١٩٢٤ ، ١ ص ٣٨ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢ و ٣ و ٧ فما بعدها .

(٣) لدينا طبعات متعددة ، وستـكون طبعتنــا المختارة من تحقيق Wüstenfeld ، فى Göttingen ، ١٨٥٩ . ولأهمية سيرة ابن هشام تناولها المؤلفون بالشرح والتعليق ، مثل: أبى الحسن الخثعمى (م ٥٨١ / ١١٨٥) ، كتاب الروض الأنف فى تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة النبوية لابن هشام ، فى جزئين ، طبعة القاهرة ١٣٣٢ / ١٩١٤ ؛ وكذلك أبى ذر بن مسعود الخشنى (م ٦٠٤ / ١٢٠٧) ، شرح السيرة النبوية ، تحقيق Bronnle ، فى جزئين ، طبعة القاهرة ١٣٢٩ / ١٩١١ .

(٤) وفيات ، ١ ص ٤١١ — ٤١٢ .

الشفوية . وهذا الكتاب — كما يبدو — ليس إلا مختصراً لكتب ضاعت ولم تصلنا ، وبخاصة من تأليف أبي عبد الله محمد بن اسحق (م ١٥٠ أو ١٥١/٧٦٧ — ٧٦٨)[١] ، الذى كان أول من ألف فى سيرة النبي ؛ بناء على طلب الخليفة العباسي المنصور ، واستحق بذلك تسمية ابن خلدون له بالأستاذ[٢] .

ونعتمد أيضا على ما ألفه المؤرخون الاوائل فى المغازى والفتوح ، وقد لقى هذا النوع من التاريخ اقبالا شديداً منهم ؛ لما فيه من دلالة على قوة الإسلام ، ولدينا منه عدة كتب هامة . ولعل أقدم من ألف فيه هو أبو عبد الله محمد المعروف بالواقدى[٣] ، فنعرف عنه أنه ولد فى أول سنة ١٣٠/٧٤٧ ، وتولى القضاء فى بغداد فى عهدى هارون والمأمون ، وتوفى فى سنة ٢٠٦ أو ٢٠٧/٨٢١ أو ٨٢٣ . ولقد صنف الواقدى فى موضوعات عديدة ، أخصها المغازى والفتوح ، حتى قيل : إن ما خلفه من كتب عند موته يملأ ستمائة قمطر كبير[٤] ، وإن كانت قد ضاع معظمها . أما ما بقى منها فهو قليل مثل كتاب : « التاريخ والمغازى والمبعث »[٥] ، وإن كان من العجيب حقاً أنه لا يذكر فى مراجعه سلفه ابن اسحق كما فعل ابن هشام[٦] . أما تلك الكتب التى تحمل اسمه ، وربما تكون من تأليفه ؛ حيث أن ابن النديم

---

(١) نفس المرجع ، ١ ص ٦٨٩ — ٦٩٠ ؛ انظر . Fück : Muhammad Ibn Ishâq. Frankfort-sur-Mein 1925.

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٥ س٩ ؛ ١١ .

(٣) وفيات ، ١ ص ٧٢٢ — ٧٢٣ ؛ الفهرست ١ ص ٩٨ — ٩٩ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك (بعنوان : Annales) ، تحقيق De Geoje ، سلسلة ٣ ص ١٠٣٧ ؛ انظر . Ency de l'Islam (art. al-Wâkidî) t. 4 p. 1163 — 1164

(٤) الفهرست ، ١ ص ٩٨ .

(٥) حققه Kremer ، طبعة Calcutta ، ١٨٥٦ ؛ وترجم إلى الألمانية Wellhausen ، بعنوان : Muhammed in Medina, Berlin 1882.

(٦) انظر . Horovitz : De Wâqidû libro qui Kitâb al-Maghâzî Inscribitur Commentatio Critica quam, Scripsit. Berolini 1898, p.9 ; Ency. de l'Isl. t. 4, p. 1164.

قد ذكر بعضها ، فهى عديدة وأهميتها كبرى فى تاريخ فتوح الدولة العربية ، مثل: « فتوح الشام » و « فتوح مصر » و « فتوح إفريقيــة » و « فتوح الجزيرة » . وعلى العكس لدينا كتاب آخر عن « فتوح الشام » — يشبه كتاب الواقدى — من تأليف أبى إسماعيل بن عبد الله الأزدى ، الذى لا يذكره مؤرخو المعاجم أمثال ابن خلكان وياقوت ، وإن حاول محققه أن يجعل وفاته فى سنة ٧٩٤/١٧٨[١] . فهل يكون هو مؤلف كتب الفتوح السابقة أو أيضاً قد يكون ابن اسحق ، الذى يحمل كتاب « فتوح مصر »[٢] اسمه ، وليس اسم الواقدى ! !

ونذكر من كتب الفتوح أيضا : « فتوح مصر والمغرب والأندلس » من تأليف عبد الرحمن بن عبد الحكم (م ٨٧١/٢٥٧)[٣] ، الذى يعتبر أول مؤرخ عربى لمصر ، إذ ولد بالفسطاط فى أسرة عرفت بنشاطها الأدبى والدينى . وتبدو أهمية هذا الكتاب فى أنه يتناول تاريخ مصر منذ القدم ، ويعرض بإسهاب لفتح العرب مصر ، وتنظيمها المالى فى عهد الإسلام الأول ؛ ولذلك يعتبر المرجع الأول لمؤرخى مصر المتأخرين كالسيوطى والمقريزى .

وأخيراً نذكر الكتاب النفيس : « فتوح البلدان » من تصنيف العالم الفارسى أحمد بن يحيى البلاذرى (م٨٩٢/٢٧٩)[٤] ، الذى كان من خاصـــة الخليفتين العباسيين المتوكل والمعتمد . ففيه ينقل البلاذرى بالرواية المسـندة أخبار حروب النبى مع اليهود ، وحرب الردة ، وفتوح العرب فى سوريا ، والجزيرة وأرمينيـة

---

(١) الأزدى ، فتوح الشام ، تحقيق W. N. Lees ، طبعة Calcutta ، ١٨٩٤ (انظر . Preface, p. III ; v)

(٢) انظر. طبعه القاهرة ١٢٧٥ هـ .

(٣) انظر. وفيات، ١ ص٣٥٢ ؛ Ency. de l'Isl. (art Ibn'Abd al Hakam) t. 2, p. 375.

(٤) ياقوت ، معجم الأدباء ، طبعة رفاعى ، ٥ ص ٨٩ — ١٠٢ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art al-Baladhori) I, p. 624 — 625 . إسمه مشتق من حب البلاذر ، وهو مادة مخدرة يقال إنها تسببت فى موته .

ومصر والمغرب وفارس . ويقول المسعودى الجغرافى (م ٣٤٥/٩٥٦) عن هـذا الـكتاب — الذى يعتبر مختصراً لـكتاب كبير آخر — إنه : « لايعلم فى فتـوح البلدان أحسن منه »[١].

كذلك تتناول من الإنتاج الأصلى ما ألفه المؤرخون القـدامى فى موضوع الطبقات والأنساب ، ويقصدون به تاريخ الارستقراطية العربية على حسب طبقاتها أو أنسابها . فنذكر « كتاب الطبقات الـكبرى » لمؤلفه محمد بن سعد (م ٢٣٠ /٨٤٥)[٢] ، وهو أشبه بدائرة المعارف لسيرة النبى ومغازيه ، وللخلفاء الراشدين والأمويين وغيرهم حتى عهده . ويظهر أن ابن سعد — وهو معاصر للواقدى — قد أخذ كثيراً عنه ، ولذلك يسمى — أحيانا — بكاتب الواقدى ؛ بل إنه سمى مؤلفه على اسم كتاب للواقدى يعرف أيضا : « بطبقات الواقدى »[٣].

ونذكر كتاب « أنساب الأشراف » للبلاذرى ، وهو لايقل قيمة عن كتابه السابق فى الفتوح ، حيث يتناول تاريخ الارسـتقراطية العربية[٤] ، فى جاهليتها واسلامها إلى القرن العباسى الأول . وهو لايرتبـه على حسب سنى الهجرة ، بل يسوقه على شكل قصص يتناول تاريخ الشخصية وأسرتها بالرواية الشفوية ؛ وقد استأثرت فيه أخبار بنى أمية بأكثر من الثلث . ولسوء الحظ ضاع الجزء الأكبر منه[٥] ، ولم يصلنا غير الجزء الخامس الذى يروى فيه سـيرة الخليفة عثمان وأولاده وعبد الله بن الزبير[٦] . وكذلك لدينا مصنّـف مجهول عبـارة عن الجزء الحادى عشر ، وهو — ولا ريب — جزء من كتاب أنسـاب الأشراف يعرض

(١) المسعودى، مروج الذهب، تحقيق وترجمة Barbier de Meynard وPavet ، طبعة Paris ، ١٨٦١ — ١٨٧٧ ، النص العربى ، ١ ص ١٤ .

(٢) الفهرست ، ص٩٩ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (Ibn Sa'd) 2, p. 439

(٣) الفهرست ، ص ٩٨ .

(٤) انظر . Sauvaget : Historiens Arabes. Paris 1946, p. 15

(٥) يقول Becker إن هذا الـكتاب يوجد كاملا فى القسطنطينية . انظر .
Ency. de l'Isl. t. I, p. 625.

(٦) أنساب الأشراف ، تحقيق Goïtein ، الجزء الخامس ، طبعة القدس ١٩٣٦ .

فيه لسيرة مصعب بن الزبير إلى عهد الحجاج[١] . فأهمية كتاب البلاذرى أنه يتناول مرحلة حاسمة فى تاريخ الدولة العربية .

ونستعين أيضا بكتب الأخبار والتاريخ ، وهى أشبه بصحف الأخبار ، يغترف منها الباحث أخباراً عديدة ، قد تصل أحياناً إلى حد التناقض ، منقول أغلبها عن طريق الرواية الشفوية ؛ كما يحمل معظمها طابع التآليف الإسلامية الأولى فى التاريخ ، بربط تاريخ النبى بآدم ، تقليداً للقرآن فى ذلك ؛ ونذكر منها الكتب الآتية :

كتب أبى مخنف (م ١٥٧/٧٧٤)[٢] ، وهو الذى ينقل عنه معظم مؤرخى الإسلام القدامى ، ويُعتبر أحد رواة التاريخ المشهورين ، وكل ما نعرفه عنه أنه ولد فى سنة ٨٢/٧٠١ بالكوفة ، وأنه على حسب ملاحظة ابن النديم تخصص فى جمع أخبار الدولة العربية : من فتوح وحوادث . وقد ضاعت معظم كتب أبى مخنف ، وإن وصلتنا بعض نتف منها فى كتب المؤرخين المتأخرين ، كما بقى لنا كتابان يحملان اسمه ذكرهما ابن النديم ، وهما : « كتاب مقتل الحسين عليه السلام » و « رسالة أخذ الثار وانتصار المختار على الطغاة الفجار »[٣] ، وكلاهما يتناول ظروف الإسلام السياسية فى عهد الأمويين[٤] ، ويدلان على أن أبا مخنف كان من الشيعة المتحمسين للعلويين .

---

(١) حققه Ahlwardt ، طبعة Greifswald ، ١٨٨٣ ؛ انظر . Brockelmann : Geschichte der Arabischen Litteratur. (GAL) Weimar 1898. I, p. 142.

(٢) الفهرست ، ص ٩٣ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Abû Mikhnaf) GAL. I, p. 65. : Brock ؛ I, p. 103.

(٣) يذكر ابن النديم عنوانا آخر هو : « كتاب المختار بن أبى عبيد » ، انظر . الفهرست ، ص ٩٣ . وقد نشر محمد الشيرازى الكتابين ، طبعة بومباى ، ١٣٦١ هـ

(٤) انظر . Well : The Arab King. Pref X — XI.

ثم كتاب أبي المنذر هشام بن الكلبي الأخباري (م٢٠٤/٨١٩أو٢٠٦/٨٢٢)[١]، المعروف باسم . « كتاب الأصنام » ، وتبدو أهمية هذا الكتاب في أنه المصنف الوحيد الهام الذي بقي لدينا من كتب عديدة يذكرها ابن النديم في حوالي أربع صفحات من كتاب الفهرست ، وهو يتناول بالتفصيل الحياة الدينية للعرب قبل الإسلام ، فيذكر أصنام القبائل المختلفة في الجزيرة العربية ، بحيث يعتبر المرجع الأصلي في هذا الموضوع .

ثم أيضا كتاب « الأخبار الطوال » لأبي حنيفة الدينوري (م٢٨٢/٨٩٥)[٢]، وفيه نجد صفحة من تاريخ الإسلام في القرنين الأولين بعبارات مختصرة ، وإن أطنب المؤلف على الخصوص عند التحدث عن أخبار فارس قبل الإسلام ، وفتح العرب لها ، وظروف سقوط الدولة الأموية ، وقيام الدولة العباسية على أكتاف الفرس ، ولا ريب فقد كان الدينوري فارسياً يؤرخ لوطنه .

ثم كتاب «التاريخ الكبير» لأحمد بن جعفر بن أبي يعقوب بن واضح الأخباري العباسي (م ٢٨٤/٨٩٧)[٣] ؛ وفيه نجد نبذاً قيمة عن أخبار الجاهلية وشعرائها وأسواقها ، وتاريخ الأمم السابقة على الإسلام حتى سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢ . ويظهر جلياً من ثنايا سطور هذا الكتاب أن اليعقوبي شيعي ، وإن لم يجرؤ على إعلان ميله للعلويين خوفاً من العباسيين .

ثم الكتاب المعروف : « تاريخ الأمم والملوك » لمؤلفه العالم محمد بن جرير الطبري (م ٣١٠/٩٢٣)[٤]، الذي اشتهر بذاكرته القوية ، ودأبه الذي لا يكل

---

(١) الفهرست ، ص ٩٥ — ٩٨ ؛ ياقوت ، معجم الأدباء ، ١٩ ص ٢٨٧ — ٢٩٢ ؛ تصدير كتاب الأصنام ، تحقيق زكي باشا ، القاهرة ١٩١٤ ؛ انظر . Ency. d'Isl. (art al-Kalbî) 2, p. 730 — 731.

(٢) الفهرست ، ١ ص ٧٨ ؛ انظر . Ency. de l'Isl (art al-Dînwarî), 1, p. 1004 — 1005.

(٣) ياقوت ، معجم الأدباء ، ٥ ص ١٥٣ — ١٥٤ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art al-Ya'kûbî) 4, p. 1215 — 1217.

(٤) وفيات ، ١ ص ٦٥١ ؛ انظر . Sauvaget : Historiens arabes, Paris. 1946. ,p. 18. ؛ Ency. de l'Isl. (art al-Tabarî), t. 4 p. 607—8

فى جمع الأخبار التى تتصل بالبشر منذ خلق آدم حتى عصره ، على ترتيب السنين ، سواء أكان بالرواية الشفوية ، أو من كتب المتقدمين أمثال : ابن اسحق وأبى مخنف والواقدى والمدائنى[1] . ومع أن معظم مصادر الطبرى من العراق ، إلا أنه اتخذ موقف المؤرخ المحايد الذى غرضه استيعاب الأخبار ، والمحافظة على صحتها من أفواه الرواة .

ثم الكتاب الممتع : « العقد الفريد » من تأليف أبى عمر بن عبد ربه[2] (م ٣٢٨/٩٤٠) ؛ حيث نجد فيه روايات تاريخية عديدة ، رتبها المؤلف فى فصول من اختياره كالعقد ، تتناول أخبار العرب فى الجاهلية والإسلام ، مع عرض موجز لسير الخلفاء الأوائل .

ثم كتاب : « الكامل فى التاريخ » لأبى الحسن علىّ المعروف بابن الأثير[3] (م ٦٣٠ / ١٢٣٣) ، وهو المؤرخ الذى كرس حياته لكتابة تاريخ كامل للإسلام حتى عصره ، وعرف بحصافته فى تحرى الأخبار ونقلها ، وإن رتبها كالطبرى على نظام الحوليات ، وبدأها بالتكلم على تاريخ البشرية منذ أول الزمان . وهذا الكتاب — كما يقول ابن خلكان — من خيار التواريخ ، ويحتوى على مادة قيمة لتاريخ الجاهلية والإسلام .

ثم كتاب : « المختصر فى أخبار البشر[4] » من تأليف إسماعيل بن علىّ الملقب بأبى الفداء (م ٧٣٢/١٣٣١) ، وهو تاريخ مطول للأمم حتى سنة ٧٢٩/١٣٢٩ . ولا يهمنا منه غير الجزء الذى يتناول فيه تاريخ العرب فى الجاهلية ، وسيرة النبى وسيرّ الخلفاء حتى سقوط دولة بنى أمية .

---

(١) جواد على ، موارد تاريخ الطبرى ، فى مجلة المجمع العلمى العراقى ، عدد ٢ ، ١٩٥٢ ، ص ١٣٥ — ١٩٠ ؛ عدد ٣ ، ١٩٥٤ ص ١٦ — ٥٦ .

(٢) وفيات ، ١ ص ٤٥ — ٤٦ .

(٣) نفسه ، ١ ص ٤٩٤ — ٤٩٥ .

(٤) حققت أجزاء هذا الكتاب وترجمت فى أوربا منذ عهد مبكر ، فالجزء الخاص بالعصر الجاهلى حققه Fleisher وترجمه بعنوان : Abulfedae historia anteislamica, Leipzig 1831.

كذلك حققت منه سيرة النبى وترجمت إلى اللاتينية والفرنسية والانجليزية . انظر .
Ency. de l'Isl. (art Abu'l-Fidâ') I, p. 88.

ثم كتاب : « العبر وديوان المبتدأ والخبر » للعلامة عبد الرحمن أبى زيد بن خلدون (م٨٠٨/١٤٠٦[١]) ، وفيه أخبار العرب والشعوب الأخرى وبخاصة البربر ، ومقدمة هذا الكتاب تحتل مكانة خاصة فى تاريخ الدولة العربية ، بسبب أن ابن خلدون لم يعرض فيها التاريخ كسابقية من المؤرخين ، وإنما فلسف ظروف المجتمع العربى منذ نشأته ، وتتبع تطوره ونظامه فى الإسلام ، مما جعلها مرحلة حاسمة فى تطور منهج[٢] علم التاريخ .

ثم كتاب لمؤلف مجهول بعنوان : « العيون والحدائق فى أخبار الحقائق »[٣] ، يظهر أنه الجزء الثالث من كتاب تام ، يتناول تاريخ الخلفاء من عهد الوليد حتى المعتصم ، أى من سنة ٨٦ إلى ٢٢٧ / ٧٠٥ — ٨٤٢ . والواقع أن أهمية هذا الكتاب كبيرة جدا ؛ لجمعه مادة تاريخية منظمة عن الخلفاء الأمويين الأواخر ، وثورات الخوارج فى عهد كل منهم .

وأخيراً نشير إلى عدة كتب لها قيمتها فى نقل أخبار الدولة العربية ، مثل : كتاب « البيان المغرب فى أخبار المغرب » لابن عذارى (حوالى القرن السابع/١٣) ؛ و« تاريخ دول الإسلام » لشمس الدين أبى عبد الله الذهبى (م ٧٤٨/١٣٤٨[٤]) ؛ و « نفح الطيب » للمقرى (م ١٠٤١ / ١٦٣٢) .

ثم تصانيف مفيدة فى الترجمة للأشخاص تتناول تاريخ حياة الأشخاص وأنسابها ، منها : كتابا أبى الفرج جمال الدين الملقب بابن الجوزى[٥] (م ٥٩٧ / ١٢٠٠) : « مناقب عمر بن الخطاب » و « مناقب عمر بن عبد العزيز » ، فكلاهما

---

(١) انظر . Ency. de l'Isl. (art Ibn Khaldûn) 2, p. 418 —419

(٢) انظر . ماجد ، مقدمة ، ص. ٣٥ و ٨٧ .

(٣) سنستخدم نسخة de Goeje ، طبعة Brill ، ١٨٧١ ؛ وإن كان Juynboll و Anspach حققا فقط الجزء الخاص بالوليد وسليمان . انظر .

(٤) انظر . The Ta'rîkh al-Islam of adh-Dhahabî : De Somogyi J-R.A.S. Oct. 1932, p. 815 — 856.

(٥) وفيات ، ١ ص ٣٩٥ — ٣٩٦ .

يعرض لموضوع فى التاريخ يتناول الصفات المالية للخليفتين العربيين ، وإن كانا فى نفس الوقت يشتملان على معلومات هامة عن سياسة كل منهما .

ثم كتاب أبى الحسن علىّ بن الأثير (م ٦٣٠/ ١٢٣٣) : «أسد الغابة فى معرفة الصحابة» ، وهو لايقل قيمة عن كتابه السابق «الكامل» ، فهوأشبه بقاموس أبجدى لتاريخ الصحابة الذين أقاموا مع الرسول ، وهم خلق كثير ، إذ ذكر فيه ترجمة سبعة آلاف وخمسمائة صحابى ، ينقلها عن كتب سابقة لم تصلنا ككتاب علىّ بن منده مثلاً ، كمايستدرك مافات على من تقدمه ، وهو لايذكر فقط سلسلة «السند» كسابقيه ، وإنما أيضا ما يسميه فى المقدمة «باسانيد الكتب» ، ويشير إليها بحروف مختصرة كما نفعل الآن فى كتابة المراجع .

بعد ذلك نذكر كتباً مفيدة ،تتناول نظام الدولة العربية المالى وبعض النظم الأخرى ، وإن كان أغلبها يتناولها من الناحية النظرية أو الفقهية الصرفة ، مثل : « كتاب الخراج» لأبى يوسف (م ١٨٢ / ٧٩٨)[1] ، وهو كتاب ألف بناء على طلب الخليفة العباسى هارون الرشيد ، ويحتوى على معلومات هامة عن فتوح البلدان، وما يتعلق بها من نظام الخراج ؛ وكتاب آخر عن « الخراج» لأبى الفرج قدامة بن جعفر (حوالى ٣٣٧/ ٩٤٨)[2]، الذى وصف فيه مملكة الإسلام وما جاورها ، ونظام الثغور بحيث يعتبر المرجع الأول فى هذه الناحية ؛ وأخيراً كتاب : « الأحكام السلطانية » لأبى الحسن الماوردى (م ٤٥٠/ ١٠٥٨)[3]، وهو يعرض لنظم عديدة كالخلافة والقضاء والنظام المالى .

---

(١) الفهرست ، ص ٢٠٣ .

(٢) ياقوت ، معجم الأدباء ، ٧ ص ١٧٧ — ١٨٢ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Kudâmà) t. 2, p. 1158.

لم يتبق من كتابه غير الجزء الثانى ، الذى نشر فى مجموعة :

Bibliotheca Goegraphorum arabicorum éd. de Goeje, vol 6. Lugduni — Batavorum 1889.

(٣) انظر. Ency. de l'Isl. (art al-Mâwardî) t. 3 p. 477

ويجب أن نهتم بكتب ذات طابع ديني تتناول المشكلات الدينية في الدولة العربية ، وهي التي ظهرت نتيجة لتنوع المشارب لدى المسلمين ، واختلاف الثقافة. والواقع أن التأليف في العقائد والأديان أصبح موضوع دراسة مستقلة في كتب العرب ، فكان لهم فضل السبق في تدوينه ، قبل أن تعرفه أوربا بزمن طويل[١] . ومع ذلك فإن هذه الكتب متشابهة في منهجها من حيث : تعرضها للفرق الإسلامية أو للفرق المخالفة .

فنذكر منها كتاب « فرق الشيعة » للكاتب الفارسي الحسن بن موسى النوبختي[٢] (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) ، وهو يتكلم فيه عن فرق الشيعة على الخصوص منذ عهد علي بن أبي طالب — امام الشيعة — ويتعرض لجميع ظروف نشأتها ، ومعاداتها للأمويين ؛ وكتاب « الفرق بين الفرق » لأبي منصور ابن محمد البغدادي (م ٤٢٩/١٠٣٧) ، وقد جمع فيه كل الفرق الإسلامية وبين آراء كل منها ؛ وكتاب « الملل والنحل » للشهرستاني (م ٥٤٨/١١٥٣) ، حيث يذكر فيه كالكتاب السابق الفرق التي ظهرت في الإسلام ؛ وكتاب « الفصل في الملل والأهواء والنحل » لأبي محمد علي بن حزم (توفي حوالي ٤٥٦/١٠٦٤) ، وهو يضم بين دفتيه كل مايتعلق بفرق الإسلام والأديان المخالفة له كاليهودية والمسيحية والمجوسية ؛ وأخيراً كتاب « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » لفخر الدين الرازي (م ٦٠٦/١٢٠٩) ، حيث لايتناول فيه فقط بالعرض فرق المسلمين ، وإنما أيضا فرق الأديان الأخرى ، ويرتبها جميعا على حسب تواريخ ظهورها.

وفوق ذلك نجد أنه من القصور ألا نذكر في مصادرنا الأصلية كتب الأدب[٣] ، خصوصا التي ألفت في أوائل عصر التدوين ، وهي تحتوي على معلومات تاريخية هامة ، وهي عديدة منها :

(١) دراز : الدين . بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، القاهرة ١٣٧١ / ١٩٥٢ .

(٢) . وهي كلمة فارسية مركبة من « نو » بمعنى الجديد و « بخت » بمعنى الحظ ، أي الحظ الجديد . انظر . طبعة النجف ١٣٥٥/١٩٣٦ ، انظر المقدمة .

(٣) انظر . Sauvaget : Introd, p. 39 qq

كتب عمر بن بحر المعروف بالجاحظ[١] (م ٢٥٥/٨٦٨ — ٨٦٩) وهو أديب نقل إلينا كثيراً من الروايات التاريخية منها : كتاب « الحيوان » ويوهم اسمه أنه قد خصص للحيوان ؛ ولكنه يتناول طائفة من المعلومات الخاصة بالبلدان ، وبعض قضايا التاريخ عند العرب فى الجاهلية ؛ وكتاب « البخلاء » الذى يتكلم فيه على البخل عند العرب ، وينقل إلينا صورة عن حياتها الأولى حتى طعامها ؛ وكتاب « البيان والتبيين » الذى يفيدنا فى التعرف على بعض أحوال الجاهلية، وفيه نصوص كاملة لخطب النبى والخلفاء ؛ وكتاب « التاج » وفيه الاصطلاحات التى كانت فاشية بين العرب وأعيادهم ؛ وكتاب « المحاسن والأضداد » ، وقد ذكر فيه أشياء طريفة عن العرب ؛ وأخيرا مقالة قيمة أدلى فيها برأيه « فى معاوية والأمويين » منذ أن حدثت فتنة عثمان .

وتصانيف محمد عبد الله بن مسلم الدينورى الملقب بابن قتيبة[٢] (م ٢٧٦/٨٨٩) ، وهو من الأدباء المفيدين، حيث نقل إلينا فيها كثيراً من أخبار الدولة العربية ، منها : كتاب « عيون الأخبار » ، ويورد فيه كثيراً من الروايات التاريخية عن العرب فى الجاهلية والإسلام ؛ وكتاب « المعارف » وفيه ذكر لأخبار العرب وأيامها وأديانها ودويلاتها ، وأخبار النبى والخلفاء ، وهو يهتم بالأنساب على الخصوص ؛ وكتاب « الميسر والقداح » ، الذى يعتبر مرجعاً هاماً لتاريخ العرب الإجتماعى قبل الإسلام ؛ وكتاب « الإمامة والسياسة » وهو فريد فى بابه جمع فيه الأخبار ونوادر التاريخ فيما يتعلق بمسائل الإمامة وشروطها فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والدولة العباسية ، ويمتاز عن كتبه السابقة بطابعه

---

(١) المسعودى ، مروج ، ٨ ص ٣٣ فما بعدها ؛
انظر . خليل مردم ، الجاحظ . دمشق ١٩٣٠ ؛ Le Milieu Baçrien : Pellat et la Formation de Gâhiz, Paris 1953.

(٢) الفهرست ، ص ٧٧ ؛ وفيات ، ١ ص ٣٥٥ ؛ انظر. Ency. de l'Isl. (art Ibn Kutaïba) t 2, p. 423 — 4.
قتيبة تصغير قتبة وهى واحدة الأقتاب ، والأقتاب الامعاء فسمى بها ، وينسب بالدينورى لأنه أقام بالدينور فنسب إليها .

السيامى الصرف ؛ وأخيراً كتاب « الشعر والشعراء » ، وفيه ذكر شعراء الجاهلية وغيرهم وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم .

وأخيراً كتاب أبى الفرج علىّ بن الهيثم الأموى الكاتب المعروف بالأصفهانى[١] (م ٩٦٧/٣٥٦) المسمى : « الأغانى » ، وقد أفرده للأغانى العربية قديمها وحديثها ، وآثار وأخبار وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة، وقصص الملوك فى الجاهلية ، والخلفاء فى الإسلام ؛ فأهمية هذا الكتاب التاريخى الأدبى فى أنه يعرض للحياة الاجتماعية فى الجاهليه والإسلام . ومن ناحية أخرى لدينا من أبى الفرج الأصفهانى كتاب مفيد لا فى الأدب ولكن فى التاريخ اسمه « مقاتل الطالبين » ، يتناول فيه كل من قتل من الشيعة بأيدى الأمويين أو العباسيين .

ويجب أن نجعل مكاناً فى مصادرنا الأصلية لكتب الجغرافية[٢] ، وهى ذات قيمة كبرى فى تاريخ الدولة العربية ، لا تقل عن قيمة كتب التاريخ ذاتها، وذلك لأن أغلبها لا يقتصر على جغرافية البلاد من وصف وتضاريس ، ولكنه يعرض للحوادث ، وينقل الروايات التاريخية ، خصوصاً وأن أغلب الجغرافيين كانت له مؤلفات تاريخية أيضاً .

فنذكر من كتب أبى محمد الحسن بن احمد الهمدانى ويلقب بابن الحائك[٣] (م ٩٤٥/٣٣٤) ، الكتاب المسمى « صفة جزيرة العرب[٤] » الذى يصف فيه الجزيرة ، ويذكر أسماء بلادها ، وأوديتها وسكانها من القبائل ؛ وكتاب « الاكليل » ، الذى يصف فيه آثار اليمن فى العصر القديم ، وبقايا أبنيتها وقصورها وسدودها التى

---

(١) ياقوت ، معجم الأدباء ، ١٣ ص ٩٤ — ١٤٦ ؛ انظر . خلف الله ، صاحب الاغانى أبو الفرج الاصفهانى الراوية ، القاهرة ١٩٥٣ ؛ Ency. de l'Isl. (art Abu'l-Faradj) I, p. 87 — 88.

(٢) انظر . Sauvaget : Introd, p. 42 — 43.

(٣) ياقوت ، معجم الادباء ، ٧ ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

(٤) نشره وعلق عليه Müler ، طبعة Leiden ، ١٨٩١ .

شاهدها ؛ وللأسف لم تصلنا معظم أجزاء هذا الكتاب الأخير ، وإن وصلنا منه الجزء الثامن[١] على الخصوص ، الذى ينقل فيه — على ما يظهر — من كتاب يمنى قديم اسمه « التيجان »[٢] ، لوهب بن منبه اليمنى (م ١١٤ / ٧٣٢) .

ثم نذكر علىّ بن الحسن المسعودى (م ٣٤٥ / ٩٥٦)[٣] ، الذى يقارن بالرحالة Plinius (توفى فى ٧٩ م)[٤] ، بسبب حبه للاستطلاع مما جعله يرحل إلى فارس والهند وسوريا ومصر . وأهم كتبه « مروج الذهب »[٥] ، وهو كتاب جغرافى وتاريخى ، يعرض فيه لتاريخ العرب فى الجاهلية والإسلام ، وعناوين فصوله تدل على احساسه التاريخى ؛ وأما كتابه «التنبيه والاشراف» ، فهو أيضاً فى غاية القيمة لدراسة تاريخ الدولة العربية ، فبجانب موضوعاته الجغرافية البحتة عن : الأفلاك والرياح والفصول والأرض ، ينقل إلينا أخباراً قيمة عن البلاد التى فتحها المسلمون .

وأخيراً لدينا كتب متعددة من جغرافيين[٦] آخرين ، ينقل أغلبهم أخباراً مكرورة عند وصفهم البلدان ، مثل : ابن الفقيه (حوالى ٢٩٠ /٩٠٣) ؛ وابن خرداذبه (حوالى ٢٣٢/٨٤٦) ؛ والأصطخرى (حوالى ٣٤٠/٩٥١—٩٥٢) ، واليعقوبى (م ٢٨٤/٨٩٧) ؛ وابن حوقل (حوالى ٣٦٧/٩٧٧) ؛ و (المقدسى حوالى ٣٧٨/ ٩٨٨) ؛ وياقوت (م ٦٢٦ / ١٢٢٩) ، وهو الذى يعتبر كتابه « معجم البلدان » معجماً تاريخياً أيضا لحياة العرب ودولهم وممالكهم .

---

(١) سنستخدم هنا تحقيق نبيه فارس ، طبعة Princeton ، ١٩٤٠ .

(٢) نشر هذا الكتاب بحيدر آباد ، ١٣٤٧ هـ .

(٣) الفهرست ، ص ١٥٤ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (al-Mas'ûdî) 3, p. 457—8 ؛ انظر . Quatremère : Notice sur la vie de Masoudi. ext. du, J. A. IIIème Série. 1839, p. 1—30.

(٤) انظر . Mieli : La Science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale. Leiden 1939, p. 114.

(٥) وهو يعرف للأوربيين عادة باسم : "Les Prairies d'Or"

(٦) من الجدير بالذكر أن تواريخ وفاتهم غير معروفة بدقة ، والتواريخ المذكورة هى تواريخ تآليفهم .

كذلك يجب أن نهتم فى مصادرنا الأصليــة بالشعر العربى[١] ، وهو وإن لم يكن فى ذاته نصاً تاريخياً ؛ لأنه يذكر حوادث سطحية دون ربط بينها ، إلا أنه بالنسبة لتاريخ الدولة العربية يعتبر سجلاً معاصراً لأخلاق العرب وحياتهم وأخبارهم؛ لذلك نُقــل عن النبى قوله إنه : « ديوان العرب »[٢] . ولــكن من الطريف أن نذكر أن معظم ما وصلنا من شعر العصر الجاهلى من عمل البدو[٤] وليس من عمل الحضر ، بحيث أن شعراء المدن يعدون على الأصابع . وحتى بعد ظهور الإسلام لم تأفل دولة الشعر ، ولا عجب فى ذلك ، فخلفاء الدولة العربية — سواء أكانوا من الراشدين أو الأمويين — كانت لهم خصائص زعماء القبائل العربية ، بل أكثر من هذا كان معظمهم يقرض الشعر[٥] ويشجع الشعراء الذين أصبحوا ملازمين لهم كالظل فى المدينة[٦] وبخاصة فى الشام[٧] ؛ ولذلك جاءت أشـــعار العرب فى ظل الدولة العربية مباشرة بعد المعلقات ، بحيث أنها كانت مطابقة للشعر الجاهلى فى موضوعاته وأساليبه .

ومن الجدير أن نذكر أن معظم شـعر العصر الجاهلى أو الأموى وصلنا هو الآخر عن طريق الرواية الشفوية كالحديث والأخبار التاريخية ، وساعد على بقائه أيضاً تمتع العرب بذاكرة الحفظ[٨] . ولعل أهم ناقل للشعر هو حماد الراوية

---

(١) انظر . Sauvaget : Introd, p. 24 sq.

(٢) ابن رشيق ، العمدة ، القاهرة ١٣٥٣/١٩٣٤ ، ١ ص ١٣ ؛ انظر .
Nallino : La Littérature arabe des origines à l'époque de la dynastie umayyade. trad. Pellat Paris 1950, p. 63 — 64.

(٣) القرشى ، جمهرة ، ص ١٢ س ٢٥ ؛ انظر . جرجى زيدان ، كتاب تاريخ آداب اللغة العربية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٢٤ ، ١ ص ٨٤ .

(٤) جمهرة ، س ٣٤. نذكر منهم : المتلمس والمهلهل وامرأ القيس والسموءل وزهيراً وعنترة وتأبط شراً ... الخ .

(٥) جمهرة ، ص ١٠ س ٩ فما بعدها ؛ ابن رشيق ، العمدة ، ١ ص ١٩ فما بعدها .

(٦) يعرف شعراء الجاهلية الذين أدركوا الاسلام بالمخضرمين ، نذكر منهم : كعب بن زهير والنابغة والحطيئة. اليعقوبى، تاريخ، تحقيق Houtsma ، ١٨٨٣، ١ ص٣١٢ — ٣١٣.

(٧) نذكر من شعراء الأمويين على الخصوص : الفرزدق والأخطل وجرير وكثير عزة وعمر بن أبى ربيعة وذا الرمة والنجاشى والطرماح ...الخ .

(٨) انظر . قبله .

(م ١٥٥ / ٧٧٢)[١] ، الذى عاصر آخر الخلفاء الأمويين ، وكانوا يقدمونه ويؤثرونه ، وسمى راوية لأنه كان يروى لكل شاعر . ومع ذلك فيجب أن نأخذ ما ورد من شعر الدولة العربية أو الشعر الجاهلى بحذر شديد لبعده عن عصر التدوين ، بحيث أن طه حسين يقول عن شعر الجاهلية أن الكثرة المطلقة منه ليست من الجاهلية فى شىء[٢] .

وأخيراً إذا ذكرنا أشعار العرب فى مصادرنا الأصلية يجب أن نذكر أيضاً أمثالهم ، فان لها نفس القيمة التاريخية فى التعبير عن بيئة العرب وتطورها . ولعل أهم مرجع لدينا عن أمثال العرب كتاب مجمع الأمثال لأبى الفضل بن محمد النيسابورى المعروف بالميدانى[٣] (م ٥١٨/١١٢٤) ، وهو يشتمل على نيف وستة آلاف مثل[٤] ، مرتبة على حروف المعجم ، تمتد من عصر الجاهلية وعهد النبى والخلفاء الراشدين ، كما أن المؤلف يذكر مع كل مثل قصة توضح الغرض الذى وضع له ، بحيث يقول ابن خلكان عن هذا الكتاب : إنه « لم يعلم مثله فى بابه »[٥].

بعد ذلك يجب أن نفرد مكاناً خاصاً لمصادر أصلية قلمية ، ولكن من نوع آخر ، إذ أنها ليست من تأليف العرب أو المسلمين ؛ ولكن من تأليف رحالين أوربيين قدماء ، أو مؤرخين بيزنطيين ، أو رجال دين مسيحيين من الرهبان ، فأهمية هذه الكتب فى أنها تتناول أخبار الدول العربية من جهة نظر مخالفة لوجهة نظر العرب والمسلمين .

---

(١) وفيات ، ١ ص ٢٣١ — ٢٣٢ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. t 2, p. 267.

(٢) انظر . طه حسين ، فى الأدب الجاهلى ، القاهرة ١٩٢٧ ، ص ٦٤ .

(٣) ياقوت ، معجم الأدباء ، ٥ ص ٤٥ — ٥١ . سمى الميدانى نسبة إلى ميدان محلة من محال نيسابور .

(٤) النسخة التى سنستخدمها — وهى طبعة القاهرة ١٣١٠هـ — بهامشها جمهرة الأمثال لأبى هلال حسن بن عبد الله العسكرى النحوى (م ٣٩٥/١٠٠٤ — ١٠٠٥) ، حيث لا يبلغ فيها جمعه الكتاب الأول .

(٥) وفيات ، ١ ص ٦٥ .

فنذكر أولاً كتب الرحالين الأوربيين، الذين جابوا الجزيرة العربية منذ الزمن القديم قبل الميلاد أو بعده، سواء أكانوا من اليونان أو الرومان، حيث يقدم أغلبها — وقد ترجم إلى اللغات الحديثة — لمحات هامة عن عرب الجزيرة في البوادي، أو في ممالكها القديمة؛ فنذكر ما كتبه Herodotus في Historiai و Xenophon في Anabasis و Theophrastus في De Historia Plantarum و Diodorus Siculus في Bibliotheca Historica و Josephus في Magnum opus و Gaius Plinius المعروف باسم (Pliny) في Naturae historum وأخيراً Strabo في Geographica، وهذا الأخير شارك بنفسه في حملة الرومان على الجزيرة العربية في ٢٤ ق.م، ووصف أحوالها وسكانها كشاهد عيان(١).

ثم نذكر كتب المؤرخين البيزنطيين، وبخاصة الذين عاصروا الدولة العربية، وهذه لها قيمتها الخاصة؛ بسبب أن الدولة العربية استولت على أملاك بيزنطة في سوريا ومصر وشمال إفريقية، كما غزتها في عقر دارها ووصلت قواتها حتى أسوار القسطنطينية؛ فهذه الكتب البيزنطية تنقل باللغة اللاتينية أو اليونانية — وأغلبها لم يترجم إلى اللغات الحديثة — أخباراً وتعليقات هامة، وإن لاحظ المؤرخ الحديث Gibbon (٢) أن أغلبها متحامل، فنذكر منها ما كتبه المؤرخ Procopius — الذي عاصر الامبراطور جستنيان الأول (٥٢٧ — ٥٦٥) — في «تاريخ الحروب» (٣)

---

(١) انظر. بعده؛ جواد علي، تاريخ العرب، ١ ص ٢٩؛ انظر. الترجمة الانجليزية
The Geography of Strabo trad., H. L. Jones. London 1949, I, Introd. pxiv — xxviii.

(٢) انظر. Gibbon : The decline and fall of the Roman Epmire. ed. Smeaton. London 1950, 5, p. 297.

(٣) انظر ترجمته الانجليزية بعنوان : History of the Wars, transl. Dewing. 7 vol. London 1954.

وله كتاب آخر باسم: Of the Buildings of Justanian. transl. by Stewart London 1886.

حيث يذكر حروب الغساسنة حلفاء البيزنطيين مع اللخميين حلفاء الفرس، وغزوة الحبش لليمن فى الجاهلية ، و Theophanis (حوالى ٧٥٨ — ٨١٨)[١] فى « Chronographia »[٢] أى « أخبار » ، وهو تاريخ للعالم ، يتناول فيه حروب العرب مع البيزنطيين وصل فيه حتى سنة ٨١٣ م ، و Nicephorus Patriarcha (حوالى ٧٥٨ — ٨٢٩)[٣] فى « Histori »[٤] ، وهو تاريخ عام للكنيسة ، يعرض فيه لحروب العرب مع البيزنطيين حتى سنة ٧٦٩ م .

ثم الكتب التى ألفها رجال الدين المسيحيون ، وهى بلغات متعددة ، مثل : الأرمنية والسريانية والقبطية وحتى الأسبانية — وقد ترجمت معظمها إلى اللغات الحديثة — ولا تقل أهميتها عن الكتب البيزنطية ، كما أن صبغتها الدينية لا تقلل من قيمتها التاريخية[٥] . فنذكر من هؤلاء المؤلفين : الأسقف الأرمنى Sébêos (القرن السابع الميلادى) الذى كتب عن « تاريخ هرقل »[٦] ، وكان شاهداً عياناً للغزو العربى فى فارس وأرمينية وآسيا الصغرى حتى عصر معاوية ، فكتابه يتناول مرحلة الفتوح الإسلامية الأولى ، وأرمنى آخر باسم Ghévond[٧] (القرن الثامن الميلادى) ذكر أخبار الفتح العربى فى أرمينية ، وتعرض لتاريخ

---

(١) انظر . Ency. Britannica vol, 22 p. 66

(٢) انظر النص اليونانى فى مجموعة : Patrologia Graeca de Migne t. 108 .1857—1866 أو انظر. تحقيق Boor .

(٣) انظر . Ency. Britannica vol 16, p. 415 — 416

(٤) انظر النص اليونانى فى نفس المجموعة : Patrologia Graeca t. 100

(٥) انظر . Czeglédy : Monographs on Syriac and Muhammadan, Sources in the Literary Remains of M. Kmosko. Acta Orientalia t. 4 Budapest 1955, p. 25.

(٦) انظر الترجمة إلى الفرنسية ، بعنوان : Histoire d'Héraclius par, l'éveque Sébêos. traduite de l'arménien et annotée par Macler, Paris 1904.

(١) انظر . Macler : L'Islam dans la Littérature arménienne. R. E. I, 1932, p. 493 — 4 et n (3).

الخلفاء فى الدولة العربية بالتفصيل[١] ، والبطريرك السريانى Dionysios Tellmahrensis ، الذى ولد بقرب ماردين بالجزيرة ، وكتب « تاريخ »[٢] العالم حتى سنة ٨٣٧م ؛ وإن كان لا يهمنا منه غير الجزء الرابع الذى أشار فيه إلى حوادث الدولة العربية، وإن كان مملوءاً بالأخطاء ، وMichael Syrus (م١١٩٩م). الذى كتب « التاريخ »[٣] بالسريانية حتى سنة ١١٩٤ — ١١٩٥م ، وتناول فيه حوادث وأخباراً تتعلق بالعرب والبيزنطيين ، ويوحنا النقيوسى (توفى أواخر القرن السابع الميلادى) ، وهو قبطى كتب فى « التاريخ »[٤] باليونانية عن مصر منذ الفراعنة ، وتكلم فيه عن فتح العرب لمصر ، وإن كان جل إهتمامه بتاريخ الكنيسة اليعقوبية ، وقد ضاعت النسخة الأصلية لكتابه،ولم تبق منها الا نسخة حبشية؛ وقد نذكر بعض قصائد شعبية أسبانية Romencero[٥] تتناول قصة الفتح العربى فى اسبانيا وظروفه؛وأخيراً المدونة العامة التى أمر بتصنيفها Alfonso el Sabio ليدون فيها تاريخ اسبانيا منذ بدايته،وهى المدونة باسم: « Cronica General »[٦].

ثم كتب باللغة العربية أقباط مسيحيون أيضاً أغلبهم من رهبان عاشوا فى أديرتهم فى الأمبراطورية العربية، وهى وإن كانت تهتم بتاريخ الكنيسة فى الشرق ؛ إلا أنها تفرد مكاناً للأخبار السياسية ، بحيث أن بعضهم يذكر أخبار كل خليفة . فتذكر البطريرك سعيد بن بطريق (القرن الثامن والتاسع) المكنى افتيشيوس

---

(١) انظر. الترجمة الى الفرنسية : Histoire des guerres et des conquêtes des Arabes en Arménie, par l'éminent Ghevond, vardabed arménien, écrivain du VIIIe siècle, traduite par Garbed V. Chahnazarian et enrichie de notes nombreuses. Paris 1856.

(٢) انظر الترجمة الى الفرنسية ، بعنوان : Chronique de Denys de Tell-Mahré, publiée et traduite par Chabot. Bibl. de l'école des Htes Ets., 112, 4ème partie. Paris 1895.

(٣) انظر ترجمته الفرنسية : Michel le Syrien : Chronique. ed. et. trad. Chabot. Paris 1899 — 1910 4 vol.

(٤) انظر الترجمة الى الفرنسية : Chronique de Jean, evêque de Nikiou-Texte Ethiopien publié et traduit par Zotenberg. Paris 1883.

(٥) ترجمها الى الفرنسية : LeRomencero, introd. : Mathilde Pomès et trad. Paris 1947.

(٦) وقد نشرها Pidal فى مجموعة : Nueva Biblioteca de Autores Espanoles, t. V. Madrid 1906.

(Eutychius) ، الذى ألف كتاباً سماه « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق[١] » ، وهو تاريخ طويل ، يبدأ بآدم إلى سنى الهجرة الإسلامية ، وأهميته فى أنه يربط ما بين أخبار الروم والعرب ، وساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين (توفى حوالى القرن العاشر الميلادى) ، وله عدة كتب منها « تاريخ المجامع[٢] » ، وهو يمثل وجهة نظر الكنيسة اليعقوبية المصرية ، و « سير البيعة المقدسة[٣] » ، وهو عبارة عن تاريخ لبطاركة الكنيسة المصرية ، وإن كان يهتم بالناحية السياسية ، ويقدم معلومات دقيقة ، بحيث يعتبر مصدراً هاماً لتاريخ مصر فى العصور الوسطى ، وأغابيوس محبوب بن قسطنطين الرومى المنبجى (Agabios) ، وهو مسيحى عربى ، عاصر الخلافة العباسية ، وألف كتاباً فى التاريخ الكنسى سماه « العنوان[٤] » ، تعرض فيه لأخبار الدولة العربية ، وكتاباً لمؤلف مجهول بعنوان « تاريخ النسطوريين[٥] » ، فيه أخبار عن النسطوريين والساسانيين ، والعلاقة بين هؤلاء والنصارى ، ونذكر الشيخ المكين جرجس بن العميد (م٦٧٢/١٢٧٣) ، الذى ألف كتاباً سماه « تاريخ العرب[٦] » ، عبارة عن مختصر لما أورده الطبرى ، وهو أول من عرف من مؤرخى الشرق للأوربيين[٧] ، وأخيراً الأب غريغوريوس أبى الفرج المعروف بابن العبرى (م٦٨٥/١٢٨٦) ، وللأوربيين باسم Barhebraeus ، وقد ولد فى ملطية ،

---

(١) سنستخدم طبعة بيروت ١٩٠٥ — ١٩٠٩ ، فى جزئين .

(٢) حققه Leroy فى Patrologia Orientalis t. 6

(٣) حققه وترجمه Evetts فى نفس المجموعة (P. O.) الجزء الأول والخامس والعاشر . ١٩٠٧ ، ١٩١٠ ، ١٩١٥ .

(٤) تحقيق وترجمة Vasiliev ، جزء أول وثان ، طبعة Paris ، ١٩٠٩ .

(٥) وهو يعرف أيضاً باسم : « Chronique de Séert » ، نشره وترجمه إلى الفرنسية Scher ، بعنوان : Histoire Nestorienne inédite. Patrologia Orientalis, vol. 13.

(٦) حققه وترجمه إلى اللاتينية Erpenius بعنوان : Historia Saracenica. Lugduni - Batavorum. 1625.

(٧) انظر . Carra de Vaux : Les Penseurs de l'Islam, Paris 1921, 1, p. 83 — 4.

وكان على معرفة باليونانية والسريانية والعربيـة ، وألف كتاباً فى التاريخ سماه « تاريخ مختصر الدول[١] » ، يتعرض فيه لأحداث الدولة العربية .

وأخيراً يجب ألا نقتصر على المصادر الأصلية لتاريخ الدولة العربية ، ولـكن يجب أن نطلع أيضاً على المصادر الحديثة ، التى تعتمد فى كتابتهـا على التحليل والتفسير ، واتباع قواعد المنهج الحديث للتاريخ ، وإن كان لابد أن نقول إن المستشرقين كانت لهم اليد الـكبرى فى توضيح معالمه ، بما نشروه من النصوص القديمة ، وبما ألفوه من كتب مبنية على أرض صلبة بمعرفة اللغات العربيـة واليونانية والسريانية والفارسية ، ويكفى أن نذكر أسماء بعض رواد الشرق العظام مثل :

Goldziher و Weil و O'Leary و Zotenberg و Guidi و Nöldeke و Sale و Muir و Musil و Lammens و Caetani و Huart و Codera و Chikho و Tor Andrae و Lévi-Provençal و Wellhausen و Bronnle و Becker و Margoliouth و Canard و Glaser و Van Vloten و Caussin de Perceval و Jaussen و Arnold و Wustenfeld ... الخ .

أما المؤرخون فى الشرق فيكفى أن نذكر منهم هذه السلسلة التى زودت المـكتبة العربية بكتب قيمة فى تاريخ الدولة العربية أو فى بعض نواحيها ، مثل : الألوسى ، وأحمد زكى باشا ، ونعمان الجارم ، وفيليب حتى ، وسيد أمير على ، والعبادى ، وجرجى زيدان ، وكرد على ، وطه حسين ، وأحمد أمين ، ونقولا زياده ، وبشر فارس ، والشيخ الخضرى ، وشعيرة ، وحسن إبراهيم ، وحسين مؤنس ، وجمال سرور ، وجواد على .

هذه نظرة عامة تناولت أهم المنابع التى يمكن أن ينهل منهـــا الباحث فى تاريخ الدولة العربية ؛ تناولت أهم المصادر والـكتب والمؤلفين .

---

(١) سنستخدم طبعة الأب أنطون صالحانى ، بيروت ١٨٩٠ . وهذا الـكتاب طبع لأول مرة سنة ١٦٦٣ فى مدينة Oxoniae بالعربية واللاتينية على يد Pococke بعنوان : « Historia Orientalis ».

الجزء الأول

الفصل الأول

عصر الجاهلية

جغرافية جزيرة العرب — التكافل عند البدو — حياتهم الاجتماعية البدائية — عقيدتهم الوثنية — وسائل معيشتهم — صناعة الشعر — مواطن الحضر — حضارة اليمن القديمة — حواضر الحجاز — مملكة النبط — مملكة تدمر — مملكة الغساسنة — مملكة الحيرة .

لا ريب فى أن دراسة العصر السابق على الإسلام ؛ تمكننا من أن نفهم تاريخ الدولة العربية فهماً صحيحاً ، ونقصد به العصر الذى سماه القرآن[1] : « الجاهلية » ، فهذه الكلمة — كما تبدو — لاتؤخذ بمعنى الجهل نقيض العلم[2] ، أو السفه والغضب والأنفة[3] ، ولكنها تعنى[4] — ولا ريب — الحال التى كانت عليها العرب قبل الإسلام ، أو زمن الفترة التى قبل الاسلام ، وإن لم يكن من الممكن تحديدها بزمن[5] .

---

(١) انظر . القرآن ٣٣ : ٣٣ .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب . بولاق ١٣٠٣هـ ، ١٣ ص١٣٦ ؛ انظر . Gold : Muhammedanische Studien erster Theil. Halle 1889. S. 219 — 228 جواد على ، تاريخ العرب ، ١ ص ٧ — ٨ .

(٣) انظر . أحمد أمين ، فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٦٩ .

(٤) لسان ، ١٣ ص ١٣٧ — ١٣٨ ؛ انظر . الألوسى ، بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب ، ١ ص ١٥ .

(٥) تبدو الجاهلية فى هذه الآية أنها تشمل عدة عصور : (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ٣٣ : ٣٣) . فلعل هذه الجاهلية كانت قبل مولد إبراهيم ، المعروف على أنه أبو العرب . انظر الألوسى ، ١ ص ١٧ .

وإلى حد كبير يتعلق التاريخ الأول للعرب بظروف بلادهم الجغرافية ، وهى البلاد التى عرفها القدماء عادة باسم « Arabia »[١] ، والمسلمون باسم « جزيرة العرب»[٢] ، وتحد قبل الإسلام من بحر القلزم — وهو البحر الأحمر — إلى الخليج الفارسى ومن اليمن إلى أطراف الشام[٣]. فهذه البلاد تتكون فى الداخل من « بادية »[٤] تنحدر من جبال مرتفعة ، عبارة عن هضبة وصحارى ونجود ، ليس فيها أنهار ، ولكن بها بعض العيون أو الآبار[٥] التى يجرى فيها الماء . وعلى العكس تتكون أطراف الجزيرة من « التهائم »[٦] ، وهى الوديان التى يسقط عليها المطر ، وبسبب إحاطة البحر بها من ثلاث نواحٍ ماعدا الشمال، سميت بلاد العرب « بالجزيرة » .

ونحن لا نريد أن ندخل فى تفاصيل أصل سكان[٧] الجزيرة العربية قبل الإسلام،

---

(١) Pliny : Natural History. transl. Rackham, London 1949. 6 : 32; 159 — 162 (vol. 2, p. 259.)

(٢) الهمدانى ، صفة جزيرة العرب ، ١ ص ١ و ٧ و ٨ و ٢٩ ؛ ابن قتيبة ، المعارف ، تحقيق Wüst ، طبعة Gottingen ، ١٨٥٠ ، ص ٢٨ . يقول ياقوت : إنها تسمى أيضاً باسم « عربة » ، ومن هنالك قيل للعرب عربى . انظر . معجم البلدان ، تحقيق الخانجى ، القاهرة ١٣٢٣/١٩٠٦ ، ٦ ص ١٣٨ .

(٣) انظر . Hogarth : Arabia, Oxford 1922, p. I. ؛ الألوسى ، ١ ص ١١ .

(٤) سميت هكذا لبروزها وظهورها ، وهى من بدا إلى كذا بدواً إذا ظهر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٣٠ .

(٥) البلاذرى، فتوح البلدان ،تحقيق de Goeje ، طبعة Leyde ، ١٨٦٦ ،ص٥٣

(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٤٣٦ — ٤٣٨ .

(٧) نعرف أن سكان الجزيرة من الجنس السامى ، ويظهر أن تسميتهم « عرباً » ليست قديمة بدليل أن المصريين القدماء لم يذكروا كلمة عرب وإنما قالوا « شاسو » ويقصدون بذلك الأسيويين أو البدو (انظر. Drioton et Vandier : Les Peuples de, l'Orient. Méditerranéen Paris 1946, p. 281. 21. ; 403. ؛ على مظهر ، العصبية عند العرب فى الجاهلية والإسلام حتى زوال بنى أمية ، مصر ١٣٤٢/١٩٢٣ ، ص ٩ — ١٠).

وعلى العكس ذكرهم الأشوريون والرحالة القدماء بلفظة عرب « Aribi » أو « Arubu » (انظر . Rawlinson : Cuneiform Inscriptions, 1881-1884 ؛ vol. 3, pl.8 ؛ Musil : Arabia Deserta, New-York, 1727, p. 477 — 9 ؛ انظر . Pliny : Op. cit. 6 : 32; 159,) ، بصرف النظر عن أن تعنى قومية معينة =

وإنمـــا التعارض الجغرافى بين داخلها وأطرافها ؛ كان سبباً فى وجود نوعين من السكان ، كما يحدث فى كل بيئة مماثلة : ففى الداخل وجـــد البـدو أو الأعراب(١) ، الذين عودتهم حياة البادية بقفرها وجفافها عدم الاستقرار ، فهم إما مغيرون يقومون بالغارة على السهول المجاورة(٢) ، أو رعاة يجرون وراء الأمطار النادرة ، والآبار القليلة ؛ أما فى أطرافها فقد وجد نوع من السكان الحضر المستقرين ، الذين يقومون بالزراعة أو التجارة(٣) أو الصناعة(٤) .

ومنذ القدم وجزيرة العرب تشمل النوعين من السكان : البدو والحضر(٥) ؛ فالبدوى يرى فى الحضرى فريسة شرعية فى سبيل الحياة(٦) ، والحضرى ينزل البدوى

=أو جنساً معيناً ، وإنما سكان بلاد العرب . ومن ناحية أخرى ينسب جميع المؤرخين المسلمين الأوائل العرب إلى شخص بعينه هو يعرب بن اسماعيل (ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٣٠ س ١٧ فما بعدها) ؛ كما أنهم يقسمونهم إلى أنواع (ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق وتعليق Lévi-Provençal ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٨٦ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ٣ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ ؛ انظر ، Hughes : A Dictionary, of Islam, London 1885, p. 17 — 20 ؛ طه حسين ، فى الأدب الجاهلى ، ص ٨٥) ، مثل : العرب البائدة كعاد وثمود وطسم وجديس ، والعرب الباقية وهم العاربة ويقصد بهم القحطانيين سكان الجنوب أو اليمن ، والمستعربة ويقصد بهم الإسماعيلية أو العدنانية سكان الشمال أو الحجاز ، وهم لم يكونوا يتكلمون العربية فى الأصل [مع أن سكان اليمن — القحطانيين — هم الذين لم يكونوا يتكلمون العربية أصلا ، وإنما لغة المسند . انظر . طه حسين ، فى الأدب الجاهلى ، ص ٨٢ — ٨٣] . فلعل هذا التقسيم هو تذكار لتطور خاص بسكان الجزيرة منذ زمن بعيد (انظر . Poliak : L'Arabisation de l'Orient. Sémitique. R. E. I. , 1938. p. 38) ، أو لعله راجع إلى أنهم كانوا أكثر من جنس . انظر . Lam et Duj : Vie de Mahomet, I, p. 17 ؛ n (1).

(١) الألوسى ، ١ ص ١٢ .

(٢) انظر . Pliny : Op. cit. 6: 32 ; 159 — 162 (vol. 2, p. 459) ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١١٨ .

(٣) انظر . Pliny : Op. cit. 6: 32; 162 (vol. 2, p. 461)

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٩٦ .

(٥) نفسه . لدينا تسميات أخرى تدل على النوعين ، منها : أهل الوبر والمدر والحجر والمدر . انظر . ابن سعد ، طبقات ، تحقيق Sachau ، ١/٢ ص ٥١ س ٢٢ ؛ اللسان ، ٧ ص ١٣٣ ؛ حاجى خليفة ، ١ ص ٢٥ .

(٦) انظر . Procopius : History of the Wars, Transl. Dewing, London 1954. 2 : 19. 12 (vol 1 p. 421 ؛ انظر . Bertram : Les Arabes, trad. Muret, Paris 1946, p. 8.

منزل الوحش غير المقدور عليه ، والمفترس من الحيوان(١) ، ولذا كان جيران جزيرة العرب من الشعوب المتقدمة — كاليونان والرومان — يعتبرون سكان الصحارى عموماً « برابرة(٣) » أى متوحشين ، ويسمونهم « Saraceni »(٢) أو « السراقنة » ، وربما كان اشتقاق كلمة « شرقيين(٤) » من هذه الكلمة الأخيرة .

* * *

وكانت حياة البدوى صراعاً دائماً بينه وبين بيئته القاسية ، وإن كان لا يقدر أن يعيش فى القفر بمفرده ؛ وإلا كان طعمة لغيره(٥) ، ولذلك تجمع فى وحدات تقوم على أساس صلة الدم ، سميت بأسماء مختلفة(٦) ، لا نعرف وقت ظهورها ، وإن كانت عادة تدل على أعدادها من حيث الكبر والضآلة ، مثل : جماهير ، وشعب ، وقبيلة(٧) ، وعمارة ، وبطن ، وفخذ ، وعشيرة ، وفصيلة ، ورهط ،

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٩٦ س ٢٧ .

(٢) انظر . Procopius : Op. cit. I : 19 ; 7 — 16 (vol. 1, p. 181)

(٣) انظر . Ibid 2 : 19; 12 (vol. I, p. 421) ؛ انظر أيضاً Ency. Brit. vol. 19, p. 287 . لهذه الكلمة تفسيرات مختلفة ، منها : أنها قد تكون مأخوذة من اسم قبيلة من سكان أعالى الجزيرة على حدود الشام بجانب جبل السراة "Saraka"، أو على اسم سارة زوجة إبراهيم المعروف بأنه أبو العرب (انظر . Gibbon: (3) n Op.cit,5p.216 ؛ أو أنها قد تكون مشتقة من فعل « سرق » اشارة إلى غارة العرب . انظر جواد على ، تاريخ العرب ، ١ ص ١٧٩ .

(٤) انظر . سيد أمير على ، مختصر تاريخ العرب ، القاهرة ١٩٣٨، ص ٤ .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٠٢ س ١ — ٢ .

(٦) انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب ، ١ ص ٣٠٨ فما بعدها ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٢٣ ، ٢ ص ٣٨٤ — ٣٨٦ .

(٧) انظر القرآن ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ٤٩ — ١٣ ﴾ . الشعب جمعه شعوب وهو أكبر من القبيلة (انظر المقريزى ، النزاع والتخاصم ، حققه G. Vos ، طبعة Leiden ، ١٨٨٨ ص ٦٥) ، والقبائل من قبيلة لتقابلها . انظر ابن عبد ربه ، العقد الفريد القاهرة ١٢٩٣ هـ ، ٢ ص ٢٥ .

ومعشر[١] ، وحي[٢] ، وقوم[٣] ، وإن كان أكثر الوحدات شيوعاً بين البدو هو القبيلة[٤] .

ولكن صلة الدم التى كانت وسيلة الاتحاد والالتحام بين سكان الصحارى ؛ لم تنتج نظاماً سياسياً حقيقياً ، وإنما نوعا من التكافل الضئيل[٥] بين الأفراد بعضهم لبعض ، فكل فرد فى الجماعة له نفس الحقوق ، وعليه نفس الواجبات ، ذلك لأن الحياة فى الصحراء تخلق المساواة : فإن كانت الشعوب تفخر بقوميتها ، فإن سكان الصحارى من البدو يحق لهم أن يفخروا بحريتهم الشخصية[٦] . ولذلك كان العربى لا يحتمل «الضيم» ، بحيث أن الشاعر شبه من يقبل الضيم بالكلب[٧] ، أو بالحمار ووتد الخيمة[٨] .

ومع ذلك كان على البدو أن يخضعوا لواحد منهم يرشحونه للرياسة عليهم ،

---

(١) انظر قول الشاعر :

فداء لقومى كل معشر جازم   طريد ومخذول بما جر مسلم

انظر. الجاحظ ، البيان والتبيين ، القاهرة ١٣١١ ، ١ ص ٧٣ س ١٣ .

(٢) انظر قول الشاعر :

فلما تنازعنا الحديث سألتها   من الحى قالت معشر من محارب

انظر الجاحظ ، البخلاء ، القاهرة ١٣٢٣ هـ ، ص ١٨٤ .

(٣) الجاحظ ، البيان ، ١ ص ٧٣ س ٨ و ١٣ ؛

(٤) النويرى ، ٢ ص ٣٨٤ — ٣٨٦ .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٩٥ س ٢٤ — ٢٥ .

(٦) انظر . Gibbon : Op. cit. 5, p. 215 ؛ Bertram : Les Arabes, p. 28.

(٧) انظر . قول الشاعر :

إنى امرؤ من بنى خزيمة لا   أقبل ضيما ما لم أقد كلبا

انظر البحترى ، كتاب الحماسة ، تحقيق شيخو ، بيروت ، ص ٢١ .

(٨) انظر قول المتلمس :

ولا يقيم على ذل يراقبه   إلا الأذلان عير السوء والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته   وذا يشج فلا يرثى له أحد

البحترى ، ص ٢٠ ؛ النويرى ، نهاية ، ٣ ص ٦٤ .

تكون مهمته الأصلية الإبقاء على وحدة جماعتهم ، ويسمونه لذلك « سيد[١] » أو « رئيس »[٢] أو « شيخ »[٣] أو « أمير »[٤] ، فكانوا يختارونه بما وقر فى نفوسهم نحوه من قوة شخصيته، وتجربته[٥] ، أو من شجاعته[٦] فى الدفاع عن جماعته ، أو حتى لغناه حين لا يكون أحد آخر أغنى منه[٧] . ومهما يكن سبب اختياره فإنه كان يجب أن يتصف بصفات منها شيمة « الحلم »[٨]، التى تجعله يتكلم بتؤدة ، وهو يمسح على لحيته الطويلة التى أصبحت تدل على سيد العرب[٩]. كذلك كان « الكرم »[١٠] ، من أهم الصفات المطلوبة فى رئيس الجماعة ، لذلك كانت خيمته

---

(١) انظر قول الشاعر :

إذا سيد منا خلا قام سيد   قؤول لما قال الكرام فعول

انظر. أبو تمام، ديوان الحماسة ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ١ ص ٢٥ ؛ النويرى ، ٣ ص ٢٠٢.

(٢) ابن هشام ، سيرة رسول الله ، تحقيق Wüst ، ١ ص ١١٧ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٠١ ؛ انظر . Coutumes des, : Jaussen Arabes au pays de Moab. Paris 1948. p.127.

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، مصر ١٣٤٩ هـ ، ٢ ص ٢٢١ س ٢٦ ؛ انظر . ديوان قيس بن الحطيم ، تحقيق Kowalski ، طبعة Leipzig ، ١٩١٤ ، ص ١٥ : يذكر Goldziher أنه كان يسمى أيضاً « زعيم » .

انظر . Muh. Stud. 2, p.52 ; n (4) : Gold

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٠١ .

(٦) العقد ، ٣ ص ١١١ ؛ ابن قتيبة، عيون الأخبار ، تحقيق Brockl، طبعة Berlin، ١٩٠٠ ، ص ٢٣٣ فما بعدها . انظر قول الشاعر :

ولكننى أحمى حماها وأتقى   أذاها وأرمى رماها بمنكب

انظر. الجاحظ، الحيوان، تحقيق هارون، القاهرة ١٣٥٦ — ١٣٦٦/١٩٣٨ — ١٩٤٧ ٢ ص ٩٥ .

(٧) العقد ، ١ ص ٢١٩ ؛ انظر . l'Honneur chez les Arabes, : Farès avant l'Islam. Etude de Sociologie Paris 1932. p. 136.

(٨) ابن قتيبة ، عيون ، ١ ص ٢٨٢ فما بعدها ؛ انظر Op. cit. p. 55 : Farès قالت العرب « احلم تسد » . انظر الألوسى ، ١ ص ٩٩ — ١٠٣ .

(٩) انظر. Op. cit.5, p. 218 : Gibbon

(١٠) ابن قتيبة، عيون ، ٣ ص ٢٣٩ ؛ العقد ، ١ ص ١٠٨ فما بعدها ؛ النويرى ، نهاية ، ٣ ص ٢٠٨ فما بعدها ؛ انظر . Op. cit., p. 55. : Farès أشهر من ضرب بهم المثل فى الجاهلية فى الكرم : حاتم الطائى وكعب بن مامة . النويرى ، ٣ ص ٢٠٨ ، انظر . الألوسى ، ١ ص ٧٢ — ٨٢ .

حمراء[١] ؛ لتعرف بسهولة ، كما يشعل حولها نار[٢] ، أو توضع فى أعلى مكان ليراها من يريدها ، أو تربط بجوارها الكلاب[٣] ؛ مخافة ان يأتيه ضيف فلا يعرف مكانه. ومن ناحية أخرى كان العرب يرجعون إلى كبار السن منهم أو من يعرفون « بالحكام »[٤] ، يحكمونهم فى أمورهم.

وقد أوجد صلة الدم عند البدو ما يعرف « بالحسب »[٥] ، وهو خلال الآباء والأجداد من أهل عشيرته التى جاءت نتيجة طبيعية لثمرة « النسب »[٦] ؛ فكان العربى يجد فى جماعته « العزة » ، ويعتبر كل غريب عنها « ذليلاً »[٧] ، ويسميه « اللزيق »[٨] ، أما من تطرده جماعته وتحرمه من حمايتها فيسمى « الخليع »[٩]. وقد كان إفراط البدوى فى الاعتزاز بحسبه سبباً فى وجود مبدأ « العصبية »[١٠] ، وهو أن يُنصر الفرد فى الجماعة ظالمًا أو مظلوماً ، بحيث إذا وقع سوء لأحد منهم؛ فكلهم مسئول عن مد يد المونة إليه بحكم عصبيتهم[١١]. ومما أجج العصبية اشتعالاً ؛ أن طبيعة البدوى نارية بحكم قسوة البيئة ، وأنه يمكن إثارته إلى المعركة

(١) ابن سعد ، ١ ص ٤١ س ٨.

(٢) انظر قول الشاعر :

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

انظر البخلاء ، ص ٢٠٤ . وهذه النار تسمى : « نار القرى » ، وكلما كانت أضخم وموضعها أرفع ، كانت أفخر وهم يتمادحون بها . انظر قول الشاعر أيضاً :

إذا ضل عنهم ضيفهم، رفعوا له من النار فى الظلماء ألوية حمرا

انظر النويرى ، ١ ص ١١٣ س ١ فما بعدها .

(٣) الجاحظ ، الحيوان ، ١ ص ٣٦٧ و٣٧٩ و٣٨٦ ؛ انظر. الألوسى، ١ ص٣٧٥.

(٤) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٢٩٩ ؛ انظر . الألوسى ، ١ ص ٣٠٨ فما بعدها .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٠٦ .

(٦) نفسه ص ١٠١ س ١٩ ؛ ١٠٢ ؛ ١٠٦ ؛ لسان ، ١٣ ص ١٣٨ .

(٧) العقد ، ١ ص ٣٣٨ ؛ انظر . Farès : L'Honn, p. 145.

(٨) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٠٥ س ٣ .

(٩) الحيوان ، ١ ص ١٦٦ ؛ انظر . الألوسى ، ٣ ص ٢٨ .

(١٠) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٠١ س ٦ ؛ ص ١٠٦ س ١٦—١٧ ؛ انظر . على مظهر . العصبية عند العرب ، ص ٣٠ فما بعدها .

(١١) انظر قول الشاعر :

لا يسألون أخاهم ، حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهانا

أبو تمام ، الحماسة ، ١ ص ٤ .

بنداء عاطفى ، أو قصيدة من الشعر الحماسى ، ومن هنا وجدنا بعض العبارات التى تدل على ذلك ، مثل : « الحميّة »[١] و « النعرة »[٢] و « الظن »[٣] .

ومظهر الافراط فى العصبية الوقائع المستمرة بين البـــدو ، وهى ما يعرف « بأيام العرب »[٤] ، حتى أن من كان يغامر بالذهاب إلى غـير أرض قبيلته فكأنه يغامر بحياته ، وكان تطاحن البدو يقع أيضاً بسبب النزاع على موارد الماء والـكلأ . ولـكثرة سيل الدماء جعل البدو أربعة أشهر حُرُماً[٥] ، لا يتقاتلون فيها ، وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، وإن لجىء إلى نقصانها ، وهو ما يعرف « بالنسيء »[٦] . كذلك جعلوا لهم أسواقاً[٧] فى كل أنحاء الجزيرة ، يجتمعون فيها ويأمنون فيها على دمائهم وأموالهم ، منها : دومة الجندل وعكاظ والمجـــاز وعدن وهجر . وأخيراً فإنه وُجد عند البدوى ما يعرف « بحمى

(١) لسان ، ١٨ ص ٢١٦ — ٢١٧ ؛ الجاحظ ، المحاسن والأضداد ، القاهرة ١٣٢٤ ، ص ٤ س ١ ؛ النويرى ، ٣ ص ١٢٧ س ٢٠ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٠٦ س ١٧ .

(٣) لسان ، ١٧ ص ١٤٢ وما يليها .

(٤) الميدانى ، مجمع الأمثال ، الباب التاسع والعشرين ، ٢ ص ٢٦٠ وما يليها . نذكر من هذه الوقائع — التى يبلغ عددها على حسب قول « Gibbon » ١٧٠٠ معركة (انظر . Decline, 5, p. 219 n. (1)) — يوم « داحس والغبراء » الذى سمى على اسم حصانين ، وهى كانت بين عبس وذبيان بسبب التراهن على الخيل ، واستمرت أربعين سنة (انظر . المعارف ، ص ٢٩٤ — ٢٩٥ ؛ ابن الأثير ، الـكامل ، طبعة القاهرة ، ١ ص ٣٤٣ فما بعدها) ، ويوم « الفجار » الذى سمى هكذا بسبب أنه وقع فى الأشهر الحرام ، وكان بين قريش وكنانة (انظر . ابن هشام ، ١ ص ١١٧ — ١١٩ ؛ حسن إبراهيم ، الدولة العربية ، مصر ١٩٤٨ ، ص ٦٠ — ٦٣ ؛ جمال سرور ، قيام الدولة العربية ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٢١) ، ويوم « النبيط » الذى كان بين تميم وبكر بسبب تعدى الأولى على أراضى الثانية المسماة النبيط . انظر . ابن الأثير ، الـكامل ، ١ ص ٣٦٤ فما بعدها ؛ الميدانى ، ٢ ص ٢٦٤ — ٢٦٥ .

(٥) القرآن ٩ : ٣٦ .

(٦) نفسه ٩ : ٣٧ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art, Nasi') 3, p. 915 — 16 ؛ يقول الشاعر :

ألسنا الناسئين على معـد شهور الحل ، نجعلها حراماً

انظر . النويرى ، نهاية ، ١ ص ١٦٦ .

(٧) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٣١٣ — ٣١٥ .

الجار »[١] أو « منع الذمار » ، التى يمنحها الفرد أو الجماعة طواعية إلى من يجاورهم من النجدة والإغاثة وحتى الطعام . ولقـــد كان من صفات العربى « الوفاء »[٢] ، فكان يلقى بوعده أمام نار مشتعلة[٣] ، أو يدخل يده فى جفنة مملوءة بالدم[٤] أو العطر[٥] ، دليلاً على تمسكه الشديد به .

ولكن تظهر قدسية العصبية بخاصة فيما يعرف « بالثأر »[٦] ، وهو يحدث غالباً نتيجة للحوادث الفردية ، التى كثيراً ما تجر إلى الوقائع بين جماعات البدو . فكان أهل من يراد أن يثأر له يعدون أنفسهم مرضى نفسانياً[٧] ، حتى يدركوا وترهم ، فكانوا يأخذون أنفسهم بطقوس بدوية[٨] : منها : أن يجزوا شعورهم ، ويقصروا أثوابهم ، ويمتنعون عن أكل اللحم[٩] ، وشرب الخمر[١٠] ، والاختلاط بالنساء[١١] . وكانت بعض الخصومات تتوقف نتيجـــة تعويض على

(١) العقد ، ١ ص ٥١ . انظر . قول السموءل بن عادياء :
وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل
انظر . أبو تمام ، الحماسة ، ١ ص ٢٣ .

(٢) النويرى ، ٣ ص ٢٣٩ فما بعدها .

(٣) نفسه ، ١ ص ١١١ س ٣ . وهى تسمى : « نار التحاليف » .

(٤) ابن هشام ، ١ ص ١٢٥ .

(٥) انظر . قول زهير ابن أبى سلمى :
تداركتما عبساً وذبيان بعد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
انظر . جمهرة ، ص ٤٩ س ١ .

(٦) البحترى ، الحماسة ، ص ٢٨ — ٣١ ؛ انظر . L'Arabie : Lammens Occidentale avant l'Hégire, Beyrouth 1928, p. 181 — 237.

(٧) انظر . قول الشاعر :
ألم يأتيها أنى صحوت وأننى شفانى من الداء المخامر شاف
انظر . الجاحظ ، الحيوان ، ٦ ص ٤٢٢ .

(٨) انظر عن هذه الطقوس : Lammens : Arab. Occid., p. 185 ؛ Farès : L'Honn, p. 72 sqq.

(٩) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ص ١٧ .

(١٠) انظر . قول قيس بن الخطيم :
ومنا الذى آلى ثلاثين ليلة عن الخمر حتى زاركم بالكتائب
انظر . ديوان ، تحقيق Kowalski ، طبعة Leipzig ؛ ١٩١٤ ، ص ١٤ ؛ انظر . جواد على ، تاريخ العرب ، ١ ص ٣٦٧ .

(١١) الأغانى (طبعة بولاق) ، ٤ ص ١٤٨ .
فاذهبى ماإليك غير بعيد لايؤاتى العناق من فى الوثاق

هيئة « دية »[(١)] تعطى لقريب المقتول ، مقدرة بعـــدد من الإبل ، ولـكن قتل القـــاتل كان أفضل الحلول[(٢)] . ومع أن الثأر فيه وحشية ظاهرة ، إلا أنه كان — ولا ريب — بمثابة القانون فى البادية الذى يحد من فوضى القتل[(٣)] .

أما حياة البدوى الاجتماعية فى هذه البيئة فهى فطرية ، فالرجل هو كل شىء فى أهله ، والمرأة لا تعتبر عضواً فيها فهى تورث كما يورث المال[(٤)] ، وكان الذى يرثها أكبر الأولاد ، فإن لم يكن له فيها حاجة أخذها أحد إخوته[(٥)] . وكانت العـلاقة بين الرجل والمرأة فطرية فى أول الأمر[(٦)] ، ولـكن قبل ظهور الإسلام أصبح الرجال يبقون على نسائهم بجوارهم[(٧)] ، فقد وجدت كلمة « نكاح »[(٨)] وفسرت على أنه يقصد بها الزواج ، حيث يقدم لها « مهراً »[(٩)] من الإبل والمال « أى ما يُملك »[(١٠)] ؛ وهذا — ولا ريب — أقرب إلى الطبيعة الإنسانية ، وأكثر تأييداً لنظام الأسرة ، والرفع من شأن المرأة .

---

(١) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٧ ؛ انظر . جواد على ، تاريخ العرب ، ١ ص ٣٦٨ .

(٢) انظر . قول الشاعر .

فخذها (أى الدية) فليست للعزيز بخطة وفيهـا مقـال لامرىء متـذلل

انظر . البحترى ، الحماسة ، ص ٢٠٨ .

(٣) انظر . Essad Bey : Mahomet (571 — 632), Paris 1948, p. 21.

(٤) انظر . القرآن : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا يحل لـكم أن ترثوا النساء كرها ٤ : ١٩ ﴾

(٥) النويرى ، نهاية ، ٣ ص ١٢٠ .

(٦) الحيوان ، ١ ص ٢١ — ٢٢ ؛ انظر . Bertram : Les Arabes, p. 9

(٧) انظر . Bertram : Les Arabes, p 10.

(٨) عيون الأخبار « كتاب النساء » ، ٤ ص ١٨ — ١٩ ، ص ٧٢ ؛ المعارف ، ص ٢٩٦ .

(٩) النويرى ، نهاية ، ٣ ص ١٢٠ .

(١٠) المدائنى ، ١ ص ٨٣ س ٩ . هذه الـكلمة معناها ما يملك من جميع الأشياء وهى المال الناطق أى العبيد والحيوانات ، والمال الصامت أى النقود وهذه الأخيرة لم تـكن يعرفها البدو . انظر . لسان ، ١٤ ص ١٥٨ — ١٥٩ ؛ Ency. de l'Isl. (art Mâl) 3, p. 194.

ولم يكن عند البدو تحديد لعدد الزوجات[١] ، فكان الرجل يتزوج بأكبر عدد ممكن من النساء ؛ بقصد انجاب عدد كبير من المقاتلة[٢] لجماعته التى ينتسب إليها ، لذلك كان العقم غير مرغوب فيه عندهم ؛ كما كان حب البدوى للولد يحمل العربى فى بعض الأحيان يغض عن نسب المولود[٣] ، أو قد يدفعه إلى أن يلقى بزوجته بين ذراعي غيره لتنال منه الولد ، وكان هذا يسمى : « نكاح الاستبضاع »[٤] . وكانت الأم إذا ولدت ذكراً هنأها أفراد القبيلة ، وذبحو الذبائح[٦] ، ولذلك كان يقال « بالرفاء والبنين » لا البنات[٥] ؛ كما كان البدو يسمون أبناءهم بأسماء قاسية[٧] ، مثل : حجر وصخر وأسد وليث وضرغامة ومصعب وتأبط شراً وطارق ، لما يتفاءل فيه الشدة والصلابة[٨] ، أو ينسبونه لآلهتهم ، مثل : عبد العزّى وعبد مناة وعبد الله[٩] ، وكان الأب يسمى باسم ابنه ومن هنا كانت التكنية « بأبى[١٠] » . وعلى العكس من ذلك ينفر البدوى من نسل

---

(١) جمهرة، ص ٣١ س ٦ ؛ انظر . Perron : Femmes Arabes avant et depuis l'Islamisme. Alger 1856, p. 31.
ينقل أن الشاعر لبيد بن ربيعة نكح خمسمائة امرأة من نساء بنى عامر .

(٢) الحيوان ، ١ ص ١٠٨ :

(٣) نفسه ، ١ ص ١٠٨ — ١٠٩ .

(٤) لسان ، ٩ ص ٣٦١ ؛ انظر . Huart : Histoire des Arabes, Paris 1912, I, p. 18.

(٥) البخلاء ، ص ١٨٠ ؛ انظر . Jaussen et Savignac : Coutumes des Fuqara, suppl au vol 2 de la Miss. Arch. en Arabie, Paris 1920, p. 14 sq.

(٦) الميدانى ، ١ ص ٦٦ .

(٧) الحيوان ، ١ ص ٣٢٤ فما بعدها . نذكر بهذه المناسبة أن أسماء القبائل كان يشتق فى الغالب من اسم حيوان أو نبات أو كوكب (نفسه ، ١ ص ٣١٣ فما بعدها) . فلعل ذلك يرجع الى الاعتقاد بأن للاسم صلة روحية أو قومية ، وهو ما يعرف حديثاً بكلمة فى لغة الهنود الحمر تعرف « بالطوطمية » "Totem" وتفسيرها غامض قد يعنى دور الأمومة أو اللقب الذى تسلسلت عنه. انظر جواد على، تاريخ العرب ، ٦ ص٣٢٦ ؛ دراز، الدين ، ص١٤٤ — ١٤٥ ؛ Saurat : Hist. des Religions 11eme ed, Paris s. d, p. 28 — 32

(٨) الحيوان ، ١ ص ٣٢٤ س ١٢ ؛ ٣٢٦ .

(٩) انظر . الألوسى ، ٣ ص ١٩٥ .

(١٠) نفسه، ٣ص ١٩٦ .

الإناث[١] خوف العار ، أو أن يسبين فى الحروب[٢] ، أو خشية الاملاق[٣] ؛ ولذا ظهرت عادة وأد[٤] البنات صغاراً .

ومع أن المرأة لا أهمية لها فى هذه البيئة البدوية ، إلا أن « عِرض »[٥] العربى كان أهم شىء عنــده ، فهى « الذمار »[٦] الذى يحميه الرجل ، وكلمة « عِرض » عند البدو تتكافأ مع كلمة « شرف »[٧] أو « حسب » ، وذلك راجع إلى قدسية رابطة الدم ؛ التى هى أساس كيان العربى وسبب الاتحاد والالتحام . فكانت المرأة التى ينتهك عرضها تُقتل[٨] — وإن كانت تعتبر فى نظر العربى فريسة لضعفها[٩] — كما قد كان يقتل السارق للعرض وهو يسمى « ذئب »[١٠] ، أو تسرق غنمه وتقتل دابته وتنهب خيمته[١١] ، ولا يستقر العرض حتى يسترد الشرف كاملا . هذه النقطة الحساسة فى تكوين طبيعة البدوى العربى جعلتها مجالاً لهجوم أعدائه ، فكان شرف البدوى أن يتقاصر أعداؤه عن

---

(١) القرآن ١٦ : ٥٩ .

(٢) النويرى ، ٣ ص ١٢٦ .

(٣) القرآن ١٧ : ٣١ .

(٤) نفسه ٨١ : ٨ — ٩ .

(٥) انظر . قول الشاعر :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

انظر : أبو تمام ، الحماسه ، ١ ص ٢٣ .

(٦) لسان ، ١٨ ص ٢٢٠ ، ٢١٨ .

(٧) نفسه ، ٩ ص ٣٢ — ٣٣ ؛ انظر . Farès : L'Honn p. 34 .

(٨) النويرى ، ٣ ص ١٣١ ؛ انظر . Jaussen : Coutumes des Arabes au pays de Moab, Paris 1948, p. 38 ؛ Farès : l'Honn, p. 77

(٩) الأغانى (طبعة بولاق) ، ١٦ ص ١٦٤ ؛ انظر . Perron : Femmes Arabes p. 151.

(١٠) لسان ١٠ ، ص ٣٦٤ .

(١١) انظر . Jaussen : Moab, p. 37 ؛ Farès : l'Honn, p. 78

امرأته[١] ؛ بحيث أن الشعراء كانوا يشترون بالمال حتى لا ينالوا من العرض[٢] .

أما عقيدة البدوى العربى فهى أيضاً بدائية : فالبدوى لا يهتم بالدين ؛ لأن حياته القاسية فى الصحراء لا تتفق مع الحياة الروحية ، والدليل على عدم اهتمامه بالدين أن الشعر الذى تركه لنا فى المعلقات لا نجد فيه أى أثر للدين ، كما أننا لم نسمع عن حدوث حروب بين القبائل وبعضها بسبب الدين ، مع كثرة هذه الحروب. ولكن الحقيقة التى أجمع عليها مؤرخو الأديان أنه ليست هناك أى جماعة انسانية ظهرت دون أن تفكر بالغريزة فى الدين[٣] ، لتعلل مصير الإنسان ، وتقلب ظواهر الكون ، ولذلك كان — ولا ريب — للعرب دين مثل غيرهم .

والواقع أن البدوى كان يميل إلى عبادة الحجارة[٤] ، أما أسباب هذا الميل فغير معروفة ، ولعل أصلها عبادة سامية تتلاءم مع مزاجه البدائى ، أو لعلها فى نظره مهبط لقوة غيبية ، أو رمز لسر غامض مبهم يستوجب التقديس . هذه العبادة الحجرية كانت أولا فى الحجارة التى ليس لها صورة معينة وتسمى : « أنصاب »

---

(١) انظر . قول الشاعر :

فاذهب فأنت طليق عرضك إنه عرض عززت به وأنت ذليل.

النويرى ، ٣ ص ٢٧٦ .

(٢) الأغانى فى (طبعة دار الكتب) ، ٢ ص ١٨٩ ؛ انظر . Farès : l'Honn, p. 37 . فمثلا اشترى عمر بن الخطاب من الشاعر الحطيئة أعراض المسلمين جميعهم بثلاثة آلاف درهم . انظر الأغانى .

(٣) انظر . Bergson : Les Deux Sources de la Morale et de la Religion, Paris 1932, p. 105 ؛ دراز ، الدين ، ص ٣١ ، ٧٥ — ٧٦ ؛ الجارم ، أديان العرب فى الجاهلية ، القاهرة ١٣٤١/١٩٢٣ ، ص ٤ .

(٤) الكلبى ، الأصنام ، تحقيق زكى باشا ، القاهرة ١٩١٤ ، ص ٦ س ٥ فما بعدها ؛ انظر . Huart : Hist. des Arabes, p. 28.

أو « نصب »[١] ، ولعلها سميت كذلك لأنها أحجار واقفة أو منصوبة[٢] . فكان العربى يعبد صخرة[٣] ، أو حجراً ، أو نخلة[٤] ، أو ما يستحسنه من الحجارة أو يعجبه[٥] . وقبل ظهور الإسلام ظهرت عبادة « الأصنام »[٦] و« الأوثان »[٧] ، وهى ما يكون على صورة التماثيل[٨] ، وذكر هيرودت[٩] أن بعضها يرمز إلى آلهة يونانية . فلعل هذه العبادة جاءت من الشام[١٠] ، أو أنها أخذت من بنى إسرائيل الذين كانوا يعبدون الأصنام من وقت لآخر[١١] . فكان لكل جماعة بدوية صنم أو وثن ، مثل : « يعوق »[١٢] ، و« العزى »[١٣] ، و « يغوث »[١٤]

---

(١) الأصنام ، ص ١٦ س ١٢ ؛ ص ٣٣ س ٩ ؛ ٤٢ .

(٢) انظر Hist. des Arabes, p. 28 : Huart . يقول جولد زيهر إن عبادة الأنصاب فى أصلها قد ترجع إلى عقيدة الموتى عند العرب . انظر Culte des : Gold Ancêtres et le Culte des morts, Paris 1885, p. 5 sqq.

(٣) الأصنام ، ص ٣٧ ؛ انظر L'Honn, p. 174 : Farès .

(٤) ابن هشام ، ١ ص ٢٢ . انظر قول الشاعر :

أكلت حنيفة ربها زمن التقحم والمجاعة .

انظر . ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٢٩٩ .

(٥) ابن هشام ، ١ ص ٥١ .

(٦) الاصنام ، ص٨ س ١٠ ؛ ص ٣٣ س ٧ . وهى تكون على صورة إنسان من خشب أو ذهب أو فضة . نفسه ، ص ٥٣ س ١١٥ .

(٧) نفسه ، ص ٨ س ١ ؛ ٣٣ س ٧ ؛ ٥٣ س ١٢ . وهى تكون من حجر . نفسه، ٥٣ س ١٢ .

(٨) نفسه ، ص ٢٣ س ٧ .

(٩) انظر Herodotus with an english translation by Godley Book 2 : 8 (Vol. 2 p. 11).

(١٠) الأصنام ، ص ٨ س ٩ ؛ اليعقوبى ، ١ ص ٢٩٥ س ٧ .

(١١) سعيد بن بطريق (المكنى افتيشيوس) ، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، بيروت ١٩٠٥ — ١٩٠٩ ، ص ٦٩ .

(١٢) الاصنام ، ص١٠ س ٨ . كانت تعبده همدان فى اليمن. ابن هشام ، ١ ص ٥٢ .

(١٣) القرآن: ٥٣ : ١٩؛ الاصنام ، ص ١٧ — ١٨ . كانت تعبد فى الحجاز. ابن هشام، ١ ص ٥٥ .

(١٤) الاصنام ، ص ١٠ س ٤ . وكانت تعبدها طى ومذحج بجوار الطائف . ابن هشام ١ ص ٥٢ .

و « اللات »[١] التى يسميها هيردوت Alilat [٢] — وتشبّـــه بأفروديت اليونانية — و« ود »[٣] و« مناة »[٤]. وقد كان مظهر عبادة هذه الآلهة أن يقيم البـدوى لها بيوتاً تعرف « ببيوت الأصنام »[٥] فى الأودية ، وفى ظلال الشجر[٦]، وقد يقيم لها سدنة[٧] وحجاباً ، أو ينحر عندها[٨] ويدور بها[٩]. كذلك وجدت عند العرب بقايا ديانة قديمة عرفت « بدين إبراهيم »[١٠]، مؤداها عبادة الله[١١] — رب إبراهيم — وهى التى جاء الإسلام ليحييها ، والحج إلى بناء مقدس فى مكة ؛ يضعون فيـه آلهتهم[١٢]، يعرف « بالـكعبة » ، وهـذا يدل على أن عبادة الله لم تـكن حديثة ، فهى أقدم ديانة ظهرت فى البشر[١٣]. كما عرفوا بعض الأديان السماوية[١٤]، لمجاورتهم لأهل الملل ، والانتقال إلى البلاد والانتجاعات ،

---

(١) القرآن ٥٣ : ١٩. وهى عبارة عن صخرة مربعة كان اليهود يطحنون غلالهم عندها، وهى تسمى « الربة » أى السيدة .
ابن هشام، ١ ص ٥٥ ؛ انظر . بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، نقله إلى العربية نبيه فارس والبعلبكى ، بيروت ١٩٤٨ — ١٩٤٩ ، ١ ص ٢٧ .
(٢) انظر . Herodotus 3 : 8 (Vol 2, p. 11)
(٣) الاصنام ، ص ١٠ س٣ . نعبده قضاعة فى دومة الجندل. ابن هشام ، ١ ص٢ ٥؛ انظر . جواد على ، تاريخ العرب ، ٢ ص ٣١٥ .
(٤) القرآن ٥٣ : ٢٠ وهى إحدى إلهات يثرب .
(٥) ابن قتيبة ، الميسر والقـداح ، تحقيق محب الدين الخطيب ، القـاهرة ١٣٤٢ هـ ، ص ٤١ س ٤ . وكانت تسمى أيضا « طواغيت » . ابن هشام ، ١ ص ٥٤ — ٥٥ .
(٦) نفسه ، ١ ص ٥٥ .
(٧) وهى تعنى خدمة مكان مقدس مثل المعابد أو المساجد انظر. Snpplément Dozy aux Dictionnaires Arabes, 2ed, Paris 1927 I, p. 642 — 643.
(٨) ابن هشام ، ١ ص ١٤٣ ؛ الاصنام ، ص ٤٢ س ٢ — ٣ ؛ س ١٩ .
(٩) ابن هشام ، ١ ص ١٤٣ .
(١٠) اليعقوبى ، ١ ص ٢٩٤ س ١٦ .
(١١) انظر . Ency de l' Isl. (art Allah) I p. 304 sqq انظـر . قـول زهير بن أبى مسلمى :

فلا تـكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعـلم

انظر جمهرة ، ص ٤٩ س ١٩ .
(١٢) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٢٩٦ .
(١٣) انظر . دراز ، الدين ، ص ١٠٢ ؛ Hist. des Relig, p.41 : Saurat
(١٤) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٢٩٤ ؛ ٢٩٨ .

كاليهودية والنصرانية . ولكن البدو فى معظمهم لم يكونوا يهتمون بالأديان السماوية أو بالإله البعيد ، فالصنم عندهم أقرب من الله ، هذا فضلاً عن عدم وضوح فكرة الله ، فالبعض يعتقد أن الملائكة هى بنات الله[١] . من هذا نرى أن عقيدة العربى كانت وثنية مغرقة فى الوثنية .

كذلك كان تصور البدوى للروح تصوراً غريباً : فهو يظن أنها تسكن الوديان والأحجار والأشجار[٢] ، ومعظم البدو لا يؤمنون بخلود الروح[٣] ، أو أن بعثاً كائناً بعد الموت[٤] ؛ فنجد بعض الشعراء يشبه الناس بالنبات الذى يجف[٥] ، أو بالعصافير والذبان والديدان[٦] ، وإن لم يمنع هذا من وجود عقيدة احترام الموت عند البدو ، وهو ما يعرف « بالنعى »[٧] ؛ فكان الميت يكفن ويدفن فى «قبر» أو « لحد » وتنوح عليه النائحات[٨]. لذلك ترك البدوى عقيدته على فطرتها ضعيفة تقبل الخرافات ، فكان يطلب الفأل الحسن : بزجر[٩] الطير أو بأى شىء آخر[١٠] ، وبالميسر[١١] وضرب القداح[١٢] ، وبالاستقسام

(١) القرآن ١٧ : ٤٠ ؛ ٥٣ : ٢١ .

(٢) ابن هشام ، ١ ص ١٣٠ ؛ انظر . Bertram: Les Arabes, p.9

(٣) القرآن ٤٥ : ٥٤ . (٤) نفسه ٢٣ : ٨٤ .

(٥) الشعر والشعراء ، ص ٣٥ .

(٦) انظر . قول امرىء القيس :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب
عصافير وذبان ودود وأجرأ من مجلجلة الذئاب

انظر . شعراء النصرانية ، جمعه شيخو ، بيروت ١٨٩٠ ، ١ ص ٣٦ ؛ Farès: L'Honn, p. 167.

(٧) انظر . Gold: Culte des Ancêtres, p. 15 ; 22. ؛ الجارم ، اديان العرب فى الجاهلية ، ص ٨٦ فما بعدها .

(٨) انظر . Rehatsek: Some Beliefs and Usages, among the Pre-Islamic Arabs. Bombay 1876, p. 164-168.
(يعتمد على نصوص شعرية ذكرها فى كتابه)

(٩) الحيوان ، ١ ص ٣٢٤ ؛ ٣ ص ٤٣٨ . الزجر هو الفأل ، وأغلب ما يكون بغراب إذا طار عن يسار البدوى فهو مدرك حاجته ، وإذا نعب امامه أو فوقه ففيها تأخير . النويرى ، ٣ ص ١٣٤ فما بعدها ؛ ١٤٢ . (١٠) انظر . المرجع السابق .

(١١) نفس المرجع ، ٣ ص ١١٨ ؛ ابن قتيبة ، الميسر والقداح ، ص ٣٢ ؛ ص ٣٥ س ٣ — ٤ . الميسر هو المقامرة وتكون عادة بالجزور. (١٢) الضرب بالقداح التقامر بالنبل والسهام والنرد . انظر الميسر والقداح ، ص ٣٢و٣٥و٤١و٥٦و٨٨و١٠٦و١٣٢ ؛

بالأزلام[١] وهى القداح ، وتكون عادة عند الأنصاب أو بيوت الأصنام[٢] ، وبالطيرة إذا مرت بارحة أو سانحة[٣] ، والعيافة[٤] وهى الاستدلال بأعضاء الأشخاص ؛ فلا يكون له فى سفر أو مقام أو نكاح أو معرفة قرار إلا بالرجوع إلى هذه الأشياء[٥] ، حيث أن مثل هذه الاعتقادات توجد عند كثير من الشعوب الفطرية[٦] . وكان العرب يفزعون على الأخص إلى «الكهان» أو «الكاهنات» أو «العرّاف»[٧] ، لمعرفة ما سيقع لهم ؛ فالكهنة — وهم أشبه برجال الدين — كانوا يزعمون أن لهم أتباعاً من الشياطين أو الجن[٨] ، تسترق السمع فى السماء وتنقل لهم أسرار الكون ؛ بحيث كان لكل جماعة بدوية هامة عرّاف[٩] .

أما وسائل معيشة العرب البدويين ، فإنها تتفق وطبيعة البادية ، فكانوا يعولون فى حياتهم على رعى الإبل والأغنام ، والانتقال بها وراء الكلأ والماء[١٠] ،

(١) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٣٠٠ س ٨ و ١٥ . الاستقسام استفعال من القسم وهو طلب النصيب ، والأزلام واحدها زلم وهى تعنى السهام . انظر . الميسر والقداح ، ص ٣٨ — ٣٩ ؛ النويرى ، ٣ ص ١١٧ — ١١٨ .

(٢) الميسر والقداح ، ص ٤١ س ٤ .

(٣) النويرى ، ٣ ص ١٤٤ فما بعدها ؛ الحيوان ، ٣ ص ٤٥٧ .

(٤) الحيوان ، ٤ ص ٣٧٠ . انظر . جرجى زيدان ، تاريخ آداب اللغة ، الطبعة الثانية ، ١٩٢٤ ، ١ ص ١٨٥ .

(٥) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٣٠٠ .

(٦) انظر Saurat : Hist. des Relig, p. 22-23.

(٧) ابن هشام ، ١ ص ٩٢ و ٩٨ ؛ النويرى ، ٣ ص ١٢٨ فما بعدها ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٨٦ .

(٨) جمهرة ، ص ٢٠ س ٨ فما بعدها ؛ ابن هشام ، ١ ص ١٣٠ ؛ انظر . Westermarck : Survivances paiennes dans la civilisation Mahometane, trad. fr ; Paris 1935, p. 11 — 12; p. 30 . يذكر القرآن بأنه لما تقارب مجىء الرسول حجب الشياطين عن السمع ورموا بالنجوم (انظر : القرآن ٧٢ : ٩) ، بل وأسلم بعضها (نفسه ، ٧٢ : ١) .

(٩) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٨٦ س ٢٥ .

(١٠) البخلاء ، ص ١٩٢ .

والاستكانة بالنهار والسير بالليل على هدى النجوم ؛ التي كانوا يراقبونها ، ويطلقون عليها أسماء مختلفة منذ الزمن البعيد[١] .

وقد كانت الإبل[٢] — ولونها كلون الصحراء — هي الحيوان العزيز الذي اتخذه الإنسان في مثل هذه البيئة[٣] ، فيأكل لحمه ويشرب لبنه ، ويصنع من شعره مسكنه وأثاثه ومتاعه[٤] ، وملابسه التي كانت تتكون من العمامة[٥] خاصة . كذلك كانت العرب تستخدم الجياد التي يقال إن أصلها في بلاد العرب[٦] .

وقد كان أكل العربي زهيداً يتناسب مع بيئته مثل التمر واللبن[٧] ، ومن كان غنياً منهم يستخرج الخمر المصنوع من التمر[٨] . ولكن المجاعة وانقطاع المطر كانت تهدد العربي وأسرته في كل وقت ، بحيث أنها كانت تدفعه أحياناً إلى أكل نحاتة قرون الخراف وأظلافها[٩] ، أو أن يفتح عرقاً في جمل ليشرب دمه[١٠] ، وأحياناً أخرى إذا زاد به الجوع ربط حجراً على بطنه[١١] . وكان بعض الأعراب يذبحون الكلاب كقبيلة أسد[١٢] ، أو يأكلون لحوم الناس كقبيلة هذيل[١٣] ، أو يأكلون

(١) انظر . نلينو ، علم الفلك ، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ، رومأ ١٩١١ ، (بالعربية) ص ١٠٧ فما بعدها .

(٢) الإبل جمع لا واحد له ، والذكر منها جمل والأنثى ناقة انظر . النويري ، ١٠ ، ص ١٠٣ .

(٣) انظر . Herodotus. 7 : 86 (vol 3, p. 393)

(٤) القرآن ١٦ : ٨٠ .

(٥) انظر . Pliny : N. H. 6 : 32 ; 162 (vol. 2. p. 459)

(٦) انظر . Gibbon : Decline, 5, p. 211

(٧) البخلاء ، ص ١٩٤ س ٥ ؛ انظر . Farès : l'Honn, p. 106

(٨) انظر . Pliny : N. H. 6 : 32; 159 — 162 (vol 2, p. 459) ؛ النويري ، ٤ ص ٧٦ — ٧٧ ؛ ٨٨ .

(٩) البخلاء ، ص ١٨٣ ؛ انظر . Farès : l'Honn, p. 107

(١٠) نفسه ، ص١٨٢ — ١٨٣ ؛ انظر . نفسه (Id.)

(١١) نفسه ، ص ١٨٥ س ١٠ ؛ انظر . (Id.)

(١٢) نفسه ، ص ١٩٧ س ٧ فما بعدها ؛ انظر . Ibid, p. 99 n. (8)

انظر قول الشاعر :

إذا أسدي جاع يوماً ببلدة وكان سميناً كلبه فهو آكله

انظر . الحيوان ، ١ ص ٢٦٧ .

(١٣) نفسه ، ١ ص ٢٦٨ ؛ البخلاء ، ص ١٩٨ س ٥ .

الجراد كقبيلة طىء(١) ؛ كما أن بعض الأعراب كانوا يأكلون الحيات والعقارب والجعلان والخنافس(٢) ، أو حتى القمل(٣) .

والواقع أن حياة البدوى شاقة ، فهو لا يعرف الزراعة أو غيرها من الحرف ؛ لأنها لا تتناسب مع طبيعته فى التنقل والإرتحال ، وإن كان أحياناً يعيش على حماية التجارة التى تمر بصحرائه ؛ لتذهب إلى الشمال أو الجنوب ، أو يقوم بالدلالة لهذه القبائل « التفويز »(٤) ؛ كما أن حياة الصحراء الشاقة كثيراً ماتدفعه إلى الغزوة و « الغارة »(٥) على الوديان ، أو الاعتداء على القوافل ، بحيث يقول ابن خلدون إن العرب جعلوا أرزاقهم فى البادية فى أطراف رماحهم ، ومعاشهم فيها بأيدى غيرهم(٦) ؛ فقحط البادية يفسر — بلا شك — وجود فئة كبيرة من البدو الفقراء أو « الصعاليك »(٧)

ولعل الشعر هو المظهر الحضارى البارز عند البدو من العرب، ولذا كان يحتل مكانة خاصة فى حياتهم(٨) ، و « شعر »(١٠) معناها علم أو عرف . فكان الشاعر

---

(١) الميدانى ، ١ ص ١٤٩ .

(٢) الحيوان ، ٣ ص ٢٥٦ س ٥ — ٤ ؛ N. H. 6 : 32 ; 159—161 : Pliny (vol 2, p. 459).

(٣) البخلاء ، ص ١٨٣ .

(٤) عيون الأخبار ، ١ ص ١٤٢ فما بعدها ؛ انظر . الألوسى ، ٣ ص ٣٤٤ ؛ l'Honn, p. 105 : Farès

(٥) انظر . الاصطخرى، مسالك الممالك (طبعة De Geoje) ص١٤ س ٧ ؛ Pliny : N. H. 6 : 32 ; 162 (vol 2, p. 459).

(٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢١٤ س ١٣ — ١٤ .

(٧) لسان ، ١٢ ص ٣٤٢ . وكانوا يسمون ذؤبان أيضاً . نفسه ، ١ ص ٣٦٤ ؛ ١٢ ص ٣٤٢ .

(٨) الحيوان ، ١ ص ٧٤ .

(٩) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٣٠٤ س ٥ فما بعدها .

(١٠) لسان ، ٦ ص ٧٧ ؛ انظر . جرجى زيدان ، آداب اللغة ، ١ ص ٥١ — ٥٢ تطورت فى معناها ، فهى تعنى الكلام المقفى .

هو أعلم(١) من فى الجماعة البدوية ، والمعبر عن أعراقها وأوطانها وحامى أعراضها، وهو الذى ينقل أخبارها فى كل مكان(٢) . ويظهر أن الشعر قديم فى بادية العرب، وإن كان مصدره للبدو غير واضح فهم يقولون إنه من الجن(٣) ؛ وإن كان — ولا ريب — يرجع سبب ظهوره إلى لغتهم التى تكثر مترادفاتها(٤) ، أو لبيئتهم التى تجعل الفرد يحلم بالبطولة . أو لتوافقه مع مزاجه والحياة المطردة فيها(٥) ، أو لارتباطه بالكهانة(٦) منذ نشأته ؛ لاحتياج الكهان إلى القول المسجوع .

وكانوا إذا نبغ شاعر فى القبيلة احتفل أفرادها به(٧) ، وتناقلوا أخباره ، وتباهوا به على القبائل الأخرى(٨) ؛ وقد يعلقون شعره بأركان الكعبة(٩) — المكان المقدس بمكة — وتكتب قصائده بماء الذهب . كذلك كانت العرب تحضر « فحول »(١٠) شعرائها فى الأسواق التى تقام لهم فى أماكن معينة، ومواعيد معروفة ، للمنافرة أو المفاخرة ، وللتراجز والتناجز . فإذا لم يتوفر وجود شاعر ظهرت « الشاعرات »(١١) ، أو « الخطباء »(١٢) وهؤلاء يستخدمون النثر .

---

(١) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٣٠٤ .

(٢) انظر . قول الشاعر :

وإذا قعلتم ذلكم لم تتركوا أحداً يذب لكم عن الأحساب

أبو تمام ، الحماسة ، ١ ص ١٢٠ .

(٣) جمهرة ، ص ١٨ س ٣٠ .

(٤) انظر . جرجى ، آداب اللغة ، ١ ص ٥٧ ؛ ٦٠ .

(٥) انظر . Thoumin : Hist. de Sy. 2ed Paris 1929 p. 165

(٦) انظر بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ١ ص ٣٠ .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ٤٨١ ؛ السيوطى ، المزهر ، بولاق ، ١٢٨٢ هـ ، ٢ ص ٢٣٦ .

(٨) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٣٠٤ ؛ انظر . Farès : l'Honn, p. 51

(٩) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٨١ .

(١٠) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٣١٢ ؛ الشعر والشعراء ، ص ٢٥ .

(١١) انظر. البلاذرى، فتوح، ص٤١ ؛ انظر . Perron : Femmes Arabes. p. 216 sq.

(١٢) ابن هشام ، ٢ ص ٩٣٤ س ١٩ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, t 2, p. 979 — 980 ; Nallino : La litt. Arab, p. 65 — 66.

وقد عرف البدوى الشعر رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه[١] ، مما يدل على أن شعر البدو تطور منذ زمن بعيد[٢] ، وأنهم يملكونه كأساتيذ . وقد كانت قصائد البدو فى معظمها تبدأ باللوعة والبكاء على الديار والدمن والآثار؛ شوقاً إلى أهلها الظاعنين عنها[٣] ؛ وإن لم يكن الحب الجنسى من سمات شعر البدو[٤]. بعد ذلك ينتقل الشاعر إلى وصف ناقته أو فرسه[٥] ، وقد يتكلم عن جمال الطبيعة فيذكر الآبار والمياه والمراعى والنار التى مر بها ؛ وهو الذى عرف سر جمال باديته وحركة حيواناتها[٦] من إبل وخيل وحمير ونعام وظباء وقطا خياله[٧]. وأخيراً يعرض الشاعر إلى موضوع قصيدته حسب مزاج شاعريته ، وهو يشمل الأبواب التالية : الحماسة والتشبيب والفخر والهجاء والمديح[٨] والمنافرة[٩] على الخصوص ، وهى موضوعات تعبر عن طبيعة البدو. كذلك كان الرثاء[١٠] من مواضيع شعرهم ، الذى نبغوا فيه نبوغهم فى المدح والهجاء .

***

---

(١) ابن هشام ، ١ ص ١٧١ .

(٢) جمهرة ، ص ١١ .

(٣) انظر قول امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

نفسه ، ص ١٩ س ١٢ ؛ الشعر والشعراء ، ص ١٧ .

(٤) بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ١ ص ٣١ .

(٥) انظر قول امرىء القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معاً   كجلمود صخر حطه السيل من عل

الشعر والشعراء ، ص ١٩ .

(٦) انظر ما قيل فى الخيل . النويرى ، ١٠ ص ٤٨ فما بعدها . انظر . قول الشاعر :

له صدر طاووس وفخذ نعامة   ووثبة نمر والتفات غزال

انظر . النويرى ، ١٠ ص ٥١ .

(٧) انظر . ابن قتيبة ، الميسر والقداح ، ص ٣١ س ٥ .

(٨) جرجى زيدان ، تاريخ اللغة ، ١ ص ٨٣.

(٩) هى المفاخرة أو المقابلة ، لسان ، ٧ ص ٨٤ ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ١ ص ٣٤٩ — ٣٥١.

(١٠) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٧٠ .

هذه صورة حياة العرب داخل الجزيرة ، وهى كما عرضنا لها حياة فطرية ، وعلى العكس فإن حياة العرب فى أطراف الجزيرة كانت حضرية ، جاءت وليدة سقوط الأمطار فى الوديان «التهائم»[١] ، لأن البحر مطيف بها ، مما ينبت الزرع وخاصة: البخور والتوابل والعنبر والمر واللبان[٢] والزيتون والفاكهة والنخيل . ولكنها على الخصوص وليدة اشتغال سكانها بالتجارة[٣] ، حيث كانت تجارة الهند والصين — وهى التى أصبحت معروفة بفضل ما قام به المصريون والفرس واليونان والرومان[٤] من استكشافات فى البحر الأحمر والمحيط الهندى — تمر بالضرورة فى الجزيرة العربية لتصل إلى ممالك البحر الأبيض ، بسبب موقعها الجغرافى المتوسط بين العالم المتحضر وقتئذ ، وبسبب أن طريق البحر الأحمر — الذى كان يعرف أيضا ببحر العرب[٥] — كان محفوفاً بالمخاطر[٦] بالنسبة لمراكب ذلك الزمن لإمتلائه بالجزائر الخطرة على الملاحة[٧] ، أما طريق الخليج الفارسى فقد كان يعوقه وجود الفرس[٨] أعداء دول البحر الأبيض .

ومع ذلك ؛ فإن الطريق البرى كان أيضاً غير آمن ، وعرضة لغارة البدو

---

(١) انظر . قبله . ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ ص٥٢٢ . المقصود بالتهائم الأرض المنخفضة . الخشنى ، شرح السيرة النبوية ، ١ ص ٨ .

(٢) Pliny : N. H. 12 : 30 : 53 (vol 4, p. 37) ؛ Theophrastus : Enquiry into Plants transl. Hort London 1948. 9 : 4 ; 6 (vol 2 p. 237 ; 239).

(٣) انظر . Pliny : N. H. 6 : 32 ; 162 (vol 2, p. 459 — 461)

(٤) انظر . Strabo : The Geography. transl. L. Horace Jones London 1949. 2 : 5, 12 (Books 1 — 2. P. 455) ؛ انظر عن التجارة الهندية والصينية Warmington : The Commerce between the Roman Empire and India Cambridge 1928, pp.43 — 47. ؛ Grousset : Histoire de la Chine Paris 1947, p. 94. ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ٢ ص٣٧٢ .

(٥) انظر . Herodotus 6 : 42 (vol 2, P. 239)

(٦) انظر . Diodorus of Sicily transl. Oldfather London. 1953 3 : 43 ; 5 (vol 2, P. 215).

(٧) انظر . Kammerer : La Mer Rouge Introd. P. 5

(٨) انظر . Lammens : La Mecque à la veille de l'Hégire Beyrouth 1924 P. 12 ; 108.

الساكنين داخل الجزيرة[١] ، إلا أنه كان يفضل طريق البحر ، فكانت القوافل تسير فى الجزيرة العربية بحراسة شديدة ، ولا تسير إلا ليلاً . وقد كان لهذه القوافل ثلاثة مسالك معروفة لتتفادى صحارى الجزيرة الواسعة ، وبخاصة منطقة الرمال الحمراء فى الربع الخالى : الأول جنوبى الجزيرة يسير بحذاء المحيط الهندى والخليج الفارسى ، والثانى بطول الجزيرة يسير بحذاء البحر الأحمر مخترقاً اليمن نحو الحجاز حتى بادية الشام ، ومنها قد تتجه التجارة إلى مصر عن طريق سينا ، أو تتجه فى بادية الشام نحو دمشق والقسطنطينية[٢] ، أو حتى روما وفارس[٣] ، أو بلاد اليونان التى كانت تحملها إليها مراكب فينيقية[٤] ، والثالث يسير فى وسط الجزيرة ، ويربط ما بين الحجاز والخليج الفارسى[٥] عن طريق هضبة نجد ، وهو الطريق الذى استخدمه حجاج العراق المسلمون فيما بعد .

وقد كان الاشتغال بالزراعة والتجارة فى أطراف الجزيرة العربية سبباً فى انعاش سكان هذه الوديان ، مما سبب ظهور بيئات حضرية طوال تاريخ العرب القديم فى شكل ممالك مزدهرة . ولعل أهم هذه البيئات الحضرية منطقة جنوب الجزيرة وبخاصة اليمن[٦] ، وهى التى سماها العرب « الخضراء » ؛ لكثرة أشجارها وثمارها

---

(١) انظر قبله .

(٢) ابن هشام ، ١ ص ١٣٩ .

(٣) انظر ، Pliny : N. H. 6 : 32 ; 162 (vol 2, p. 461)

(٤) انظر . Herodotus 3 : 107

(٥) انظر . Blachère : Le Problème de Mahomet, p. 20.

(٦) انظر . Pliny : N. H. 6 : 32 ; 161 (vol 2, p. 459) . لعل هذا اللفظ « اليمن » أخذ من ألقاب ملوك سبأ — وهم ملوك اليمن — وهو : « يمنت » (انظر . جواد على ، تاريخ العرب ، ٢ ص ٢١٣) ، مما يدل على حداثته . كذلك نقل المؤرخون تعليلات مختلفة لهذه الكلمة ، منها أنها اسم شخص (النويرى ، ٢ ص ٢٨٢ س ٦) ، أو لأنها أيمن الأرض . ياقوت ، معجم البلدان ، ٨ ص ٥٢٢ . انظر عن التسميات المختلفة Ency de l'Isl. (art al-Yaman) 4, p. 1218.

وزروعها[١]، كما عرفها اليونان والرومان بنفس المعنى فسموها ببلاد العرب السعيدة « Felicis » أو « Arabia Felix »[٢]. ومنذ الزمن البعيد طبقت شهرتها الآفاق، وكان العالم المتحضر يتبادل معها التجارة[٣] : فكانت مصر القديمة سوقاً لحاصلاتها؛ لحاجتها إلى واردات هذه البلاد من البخور والطيب الذى يزرع فى غاباتها ، لحرقها فى المعابد والهياكل واستخدامها فى تحنيط جثث الموتى[٤]؛ ولعلها هى البلاد التى التى كان يعنيها المصريون والرحالون اليونان ببلاد « بنت »[٥] . وكذلك كانت بلاد الروم (بيزنطة) فى الشمال ، تستورد منها البخور لحرقه فى الكنائس ؛ فكانت القوافل التى تذهب إليها حاملة متاجر اليمن مضرب الأمثال[٦] .

وقد سكن اليمن وجنوب الجزيرة منذ قديم الزمان هجرات من افريقية من الجنس الحامى[٧] عن طريق باب المندب ، وأجناس من الشمال من الجنس السامى أو البحر الأبيض[٨] ؛ فلعل اللفظين ، اللذين رددها غالباً مؤرخو العرب[٩] ، ووهما : « قحطان »[١٠] « عدنان » ، للدلالة على سكان جنوب الجزيرة

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ٨ ص ٥٢٢ .

(٢) Strabo : Geog. 2 : 5 ; 12 (Books 1 — 2, p. 553 sqq) ؛ Pliny : N. H. 12 : 30 ; 51 (vol 4 p. 36.) ؛ انظر. Gibbon : Decline, 5, p. 205 ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ١ ص ١١٨ ؛ Ency. de l'Isl. (art Yaman) 4, p. 1218

(٣) انظر . Strabo : Geog. 2 : 5 ; 12 (Books 1 — 2. p. 455) ؛ O'Leary : Arabia before Muhammed. London 1927, p. 94.

(٤) Pliny : N. H. 6 : 32 ; 159 — 162 (vol 2, p. 459) ؛ انظر . Lucas : Ancient Egyptian Materials and Industries. London, 1948 p. 367.

(٥) انظر . Scott : In the High Yemen, London 1947, p. 206 ؛ Naville : The Temple of Deir El-Bahri. London, 1896. 2, p. 18.

(٦) القرآن سورة (١٠٦) .

(٧) انظر . Scott : Op. cit. . p. 200 ؛ Bertram : Les Arabes. Appendice, p. 253.

(٨) انظر . Bertram : Les Arabes, p. 255

(٩) المعارف، ص٤٩ ؛ النويرى، ١ ص٢٨٣ فما بعدها. (١٠) يقول الهمدانى عن لفظة « قحطان » إنه نسبة الى زعيم اليمنيين (الاكليل ، تحقيق نبيه فارس ، طبعة Princeton ؛ ١٩٤٠ ، ٨ ص ١٧٧) . أو لعلها محرفة عن اسم مملكة قتبان، التى سنتحدث عنها ، انظر . Ency. de l'Isl. (art Kahtân) t 2 p. 666 — 67.

وداخلها ، ذكرى لهذه الأجناس التى وحدت بينهما طبيعة الجزيرة العربية[١] ، فاعتبرها المؤرخون العرب من سلالة واحدة . ويؤيد هذا أنه كان لسكان اليمن القدامى وجنوب الجزيرة لغة مخالفة ، وهى اللغة التى تظهر مكتوبة فى الحجارة والخشب[٢] ، ويطلق عليها مؤرخو العرب الكتابة : «الحميرية» نسبة إلى بنى حمير — وسنتكلم عنهم فيما بعد — أو «المسند»[٣] ، وخطها يبدو على صلة بخطوط شمال الجزيرة[٤] ، أو الخط الحبشى[٥] ؛ وإن كانت متشابهة إلى حد ما مع العربية — أى لغة سكان داخل الجزيرة — فى القواعد وبعض المفردات[٦] .

وقد كان طابع سكان اليمن الاستقرار فى مدن عامرة ، تعترف بنظم شبه ملكية[٧] ؛ فنعرف من تقاسيمهم السياسية الأقسام الآتية : « محفد »[٨] و « مخلاف »[٩] و « قصر »[١٠] ؛ وهى أشبه بأماكن محصنة أو أقسام إدارية[١١] ، يعيش فيها

---

(١) انظر . ابن هشام ، ١ ص ٥ ؛ انظر . Bertram : Les Arabes, p. 255

(٢) انظر . Bertram : Ibid, p. 14.

(٣) الاكليل ، ٨ ص ٢١ س ٣ ؛ ص ١٢٢ — ١٢٣ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٣١ — ٣٣٢ . وينقل الهمدانى صورة لخط المسند فى كتابه . انظر . الاكليل ، ص ١٢٢ — ١٢٣ . لعل تسمية «المسند» بسبب حروفها التى على شكل العمارة حيث تستند إلى أعمدة . جواد على ، تاريخ العرب ، ١ ص ١٩٧ ؛ انظر . قبله .

(٤) انظر . Hommel : Grundriss der Geog. und Gesch. des Alten Orients, München 1904, I. p. 157. ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ١ ص ١٨٨ .

(٥) انظر . Bertram : Les Arabes, p. 255.

(٦) انظر . Nicholson : A Literary History of the Arabs. London 1923, p. XXI.

(٧) انظر . Ryckmans : L'Institution monarchique en Arabie Méridionale avant l'Isl. (Ma'în et Saba), Louvain 1951.

(٨) الاكليل ، ٨ ص ٥١ س ٧ ؛ ص ٧٥ س ٤ ؛ ص ٩٠ ؛ ص ١٠٥ س ٢ ؛ ص ١٠٨ س ٤ .

(٩) نفسه ، ٨ ص ٣٠ س ٤ ؛ ص ٣٧ س ٣ .

(١٠) نفسه ، ٨ ص ١٦ ؛ ص ٩٤ ؛ ص ١٠٨ س ٤ . يذكر الهمدانى أسماء بعض قصور اليمن القديمة المشهورة ، مثل : قصور غمدان وسلحين وغيمان . انظر . نفسه ، ٨ ص ٣ ؛ ٤٨ ؛ ٦٩ .

(١١) معجم البلدان ، ٧ ص ٢ / ٤ .

اليمنيون وحكامهم الذين يسمون : « ذو »[١] أو « قيل »[٢] ؛ كما وجدنا لفظ « ملك »[٣] يطلق على من يسيطر على هذه الأقسام .

وقد كان لسكان اليمن ديانة ذات تطور خاص ؛ تشبه إلى حد كبير الديانات التي انتشرت بين سكان الوديان في وادى النيل ووادى الدجلة والفرات ، وهي تربط بين ما يحدث للزرع والسماء[٤] . فكان « القمر »[٥] و « الشمس »[٦] من أهم آلهتهم ، كما كان من طقوس عبادتهم تقديم القرابين وحرق البخور ونشر الطيب في المعابد كل[٧] ؛ وقد كان يشرف على أمور الدين هيئة من الكهنة[٨] ، ويبدو أن الملوك كانوا يعتبرون شفعاء الآلهة[٩] . كذلك انتشرت في هذه البلاد الديانات السماوية[١٠] المعروفة ، وبخاصة اليهودية التي على ما يظهر أتت من الشمال واعتنقها بعض ملوك اليمن ليخالفوا بها ديانة جيرانهم الأحباش ، الذين كانوا اعتنقوا المسيحية في القرن الرابع[١١] الميلادى ، وأخذوا في استمالة[١٢] العناصر المسيحية في اليمن – حيث يبدو

---

(١) يحيى نامى ، نقوش عربية جنوبية ، المجموعة الثانية ، فصلة مجلة كلية الآداب ، الجزء الثانى ، المجلد السادس عشر ، ديسمبر ١٩٥٤ ، ص ٢٣ ؛ الاكليل ، ٨ ص ٥١ س ١١ .

(٢) نامى ، نقوش ، ص ٢٢ — ٢٣ . وهذه الكلمة معناها « قائد » ، انظر . الثعلبى ، قصص الأنبياء ، ص ٢١٥ .

(٣) انظر . Ryckmans : Op. Cit.

(٤) انظر . Bertram : Les Arabes, p. 14

(٥) انظر . Caton—Thompson : The Tombs and Moon—Temple of Hureidha (Hadhramaut) London 1944, p. 15. ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ٢ ص ٦٥ .

(٦) القرآن ٢٧ : ٢٢ — ٢٤ .

(٧) يحيى نامى ، نقوش عربية جنوبية ، ص ٢٦ ؛ Le Muséon LXII. 3 — 4, 1949. p. 227. ؛ انظر . جواد على ، تاريخ العرب ، ٢ ص ١٩ .

(٨) انظر . Pliny : N. H. 12 : 32; 63 ; (vol 4, p. 47).

(٩) كان ملوك سبأ يتلقبون بلقب « مكرب سبأ » ، وهي تعنى شفعاء الآلهة . انظر . جواد على ، تاريخ العرب ، ٢ ص ١٠٦ ؛ بعده .

(١٠) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٢٩٨ ؛ انظر . ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب ، القاهرة ١٩٢٧ ، ص ٣٩ .

(١١) انظر . Bonet—Maury : L'Islamisme et le Christianisme en Afrique, Paris 1906, p. 47.

(١٢) ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ٣٦ — ٣٧ .

أنها جاءتها عن طريقهم[١] — ليستخدموهم فى تحقيق أطماعهم الإستعمارية. ولكن قبل الإسلام كان معظم اليمنيين يعبدون الأصنام[٢] مثل بدو الجزيرة ، وكان لهم بيت للأصنام بصنعاء — وهى العاصمة — اسمه « رئام »[٣]، بل كانوا يحجون[٤] إلى الكعبة فى الحجاز ، وينصبون فيها بعض الآلهة — كبقية قبائل العرب — مثل نسر[٥] ، ويكسوها[٦] ملوكهم .

وقد كان هذا التحضر فى جنوب الجزيرة سبباً فى ازدهار بعض الممالك البدوية منذ الزمن القديم ، نذكر منها : المملكة « المينية » المعروفة لليونان والرومان باسم « Minaei »[٧] ، ولا نعرف عنها شيئاً كثيراً إلا من النقوش التى تركتها فى شمال اليمن ، حول بلدة « معين »[٨] فى منطقة الجوف ؛ وهى منطقة سهلية غرينية مشهورة بنخيلها وأخشابها ومراعيها[٩]. وقد يرجع ظهور هذه المملكة إلى حوالى ١٥٠٠ ق . م ؟[١٠] ، ولكن قضى على هذه المملكة ظهور القبائل التى عرفت باسم سبأ « Sabaeī »[١١] ، حوالى القرن الثامن[١٢] قبل الميلاد . فلعل

---

(١) انظر . Bell : The Origin of Islam in its Christian environment. London 1926, p. 33 sqq.

(٢) الأصنام ، ص ١١ .

(٣) ابن هشام ، ١ ص ٥٦ .

(٤) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٢٩٧ س ١٠ .

(٥) نفسه ، ١ ص ٢٩٥ س ٢٠ .

(٦) ابن هشام ، ١ ص ١٥ ؛ قطب الدين ، ص ٦٧ — ٦٨.

(٧) Pliny : N. H. 6 : 32 ; 161 (vol 2, p. 459) ؛ انظر . O'Leary : Arabia, p. 93 — 94 ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ١ ص ٣٨١ .

(٨) انظر . محمد توفيق ، آثار معين فى جوف اليمن ، القاهرة ١٩٥١ ؛ يحيى نامى ، نقوش خربة معين ، القاهرة ١٩٥٢ .

(٩) Pliny : N. H. 6 : 32 ; 161 (vol 2, p. 459)

(١٠) لدينا تواريخ مختلفة انظر . Bertram : Les Arabes, p. 15 .

(١١) Pliny : N. H. 12 : 30 ; 52 (vol 4, p. 37)

(١٢) انظر . Philiby : Muséon LXII, 3 — 4, 1949, p. 248 ؛ Hommel : Grundriss I, p. 142 ؛ انظر . Ency, de l'Isl. (art Saba') 4 p. 4 ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ٢ ص ١٠٩ فما بعدها .

الأشوريين (١) — دولة قوية ظهرت في شمال العراق — هم الذين جرفوا هذه القبائل السبئية أمامهم في إحدى غزواتهم للجزيرة العربية، ولعل السبئيين انتهزوا ظروفاً قاسية أحاطت بالمملكة المعينية العربية فحاربوها، واستولوا على أراضيها (٢)؛ كما استولوا (٣) على مملكة أخرى اسمها قتبان «Kattabanae» (٤)، التي تقع جنوب أرض معين بقرب باب المندب (٥)، ويرجع ظهورها إلى ما قبيل ألف سنة قبل الميلاد (٦)، وأيضاً على بلاد حضرموت «Chatramotitae» (٧)، الواقعة شرق اليمن، وانشأوا من هذه الممالك مملكة واحدة قوية اتخذت مأرب «Mariaba» (٨). عاصمة لها. وقد شغل هذا التوسع معظم أوقات الملوك السبئيين الذين تلقبوا في أول الأمر بلقب «مكرب سبأ» (٩)؛ حيث أن المقطع الأول منه هو لقب ملوك قتبان التي احتلوها، ومعناه شفيع الآلهة (١٠). ومع ذلك فإن

---

(١) انظر . Musil : Arabia Deserta, New-York 1927, p. 477 ؛ Huzayyin : Arabia and the far-east, Cairo 1942, p. 33 — 34 ؛ جواد علي ، تاريخ العرب ، ٢ ص ٣٠٣ .

(٢) Pliny : N. H. 12 : 30 ; 53 (vol 4, p. 39) ؛ انظر . خليل نامي ، نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب ، القاهرة ، ١٩٤٣ : نقش ٧١ و٧٢ و٧٣ ص ٩٢ — ٩٣ ؛ انظر ، جواد علي ، تاريخ العرب ، ٢ ص ٤٦ .

(٣) خليل نامي : نشر نقوش سامية ، انظر . نفس المرجع .

(٤) عن هذا الاسم انظر . Theophrastus : Enq. 9 : 6 ; 2 — 4 ؛ Ency. de l'Isl. (art Katabân) t 2, p. 858 ؛ (vol 2, p. 335)

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ ص ٣٣ ؛ Ency de l'Isl. . t 2, p. 858

(٦) بالاعتماد على الكتابات القتبانية انظر . Hommel : Grundriss I. p. 139 ؛ جواد علي، تاريخ العرب، ٢ ص ١١؛ Ency. de l'Isl. t2, P. 858

(٧) Strabo : Geog. 16 : 4; 2 ، انظر جواد علي ، تاريخ العرب ، ٢ ص ٦٤ فما بعدها . هذا الاسم معناه بالعبرانية «دار الموت» انظر . Hastings : Encyclopaedia of Religion and Ethics. Edinburgh 1908 — 1921 p. 333 ؛ جواد علي ، تاريخ العرب، ٢ ص ٦٥؛ Ency. de l'Isl. (art Hadramawt) 2, p. 220 — 223

(٨) Pliny : N. H. 6 : 32 ; 159 (vol 2, p 457) ؛ جواد علي ، تاريخ العرب ، ٢ ص ١٠٦ .

(٩) انظر . عن هذا اللقب : Répertoire d'épigraphie Sémitique, t VII ؛ Corpus Inscriptionum, Semiticarum. (Deuxième livraison) 4430 (C I,S.) Pars Quatra t 3, 627.

(١٠) جواد علي ، تاريخ العرب ، ٢ ص ١٣ .

الدولة « المعينية » على الخصوص لم يقض عليها نهائياً ، بدليل أننا مازلنا نسمع عنها فى القرن الأول بعد الميلاد[١] .

وقد كانت مملكة سبأ هى أشهر ممالك اليمن القديمة لكثرة نقوشها ، وإن كنا لا نعرف سبب اطلاق سبأ عليها : فقد تكون اسم قبيلة فى اليمن[٢] ، أو أنها من السبي[٣] ، أو من اسم الملكة سبأ التي يسميها العرب بلقيس[٤] ، أو من اسم جد اليمنيين[٥] ، أو حتى من « Sabota »[٦] اسم مدينة باليمن . وهذه المملكة قد ازدهرت بسبب تنظيم موارد مائها[٧] : فكانوا يردمون ما بين الجبلين ويحبسون الماء ويجعلون فى ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض ، فكانوا يسقون الأرض عند قلة سقوط الماء[٨] . ولكن هذه المملكة أحاطت بها ظروف اقتصادية سيئة ، فهددتها السيول التى هدمت سدودها ، وبخاصة ماعرف باسم سيل العرم[٩] — أى السيل الذى لا يطاق[١٠] — حيث كانت هذه السدود تحجز بين الضياع والحدائق وبين

---

(١) Pliny : N. H. 12 : 30 ; 54 (vol 4, p. 39) ؛ انظر . جرجى زيدان ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ص ١١٣ .

(٢) القرآن ٢٧ : ٢٢ ؛ ٣٤ : ١٥ .

(٣) انظر . محب الدين ، تاج العروس ، القاهرة ١٣٠٧ هـ ، ١٠ ص ١٦٩ ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ٢ ص ١٠١ .

(٤) المعارف ، ص ٤٩ ؛ الاكليل ، ٨ ص ٢٠٤ ؛ الثعلبى ، قصص الأنبياء ، مصر ١٣٤٤هـ ، ص ٢١٥ وما يليها ، انظر . Perron : Femmes Arabes, p. 10 sqq . يظهر أن للحبشة أيضاً ملكات اسمها « سبأ » ، انظر . Josephus : Jewish Antiquities, transl. by Thackeray and Marcus, London 1930 vol 5 p. 661 ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ٢ ص ١٠٤ ؛ Bertram : Les Arabes, p. 15

(٥) البلاذرى ، فتوح ، طبعة De Goeje ، ص ١٥ ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ٢ ص ١٠٠

(٦) Pliny : N. H. 12 : 30 ; 52 (vol 4, p. 37) ؛ انظر أيضاً قول تاج العروس ، ١٠ ص ١٦٩ .

(٧) ذكر القرآن ما يفيد ذلك ٣٤ : ١٥ — ١٦ ؛ Pliny : N. H. 6 : 32 ; 159 — 162 (vol 2 p. 459).

(٨) الميدانى ، ١ ص ١٨٥ .

(٩) القرآن ٣٤ : ١٦ . العرم هو السد وواحده عرمة . ابن هشام ، ١ ص ٩ .

(١٠) الاكليل ، ٨ ص ٤٣ .

السيول[١] ، مما كان سبباً فى القضاء عليها وتفرق أهلها ، بحيث ضرب المثل : « ذهبوا أيدى سبأ »[٢] .

بعد سبأ ظهرت مملكة أخرى عرفت باسم حمير « Homeritae »[٣] ، وهى قبائل عديدة[٤] ؛ وكان ملوكها يسمون — على حسب قول مؤرخى العرب — «التتابعة»[٥] ، ويحدد لظهورهم سنة ١١٥ ق.م[٦] . وفى الواقع فاقت هذه المملكة فى العظمة المملكتين السابقتين ، بحيث أنها — على حسب روايات المؤرخين — كانت تحارب الفرس على حدودهم فى البحرين والحيرة[٧] ، وحتى فى الجزيرة بين الدجلة والفرات[٨] . ولكن أحاطت بالمملكة الحميرية ظروف اقتصادية قاسية تشبه ما حدث للدولة السبئية من قبل ، أهمها : اختلال نظمها الزراعية بسبب انهيار سدودها البالغ عددها ثمانين سداً[٩] ، وبخاصة سدها المشهور « مأرب »[١٠] ؛ مما جعل أهلها يهاجرون منها فى أنحاء الجزيرة[١١] .

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ ص ٣٥٨ .

(٢) الميدانى ، ١ ص ١٨٥ .

(٣) Pliny : N. H. 6 : 32; 161 (vol 2, p. 459)

(٤) انظر . Id

(٥) هى تسمية مجهولة الأصل لعلها تنسب إلى شخص. انظر . عنها القرآن ٤٤ : ٣٧؛ الاكليل ، ٨ ص ٦٩ — ٧٠ ؛ انظر . Hommel : Explorations in Arabia, Philadelphia 1903, pp. 727 — 741.

(٦) هذا التحديد بناء على ظهور لقب جديد فى هذا التاريخ لملوك سبأ هو : « سبأ وذوريدان» ، [انظر عنه: يحيى نامى، نقوش عربية جنوبية ، المجموعة الثانية، مجلة كلية الآداب الجزء الثانى — المجلد السادس عشر ، ديسمبر ١٩٥٤ ، ص٢٢ — ٢٣ ؛ انظر. C. I. S. Pars Quarta t 1 (314) p. 340 sqq] . ويظهر أن ريدان هذه من أكبر قبائل بنى حمير (جواد على ، تاريخ العرب ، ٢ ص ٢١٤) ، فكان هذا نهاية مملكة سبأ .

(٧) الاكليل ، ٨ ص ٢١١ س ١٤ — ١٥ .

(٨) المعارف ، ص ٣٠٧ . يبالغ ابن خلدون عن اتساع هذه المملكة ، إذ يذكر أنها غزت افريقية ، وأنها وصلت إلى بلاد الترك والصين . انظر . المقدمة ، ص ٩ .

(٩) الاكليل ، ص ١١٥ — ١١٦ .

(١٠) نفسه ، ص ٤١ ؛ ص ١١٥ س ٢ ؛ انظر. Hogarth : A History of Arabia Oxford, 1922, p. 5.

(١١) ابن هشام ، ١ ص ٨ .

وقد كانت سيطرة اليمن على باب المندب وامتلاكها أسطولاً[١] ضخماً ينقل البضائع من الهند والصين[٢] والصومال وسوقطرة إلى موانيها مثل عدن «Eudaemon Arabia»، — بحيث كانت شبه احتكار فى يدها — سبباً فى تنافس الفرس والرومان على الاستيلاء عليها ؛ ولذلك نجد أن الدولة الرومانية ترسل إلى اليمن حوالى سنة ٢٤ أو ٢٥ق. م ، فى زمن الامبراطور اغسطس « Augustus » حملة بقيادة حاكم مصر الرومانى «Aelius Gallus»[٣]؛ ولكن هذه الحملة فشلت وتشتت بسبب أن مملكة حمير كانت لا تزال قوية. ولكن لما وهنت هذه المملكة ، وورثت بيزنطة الرومان فى الشرق ، نجد التنافس بينها وبين الفرس على أشده للسيطرة على الجزيرة ، فتقوم بيزنطة بمحاولة جديدة فى عهد الامبراطور جستنيان «Justinianus» (٥٢٧ — ٥٦٥) ترمى إلى الاستيلاء على اليمن ، ولكن دون التدخل المباشر، وإنما بتحريض الأحباش على غزوها ، وكانوا قد اعتنقوا المسيحية ، وبلغوا ذروة القوة بظهور مملكة اكسوم « Auxomitae »[٤] فى القرن الرابع الميلادى ، ولعل جستنيان اتخذ هذه الخطوة نتيجة لأطماع الفرس التى ازدادت فى الجزيرة العربية ، بحيث أنهم استقروا فى ساحل الخليج الفارسى ، مثل : البحرين[٥] .

وقد واتت الفرصة البيزنطيين وحلفاءهم الأحباش حينما أساء أحد ملوك بنى حمير واسمه : « ذو نواس » إلى جماعة المسيحيين فى نجران[٦] ، فخيرهم

(١) انظر . Periplus of the Erythraean Sea transl. from Greek by Schoff New-York 1912. Sect 21 : 27 p. 30 ; 32.

(٢) انظر . قبله .

(٣) انظر . Strabo : Geog. 2 : 5 ; 12 (Books 1—2, p.453 sqq). ؛ انظر Sprenger : The Campain of Aelius Gallus in Arabia. J. R. A. S. London 1873, p. 121 ؛ Gibbon : Decline 5, p. 212 ; 315 — 216.

(٤) انظر . Procopius : History of the Wars transl. Dewing ؛ Kammerer : La Mer Rouge London 1954, 1:19;17 —24(vol 1 p.183) Introd. , XXXVI . وهى نسبة لمدينة Auxomis التى كان يسكنها ملوك الحبش .

(٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٧٨ س ٥ كانت البحرين تشمل قديماً السواحل المحيطة بالخليج الفارسى ، وليس كما فى وقتنا عدة جزائر . انظر . Hogarth : Arabia, p. 3.

(٦) الاكليل ، ٨ ص ٢٢٦ ؛ وهب بن منبه ، كتاب التيجان ، طبعة حيدر آباد ١٣٤٧ هـ ، ص ٣٠١ — ٣٠٢ ؛ انظر . Procopius : Hist. of the Wars 1 : 20 ; I (vol 1, p. 189.) هى فى اليمن من ناحية مكة. ياقوت معجم البلدان، ٨ ص ٢٥٩ .

بين ترك دينهم والقتل، فلما اختاروا القتل أحرقهم فى واديهم « الأخدود » بالنار[١]، ولعل ملك اليمن فعل ذلك لا بسبب التعصب الدينى ولكن لوقف اطماع الأحباش الذين كانوا يحاولون الاستيلاء على اليمن بمساعدة المسيحيين[٢] . ولذلك يطلب جستنيان من حليفه ملك الحبشة غزو اليمن بحجة انقاذ مسيحييها ، وتحت تحريضه أرسل النجاشى أرياطاً[٣] ومعه أبرهة « Abramus »[٤] بجيش افريقى كبير، عبر البحر، ليستولى على اليمن[٥] . فسار إليه ذو نواس فى حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن ، فلما التقيا انهزم ذو نواس وقُتل[٦]، ودخل أرياط اليمن ، وهدم حصونها ونقل الحبش العاصمة إلى « صنعاء »[٧] . ولكن نازعه[٨] فى أمر الحبشة باليمن أبرهه، وحتى لا تتفرق الحبش، دعاه إلى المبارزة وقتله ، وإن كان قد شرم حاجب أبرهة وأنفه وشفته ، ولذلك عرف أبرهة «بالأشرم»[٩] . وقد حاول أبرهة أن يغزو الحجاز ، فصالحته الطائف[١٠] ، ولم يستطع أن يستولى على مكة ، بسبب المتاعب الكثيرة التى لاقاها من القبائل اليمنية والحجازية[١١] ، وتفشى المرض[١٢] بين جيشه ،

---

(١) القرآن ٨٥ : ٤ — ٥ .

(٢) انظر . Bertram : Les Arabes, p. 19

(٣) ابن هشام ، ١ ص ٢٦ .

(٤) انظر . Procopius : Hist. of the Wars 1 : 20 ; 2 — 8 (vol 1, p. 191) ؛ المعارف ، ص ٣١٢ .

(٥) Mordtmann und Eugen Mittwoch : Sabaische Inschriften, Hamburg 1931, S. 2 ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ١ ص ٢٥ ؛ O'Leary : Arabia, p. 207.

(٦) ابن هشام ، ١ ص ٢٦ .

(٧) نفسه ؛ انظر . Huzayyin : Arabia, p. 34 سموها « صنعاء » لحصانتها ؛ ودقة صنعة حصونها معجم البلدان ، ٥ ص ٣٨٧ .

(٨) انظر . Procopius : Hist. of the Wars 1 : 20 ; 2 — 8 (vol 1 p. 191).

(٩) ابن هشام ، ١ ص ٢٨ — ٢٩ .

(١٠) نفسه ، ١ ص ٣٢ .

(١١) نفسه ، ١ ص ٣١ .

(١٢) انظر عن نهايتهم. القرآن سورة ١٠٥ . يذكر ابن هشام أنه مرض الحصبة والجدرى سيرة ، ١ ص ٣٦ .

فرجع دون أن يحقق هدفه . وقد دخلت هذه الغزوة فى تقويم عرب الحجاز قبل الاسلام ، وعرفت عندهم بعام « الفيل » ، ذلك لأن جيش أبرهة الإفريقى كان فيه عدد كبير من الفيلة[(١)] .

وقد حاول الحبش تثبيت أقدامهم فى اليمن ، فعملوا على انعاش اقتصادياتها ؛ باصلاح ما فسد من سد مأرب[(٢)] ، كما أرادوا أن يجعلوا من « صنعاء » مركزاً لعرب الجزيرة بدلاً من مكة — التى قدر أبرهة أهميتها — فبنى لهذا الغرض كنيسة تسمى القليس[(٣)] « Ecclesia » بالرخام المجزع الأبيض والأحمر والأخضر والأسود ، وطعموا بابه بالذهب واللؤلؤ ، ورشوا حوائطه بالمسك . ولكن هزيمة الحبش فى الحجاز ، واختلال قيادتهم كانت سبباً فى أن تشجع أهل اليمن بزعامة سيف بن ذى يزن الحميّرى على الثورة ، بعد ان ساعدهم الفرس[(٤)] — أعداء بيزنطة — بقيادة وهرز ، وحلفائها عرب بادية العراق[(٥)] ، مما مكن اليمنيين من التخلص من الاستعمار الحبشى . وقدكان لانتصارهم رنة هائلة فى الجزيرة ، فجاءتهم الوفود من كل مكان وبخاصة من مكة التى كان الحبش قد حاولوا غزوها ، وكان وفدها برئاسة عبد المطلب[(٦)] من قبيلة قريش ، وهو جد النبى محمد . ولكن بدلاً من أن تعود دولة الحميريين حرة مستقلة ، فإن الفرس — الذين كانوا قد توسعوا فى الجزيرة — طمعوا فى اليمن لأهميتها التجارية ؛ وليمنعوا بيزنطة من الاستيلاء عليها ، دبروا قتل ذى يزن . فكان حكام اليمن عند ظهور الاسلام من

---

(١) المعارف ، ص ٣١٢ ؛ انظر . السيوطى ، كتاب الشماريخ فى علم التاريخ ، مخطوط رقم ٢٦٠٦٢ ، بجامعة القاهرة ، ورقة ٧٢ . ومع ذلك لايذكر إلا فيل واحد . انظر ملاحظة ابن الأثير ، الكامل ، ١ ص ٢٦٠ .

(٢) يوجد نقش يتكون من ١٣١ سطراً ، على جدران سد مأرب ، خاصاً بما قام به أبرهة من اصلاحه وترميمه فى عام ٥٤٢ م . انظر Mordt und Mitt : Sab. Inschr, S 2. ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ١ ص ٢١ — ٢٢ ؛ Bertram : Les Arabes, p. 20

(٣) النويرى ، ١ ص ٣٨٢ — ٣٨٣ ؛ ابن سعد ، ١/١ ص ٥٥ ؛ الجارم ، أديان العرب فى الجاهلية ، ص ٣٥ ، انظر Scott : The High Yemen, p. 212.

(٤) المعارف ، ص ٣١٢ .

(٥) ابن هشام ، ١ ص ٤٢ .

(٦) العقد الفريد ، ١ ص ١٣١ .

الفرس، حيث كان آخرهم باذان(١)؛ وإن كان هذا النفوذ الفارسي — ولا ريب — لم يتعد صنعاء — العاصمة — وأن قبائل اليمن كانت تتمتع أبداً بحريتها(٢) ، وأنها أصبحت تعيش كبقية قبائل عرب الجزيرة في صراع فيما بينها، بحيث أنه أصبح لها أسواق(٣) — تشبه أسواق عرب داخل الجزيرة — تأمن فيها على دمائها وأموالها .

كذلك ظهرت بيئة أخرى للحضر في المنطقة الواقعة بين الساحل وهضبة نجد ؛ وليدة وجود الماء في العيون والآبار(٤) مما ينبت الزرع ، وإن كانت على الخصوص وليدة وقوعها في طريق التجارة بين الشمال والجنوب ، وهذه المنطقة سميت حجازاً ؛ لوجود الجبال التي تحجز بين التهائم والصحراء(٥) .

وقد سكن الحجاز جنس سامي من العرب عرف عند حركة الفتوح «بالاسماعيليين»،(٦) وهم الذين يسميهم المؤرخون الاسلاميون أيضاً « بني عدنان » ، ليتميزوا عن سكان جنوب الجزيرة « بني قحطان(٧) » ، حيث كانوا يتكلمون اللغة العربية ؛ التي لم تصلنا بها نقوش مكتوبة ؛ ولعل هذا راجع إلى أنه لم يكن يوجد لها خط متميز(٨) « كالمسند» قبل الإسلام ، أو لأن طبيعة السكان في الحجاز — على ما يظهر — لم تكن تميل إلى الكتابة(٩) . وقد كان معظم سكان الحجاز وثنيين عبدة للأصنام كما في داخل الجزيرة ، إلا أنه انتشرت بينهم الديانات

---

(١) وهو يسمى بدهان أو باذام. انظر. المعارف ، ص ٣١٣ ؛ ابن هشام ، ١ ص ٤٦ .

(٢) انظر . Gibbon : Decline, 5, p. 216

(٣) اليعقوبي ، تاريخ ، ١ ص ٢١٤ .

(٤) البلاذري ، فتوح ، ص ٥١ ؛ ٥٣ .

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٤٣٧ ؛ ٣ ص ٢١٨ .

(٦) انظر . La chronique de Jean, evêque de Nikiou, notice et extraits par Zotenberg Paris 1879, P. 229 . الاسماعيليون هم العرب سكان الحجاز من نسل اسماعيل بن إبراهيم . ابن هشام ، ١ ص ٥ .

(٧) النويري ، ٢ ص ٢٧٨ فما بعدها ؛ انظر. قبله .

(٨) يحيى نامي ، أصل الخط العربي ، ص ٧ ؛ Gibbon : Decline, 5, P.220

(٩) انظر . حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ١ ص ٢٥ — ٢٦ .

السماوية مثل المسيحية(١) واليهودية(٢) : فلعل الأولى جاءتهم من الشمال عن طريق بيزنطة ، أو من الحبشة أو حتى من مصر عن طريق البحر الأحمر(٣) ، حيث كانت توجد قبائل مسيحية عديدة على تخوم شمال الجزيرة ، أما الثانية فقد جاءتهم فى شكل هجرات يهودية عندما هدم الرومان بيت المقدس(٤) ، أو حتى قبل ذلك .

ولكن « مكة » أو « بكّة »(٥) كانت أهم مواطن الحضر فى الحجاز ، ولذلك سميت أيضاً « بأم القرى(٦) » ؛ لأنها أعظم البلاد شأناً . وهى بلدة كبيرة مستطيلة(٧) ذات شعاب واسعة بوادٍ غير ذى زرع ، ولكنها انتعشت بسبب وقوعها فى طريق القوافل ، وقربها من ميناء جُدّة(٨) على البحر الأحمر . ومنذ قديم الزمان سكنت مكة قبائل عديدة يذكر لنا المؤرخون بعض أسمائها — دون ذكر معلومات دقيقة عنها إلا بعض الأساطير — مثل: العماليق(٩) وجُرهُم(١٠) وكنانة(١١)

---

(١) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٢٩٨ ؛ انظر . Gibbon : Decline, 5, P. 230 — 231.

(٢) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٥ ؛ انظر . Lammens : l'Arabie Occid, p. 54 — 55.

(٣) انظر . Bell : The Origin of Islam in its Christian environment, P. 17 ; 18. وان ذكر أنها لم تأت من الجنوب لوجود الاحتلال الحبشى ، فنحن نسمع ان إعادة بناء الكعبة قام بها قبطى .

(٤) وذلك فى عهد الامبراطور Titus حوالى عام ٧٠ ق . م . انظر . سعيد بن بطريق (التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، بيروت ١٩٠٥ — ١٩٠٩) ، ١ ص ٩٨ س ١٩ ؛ انظر . Ricciotti : Histoire d'Israel. trad. fr. par Auvray, Paris 1948 t 2, P. 543 sqq.

(٥) تختلف هذه الكلمات فى معناها « فبكة » يقصد بها موضع الكعبة — المكان المقدس — ومكة القرية نفسها (النويرى ، ١ ص ٣١٣) ؛ كما لها أسماء أخرى منها « البيت العتيق » و « القرية » و « والبلد » . نفسه ١ ص ٣١٣ — ٣١٤ .

(٦) قطب الدين ، كتاب الأعلام بأعلام بيت الله الحرام ، تحقيق Wüst ، طبعة Leipzig ، ١٨٥٧ ، ص ١٨ .

(٧) نفسه ، ص ١٠ .

(٨) انظر . معجم البلدان ، ٣ ص ٦٧ ؛ Gibbon : Decline, 5, P. 213.

(٩) الأغانى ، ١٩ ص ٩٤ . لعلهم الهكسوس الذين غزوا مصر . انظر عن العماليق: ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، طبعة New Haven ، ١٩٢٢ ، ص ١٢ .

(١٠) المعارف ، ص ٣١٣ س ١٥ .

(١١) ابن هشام ، ١ ص ٧٣ .

وخزاعة[١] . وأخيراً قبل الإسلام دخلتها قريش بقيادة زعيمها قصى[٢] ، وأصبحت لها السيادة؛ ولعلها سميت «قريشاً» لاحترافها التجارة، فالتقرش التجارة والاكتساب[٣] ، أو لتجمعها فى مكة[٤] ، أو لأن قصياً كان يسمى القرشى[٥] : ولا عجب فإن سكان مكة قبضوا على زمام التجارة بعد ضعف نفوذ بنى حمير فى اليمن، وخضوعهم للحبش ثم الفرس ، وقد ذكرت فى القرآن[٦] : وكانت لهم رحلتان رحلة فى الشتاء ورحلة فى الصيف : الأولى كانت إلى اليمن والحبشة، والثانية كانت إلى الشام ؛ فكانت قوافل مكة أشبه بالحملات تكون بآلاف[٧] الإبل ، التى يقوم على حمايتها جيش خاص اسمه : « الأحابيش[٨] » ، لعلهم من العرب أو السودان. وقد كانت مكة أشبه ببنك كبير[٩]، فلم تكن القوافل الكبيرة لشخص واحد؛ وإنما كانت هناك طريقة لجمع المال من عدة أسر معروفة، مثل: بنى أمية وبنى مخزوم وبنى نوفل[١٠] وبنى هاشم ؛ وبسبب هذا الغنى كانت لهم أموال وبساتين[١١] فى المنطقة

---

(١) نفسه ؛ المعارف ، ص٣١٣ س ١٧ .

(٢) ابن سعد ، الطبقات ، ١/١ ص ٣٦ — ٤٢ .

(٣) ابن هشام ، ١ ص ٦٠ .

(٤) ابن سعد ، ١/١ ص ٣٨ س ٢٣ — ٢٤ .

(٥) نفسه ، ١/١ ص ٤٠ س ٢١ .

(٦) القرآن سورة ١٠٦ ؛ ابن سعد ، ١/١ ص ٤٣ .

(٧) نفسه ؛ ابن هشام ، ١ ص ٣٧ — ٣٨ .

(٨) المعارف ، ص ٣٠٢ وردت عدة آراء عن « الأحابيش » وأصلهم ، فهم قد يكونون حلفاء قريش نسبة إلى جبل بأسفل مكة؛ (انظر . Wellh : Reste des Arabischen Berlin 1929, P. 86.) أو لتجمعهم فالتجمع فى كلام العرب هو التحبيش (المعارف ، ص ٣٠٢) ، أو أنهم من السودان الذين كانوا يدافعون عن قريش (انظر . Lammens : Les Ahâbîch et l'organisation Militaire de la Mecque au siècle de l'hégire J. A. 8. 1916, P. 425 — 82.) ، أو أنهم من العرب الذين كان يستأجرهم أشراف مكة فى حالى الحرب والسلم (انظر . العبادى ، صور من التاريخ الإسلامى ، العصر العربى ، ١٣ — ٢١) ، بحيث كان لهم « سيد » مثل بقية قبائل العرب . ابن هشام ، ٤ ص ٧٤٣ .

(٩) انظر . Essad Bey : La Vie de Mah. P. 42

(١٠) انظر . ابن سعد ، ١/١ ص ٤٠ س ١ .

(١١) البلاذرى ، فتوح ، ص ٥٦ .

الجنوبية فى الطائف . ولكن مع وجود هذه البيئة الحضرية فى مكة ، فإن طباع أهلها بقيت بدوية ؛ لا تختلف كثيراً عن طباع البدو فى البادية ، فكانت تعيش فى رباع[1] كما يعيش أهل البدو فى خيام ، فكانوا يتصارعون لأتفه الأسباب ، بحيث أن الصراع كان دائماً بين قريش « البطاح » أى داخل مكة ، وقريش « الظواهر[2] » ، أى الذين يسكنون شعاب مكة بين الجبال التى تحيط بها .

وفوق ذلك كان لمكة مكانة خاصة ؛ بسبب الاعتقاد فى قدسيتها التى أتت من الاعتقاد فى مجىء إبراهيم[3] — وهو بحسب قول رواة العرب أبو إسماعيل[4] الذى ينتسب إليه العرب — وبنائه أول مكان فيها للعبادة: «البيت»[5] أو «الكعبة»[6]، وهو عبارة عن مكان غير مسقف، يحيط به مكان مقدس « حرم »[7]، لا يجوز القتال فيه أو تنجيسه، وأيضاً لظهور بئر «زمزم»[8] التى يستقون منها. فكانت مكة منذ عدة قرون مكاناً مقدساً ، يفد إليها العرب من أهل الحضر والبادية ، وكلهم يحمل هداياه إلى الكعبة، حيث كانت تطرح فى بئر بجوارها[9] ؛ وقد أصبحت الكعبة قبل الاسلام تحتوى فى جوفها على أصنام العرب جميعها : فكان بعضها على شكل أناسى أو صقور أو أسود أو حيوانات أخرى[10]، أو حتى حجارة مكتوب عليها[11]؛ وكان أكبر

---

(١) ابن سعد ، ١/١ ص ٤٠ .
(٢) نفسه .
(٣) النويرى ، ١ ص ٣٠١ س ١٧ — ١٩ ؛ ص ٣٠٧ ؛ انظر الثعلبى ، قصص الأنبياء ، ص ٥٥ .
(٤) القرآن ٣٧ : ١٠١ .
(٥) نفسه ٢ : ١٢٥ ؛ النويرى ، ١ ص ٢٩٧ .
(٦) سميت هكذا لأنها مكعبة أو لأنه لا يبنى بمكة بناء مرتفع عليها . النويرى ، ١ ص ٣١٣ س ٤ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٠ س ٢٠ .
(٧) ابن هشام ، ١ ص ١٢٦ ؛ قطب الدين ، ص ١٩ .
(٨) ابن هشام ، ١ ص ٧١ .
(٩) نفسه ، ١ ص ١٢٢ .
(١٠) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٢٩٥ ؛ انظر Gibbon: Decline 5, P.225 بلغ المنصوب منها فى جوف الكعبة وحولها ثلاثمائة وستين صنما . انظر . ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ، طبعة مصر ، ٢ ص ١٧١ .
(١١) ابن هشام ، ١ ص ١٢٤ .

هذه الأصنام « هبل »[١] الذى كان على صورة انسان من عقيق أحمر ، كما لعله كانت توجد فيها أيضاً تماثيل للمسيح ومريم وموسى لوجود بعض قبائل مسيحية ويهودية[٢] .

وقد كان تقديس العرب للكعبة سبباً فى أن اهتمت قريش بتنظيم الحج إليها، فترتب على ذلك ظهور أنظمة[٣] سياسية ، منها : الملأ[٤] وهو مجلس القبيلة ، والسّدانة[٥] وهى خدمة الكعبة ، والسقاية[٦] وهى تقديم الماء للحجاج ، والرفادة[٧] وهى اطعام من لم يكن له سعة ، والندوة[٨] وهى التى يكون فيها أمر قريش كله ، وما أرادوا من نكاح أو حرب أو مشورة ، والحجابة[٩] أى حفظ مفاتيح الكعبة ، وأخيراً اللواء[١٠] ويقصد به راية الحرب للدفاع عن مكة .

وقد كان الحج إلى الكعبة يتم فى وقت معين « موسم » من شهر ذى الحجة من العام القمرى ، وذلك طبقاً « لمشاعر » أو « مناسك »[١١] ترجع إلى وقت بنائها[١٢] . وكان يتحتم على الحجاج الغرباء أن يبدوا عراة[١٣] ، وإن استثنى من هذا النساء اللاتى يضعن ثيابهن كلها ، وكانت قريش وحدها لها ميزة ارتداء

---

(١) الأصنام ، ص ٢٧ — ٢٨ .

(٢) انظر . Essad Bey : La Vie de Mah., P. 45.

(٣) انظر. ابن هشام ، ١ ص ٨٠ .

(٤) انظر . لسان، ١ ، ص ١٥٤ — ١٥٥ ؛ Snouck Murgronje : Mekka, Haag 2ed 1888 —1889 I P. 21 — 22.

(٥) لسان ، ١٧ ص ٦٩ ؛ انظر . Lammens : l'Arabie Occid, P. 107
يقال غالبا السدانة والحجابة ، وهى تقريباً بنفس المعنى . لسان، ١٧ ، ص ٦٩ .

(٦) ابن سعد ، ١/١ ص ٤١ س ١٦ .

(٧) ابن هشام ، ١ ص ٨٣ .

(٨) ابن سعد ، ١/١ ص ٤٩ — ٤٠ ؛ انظر . العبادى ، صور من التاريخ الإسلامى ص ٦ — ١٣ .

(٩) ابن سعد ، ١/١ ص ٤٤ س ٥ ؛ الخشنى ، شرح ، ١ ص ٤٢ .

(١٠) نفسه ؛

(١١) النويرى ، ١ ص ٣٠٦ ؛ ابن الكلبى ، الأصنام ، ص ٦ .

(١٢) ابن هشام ، ١ ص ٥١ منذ إنشاء إبراهيم الكعبة .

(١٣) ابن سعد ، ١/١ ص ٤١ س ٩ .

ثياب سموها « ثياب الحُمْس [١] » واعارتها لمن يريدون ؛ كما أن بعضهم كان يطوف بالبيت وهو لابس نعاله [٢] . كذلك كان يمنع الحجاج من أن يجزوا شعرهم وظفرهم، ولا يدهنون أو يتطيبون أو يمسون النساء ، أو حتى يأكلون اللحم ، أو يحملون السلاح [٣] . وكان من المناسك أن يطوف الحجاج فى صفوف وهم يعجون بالأناشيد ، ويصفرون كأنهم يعبدون [٤] ، ثم يدخلون البيت فيقبلون أولاً أسافاً — أحد الآلهة — وكذلك عند خروجهم [٥] ، ثم يستلمون حجراً أسود فى ركن منه يعتبر أقدم الأحجار المقدسة [٦] . وبعد زيارة الكعبة يسعى الحاج إلى تلّى الصفا والمروة الصخريين وهما قرب مكة ، وكان عليهما صنمان [٧] الأول يسمى مجاور الريح والآخر مطعم الطير ، ثم بعد ذلك يتفرقون فى الأماكن المجاورة مثل عرفة والمزدلفة لنحر [٨] الجمال والخراف ، وفى وقت ما كانوا يضحون أيضا بالأشخاص [٩] ، فقد كانت التضحية هى الوسيلة التى تقرب المضحى من الآلهة [١٠] . وكانت قريش تخرج لنفسها — فى هذه المناسبة — قباباً حمراء [١١] من الادم أى الجلد دلالة على زعامتها للعرب ، على عكس الآخرين الذين كانت قبابهم من الشعر . كذلك عرف فى مكة نوع آخر من

---

(١) ابن هشام ، ١ ص ١٢٨ ؛ الحمس مأخوذة من الحماسة للدين. الخشنى ، شرح ، ١ ص ٦٥ .

(٢) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٢٩٧ .

(٣) نفسه .

(٤) انظر قول القرآن : ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ٨ : ٣٥﴾ .

(٥) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٢٩٥ .

(٦) النويرى ، ١ ص ٣١٤ فما بعدها ؛ انظر . Gaudefroy-Demombynes : Le Pèlerinage à la Mekke. Paris 1923, p. 41 . Ency. de l'Isl. (art, Ka'ba) 2, p. 662. نقل المؤرخون العرب روايات كثيرة عن أصل هذا الحجر منها أنه كان ياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة ، وأنه أسود من أرجاس الجاهلية انظر . النويرى ، ١ ص ٣١٤ فما بعدها ؛ الثعلبى ، قصص الأنبياء ، ص ٥٨ .

(٧) اليعقوبى ، تاريخ، ١ س٢٩٥ س١٤ — ١٥؛ الموطأ، دهلى١٣٠٧هـ، ص١٤٥ .

(٨) ابن هشام ، ١ ص ٥١ .

(٩) القرآن : ٣٧ : ١٠١ ؛ انظر . Gibbon : Decline, 5, p. 225

(١٠) انظر . Tor Andrae : Mah, p. 13

(١١) ابن سعد ١/١ ص ٤١ س ٧؛ انظر . Lammens : L'Arabie Occid, p. 130

الحج يسمى : «العُمره[١]» وهى تكون فى رجب، وهذه لا يصحبها غالباً الاشتراك مع الجماعة ، وقد تكون فرادى . وكان فى آخر موسم الحج تنشط التجارة بين حجاج الجزيرة ، ويتبارى الشعراء والخطباء فى أسواق مكة، مثل: عكاظ وذى المجاز[٢]. وكان من عادة العرب الصالحين — إذا رحلوا عن مكة — أن يحتملوا معهم حجراً من حجارة الحرم المقدسة لعبادتها ، فحيثما حلوا وضعوه ، وطافوا به كطوافهم بالكعبة[٣] . وعلى العكس كان بعض الحجاج من البدو — بعد انتهاء مراسم الحج — يستحلون المظالم فينهبون ويقتلون[٤] ؛ وقد قامت قريش — حامية الكعبة — بحركة اصلاح ؛ مؤداها ألا تقر بمكة ظلماً[٥] سواء أكان من أهلها ، أو من سائر الناس ، فعقدت مع قبائلها والقبائل المجاورة حلفاً عرف : « بحلف الفضول »[٦] .

هذا النشاط التجارى الذى كان السبب فى وجود مراكز الحضر فى اليمن والحجاز تسبب أيضاً فى وجود مواطن قرار ، أو ممالك بدوية — منذ قديم الزمان — فى باديتى الشام والعراق ، وقد شجعت الدول الكبرى التى كانت تسيطر بجوار هذه المناطق على قيامها ، واتخذتها درعاً[٧] تتقى به غارة البدو على تخوم حدودها، فكانت أشبه بالدويلات الحاجزة (Buffer State) . ولا ريب فى أن حب العربى للوفاء جعله يستطيع أن يتعامل مع هذه الأمم الغريبة عنه ، فكان لقاء جعل أو « أتاوة »[٨] يترك مهنته فى « الغارة »[٩] ، ويخفر حدود حلفائه من تعدى

---

(١) ابن هشام ، ١ ص ٥١ .
(٢) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٣١٤ .
(٣) ابن هشام ، ١ ص ٥١ .
(٤) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٣١٤ .
(٥) ابن هشام ، ١ ص ٧٣ .
(٦) المعارف ، ص ٢٩٤ .
(٧) انظر . Procopius : Hist. of the Wars 2 : 10; 24 (vol I, p. 351)
(٨) انظر . Id
(٩) الاصطخرى ، مسالك الممالك ، ص ١٤ س ٧ .

القبائل الأخرى ، وينعم فى نفس الوقت بحياة مستقرة نوعاً . ولكن الفرس أو الروم لم يكونوا يبقون على ثقتهم[١] الدائمة فى عرب الحدود ، ولذلك كانوا يقضون أحياناً على هذه الممالك البدوية أو يهملونها ، فكانت تعود إلى حياتها الأولى . فنذكر من الممالك المشهورة فى بادية الشام[٢] ممالك : « النبط » و « تدمر » و« الغساسنة » ، ومن مملكة بادية العراق مملكة : « اللخميين » .

فتنسب مملكة « النبط » المعروفة لليونان والرومان باسم : «Nabataei[٣]» إلى شعب من العرب ، سكن بادية الشام وجنوب سوريا حوالى القرن الثانى قبل الميلاد[٤] . ويظهر أن هذا الشعب كان من احـــدى الهجرات التى عرفت «بالأراميين[٥]» التى جاءت من داخل الجزيرة العربية، حيث أنهم اتخذوا الآرامية لغة للكتابة[٦] ، وإن كانت تبدو هجرة من نوع خاص ، لعلها كانت امتزجت بعرب الحجاز أو حتى سيطرت[٧] عليهم ، إذ ربما كانوا يتكلمون لهجة قريبة من العربية[٨] ، كما يبدو من الأسماء المنقوشة على الصخور والقبور ، مثل[٩] : حبيب

(١) انظر . Gibbon : Decline 5, p. 216

(٢) ظهرت ممالك أخرى فى هذه البادية معلوماتنا عنها قليلة ، مثل : اللحيانية وثمود والصفوية، وهى نسبة لشعوب عربية ، وجميعها ترك نقوشا انظر. Répertoire d'épigraphie Sémitique Paris. ؛ انظر . قبله .

(٣) Pliny : N. H. p. 12 : 37 ; 73 (vol 4 p. 55)

(٤) Cooke . North Semitic Inscriptions. Oxford 1903, p. 216 ؛ انظر . O'Leary : Arabia, p. 82

(٥) المسعودى ، التنبيه ، ص ٣٦ .

(٦) الطبرى (Annales) ١ : ٢٢٠ ؛ انظر . جواد على، تاريخ العرب، ٣ ص ٦ ؛ Hitti : Hist. of Sy. p. 385 انظر صورة هذه الكتابة .

(٧) انظر . Cooke : Op. cit. p. 18 ؛ يحيى نامى ، أصل الخط العربى ، ص ٧ .

(٨) نفسه . ؛ نفسه .

(٩) Littmann : Nabataen Inscriptions from the Southern, Hauran 1914, p. 17 — 24.

وسميد وحارثة وقصى وعمر ومسعود ؛ أما سبب تسميتهم « بالنبط » فلعله من أنهم كانوا يستنبطون مايخرج من الأرض(١) ؛ أى أنهم مستقرون وليسوا رعاة .

وقد استغل النبط الانقسام بين قواد الاسكندر ، ومدوا مملكتهم من غزة حتى أَيْـلَة(٢) « Aila » على شاطىء بحر القُلزم ، فى أرض صخرة وعرة ، ولذا سمى اليونان عاصمتها — التى نجهل اسمها النبطى(٣) — باسم « Petra(٤) » أى الصخر ، أما العرب فسموها — على مايظهر — « سَلع(٥) » ، لوقوعها بين شقوق الجبال. فكانت مملكة النبط قوية(٦) يخشاها اليهود فى الشام ، فنجد ملكها الحارث الثالث — الذى يسميه اليونان « Arethas » — يحاربهم ، كما أنه غلب بومبى « Pompeius » ، فى سنة ٦٤ ق . م ، الذى كان يسمى إلى مد حدود الرومان فى فلسطين . ولما جاء الرومان بقيت مملكة النبط حليفة لهم ؛ وحافظوا لهم على حدودهم « Limes » ، بحيث إنهم اشتركوا معهم فى حملتهم لغزو اليمن فى سنة ٢٤ ق(٧) . م ؛ وكانوا — على كل حال — على صلة باليمنيين ، بدليل عثورنا على نقوش نبطية باليمن(٨).

---

(١) المسعودى ، التنبيه ، ص ٧٨ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ١٣٨ . يظهر انهم غير نبط العراق ، فهؤلاء من العنصر الكلدانى الذى قد يكون أيضاً من هجرة من داخل الجزيرة .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ١ ص ٣٩١ . وهى ستعرف بالعقبة فى العهد الإسلامى نفسه ، ٦ ص ١٩١ — ١٩٢ ؛ انظر . Hitti : Hist. of Sy, p. 383; n (3)

(٣) انظر . نامى ، أصل الخط العربى ، ص ١٠ .

(٤) Pliny : N. H. 6 : 32 ; 142 — 145 (vol 2, p. 447).

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ٥ ص ١٠٧ . « الأسلاع » هى طرق فى الجبال ؛ وهى تقع بوادى موسى الذى يربط البحر الميت بخليج العقبة . انظر . نفسه . ومن ناحية أخرى لعلها « الرقيم » التى ذكرها القرآن . انظر سورة ١٨ آية ٩ .

(٦) Josephus : Antiq. 13 : 15 ; 2 ؛ 14 : 5 ; 1. ؛ انظر . Hitti : Sy. , p. 377 — 378 ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ٣ ص ٢٦ .

(٧) Strabo : Geog. 2 : 5 ; 12 (Books 1 — 2, p. 453 sqq) ؛ انظر . قبله .

(٨) نامى ، نشر نقوش سامية قديمة ، ص ١١٨ — ١١٩ . نقش رقم (٩٠) .

ولكن الامبراطور تراجان « Traianus »[(١)] (٩٨—١١٧) خاف منهم وضمهم إلى الامبراطورية الرومانية فى حوالى ١٠٥ ق . م ؛ وأصبحت مايعرف عندهم باسم: « Provincia Arabia »[(٢)] . هذه المملكة البدوية العربية — التى كانت مركزاً لالتقاء القوافل[(٣)] وسوقاً تجارية هامة — اشتهرت بآثارها العجيبة ؛ التى لا تزال توجد حتى الآن أهمها المسرح[(٤)] ؛ وهو بناء على النمط اليونانى ، كما أنها كانت تسك العملة بنقوش[(٥)] ورسوم للملك والملكة . أما عبادتهم فلم تكن تخرج عن عبادة عرب الجزيرة ، فيبدو من النقوش أنهم كانوا يعبدون اللات ومناة والعزى وهبل[(٦)] كعرب الحجاز ، وإن كان لابد أن تكون هذه العبادة قد تأثرت أيضا بالعقيدة اليونانية ؛ التى كانت تفرض نفسها فى الشرق .

أما مملكة تدمر فقد سميت باسم مدينة « تَدْمُر[(٧)] » أو « Thadamora » القديمة ببادية الشام ، فسكنتها قبائل عربية ، لعلها جاءتها نتيجة للهجرات الآرامية

---

(١) Marcellinus : Rerum Gestarum Libri qui Supersunt, L. C. L 1950. bib. 14 : 8; 13 (vol I, p. 71) ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ٣ ص ٤٧ .

(٢) انظر . Gibbon : Decline, 5, p. 214.

(٣) انظر . Doughty : Travels in Arabia Deserta 2ed. p. 41—42.

(٤) انظر . Brunnow und Domaszewski : Die Provincia, Arabia, Strasbourg 1904, vol I, p. 250 — 251 ؛ Hitti : Sy, p. 378—9

(٥) انظر . Hill : Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia and Persia, . pXI sqq ؛ انظر . Hitti : Sy, p. 381

(٦) انظر . Hitti : Hist. of Sy, p. 385 ؛ مراد وحدى ، تاريخ الأدب السريانى ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٤ .

(٧) انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٣٦٩ ؛ Josephus : Antiq. 8 : 6 ; I ؛ انظر . Hitti : Hist. of Sy, p. 388 . هى مدينة قديمة (ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٣٦٩) ترجع إلى القرن العاشر قبل الميلاد . انظر جرجى زيدان ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٨٤ .

أيضاً من داخل الجزيرة نحو الشمال ، حيث اتخذت الآرامية[١] لغة لها. ويظهر أن هذه القبائل استطاعت حوالى القرن الأول قبل الميلاد استغلال ظروف الحروب بين اليونان والرومان من ناحية ، وبين الفرس والرومان من ناحية أخرى ، فأنشأت مملكة قوية اتخذت لها عاصمة بقرب حمص ، وهى التى عرفت بالاسم اليونانى « Palmyra » ، ومعناها بلد النخيل[٢] . وتدل النقوش التى وجدت بالآرامية واليونانية على مدى تقدم هذه المملكة واتساعها ، والتى اكتسبت مركزاً تجارياً[٣] ممتازاً بعد سقوط مملكة النبط ، بحيث تعتبر وريثة لها . ويتميز تاريخ هذه المملكة العربية بملك وملكة مشهورين ، فالملك هو « أذينة[٤] » وهو المعروف للرومان باسم « Odonathus »[٥] ، فقد عبر الفرات واستولى على الجزيرة[٦] ، وزحف فى فارس ، وحارب الفرس أعداء الرومان ، ولكنه قتل فى ٢٦٦ أو ٢٦٧[٧] ميلادية فى ظروف غامضة. أما الملكة أرملته فهى المشهورة للعرب باسم «زينب» أو « الزباء »[٨] ، وللرومان باسم « Zenobia »[٩] ، وهى على عكس أذينة ؛ أرادت أن تعتمد على الفرس[١٠] فى تكوين مملكة سورية كبيرة ، فمدت حدودها فى آسيا الصغرى حتى خلقدونية قرب القسطنطينية[١١] وأرسلت جنودها إلى

(١) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ٢ ص ٧٠ .

(٢) انظر . Hitti : Hist. of Sy, p. 389

(٣) انظر . Id ؛ Musil : Palmyrena, New-York 1928, pp.237—46

(٤) ابن خلدون ، العبر ، ٢ ص ٧٠ .

(٥) انظر . Procopius : Hist. of the Wars. 2 : 5 ; 5 (vol I. p.295)

(٦) انظر . Ibid 2. 5. 6 (vol I. p. 297) ؛ انظر . Huart et Delaporte : L'Iran Antique, p. 344.

(٧) انظر . Hitti · Hist. of Sy, p. 393

(٨) الجاحظ ، كتاب المحاسن والأضداد ، القاهرة ١٣٢٤ هـ ، ص ١٧١ فما بعدها ؛ انظر . الزركلى ، الاعلام . قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين فى الجاهلية والاسلام ، القاهرة ١٩٢٧ ، ١ ص ٣٣٠ .

(٩) انظر . Procopius : Hist. of the Wars. 2 : 5 ; 4 (vol I p. 295)

(١٠) انظر . Huart et Delaporte : L'Iran Antique, p. 344

(١١) انظر . Hitti : Hist. of Sy, p. 395

مصر ؛ لمساعدة أهلها فى ثورتهم ضد الحكم الرومانى[١] . هذه الملكة الشجاعة التى كانت تلبس الخوذ على رأسها ، وتركب الجياد[٢] ، حاربها امبراطور الرومان أورليان « Aurelianus » (٢٧٠ — ٢٧٥ م)، وأسرها لموقفها العدائى من روما ودمر عاصمتها فى ٢٧١ م[٣] ، وأخذها أسيرة ؛ وبذلك قضى على هذه المملكة العربية المزدهرة .

وقد تركت لنا هذه المملكة العربية آثاراً[٤] كثيرة وبخاصة حول حمص وبعلبك ؛ كما أنها كانت تسك العملة[٥] ، وينقش عليها اسم ملوكها ،أما عبادتها فهى مثل عبادة النبط وثنية ، وإن دخلتها عقائد رومانية وفارسية[٦] .

أما مملكة الغساسنة ، فقدظهرت أيضا فى بادية الشام نتيجة لهجرة يمنية جاءت من جنوب الجزيرة بعد اختلال نظمها الزراعية ، واستقرت حول نبع ماء يعرف باسم « غسان[٧] » ؛ فنسبت إليه . ويظهر أن الأرض لم تكن ممهدة لها ، وذلك لأن بادية الشام كان يسكنها قبائل أخرى منها قضاعة[٨] والضجاعمة[٩] ، لعلها كانت أيضا يمنية . ولكن يبدو أن قيام الغساسنة يرجع على الخصوص إلى تشجيع الدولة البيزنطية ، التى كانت تعانى من غارات البدو ، ولذا كانوا يعرفون « روم العرب[١٠] » نسبة إلى حلفائهم الروم أى البيزنطيين ؛ الذين حلوا مكان الرومان

(١) انظر . جواد على ، تاريخ العرب ، ٣ ص ١٠٧ .
(٢) انظر . Hitti : Sy., p. 393
(٣) انظر ؛ Huart et Delaporte : Op. cit, p. 344
(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٣٦٩ — ٣٧٠ .
(٥) انظر . Hitti : Sy, p. 394 .
(٦) Id.
(٧) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٣٧٨ س ٨ — ٩ ؛ ٦ ص ٢٩٢ .
(٨) المسعودى ، مروج الذهب (Prairies) ، ٣ ص ٢١٥ .
(٩) اليعقوبى ،تاريخ ، ١ ص ٢٣٥ .
(١٠)الطبرى (Annales) ١ : ٢١٠١ . انظر . Cheira : La lutte entre Arabes et Byzantins, Alexandrie, 1947, p. 19.

فى هذه المنطقة ؛ فامتدت مملكتهم من بادية الشام حتى دمشق ، وعرفت لهاعدة عواصم منها : «الجابية» و«جلق[١]» ، وهذه الأخيرة لعلها اسم آخر «لدمشق» . وقدكان الغساسنة كالبيزنطيين يدينون بالمسيحية وان كان على المذهب اليعقوبى المخالف لمذهب بيزنطة الذى انتشر فى الشام[٢] ، ولذا كانوا يعرفون أيضاً باسم : «العرب المتنصرة[٣]» ، كما انتشرت بينهم اليهودية[٤] ؛ لمجاورتهم يهود فلسطين . ويتميز تاريخ الغساسنة بقوة ملوكهم المسمين : «بنى جفنة[٥]» ، وكانوا يعرفون للعرب باسم : «ملوك الشام[٦]» . وكانت هذه الدولة مخلصة لحلفائها البيزنطيين ، بحيث أن جستنيان «Jastinianus» (٥٢٧ — ٥٦٥) منح ملكها الحارث بن جبلة «Arethas Gabalas» لقب ملك «Basileus»[٧] ، لأنه كان يضبط أمور سورية أثناء توجيه همه إلى حروب الغرب فى اسبانيا وشمال افريقية[٨] ، ولمحاربته أعداءه الفرس ، واتباعهم عرب العراق[٩] . وقد بقيت مملكة الغساسنة إلى وقت انسياج العرب مع حركة الفتوح فى الشام ، فكان آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم الذى اشترك مع الروم فى قتال

---

(١) الهمدانى ، صفة جزيرة العرب ، ١ ص ١٧٩ س ١٧ ؛ انظر . نولدكه ، أمراء غسان نقلها إلى العربية وأضاف إليها تصحيحات بندلى جوزى وقسطنطين ، بيروت ١٩٣٣ ، ص ٥١ — ٥٢ ؛ انظر . Demombynes : La Syrie. Paris 1923, p. 32

(٢) ينسب هذا المذهب إلى البطريرك يعقوب البردعى Jabcous Bardaeus الذى قال بالطبيعة الواحدة للمسيح ، وليس بالطبيعتين كما فى بيزنطة ، وهو ما يعبر عنه بالأرثوذكسية انظر سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٤٦ ؛ Bell : Op. cit, p. 18 sqq

(٣) الكامل ، ٢ ص ١٩٢ س ١١ — ١٢ .

(٤) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٢٩٨ س ١٦ .

(٥) نفسه ، ١ ص ١٧٧ ؛ انظر نولدكه ، أمراء غسان ، ص ٣ و ٩ . هذه على اسم جدلهم . انظر . البرقوقى ، شرح ديوان حسان بن ثابت ، القاهرة ١٩٢٩ ، ص ٣٠٩ ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ٤ ص ١١٩ .

(٦) ابن اسحق ، فتوح مصر ، ص ٤٣ .

(٧) انظر . Procopius : Hist. of the Wars. I : 17 ; 45 — 47 (vol. I, p. 159) . كذلك يذكر أن ما سبقه كان يسمى فقط «Phylarchos» ، أى زعيم قبيلة . انظر . Id .

(٨) انظر . Thoumin : La Syrie. p. 161

(٩) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٣١٤ س ٢ ؛ انظر . Huart et Delaporte : Op. cit, p. 354.

جيوش العرب بقيادة خالد بن الوليد(١) ، ولكنه هزم وأسلم ، ثم تنصر فيما بعد، وهرب إلى القسطنطينية .

وأخيراً قامت فى بادية العراق بتشجيع الفرس(٢) مملكة من قبائل العرب التى هاجرت أيضاً من اليمن فى عهد مبكر ، وقد اتخذت لها عاصمة على سيف صحراء العرب عرفت « بالحيرة(٣) » ومعناها « المخيم » . ونلاحظ أن تاريخ مملكة الحيرة قديم ، فهى خربت(٤) عدة مرات على أيدى ملوك فارس، نذكر منهم على الخصوص شهبور بن هرمز (٣١٠ — ٣٧٩(٥) م) — ويسميه اليونان Sapor — الذى بسبب كثرة ماقتل من العرب عُرف « بذى الأكتاف(٦) » . ولكن تاريخ هذه المملكة يرتبط إلى حد كبير بتاريخ زعماء قبيلة « لخم(٧) » ، الذين يظهر أنهم من نسل(٨) ملوك التتابعة ، فبنوا فيها القصور المشهورة على نسق قصور اليمن ، مثل القصرين(٩) المشهورين : « الخورنق والسدير » . ولدينا أسماء ملوك قليلة منهم ، وإن كانت

---

(١) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٣١٦ ؛ نولدكه ، امراء غسان ، ص ٤٩ .

(٢) الدينورى ، الأخبار الطوال ، طبعة القاهرة ، ص ٥٥ ؛ انظر . O'Leary : Arabia, p. 154.

(٣) المسعودى ، مروج الذهب ، ٣ ص ١٨١ فا بعدها . لعل أصل هذه الكلمة آرامى من « حرتا » (انظر . Rothstein : Die Dynastie der Lakhmiden, in al-Hîra, Berlin 1899. S. 12 ؛ جواد على ، تاريخ العرب . بغداد ١٩٥٥ ، ٤ ص ٥) ، أو حتى من الكلمة العربية « تحير » . انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٣٧٧ .

(٤) المرجع السابق ، ٣ ص ٣٨٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ١ ص ٢٠٤ .

(٥) انظر عن هذا التاريخ Huart et Delaporte : Op. cit, p. 346

(٦) اليعقوبى ، تاريخ، ١ ص١٨٣ س٣؛ ابن الأثير ، الكامل ، ١ ص ٢٢٨ — ٢٢٩. ولعله فعل ذلك بسبب أن العرب كانت قتلت والده هرمز . انظر. Huart et Delaparte : Op. cit, p. 346 . وان ذكر ابن الأثير أن السبب هو أن العرب كانت تطمع فى بلاد فارس . انظر . الكامل ، ١ ص ٢٢٨ .

(٧) الدينورى ، ص ٥٥ .

(٧) أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ٧٠ .

(٩) النويرى ، ١ ص ٣٨٥ — ٣٨٦ .

معلوماتنا عن بعضهم لاتتعدى مصادرها بعض الأساطير(١) . ولكن أشهر ملوكهم قاطبة هو المنذر بن النعمان ، المعروف للبيزنطيين باسم « Alamoundaras(٢) »، والملقب بابن ماء السماء(٣) (٥٠٥ — ٥٥٤) ، وهو الذى سار فى مائة ألف من اتباعه ، ليحارب(٤) البيزنطيين وحلفائهم الغساسنة ، حيث حدثت الموقعة المشهورة عند العرب بيوم « حليمة(٥) »، واشترك فيها الشاعر المعروف لبيد(٦) ابن ربيعة . وفى أول الأمر كان سكان الحيرة وثنيين(٧) على دين عرب الجزيرة ، ويذبحون الذبائح للأصنام(٨) ، ولكن يظهر أنهم لكى يتخلصوا من سيطرة الفرس؛ اعتنقوا المسيحية فى عهد النعمان بن المنذر(٩) (وهو ابن ماء السماء) المعروف « بملك العرب(١٠) »، والمكنى « بأبى قابوس(١١) »، وهو الذى مدحه الشعراء مثل:

---

(١) نذكر منهم جذيمة بن الأبرش الذى غررت به ملكة فى بادية شمال الجزيرة اسمها «الزباء» وأهلكته — على كل حال نعتقد أنها ليست الزباء التى أسرها الرومان — (انظر قصتها. ابن الأثير، الكامل ، ١ ص ٢٩٩ — ٢٥٠) ، وعمرو بن عدى الذى يظهر أنه انتصر على هذه الملكة ، وفى سبيل ذلك جدع أنفه ، (انظر نفسه ، ١ ص ٢٠٠ — ٢٠١) ؛ ولعله أول من اتخذ الحيرة منزلا للملوك (ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٣٧٩) ، كذلك قد يكون منهم امرؤ القيس الشاعر المعروف (أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ٧٠ ، الذى توفى سنة ٣٢٨ م . (عن وفاته انظر . نقش نمارة فى Rép. Chron. d'Epig. Arabes, t. 1, p. 1—2.

(٢) انظر . Procopius : Hist. of the Wars 1 : 17 ; 1. (vol. I p.145)

(٣) نسبة إلى أمه التى كان يقال لها ماء السماء لجمالها وحسنها . أبو الفدا ، المختصر، ١ ص ٧١ .

(٤) المعارف ، ص ١١٤ ؛ Huart et Delaparte : Op. cit. p. 354

(٥) نسبة إلى حليمة ابنة ملك الغساسنة ، التى كانت تلبس لباس المحاربين . انظر . المعارف ، ص ٣١٥ .

(٦) الشعر والشعراء ، ص ٥٠ . توفى لبيد فى أول خلافة معاوية ، وهو حوالى ابن مائة وسبع وخمسين سنة .

(٧) المعارف ، ص ٢٩٩ .

(٨) تاريخ النسطوريين (Chronique de Séert) ، نص عربى تحقيق Scher فى (Patrologia Orientalis) ، الجزء ١٣ ، القسم الثانى . ص ٤٦٨ [١٤٨] .

(٩) نفسه .

(١٠) أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ٧٢ .

(١١) المعارف ، ص ٣١٩ .

طرفة بن العبد والنابغة الذبيانى(١) . وقد كان اعتناقهم المسيحية على المذهب النسطورى أو ما يعبر عنه بالكاثوليكية(٢) ، حيث كان منتشراً فى منطقة الجزيرة والعراق ، وهو مخالف لمذهب بيزنطة ، فلعل تسمية سكان الحيرة « بالعباد(٣) » بسبب ، أنهم مسيحيون يعبدون الله ؛ وقد ظهرت لهم أديرة مشهورة ، مثل : دير هند(٤) زوجة النعمان بن المنذر . ويظهر أن تحول عرب الحيرة إلى المسيحية أخاف الفرس من أن يقربهم ذلك من أعدائهم البيزنطيين : فنجد ملكهم كسرى أبرويز(٥٩٠—٦٢٨) يستدرج ملك الحيرة النعمان ويقتله(٥) . ولكن سكان الحيرة — ومعهم القبائل المجاورة — ثارت لمقتله ، وهاجمت الفرس وهزمتهم فى موقعة ذى قار(٦) ، وهذه الموقعة مشهورة فى أيام العرب(٧) ، ودلت على قدرة العرب على قتال الأمم الكبيرة . ولكن قبل الإسلام عادت الحيرة — كغيرها من ممالك العرب البدوية — مثل اليمن والبحرين خاضعة لسيطرة(٨) الفرس تماماً ، مما يدل على ضياع سلطة اللخميين

---

(١) انظر . قول النابغة :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

النويرى ، ٣ ص ١٨٢ ؛ العقد ، ١ ص ١٣١ .

(٢) تاريخ النسطوريين . نفس المرجع والصفحة . النسطورية نسبة إلى بطريرك اسمه نسطورس « Nestorius » ، أما الكثلكة فهى نسبة الى بطريرك نسطورى اسمه « Katholikos » . انظر . Bell : Op. cit, p. 24 — 25 .

(٣) الشابستى ، الديارات ، تحقيق كوركيس ، بغداد ١٩٥١ ، ص ٢٣ ؛ انظر . Nöldeke : Geschichte der Perser und Araber, Zur Zeid der Sasaniden Leyde 1879 p. 24 ; n (4) . ولكن ياقوت يقول : إنهم سموا هكذا بسبب عبادتهم للملوك الفرس . معجم البلدان ، ٣ ص ٣٨٠ س ١١ — ١٢ ؛ انظر بعده .

(٤) الأغانى ، (طبعة دار الكتب) ، ٢ ص ١٣١ .

(٥) تاريخ النسطوريين ، نفس المرجع ، ٢/١٣ ص ٣٩٥ [٢١٩] .

(٦) المعارف ، ص ٢٩٣ ؛ جاد المولى ، أيام العرب فى الجاهلية ، ص ٦ — ٣٩ هى مكان قرب الكوفة . ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ ص ٨ — ٩ .

(٧) الميدانى ، ٢ ص ٢١٦ .

(٨) المعارف ، س ٣٢٠ س ١ .

نهائيا ، وإن كانت شوكة[١] العرب فى الحيرة بقيت قوية .

* * *

هذه هى صورة لحياة العرب فى البادية والحضر قبل ظهور الاسـلام ، وهى صورة رتيبة لحياتهم التى انقلبت ، وتغيرت تغيراً عنيفاً بسبب ظهور دين جديد هو دين الاسلام ؛ الذى جاء به النبى محمد ، فوضع حداً بين تاريخ الجزيرة الجاهلى وتاريخها الذى أتى بعد ذلك .

---

(١) تاريخ النسطوريين ، ٢/١٣ ص ٥٤٦ [٢٢٦] .

الفصل الثانى

عصر النبــوة

تعليل ظهور الأديان — سيرة النبي قبل الدعوة — الوحى — الحنيفية والإسلام — موقف قريش — التحرش بالمسـلمين — الهجرة — الصراع بين مكة والمدينة — سقوط مكة — ما جاء به الاسلام فى الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية .

تعليل ظهور الأديان مسألة دقيقة تناقش فيها العلماء كثيراً : فبعضهم يرون أن عوامل ظهور الأديان يمكن تقصيها بالبحث العــلمى فى ظروف المجتمع وتطوره[1] ؛ وعلى العكس يرى البعض الآخر أن المحرك لآية حركة دينية دو الفرد[2] وليس المجتمع بدليل أن جميع الديانات المعروفة نشـأت تحمل أعلاماً شخصية ، مثل : موسى وعيسى ومحمد .

ولـكن مهما يكن الاختلاف فى أصل نشأة الأديان ؛ فإن تشابهها من أوجه كثيرة يدل — ولاريب — على أنه لابد أن يكون لها جميعها أصل واحد تتلاقى عنده ، فضلاً عن أنه يجمعها اسم « الدين »[3] . وكذلك من الجدير بالذكر أن الثلاثة

---

(١) انظر . Tor Andrae : Mah, p. 7

(٢) انظر . دراز ، ص ٥٩ .

(٣) يختلف العلماء فى أصل هــذه الـكلمة ، فلعلها معربة عن العبرية أو الآرامية أو الفارسية أو حتى من العربية « دان » بمعنى انقاد [انظر . Ency. de l'Isl, (art Dîn,) t I p. 1002 ؛ دراز ، ص ١٣ وما يليها ؛ فون كريمر ، الحضارة الاسلامية ، المقالة الأولى ، تعريب طه بدر ، الجيزة ١٩٢٧، ص ٥٥ — ٥٦].وهذه الـكلمة تأتى فى القرآن =

الأديان السماوية المعروفة وهى : اليهودية والمسيحية والإسلام جميعها من أصل سامى ، وأنها نشأت على تخوم الجزيرة العربية[١] وفى داخلها ؛ وليس فى أماكن متفرقة من المعمورة.

ومن ناحية أخرى[٢] نجد فى القرآن — وهو الكتاب الدينى — أن الانسان لم يسر إلى الأديان ، وإنما هى التى سارت إليه ونزلت عليه ؛ فالله لما خلق آدم — أبا البشرية — علّمه أنه هو الخالق ؛ الذى تجب طاعته وعبادته ، وأن هـذا التعليم الأول لم يقف به عنـــد الانسان الأول ؛ بل مازال يتعهد بتبليغه الأمم فى فترات تقصر أو تطول ، وجعل يذكّرهم به على لسان الأنبياء والرسـل الذين كان آخرهم محمد.

وليس من السهل عرض سيَر الأنبياء عرضاً علمياً ؛ وذلك لبعدهم فى التاريخ ، واحاطة الناس لحياتهم بكثير من الأساطير : فمع ظهور النبى محمد فى صلب التاريخ فإن معظم ما وصلنا من حياته الأولى جاء عن طريق الرواية الشفوية ، وهى غير موثوق بها إلى حد ما . وعلى العكس يمكننا فقط أن نتتبع سيرته سنة بعد سنة منذ هجرته إلى المدينة بعد أن اضطهده المكيون حتى وفاته ، فى القرآن وفى غيره من مصادر التاريخ الموثوق بها ، وهى تقريباً احدى عشرة سنة .

فنحن لانعرف تاريخ ميلاده بالضبط ، وإن كانت الرواية تريد أن تجعل مولده عام الفيل[٣] (أى حوالى ٥٦٥ م) ، وهو العام الذى لم يستطع فيه الأحباش

= بمعان مختلفة منها مثلا « الآخرة » (سورة ١:٣) ؛ وكان الفقهاء فسروها على أنها تعنى المبادىء والاعتقادات الألوهية الخاصة بالاسلام . القرآن ٩٨ : ٥ ؛ انظر . دراز ، ص ٢٦ وما يليها ؛ Ency. I, p. 1002

(١) انظر . Bell : Op. cit, p, 13.

(٢) دراز ، ص ١٥٨ ، انظر هذا الاقتباس .

(٣) لدينا تواريخ مختلفة لمولد النبي ، ولكن لابد أن تكون قبل عام ٥٦٥م وهى سنة وفاة الامبراطور جستنيان الذى حرض الأحباش على غزو اليمن (انظر قبله) . كما أن البعض =

الاستيلاء على مكة ، مما يدل على الرغبة فى الربط بين مولد النبي العربى وهذا الحادث القوى بالنسبة لقريش .

وقد كان نبي الاسلام — مثل غيره من الأنبياء — ذا حسب[١] فى قومه ؛ حتى تكون له عصبية وشوكة يستطيع بها أن يبلغ قومه رسالته ، فأبوه عبد[٢] الله من أسرة بنى هاشم القوية فى مكة ، وأمه آمنة بنت وهب من خيار نساء قريش . وقد اشتهر معظم أجداده فى الجاهلية بالسيادة ، أو بالتجارة الرابحة فى مكة : فقصى هو الذى يرجع إليه الفضل فى استيطان قريش مكة بعد أن قادها فى حرب ناجحة ضد خزاعة[٣] ، وهاشم هو أول من سن الرحلتين لقريش وهما : رحلة الشتاء والصيف[٤] ، وعبد المطلب هو الذى شرف فى قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، فأعاد حفر بئر زمزم[٥] بعد أن طمست ، وكان يسقى منها الحجاج الوافدين على مكة .

= بجعل مولد النبي يتفق مع وقعة ذى قار (ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ ص ١٠) ؛ وإن كان تاريخ هذه الوقعة مثل وقعة الفيل غير معروف بدقة ، وإن كان لابد أن يقع فى حكم كسرى أبرويز (٥٩٠ — ٦٢٨) الذى قتل النعمان بن المنذر أو بعده بقليل . كذلك نجد عدة تواريخ كلها استنتاجية وقائمة على اساس الرجوع إلى التاريخين المحققين لهجرة النبى فى ٦٢٢م ووفاته فى ٦٣٢ م . انظر عن هـذه التواريخ المتعددة Blachère : Probl, p, 15 ؛ Tor Andrae : Mah, p. 31 ؛ انظر. Lammens: L'Age de Mahomet et la, Chronologie de la Sîra. J. A., 17 (1911) p, 209 — 250.
ومع ذلك فإن جميع المسلمين يحتفلون منذ زمن مبكر بمولد النبى فى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول من كل عام بالاعتماد على ما ورد من أحاديث نبوية عن مولده . انظر : احتفال الفاطميين بالمولد . صبح الأعشى (طبعة دار الكتب) ، ٣ ص ٥٠٢ ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، الجزء الثانى .

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٤ س ٢٠ .

(٢) المعارف ، س ٥٦ . هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصى .

(٣) نفسه ، ص ٣٤ س ٤ فما بعدها ؛ ابن هشام ، ١ ص ٧٥ و ٧٩ .

(٤) ابن هشام ، ١ ص ٧٨ .

(٥) نفسه ، ١ ص ٧١ ، ٩١ .

وتبدو حياة محمد الأولى مليئة بالمفاجآت : فقد أباه وهو فى بطن أمه ، وفقد أمه بعد ذلك بقليل[١] ، وبقى فى رعاية جده عبـــد المطلب ، ثم عمه أبى طالب ، وكلاهما أغدق عليه من عطفه وحنانه الشيء الـكثـير . وما أن شب طفلاً حتى اشتغل راعياً[٢] للأغنام عند عشيرة بنى سعد — مثلما فعـل معظم الأنبياء[٣] قبله — وقد خرج مع عمه أبى طالب إلى الشام فى تجارة[٤] ، وشهد معه إحدى وقائع البدو المشهورة بحرب « الفجار »[٥] ، وقد سميت بهذا الاسم لقيامها فى الأشهر التى اتفق العرب على تحريم القتال فيها .

بعد ذلك يظهر لنا محمد كشاب يافع يتزوج من خديجة بنت خُويلد[٦] ، وهى امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالها[٧] ، وذلك على الرغم من أنها كانت تـكبره سناً ، وأنها تزوجت قبله مرتين[٨] ، وقد أتاح هذا الزواج لمحمد مركزاً ممتازاً فى الحياة المـكية ، فعاش عيشـة هادئة كأى حضرى يعيش فى مدن الحجاز ، وبقى معها فلم ينـكح عليها امرأة حتى ماتت[٩] ؛ وهو اخلاص[١٠] غير عادى فى بيئة تعودت تعدد الزوجات ، فولدت[١١] له من الأولاد الذكور : القاسم وطاهر والطيب ، ومن الإناث : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة .

---

(١) نفسه ، ١ ص ١٠٧ . توفيت أمه : آمنة بنت وهب بعد ولادته بست سنوات انظر بخصوص نشأة النبى يتيما . القرآن ٩٣ : ٦ — ٨ .

(٢) ابن هشام ، ١ ص ١٠٥ .

(٣) نفسه ، ١ ص ١٠٦ .

(٤) نفسه ، ١ ص ١١٥ ؛ ابن سعد ، ١/١ ص ٧٦ .

(٥) الميدانى ، ٢ ص ٢٦٠ ؛ ابن هشام ، ١ ص ١١٧ فما بعدها .

(٦) انظر مقالة العبادى ، صور من التاريخ الإسلامى « أم المؤمنين خديجة بنت خويلد » ص ٢٦ — ٣٦ .

(٧) ابن هشام ، ١ ص ١١٩ .

(٨) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٦٥ ص ٥ — ٨ .

(٩) نفسه ، ص ٦٥ ص ٨ — ٩ .

(١٠) انظر Bertram : Les Arabes, p. 31 .

(١١) المعارف ، ص ٦٩ . كذلك كان للنبى ابن اسمه ابراهيم ، أنجبه من زوجته المصرية مارية (القبطية) . ابن هشام ، ١ ص ١٢١ .

ونراه فى هذه المرحلة الأولى من حياته يتنزه — مثل غيره من الأنبياء — عن المذمومات[١] : فلم يشترك فى عبادة الأصنام مع مواطنيه ، وشب والله يكلؤه ويحفظه من أقذار الجاهلية ؛ لما يريد من كرامة الرسالة[٢] ، كما حبب إليه الخلوة[٣] فكان يقضى على عادة العرب القديمة شهراً كل سنة يتحنث[٤] أى يبحث عن الدين القويم بالتأمل والخلوة فى غار من جبل « حراء » ، أحد جبال مكة . كذلك تصرفاته تدل على أنه رجل صادق صريح ، حتى اشتهر بين عشيرته وأهله وسموه « بالأمين »[٥] ، لاستقامته وكمال خلقه .

وفجأة فى سن الأربعين[٦] علك محمد موهبة «النبى»[٧] أو « الرسول »[٨]، بمعنى أنه كلف — مثل غيره من الأنبياء أو الرسل[٩] — بالقيام برسالة دينية إلى أمته ، وذلك عن طريق ما سماه القرآن « وحياً »[١٠] أو « جبريل »[١١]

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٤ س ٢ — ٣ .

(٢) ابن سعد ، ١/١ ص ٧٦ س ٢٥ — ٢٧ .

(٣) ابن هشام ، ١ ص ١٥١ .

(٤) نفسه ، ١ ص١٥٢ . لعل المقصود بهذه الكلمة البحث عن دين إبراهيم أو «الحنيفية». انظر . بعده . أما عن جبل « حراء » انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٢٣٩ — ٢٤٠.

(٥) نفسه ، ١ ص ١١٧ .

(٦) المعارف ، ص ٧٤ .

(٧) القرآن ٦ : ١١٢ ؛ ٧ : ١٥٧ . هذه الكلمة لها نفس المعنى فى الآرامية والعبرية انظر . Ency. de l'Isl. (art Nabî) 3, p. 857.

(٨) القرآن ٣ : ١٤٤؛ ٧ : ١٥٧ هذه الكلمة أخص من النبى لأن كل رسول نبى يحمل بالضرورة رسالة إلهية إلى قومه . انظر . تاج العروس ، ١ ص ١٢١ — ٢ ؛ Ency. de l'Isl. (art Rasûl), 3, P. 1206.

(٩) القرآن ٤ : ١٦٣ ؛ ١٠ : ٤٨ .

(١٠) نفسه ٥٣ : ٤ ؛ ابن خلدون، المقدمة ، ٧٨ س ٢٦ ؛ انظر . Nöldeke : Qorâns, p. 16 وهى كلمة معناها فى اللغة الاسراع والاشارة والالهام والكلام الخفى والاستدلال . اللسان ، ٢ ص ٢٥٧ .

(١١) القرآن ٢ : ٩٧ — ٩٨.

أو « روح القدس »(١) . ويبدو من وصف النبي لهذا الوحي أنه : رؤيا(٢) أو احلام تأتيه مثل فلق الصبح ، أو سماع دوى(٣) من الكلام ، أومثل صلصلة(٤) جرس لا تنقضى إلا ويعى مايراد ، أو طيفاً(٥) يتمثل له فى أفق السماء يدنو منه ويخاطبه ، أو أنه يرى ضوءاً(٦) ويسمع صوتاً . وهـذا الوحى — فى رأى ابن خلدون(٧) — لم يكن ايحاءً كالذى عند الشعراء أو الكهان يحصل عليه بالاكتساب ، أو الاستعانة بشيء من المدارك الحسية أو التصورات ، وإنما هو انسلاخ من البشرية بالفطرة فى لحظة غير زمنية أقرب من لمح البصر . ويبدو أن نزول الوحى على النبى كان شديد الوطأة(٨) ، بحيث أنه كان إذا نزل عليه فى اليوم الشديد البرد تفصد عرقاً(٩) ، أو أنه يشعر بقشعريرة ويتغير لونه وقد تأخذه غشية — وهى فى الحقيقة(١٠) استغراق روحانى — وفى هذه الحالة وبعدها يتلو ما تلقاه(١١) من الوحى . ومع ذلك فلم يرد على لسان النبى فى القرآن أنه رأى للخالق وجها لوجه أو سمع له صوتا .

وقد كان قصد هذا الوحى أن يكلف النبى بدعوة العرب إلى دين أجدادهم

---

(١) نفسه ٢ : ٨٧ وكان يسمى أيضاً : «الناموس الأكبر» ابن سعد ، ١/١ ص ١٣٠ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٧٦ — ٣٧٨ .

(٣) نفسه ، ص ٧٣ س ١٩ .

(٤) نفسه ، ص ٧٣ س ٢١ .

(٥) القرآن ٥٣ : ٤ — ١٠ ؛ ٨١ : ٢٢ — ١٣ .

(٦) ابن سعد ، ١/١ ص ١٢٩ .

(٧) المقدمة ، ص ٧٣ فما بعدها .

(٨) انظر القرآن (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ٧٣ : ٥) .

(٩) ابن سعد ، ١/١ ص ١٣٢ . لما سئلت عائشة عن الوحى قالت : « ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقاً » .

(١٠) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٣ .

(١١) ابن سعد ، ١/١ ص ١٣١ س ١٧ و ١٩ .

الذى تركوه ، وهو ملة إبراهيم ، أو ما يعرف « بالحنيفية »[1] : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ١٦ : ١٢٣ ﴾ . ونحن لا نعرف عن عقائد هذا الدين العربى القديم شيئاً كثيراً إلا ماورد بخصوصه فى القرآن على أنه عبادة الله « رب إبراهيم[2] » وحده لا شريك[3] له ، وأنه ليس يهودية أو نصرانية[4] . ومن ناحية أخرى نجد أن هذا الدين العربى القديم قد أخذ فى عهد النبى اسماً آخر أصبح يعرف به هو « الإسلام »[5] ، وهى كلمة عربية من « سَلِمَ » ، وتعنى الاستسلام[6] لأمر الله وتقبل محمد كرسول لله . وقد كان كل ما يخص الاسلام من عقائد وأوامر مما يأتى عن طريق الوحى يسمى : « قرآناً »[7] ؛ وهو بلغة[8] العرب فى الحجاز وباسلوب الكتب المقدسة التى

---

(١) ابن هشام ، ١ ص ١٥٢ . اختلف فى أصل هذه الكلمة ، فلعله عربى بمعنى الميل إلى الدين المستقيم (المصباح المنير ، ١ ص ٢٣٩ — ٢٤٠) أو سريانى من الكلمة «hanapa» بمعنى دين مستقل عن الأديان الأخرى (انظر Tor Andrae : Mah, p. 109 ؛ Blachère : Le Probl. de Mah, p. 22) . ومن ناحية أخرى لا نعرف ما هى « الحنوفية » ، التى كانت لها أتباع بين عرب الحيرة قبل تنصرها (انظر . تاريخ النسطوريين (P. O.) الجزء ١٣/٢ ، ص ٤٦٨ [١٤٨]) ؛ وعلاقتها «بالحنيفية» .

(٢) القرآن ٤ : ١٢٤ ؛ ابن هشام ، ١ ص ١٤٤ .

(٣) القرآن ١٦ : ١٢٣ .

(٤) نفسه ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ٢ : ١٣٥ ﴾

(٥) نفسه ، ٣ : ١٩ ؛ ٦ : ١٦٢ .

(٦) أنظر . نفسه ٤ : ١٢٤ ؛ اللسان ، ١٥ ص ١٨١ — ١٨٦ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Islam) 2, p. 574 — 577 ؛ انظر . Goldziher : Le dogme et la loi de l'Isl. trad. Felix, p. 2.

(٧) وردت له أسماء مختلفة يذكرها السيوطى منها : نور وفرقان وكتاب وتنزيل . انظر . الاتقان فى علوم القرآن ، الطبعة الثالثة ، ١ ص ٨٦ — ٨٧ ؛ Ency. de l. Isl. (art al-Kor'ân) t. 2, p. 1124 - 1139 . وهذه الكلمة «قرآن» قد تكون اسما غير مشتق لتدل على كلام الله مثل التوراة والانجيل ، أو مشتق من قرنت الشىء بالشىء أى ضممت أحدهما إلى الآخر ، أو من القرائن لأن الآيات منها يصدق بعضها البعض ، أو حتى من القراءة انظر . السيوطى .

(٨) يقول السيوطى أن الآراء اختلفت فى كيفية نزوله منها : أن جبريل أداه باللفظ أو أنه نزل بالمعانى وأن النبى علم تلك المعانى وعبر عنها بلغة العرب . انظر . السيوطى ، الاتقان ، ١ ص ٧٤ — ٧٦ .

نزلت على الأنبياء من قبل . لذلك من الخطأ تسمية هذا الدين بدين محمد[١]، وذلك لأن غرض محمد لم يكن عبادته كما فعل المسيحيون بالمسيح ، وإنما غرضه الدعوة لدين « الحنيفية » القديم ، الذى أخذ فى عهده اسم : « الاسلام » .

وقد بدأ محمد الدعوة للاسلام أو الحنيفية فى أهل بيته وبعض أقاربه وأنه رسول الله إليهم الذى ينزل عليه الوحى ، فآمن به البعض ، ولم يؤمن به البعض الآخر : فكانت زوجته خديجة أول من صدق[٢] بدعوته ، وإن كان عمه أبو طالب الذى رباه لم يؤمن بها . ثم أنه حاول أن يوسع نطاق هذه الدعوة ، فتوجه بها كما طالبه القرآن[٣] إلى عشيرته الأقربين — وكان جلهم من كبار رجال مكة — ظناً منه أنه إذا أقنعهم سهل ضم عامة العرب إليها ، ولم يكن طريق هذه الدعوة مفروشاً بالورود ، وإنما بالشوك وخرط القتاد .

ويظهر أن زعماء مكة لم تأخذهم الدهشة لدعوة محمد إلى دين إبراهيم ؛ بقدر دهشتهم لقوله إنه رسول الله إلى أمته ، ذلك لأن الحنيفية[٤] كانت معروفة فى الجزيرة وأن الله كان يعرف عند العرب على أنه « رب الكعبة[٥] » ، وأنه الواحد فكان يقال فى الجاهلية « أعيذ بالواحد[٦] » ؛ وإن كان تغيير ملة إبراهيم — كما ينقل رواة العرب — ينسب إلى قبيلة خزاعة[٧]

---

(١) انظر : Bertram . Les Arabes, p. 32

(٢) ابن هشام ، ١ ص ١٠٠ .

(٣) القرآن ٢٦ : ٢١٤ .

(٤) ذكرها أمية بن أبى الصلت (م٦٢٤) ، وتنبأ بنجاحها فى شعره

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنفية زور

انظر . كتاب شعراء المسيحية ، جمعه الأب شيخو ، بيروت ١٨٩٠ ، ١ ص ٢١٩ .

(٥) الحيوان ، ١ ص ٣٢٩ .

(٦) ابن هشام ، ١ ص ١٠٢

(٧) الكلبى ، الأصنام ، ص ٥٨

التى كانت تسكن مكة قبـــل قريش ودعت العرب إلى عبادة الأوثان ، وجعلتها صلة[١] بين الله وقريش . بل وجد فى مكة قبل ظهور محمد جماعة[٢] من قريش ؛ تفرقت فى البلاد تلتمس دين الأجداد . وقد روى القرآن الحوار الذى كان بين النبى والمكيين ، وهو يدل على عدم اكتراثهم بدعوته : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً ، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِن نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِىَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ١٧ : ٩٠ — ٩٢ ﴾ . ولكن محمداً لم يرض أن تنسب إليه معجزة غير نزول الوحى عليه من قبل الله ، فكان يرد عليهم بقوله : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً ١٧ : ٩٣ ﴾ . ومع ذلك لم يحل رفض النبى الآتيان بالمعجزات من أن ينسب إليه صفات خارقة ، فبعضهم يؤكد أنه حين ولادته خرج نور أضاء الشام[٣] ، وأنه وهو صغير شقت الملائكة بطنه وغسلوا قلبه بالثلج حتى أصبحا نقيين[٤] ، وأيضا فسروا سورة « الإسراء[٥] » ، بأن الله رفعه إلى السماء ، وأنه قطع رحلة سماوية فى بضع ساعات من الليل .

والذى جعل المكيين أيضا يعارضون دعوة محمـــد ، هو الحط من عبادة الأصنام ، فإنهم كانوا يدركون بحق اضمحلالها وتدهورها ، ولكن التطاول عليها

---

(١) القرآن ٣٩ : ٣ .

(٢) يذكر ابن هشام أسماءهم ، وهم أربعة رجال : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو . سيرة ، ١ ص ١٤٣ .

(٣) ابن سعد ، ١/١ ص ٩٦ س ٢٣ .

(٤) ابن هشام ، ١ ص ١٠٥ — ١٠٦ هذا مع أن الثلج لم يعرف إلا فى خلافة الفاطميين فى مصر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ١٠٢ هامش (٤) .

(٥) القرآن ١٧ : ١ ؛ البخارى ، صحيح ، القاهرة ١٢٧٨ ، ٢ ص ١٨٥ ؛ مسلم صحيح ، بولاق ١٢٩٠ هـ ، ١ ص ٥٩ ؛ الطبرى ، تفسير ، ١٥ ص ٣ ؛ انظر Ency, de l'Isl. (art Isra') t 2. p.589 — 590 . يميل المفكرون الحديثون إلى القول بأن سورة الإسراء تعنى الاسراء بروح محمد دون جسده ، أو أنها رؤيا . انظر . هيكل ، حياة محمد ، ص ١٩٥ ؛ Tor Andrae : Mah, p. 49

معناه التطاول على عبادة الأجداد التى تعودوا عليها منذ أن جاءت قريش إلى مكة، فهى معارضة الكبرياء . ثم إن ذكر محمد للوحى والبعث والحساب اعتبرت عندهم بدعاً لا يقبلها إيمانهم أو عقلهم . ويظهر القرآن تعجبهم[١] من دعوته بقولهم : ﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ ١٧ : ٩٨ .

وما جعل المكيين ينظرون شذراً إلى الإسلام ؛ أن نفوذهم كان يرتبط أشد الارتباط بعبادة الأصنام التى جمعها عرب الجزيرة فى الكعبة ، فهى منبع نفوذهم ، وسبب سيطرتهم عليهم - كما كان وجود هذه الأصنام فى مدينتهم سبباً فى وفود آلاف الحجاج إليهم كل عام ؛ فوقف الحج إلى مكة ستكون نتيجته حتماً القضاء على وسائل معايشهم[٢] وتجارتهم الواسعة . وفى الواقع إن محمداً بدعوته إلى الإسلام لم يكن يريد أن ينال من نفوذ مكة أو الكعبة ، بل على العكس كان يرى دائماً أنه من واجبه المحافظة على هذا النفوذ ليستغله هو فى نشر دعوته بين العرب إذا ما تحول أهلها إلى الإسلام ، خصوصاً وأن مكة يرتبط تاريخها بإبراهيم ، الذى إليه ينسب الحنيفية أى الإسلام .

أضف إلى ذلك أن بيوتات[٣] قريش منذ سكناها مكة كانت تتنازع[٤] على الزعامة ، بالسيطرة على وظائف الكعبة من رفادة وسقاية . . . الخ ، بحيث أن الحرب كادت تدمر القرشيين[٥] فى أول سكناهم مكة ، لولا تحاجزهم بالصلح . وقد تجدد

---

(١) انظر أيضاً القرآن ٥٦ : ٤٧ .

(٢) انظر . Von Kremer : Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen. Wien 1875. vol I, p. 24 ؛ Khuda Bukhsh : Essays, Indian and Islamic. London 1912, p. 8

(٣) انظر قبله .

(٤) المقريزى ، كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ، ص ٢ ؛ ٧ .

(٥) تفرقت قريش بسبب النزاع على هذه الوظائف إلى فريقين : أحدهما بنو عبد مناف =

النزاع على الزعامة بين هاشم — وهو أحد أجداد النبي — وأمية بن عبد شمس — ومن نسلة الأمويون — ولكن أمية عجز[١] عن الحصول عليها أمام هاشم، واضطر إلى أن يرحل إلى الشام؛ فكانت هذه أول عداوة[٢] وقعت بين بيتى هاشم وأمية، كما يلاحظ ابن الأثير. ويظهر أن الأمويين فى وقت ظهور الدعوة الإسلامية كانت لهم الزعامة الحقيقية فى مكة على الرغم من أن بنى هاشم كانت لهم السيطرة على بعض وظائف[٣] الكعبة، وذلك لأن أبا طالب الذى ورث الرفادة والسقاية عن جده عبد المطلب كان فقيراً[٤] لا مال عنده، هذا فضلاً عن أن زمام التجارة فى مكة كان يشرف عليها أبو سفيان[٥] من البيت الأموى. ولذلك سنجد أن البيت الأموى سيكون من أشد المعارضين للاسلام، خوفاً من أن تعود الزعامة لبنى هاشم إذا ما نجحت دعوة النبي.

ومهما يكن لم يتعرض المشركون[٦] — وهى تسمية القرآن للوثنيين — لمحمد طالما لم تكن آلهتهم موضع هجوم، فلما بدأ يحقّر[٧] من شأنها،

= ومن انضم إليهم، الذين عقدوا حلفاً فيما بينهم مؤكداً لإرادتهم فى نيلها. ولكى يؤكدوا على أنفسهم ذلك غمسوا أيديهم فى جفنة مملوءة بالطيب، ولذا سموا « المطيبين »، كما أن أعداءهم بنى عبد الدار ومن انضم إليهم عقدوا عند الكعبة حلفاً على ألا يتخاذلوا فى الحصول عليها وسموا « الأحلاف »؛ ولكنهم اصطلحوا ورضوا بقسمة هذه الوظائف بينهم. ابن الأثير، الكامل، ١ ص ٢٦٧.

(١) نفس المرجع، ٢ ص ١٠ س ٩.

(٢) نفسه، ٢ ص ١٠ س ١٦ — ١٧.

(٣) ليس لدينا تفصيلات عن توزيع هذه الوظائف فى بدء عهد الإسلام، وإن كنا نعرف أن بنى هاشم اقتصر اشرافها على السقاية والرفادة. انظر. نفسه، ٢ ص ١٤ س ١٧ فما بعدها.

(٤) نفسه، ٢ ص ١٤ س ١٧ — ١٨.

(٥) نفسه، ٢ ص ٨٠.

(٦) القرآن ٤١ : ٦.

(٧) ابن هشام، ١ ص ١٨٣.

ويسميهم « بالكفار[١] » ، أخذوا يتحرشون به ، وبدءوا بتوجيه تحذير[٢] إلى أسرته بنى هاشم ، بحيث اضطر محمـــد أن يجتمع سراً فى شعاب الجبال ، أو فى بعض المنازل . وكانت الآيات القرآنية التى تنزل عليه فى ذلك الوقت ترسم للمسلمين أصول الدعوة الجديدة ، وهو طابع الدعوة فى مكة .

ولكن استمرار الدعوة جعل المشركين يهاجمون المسلمين ، وبخاصة الأرقاء والضعفاء منهم ، فكانوا يعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، ويسحبونهم على الرمال الساخنة وقت الظهيرة[٣] . فلما رأى النبى ما أصاب المسلمين من البلاء ، وأنه لا يقدر على أن يمنع عنهم الشر ، عرض عليهم الهجرة إلى الحبشة[٤] ، ولعل ذلك بسبب أنها أقرب الديار للجزيرة العربية ، ولأن شمال الجزيرة كان وقتئذ مسرحاً للحرب بين بيزنطة وفارس ، ولأن سكانها مسيحيون من أهل الكتاب وليس من المشركين[٥] . ومع ذلك لم يترك مشركو مكة المهاجرين آمنين ، بل تبعوهم إلى هناك يضايقونهم ويحرضون الحبشة[٦] عليهم . ورغم ذلك نجد أن شخصيتين كبيرتين فى مكة هما : حمزة ابن عم النبى وعمر[٧] ، يتحولان إلى الإسلام ، مما كان له أثره فى تقوية الدعوة الإسلامية ، ودخول المترددين فيها ، بل ورجوع المهاجرين من الحبشة ؛ ليكونوا بقرب النبى .

عندئذ نجد المشركين يتخذون خطوة جدية فى القضاء على هذه الدعوة التى تزايد اتباعها ، فعقدوا فيما بينهم عهداً سموه « بالصحيفة[٨] » تعاهدوا فيه على

---

(١) القرآن ٨ : ١٤ .
(٢) ابن هشام ، ١ ص ١٦٧ — ١٦٨ .
(٣) نفسه ، ١ ص ١٦٧ .
(٤) نفسه ، ١ ص ٢٠٨ .
(٥) انظر . Ency. de l. Isl. (art Muhammad) 3, p. 691
(٦) ابن هشام ، ١ ص ٢١٧ .
(٧) ابن الجوزى ، تاريخ عمر بن الخطاب ، تصحيح حسن الهادى ، ص ١١ — ١٢ .
(٨) ابن هشام ، ١ ص ٢٣٠ فما بعدها . سماه النبى عند اسلامه « فاروقا » لأن الله فرق به بين الحق والباطل .

مقاطعة بنى هاشم وعدم التعامل معهم : فلا يؤاكلونهم ، ولا يشاربونهم ، ولا يبايعونهم ، ولا يناكحونهم ، ولا يكلمونهم حتى ينبذوا محمداً والمسلمين ؛ ولكى يؤكدوا على أنفسهم قداسة هذا العهد وضعوا الصحيفة فى جوف الكعبة . ومع ان كثيراً من بنى هاشم أنفسهم لم يؤمن بدعوة محمد ، فقد رأوا أن سحب حمايتهم لواحد منهم نزولاً على تهديد منافسيهم بنى أمية — الذين تزعموا المعارضة كما ذكرنا — يعتبر أمراً مهيناً فى نظرهم ، ولذلك صبروا على هذا الحصار ثلاث سنين .

ولكن على أثر وفاة أبى طالب عم النبى وخديجه زوجته ، بالغ المشركون فى الاعتداء على النبى وطمعوا[1] فيه ، حتى كان من اعدائه من هم من أفراد أسرته ، مثل : عمه أبو عتبه ، وهو يكنى بأبى لهب[2] ، فكان يسخر منه كلما وجده ، ويحمّل امرأته الشوك[3] لتطرحه فى طريقه حتى يعقره ، وبدأ النبى يفكر فى الهجرة من مكة ، إذ كما يقول المثل : « لا كرامة لنبى فى وطنه » .

فأول ما فكر النبى فى الهجرة إلى الطائف[4] ، وهى قرية تقع فى جنوب مكة ، لأن سكانها — وهم من قبيلة ثقيف — كانت تربطهم بقريش صلة القرابة ، فضلاً عن أنه كان لأغنياء المكيين فيها أملاك وبساتين[5] ولكن أهل الطائف رفضوا حمايته ، لأنهم مثل المكيين يعبدون الأصنام ، وعلى الخصوص صخرتهم الربعة المعروفة باسم «اللات»[6] ، التى كانت تعتبر فى نظرهم أم الآلهة « الربة[7] » .

(١) ابن هشام ، ١ ص ٢٧٩

(٢) سمى هكذا لجماله . المعارف ، ص ٦٠

(٣) أصبح يضرب بها المثل فيما بعد ، فكان يقال : « أخسر من حمالة الحطب » . انظر . الميدانى ، ١ ص ١٧٢ . انظر أيضاً القرآن ١١١ : ١ — ٥ .

(٤) ابن هشام ، ١ ص ٢٧٩ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ١٠ فما بعدها .

(٥) فتوح البلدان ، ص ٥٦ ؛ انظر . قبله .

(٦) القرآن ٥٣ : ١٩ ؛ الأصنام ، ص ١١٦ و ١٠٩ ، انظر . قبله .

(٧) الزبيدى ، تاج العروس ، ١ ص ٢٦٢ ؛ اصنام ، ص ١٠٩ ؛ انظر . قبله .

ولذلك رجع النبي إلى مكة ؛ بعد أن أهانه[١] سفهاء ثقيف ، فى حماية أحد تجار الطائف الكبار .

عندئذ توجه النبي بدعوته من جديد إلى الوافدين فى موسم الحج من عرب يثرب ، الواقعة شمالى مكة ؛ لعل هؤلاء يجيرونه . فقد كان يسكن يثرب القبيلتان الأوس والخزرج ، اللتان جاءتا إليها بعد انهيار سد[٢] مأرب المشهور فى اليمن ، ويظهر أنهما كانا يتنافسان على الزعامة فيها ، بحيث وقعت بينهما حروب كثيرة أشهرها يوم « بعاث[٣] » ؛ وكانوا وثنيين يعبدون صنماً اسمه « مناة[٤] » . كذلك كان يسكن يثرب جماعة من اليهود ، وهم ثلاث قبائل : بنو القينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ، ولعلهم استوطنوها منذ هجرتهم من فلسطين ، أو هجرتهم من اليمن بسبب اضطهاد الحبش لهم ؛ وقد اختلط هؤلاء اليهود بالعرب فى يثرب ، وصارت أحوالهم مثلهم[٥] ، واستحالت لغتهم أيضاً وأسماؤهم عربية[٦] ، وإن كانوا — مع ذلك — يعيشون فى أماكن خاصة بهم سموها « آطام[٧] » جمع « أطم » ، عبارة عن قلاع تشتمل على بيوتهم ومعابدهم . ويظهر أن هؤلاء اليهود بعد أن كانوا — مثل الأوس والخزرج — [٨] يتنازع بعضهم مع بعض ، أصبحت

(١) ابن هشام ، ١ ص ٢٧٩ .

(٢) المختصر ، ١ ص ١٠١ .

(٣) انظر . ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٢٥ ؛ على مظهر ، العصبية ، ص ٤٣ . لعل المقصود بهذه الكلمة الخروج للغزو .

(٤) القرآن ٥٣ : ١٩ ؛ الأصنام ، ١٣ — ١٤ .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٤٨ س ١٦ — ١٧ . يرى ولفنسون — المؤرخ اليهودى الحديث — أن يهود يثرب أقرب إلى العنصر اليهودى منهم إلى العنصر العربى . انظر . ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ١٦ .

(٦) ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ٢٠ .

(٧) الروض الأنف ، ٢ ص ٥٢ ؛ ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ١١٧ . وبالعبرية تعنى المكان المغلوق (انظر . ولفنسون ، ٢ ص ١١٧) . ولعلهم أخذوه عن نظام بناء بيوتهم فى فلسطين . انظر . Wensinck : Mohammed en de Joden te Medina. Leiden 1908, p. 44.

(٨) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٣١ ؛ انظر . ولفنسون ، ص ١٦ .

بيدهم معظم أراضي يثرب وتجارتها وصناعتها ، أما الأوس والخزرج فكانوا من مواليهم[١] أي أتباعهم ؛ كما تهود[٢] من هؤلاء قوم لمجاورتهم لليهود .

واستطاع النبي أن يؤثر في قلوب بعض الحجاج من الأوس والخزرج ، خصوصا وأنهم كانوا على سمع من روايات أحبار اليهود عندهم بظهور المسيح[٣] المنتظر ، أو المنقذ في آخر الزمان ، فضلاً عن أنهم كانوا يطمعون في وجود[٤] نبي لهم وكتاب مثلما عند اليهود . وقد قبل دعوته منهم في أول الأمر عدد قليل يبلغ اثنى عشر رجلاً بينهم امرأة واحـــدة ، وبايعوه عند مكان بين منى ومكة اسمه « العقبة » ، ولذلك سميت : « بيعة[٥] العقبة الأولى » نسبة إلى هـــذا المكان ، أو « بيعة النساء[٦] » لأنهما لم تكن إلا بيعة على الدين فلم يأخذوا على أنفسهم فيها عهداً بحمايته ، حتى يفكروا ملياً في الأمر خوفاً من قريش .

ولـكن الإسلام كتب له البقاء ، فقد حضر وفد من اليثربيين إلى مكة عند حلول الموسم الجديد — بعد عامين من بيعتهم الأولى — عدده ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان ، وكان عهدهم إليه هذه المرة صريحاً في دعوته ومنعه جميع المسلمين إلى يثرب ، وقبولهم لأى تحد من قريش أو غيرها ، وهو ما عبروا عنه بحرب الأسود والأحمر ، وسميت : « بيعة العقبة الثانية[٧] » . وفعلاً هاجر معظم مسلمى مكة إلى يثرب ، فلما علمت قريش بذلك استشاطت غضباً وراحت تدبر مؤامرة في دار الندوة[٨] لاغتيال النبي ، الذى ما علم بذلك حتى تسلل خفية هو

(١) ابن هشام ، ١ ص ٢٨٦ .
(٢) اليعقوبي ، تاريخ ، ص ٢٩٨ س ١٤ — ١٥ .
(٣) ابن هشام ، ١ ص ١٠٢ ؛ انظر ارنولد ، الدعوة إلى الاسلام ، ترجمة حسن إبراهيم وعابدين والنحراوى ، الجيزة ١٩٤٧ ، ص ٣٠ .
(٤) ابن هشام ، ١ ص ١٣٤ .
(٥) نفسه ، ١ ص ٢٨٨ ؛ انظر . عن عقبة معجم البلدان ، ١ ص ١٩٢ .
(٦) نفسه ، ١ ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .
(٧) نفسه ، ١ ص ٢٩٣ فما بعدها .
(٨) ابن سعد ، ١/١ ١٥٣ س ١٢ .

وأبو بكر مترسماً طريق يثرب إلى الشمال ، مختفيا فى المغارات[1] والكهوف المنتشرة على طول الطريق . فلما وصل سالماً دخل يثرب وسط ترحيب أهلها ، وسميت بهذه المناسبة « المدينة[2] » ، وهى التى سترتفع شهرتها إلى شهرة مكة وصنعاء ، وستصير عاصمة الجزيرة العربية فى عهد الخلفاء الأوائل . وقد عرّف مجىء النبي إلى يثرب « بالهجرة » ، وهى من الفعل « هجر[3] » ، الذى كان يعنى عند العرب خروج البدوى إلى المدن ، وتاريخها يوم الاثنين لإثنتى عشرة[4] ليلة خلت من ربيع الأول (٢٤ سبتمبر ٦٢٢ م) .

وكان أول ما فعله النبي فى المدينة هو بناؤه المسجد[5] ، وهى كلمة وردت فى القرآن[6] ، وعرفت فى الجاهلية[7] على أنها اسم البيت الذى تطوف حوله القبائل ، ولكن فى الإسلام أصبح المسجد هو مكان العبادة عند المسلمين . وكما كانت ساحة الكعبة لا يجوز القتال فيها وتعرف « بالحمى » أو « الحرم[8] » ، كذلك أصبح مجموع المسجد فى الاسلام « حرماً » ؛ لا يجوز القتال فيه ، وغير قابل

---

(١) أهمها غار ثور المشهور ، حيث ينقل الرواة أن النبي كان راكباً فى هجرته ناقته « القصواء » النويرى ، ١٠ ص ١١١ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص٢٨٣ . وهى سميت بأسماء أخرى ،منها: مدينة الرسول أو دار الإسلام أو أرض الله انظر . الواقدى فتوح الشام ، تحقيق Lees ؛ ص ٤٥ — ٤٦ ملاحظات معجم البلدان ، ٧ ص ٤٢٥ فما بعدها .

(٣) اللسان ، ٧ ص ١١٠ فما بعدها ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Hidjra)), 2, p. 321.

(٤) المعارف ، ص ٧٥ س ٩ — ١٠ ؛ انظر . Mohammed. Erster: Crimme Teil. Münster 1892, p. 47.

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ص ٢٨٣؛ انظر . Ency, de l'Isl. (art Masdjid) 3, p. 362.

(٦) القرآن ٢ : ١٤٤ و١٨٧ .

(٧) لسان العرب ، ٤ ص ١٨٨ ؛ قطب الدين ، كتاب الأعلام ، ص ١١ س ٨ . هذه الكلمة وجدت أيضاً فى النقوش الآرامية والنبطية والعبرية وحتى الحبشية انظر . Ency. de l'Isl., 3, p, 362 . وعلى العكس فإن كلمة جامع لم تستعمل إلا فى الأزمنة المتأخرة . انظر . فون كريمر ، الحضارة الإسلامية ، ص ٥٨ هامش (١) .

(٨) انظر . Demombynes : Le Pèlerinage, p. 1

للتنجيس[١] . وقد كان مسجد النبي بسيط[٢] البناء ، فلم يكن غير فناء ضيق ، يحيط به جدار من اللبن ، وليس فيه غير مكان واحد مسقف ، يغطيه الجريد المثبت على جذوع النخيل ؛ أما بقية أجزائه فكانت مكشوفة ؛ وقد أفرد النبي الجزء المسقوف لبعض من جاء معه من مكة ولم يجدوا مأوى ، وسموا لذلك « بأهل الصُّفة » ، أى الذين يأوون إلى صُفة المسجد ، وهو المكان المسقوف . وقد بقى هذا المسجد خالياً من كل مظاهر الترف ؛ إلا من حجرات أو بيوت[٣] بناها النبى حوله ، ولكن أعيد بناؤه فى عهد الأمويين[٤] وأدخلت فيه المقصورة والمحراب والمنبر والأعمدة الرخامية والعقود .

كذلك كتب النبى دستور الجماعة الإسلامية الأولى بين أهل يثرب — الذين أصبحوا يعرفون بالأنصار[٥] — والمسلمين من قريش وهم المهاجرون ، وهو ما عُرف أيضاً « بالصحيفة[٦] » . وقد جعل من المسلمين « أمة[٧] » تسودها الوحدة من دون الناس « واحدة » ، أو جماعة دينية قائمة بذاتها[٨] ، وذلك بالترابط بينها « يتعاقلون[٩] » ، حتى فى التخفيف عمن أثقله الدين ولا يجد قضاءه وليس له ولاء ولا عشيرة « مُفرَح »[١٠] . ولكى يحتفظ لهذه الأمة بكيانها نجده ينظم

(١) النويرى ، ٤ ص ٤ ؛ انظر . Lammens : Etudes sur, le siècle des Omeyyades, p. 115.

(٢) البلاذرى ، فتوح ، ص ٦ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. 3, p, 364

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٣ .

(٤) انظر . بعده .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٣ .

(٦) سيرة ابن هشام ، ١ ص ٣٤١ — ٣٤٤ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ١ — ٧ .

(٧) هذه الكلمة معناها غير محدد ، فقد تعنى فى الغالب طائفة دينية انظر . القرآن ١٠ : ٤٧ ؛ انظر . Wellhausen : The Arab Kingdom transl. M. Weir. Calcutta 1947, p. 7; 11 ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Umma) t 4. p. 1069 - 1070 .

(٨) انظر . الريس ، النظريات السياسية الإسلامية ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ١٠ هامش (١) .

(٩) انظر . Dozy : Supplément aux Dictionnaires arabes, 2 ed. t 2, p. 153 sqq.

(١٠) انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٣٤١ .

شئونها الحربية، إذا ما اضطرت إلى الخروج للغزو « غازية » : فنص على أن تتناوب جماعاتها الغزو « يعقب بعضها بعضا »؛ كما نظم مسألة الديات «المعاقل أو عقل[١]»، وفداء الأسير « عانيهم[٢] » ، وذلك بأن تتكفل كل جماعة فى هذه الأمة بهما فيما بينها . ومن ناحية أخرى نظم النبى فى هذه الصحيفة العلاقة بين المسلمين واليهود فى يثرب ، فأمّن هؤلاء على دينهم ، وأقرّهم على أموالهم ماداموا مع المسلمين، بل سمح لهم بأن « ينفق » عليهم مع المسلمين فى حالة محاربتهم فى صفوفهم، ونص على أن يكونوا معهم ضد من يدهم يثرب من الأعداء ، وأن لا تُجار قريش ولا من من نصرها . ولكى يستميلهم حتى يتوفر لعداء قريش حول[٣] القبلة فى الصلاة من مكة إلى القدس ، وهى أيضاً بقعة مقدسة لوزود الأنبياء إليها . ولكن سرعان ما قدر النبى ضرورة الاحتفاظ لمكة بنفوذها ، خصوصاً وأن دعوته ترتبط أشد الارتباط بدين إبراهيم ، فأعاد القبلة كما كانت إلى الكعبة .

وفوق ذلك كانت الهجرة إلى المدينة سبباً فى تحول هام فى الدعوة الإسلامية نفسها : ففى مكة لم يكن دور النبى غير دور دينى ، فكانت سور القرآن لا تتناول إلا أمور الدين خالصة ، أما فى المدينة فحينما أصبحت للنبى الزعامة السياسية على « الأمّة » الاسلامية ، كانت سور القرآن فى المدينة — بالإضافة إلى استكمالها فروض الدين — تبين تفاصيل هذا المجتمع السياسى — الدينى ؛ بحيث أصبح القرآن أشبه بقانون دستورى لهذه الأمة ، مما ميّز هذا الدور النبوى بعد الهجرة .

ولكن المكيين الذين رفضوا دعوة الإسلام ، ووقفوا منها موقف العداء ، أخذوا فى الاستعداد لكسر شوكتها ؛ بعد أن تفاقم خطرها ، بسبب هجرة النبى

(١) انظر . المصباح المنير ، ٢ ص ٦٤٧—٦٤٨ .

(٢) انظر . نفسه ، ٢ ص ٦٦٥ ؛ مجموعة الوثائق ، ص ٣٣٨ . العانى هو الأسير .

(٣) المعارف ، ص ٧٥ س ١٥ — ١٦ ؛ انظر Grimme : Mahommed I, p. 57; 71 .

إلى يثرب : فقد كان التجاء المسلمين إلى هذه المدينة ، التى تقع على طريق مكة التجارى فى رحلتها إلى الشام ، مما يجعل أسباب معايشهم فى خطر شديد . ثم إن قبول يثرب ايواء محمد وأصحابه من المهاجرين يعتبر بالنسبة للمكيين تحدياً وجرحاً لكبريائهم . وقد كان الخوف من غدر المكيين هو الذى دعا الرسول إلى أن يرسل من وقت لآخر بعض السرايا(١) ؛ لترصد عن كثب تحركات المكيين . ولا ريب أن الهجرة قد خلقت فى المسلمين قوة هائلة للدفاع عن عقيدتهم التى فروا بها من اضطهاد المكيين ، فترى الوحى الذى ينزل على النبى يدعو إلى الدفاع عن النفس ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ٢: ١٩٠ ﴾ . ولكن حدث لإحدى السرايا ؛ أن الحماس الذى أتاها من طبيعتها البدوية دفعها إلى مهاجمة قافلة(٢) لقريش ، كانت فى طريقها إلى مكة ، فقتلت مكياً وأسرت اثنين . وقد كان فى الإمكان لو أراد القرشيون السلام تسوية(٣) هذه الحادثة خصوصا وأن النبي أعلن استمداده فدية(٤) الأسيرين . ولكن القرشيين كانوا مدركين خطورة وجود المسلمين فى طريق رحلتهم التجارية إلى الشام بحيث أن أبا سفيان لما أقبل من الشام فى عير(٥) لقريش عظيمة اضطر أن يسير بحذاء البحر الأحمر لينجو بالعير والمال(٦) ؛ فاتخذوا هذه الحادثة تكأة لمهاجمة المسلمين ، فكان هذا الهجوم هو بدء الصراع بين مكة والمدينة ، وهو صراع لم تتعود عليه الجزيرة العربية من قبل ، إذ أنه ليس صراعاً بين قبائل ؛ وانما هو صراع على العقيدة ، وهذا لم يسمع به من قبل فى تاريخ الحجاز ، وكان لا بد من القضاء على أحدها .

---

(١) ابن هشام ، س ٤٢٣ — ٤٢٤ ؛ انظر Spreger : Das Leben und die Lehre des Mohammed, Zweite Ausgabe, Berlin 1869 3 p. 105 - 109

(٢) ابن هشام ، ١ ص ٤٢٥ .

(٣) انظر - Bertram : Les Arabes, p. 41

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٨٠ .

(٥) نفسه .

(٦) نفسه ، ص ٨٤ س ٩

ففى يوم الجمعة ١٧ من شهر رمضان من السنة[١] الثانيـــة من الهجرة (١٤ مارس ٦٢٤ م) خرج حوالى ألف[٢] محارب من مكة يقودهم شيخ بنى أمية أبو سفيان — وهم أعداء الهاشميين — إلى الشمال لمحاربة المسلمين فى المدينة. ولكن النبى أسرع بالخروج إليهم فى قوة عددها ثلثمائة[٣] وبضعة عشر رجلاً، وعسكر بهم فى منطقة ماء اسمها « بَدْر »[٤]، عند قاعدة جبال[٥] قرب البحر الأحمر، بين مكة والمدينة[٦]. وقد تحارب الطرفان بالطريقة التى كانت القبـائل البدوية تحارب بها فى الجاهلية، وذلك بأن يتراص المحاربون صفوفاً، وأن تبدأ المعركة بالمبارزة فرادى، فيثير المدون منظر الدم، فيلتحمان. وكان النبى يقدر النتيجة التى ستترتب على الهزيمة فى هذه الموقعـة، لذلك انسحب إلى عريش[٧] مرتفع، بُنى له ليـكون بمثـابة الراية للمقاتلين المسلمين، وما فتىء يبتهل إلى الله لنصرة المسلمين، حتى قال فى ابتهاله: ﴿اللهم إن تهلك هذه العصبة لا تعبد﴾. ويبدو أن مظهر النبى فى ابتهالاته كان سبباً فى تقوية الروح المعنوية عند المسلمين، فتغلبوا فى مبارزاتهم الفردية مما دعاهم إلى القتال بشدة عند الالتحام؛ بحيث اضطر المـكيون إلى الانسحاب؛ بعد أن تركوا وراءهم أشلاء سبعين قتيلا، وكثيراً من الأسرى[٨].

ومع أن هذه المعركة هى معركة بين المسلمين وأعدائهم الذين أجبروهم على ترك بلدهم، والذهاب إلى المنفى؛ إلا أن النبى أمر بمعاملة الأسرى بالإحسان:

---

(١) المعارف، ص ٧٨ س ٩.
(٢) ابن هشام، ١ ص ٤٣٦.
(٣) المعارف، ص ٧٥.
(٤) نفسه؛ ياقوت، معجم، ٢ ص ٨٨.
(٥) انظر: Hamidullah : Les Champs de Bataille au temps du Prophète. R. E. I. année 1939, p. 3
(٦) ياقوت، معجم البلدان، ٢ ص ١٢٨.
(٧) ابن هشام، ١ ص ٤٣٩ فما بعدها. يوجد الآن مكان العريش مسجد، ويظهر أنه بنى فى عهد المماليك. انظر: Hamidullah : Op. cit, p. 4
(٨) اختلف فى عدد القتلى والأسرى. ابن هشام، ١ ص ٥١١.

فكثير من سادات قريش افتدوا[١] بالمال ، أما الفقراء فقد أطلقوا دون فداء[٢] . وكان من الأسرى أبو العاصى بن الربيع — زوج زينب ابنة النبى — التى بعثت إلى والدها بقلادة لها ، كانت خديجة قد أهدتها إليها عند زفافها إلى أبى العاصى ، فلما رآها النبى رق لها رقة شديدة ، وطلب أن يرد لها أسيرها[٣] ؛ مع أن الصحيفة كانت تمنع اجارة المشرك[٤] .

وكان للنصر فى يوم بدر[٥] أثره فى تقوية معنويات المسلمين ، فقد تغلبوا وهم الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ، خصوصاً وأن الحرب فى كل وقت عند العرب وسيلة صحيحة للحكم على الأشياء[٦] . بل يصور القرآن[٧] هذه المعركة وكأن جمعاً حاشداً من الملائكة كانت تحارب مع المسلمين . ولما كانت هذه أول معركة فى سبيل الدين ، فقد نظر المسلمون دائماً إلى الذين اشتركوا فيها نظرة مقدسة ، بحيث نعرف أسماءهم فرداً فرداً[٨] ؛ وأسماء من استشهد منهم[٩] . ولذلك لم يتردد النبى فى أن يضيف إلى هذا النصر المؤيد نصراً آخر وذلك بالتخلص من قبيلة بنى قينقاع[١٠] اليهودية التى كانت تستهر[١١] بمسلمى المدينة، فحاصرها إلى أن قبلت التسليم ، ولعله أراد بهذه الضربة أن يخيف بقية اليهود فى المدينة .

(١) نفسه ، ١ ص ٤٦٢ .
(٢) نفسه ، ١ ص ٤٧٠ .
(٣) نفسه ، ١ ص ٤٦٥ .
(٤) ابن هشام ، ١ ص ٣٤١ — ٣٤٤ ؛ مجموعة الوثائق ، ص ٤ على الخصوص .
(٥) القرآن ٣ : ١٢٣ .
(٦) قال زهير بن أبى سلمى :

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

(انظر النويرى ، ٣ ص ٦٢) . وقد ذكر القرآن هذا المبدأ وهو ما يعرف « بالمباهلة » (القرآن ٣ : ٦١) . انظر أيضاً Massignon : La lutte, p. 8 sqq : Cheira : La Mubâhala. Extr. de l'Ann. de l'Ecol. des H. Et. Sect. dēs. S. R. 1943 — 1944.

(٧) القرآن ٣ : ١٢٤ — ١٢٥ ؛ ٨ : ١٢ ، ٥٠ .
(٨) ابن هشام ، ١ س ٤٨٥ .
(٩) المعارف ، ص ٧٨ س ٥ فما بعدها . يورد أسماء أربعة عشر رجلا .
(١٠) ابن هشام ، ٢ ص٥٤٥؛ انظر Grimme : Mah, p. 93
(١١) كذلك كانت تقلل من قيمة نصر محمد فى بدر. ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص٩٦ .

أما المكيون فلم يعترفوا بفوز محمد عليهم فى بدر ، وصمموا على الأخذ بالثأر ، خصوصاً وأن محمداً أصبح دائم التعرض لقوافلهم . فخرجوا فى شوال من السنة الثالثة للهجرة (مارس ٦٢٥) فى ألف فارس يلبسون الدروع وثلاثة آلاف من المشاة بقيادة أبى سفيان — وهو القائد الذى هُزم فى بدر — وكان خلفهم النساء ينشدن الأناشيد المناسبة ؛ لتشجيع المحاربين على القتال[١]. ولقد كان اصطحاب النساء[٢] فى الحرب عادة جرى عليها العرب فى كل وقت، وحتى بعد انتشار الإسلام فإنهم اصطحبوا نساءهم فى حروبهم ضد الروم والفرس ؛ فالنساء بوجودهن كن يجبرن الرجال على القتال ؛ دفاعاً عن العرض ، الذى كان أهم شىء عند العرب .

أما النبى فقد خرج فى ألف[٣] رجل من أصحابه — وهو راكب فرسه «السكب[٤]»، وليس مع المسلمين غيره وفرس آخر لأحد الصحابة — إلى جبل أحمر اسمه أُحد فى الشمال، ليجعل المدينة فى أعقابهم إذا ما توجه إليه الكفار؛ فبذلك يتمكن من قطع خطوطهم[٥] ، ويتفادى القتال فيها . وقد برهن فى هذه الموقعة على مقدرة حربية عظيمة : فنظم المقاتلة فى صفوف على عادة العرب فى القتال ، ووضع رماة النبال فى المؤخرة على جبل[٦] « عَينين » جنوبى أُحد ، لحفظ ظهور المسلمين ، وأمرهم بالثبات[٧] بموضعهم مهما حدث . ومع أن جيش النبى كان أقل عدداً من جيش المشركين ؛ فإنه حارب بشجاعة ، بحيث اضطر القرشيون إلى الهرب .

(١) كن يقلن :

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

ابن هشام ، ٢ ص ٥٦٢ .

(٢) انظر بعده .

(٣) المعارف ، ص ٨٩ س ١ .

(٤) النويرى ، ١٠ ص٣٣ — ٣٤ . كان يسمى أيضاً : « المرتجز » و « النجيب » . نفسه ، ١٠ ص ٣٥ .

(٥) انظر . Hamidullah : Op.cit, p. 5. عن جبل أحد انظر . معجم البلدان، ١ ص ١٣٣ — ١٣٥ .

(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ٢٥٨ . يسمى الآن هذا الجبل جبل الرماة . Op. cit, p. 5 : Hamidullah

(٧) ابن هشام ، ٢ ص ٥٦٢ .

ولكن رماة النبال تركوا أماكنهم لجمع الغنائم(١) مخالفين بذلك أمر النبي ، فانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة — وكان وقتئذ أحد قواد المشركين — وهجم بالفرسان من ناحية الجبل ، فقتل عدداً كبيراً من المسلمين ، وتفرقوا فى كل مكان ، وجرح النبي أثناء دفاعه عن نفسه . وقد اعتقد المكيون أنهم قضوا نهائياً على دعوة محمد ، خصوصاً وأن اشاعة قتله(٢) ملأت آذانهم ؛ فانسحبوا من ميدان المعركة راجعين إلى بلادهم مسرورين . ولكن نساءهم لم تترك ميدان القتال إلا بعد أن شفت غليلها من قتلاها فى بدر ، فجمعن أنوف الموتى من المسلمين وآذانهم ليجعلنها قلائد ؛ ولم يندمنهن هند(٣) امرأة القائد أبي سفيان ، التى بقرت بطن حمزة — ابن عم النبي — واستخرجت كبده فلاكتها . وبذلك نال المشركون ثأرهم فى بدر ، وقال أبو سفيان فى هذه المناسبة(٤) : «يوم بيوم بدر والحرب سجال» .

أما النبى فقد رجع إلى المدينة مسرعاً ؛ وقام بطرد(٥) « بنى النضير » ، وهى طائفة أخرى من اليهود حاولت أن تستفيد من هزيمة النبي بالغدر به ، فحاصرها وقطع نخلها وأحرقه ، وأجلاها هى الأخرى عن المدينة — وذلك فى سنة أربع هجرية(٦) (٦٢٥) — ليضم أرضها إلى أملاك المسلمين .

ولما علمت قريش أن محمداً لم يقتل ، فهمت ألا قضاء عليه إذا لم تدمر المدينة التى آوته ، وصممت على حربه هذه المرة فى عقر داره . وقد سعى المكيون قبل هجومهم على المدينة إلى تكوين حلف قوى من كل العناصر الموالية(٧) من البدو ،

(١) المعارف ، ص ٧٩.
(٢) ابن هشام ، ٢ ص ٥٧٤ .
(٣) نفسه ، ٢ ص ٥٨١ .
(٤) الميدانى ، مجمع الأمثال ، ١ ص ١٤٤ ؛ انظر . أبو الفضل والبجاوى ، أيام العرب فى الإسلام ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٣٧ .
(٥) ابن هشام ، ٢ ص ٦٥٢ فما بعدها ؛ انظر . ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ١٣٥ ؛ Mohammed en de Joden te Medina, p. 82 : Wensinck
(٦) ابن هشام ، ٢ ص ٦٥٢ .
(٧) نفسه ، ٢ ص ٦٦٩ — ٦٧٠ .

أمثال : فَزَارة وأشجعَ ومُرَّةَ وغَطَفَانَ ، وأيضاً بالتعاون مع « بنى قريظة » — بقية اليهود فى المدينة — الذين كانوا يكرهون[١] المسلمين بسبب إخراجهم لبنى القينقاع والنضير . فجمع أبو سفيان من القرشيين وأحابيشهم[٢] ، ومن القبائل والعشائر البدوية من نجد وتهامة[٣] جيشاً جراراً ، لا يقل عدده عن عشرة[٤] آلاف مقاتل ، ليزحف بهم على المدينة . وقبل أن يباشر زحفه أرسل إلى محمد كتاباً[٥] يطالبه فيه بنصف نخل المدينة الكثير ، ولكن النبى رد عليه بكتاب قال له فيه إنه فى انتظاره .

ولم يكن من الممكن أن يخرج النبى فى هذه المرة من المدينة كما حدث فى بدر وأحد ؛ بل كان على كل فرد فى المدينة أن يشترك فى رد الخطر المحيق بها من جانب المكيين ومن عناصر البدو — حلفاء المكيين — المتشوقين إلى الغارة . ولم يعتمد النبى فى الدفاع عن المدينة بالتحصن فى بيوتها ، وإنما لجأ إلى الدفاع عنها بناء على مشورة سلمان الفارسى[٦] ، وذلك عن طريق حفر خندق[٧] فى شمال المدينة — ولم يكن الخندق من أساليب الحرب المعروفة عند العرب — حيث أنها كانت هى المنطقة الخالية من التحصين : فالمدينة محاطة من نواحيها الثلاث[٨] الأخرى بالجبال وبأرض الحرّة — أى أراضٍ مملوءة بالأحجار — والحدائق

---

(١) نفسه ، ٢ ص ٦٧٤ ؛ انظر . ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ١٤١ فما بعدها .

(٢) انظر عن هذه الكلمة . قبله

(٣) ابن هشام ، ٢ ص ٦٧٣ .

(٤) نفسه .

(٥) نص هذا الكتاب موجود فى مخطوطه فى تركيا ، وينسب إلى محمد بن جرير الطبرى انظره فى مجموعة الوثائق ، ص ٨ — ٩ .

(٦) ابن هشام ، ٢ ص ٦٧٧ . هو من أصبهان من أسرة ارستقراطية فارسية كانت قبيلة كلب باعته فى يثرب ، فاشتراه النبى واعتقه ؛ ويظهر أنه عاش إلى سنة ٣٢ هـ . ابن هشام ، ١ ص ١٣٦ فما بعدها ؛ الطبرى ١ : ٢٤٤١ ؛ انظر Huart : Nouvelles Recherches sur la légende de Selmân du Fars Paris 1913, p. 3 sqq.

(٧) ابن هشام ، ٢ ص ٦٧٠ . وهى كلمة فارسية . انظر Huart : Op. cit, p. 4

(٨) انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ ص ٤٤٢ فما بعدها ؛ Hamidullah : Op. cti, p. 9

والنخيل؛ ولذلك سميت المعركة التي ستدور رحاها حول المدينة «بيوم الخندق[١]»، نسبة لهذا الخندق، أو «بيوم الأحزاب[٢]» بسبب اشتراك قبائل موالية للمكيين.

ولكن القرشيين الذين وصلوا إلى المدينة في السنة الخامسة[٣] الهجرية (٦٢٦)، وأثار دهشتهم وجود الخندق؛ لم يحاولوا عبوره، وفضلوا البقاء حتى يخرج المسلمون إليهم. ولما ملوا المقام دون أن يخرج المسلمون، وتعرضوا لعواصف رملية، فكوا الحصار ورجعوا إلى مكة دون تحقيق غرضهم، خصوصاً وأن النبي استمال غطفان من حلفائهم[٤]، مما أوهن المكيين.

ولكن الخطر لم يذهب عن المسلمين برجوع المكيين إلى بلادهم، بل كان الخطر من جانب بني قريظة، القبيلة اليهودية التي اشتركت مع المكيين في تأليب[٥] العرب على المسلمين وكانت أثناء حصار المشركين تتعاون معهم، أي أنها خرجت عن نصوص الصحيفة[٦] التي كتبها النبي معهم. لذلك — بعد رحيل المكيين — لم يتردد النبي في محاصرتها في آطامها، ثم قبلت التسليم على تحكيم شخص بعينه هو سعد بن معاذ[٧] — وهو سيد الأوس — وقد نفذ النبي حكم هذا الرجل فيهم: وهو يقضي بقتل الرجال، وسبي النساء والذرّية، وتقسيم أموالهم بين المسلمين. وقد كان بنو قريظة آخر من كان من اليهود في المدينة، وإن بقي اليهود في شمالها[٨] في خيبر وتيماء ووادي القرى وفدك وغيرها، إلى أن أخرجهم منها الخليفة عمر فيما بعد، وبذلك خلت الحجاز منهم.

---

(١) ابن هشام، ٢ ص ٦٩٩.
(٢) القرآن ٣٣ : ٢٠
(٣) ابن هشام، ٢ ص ٦٦٨
(٤) نفسه، ٢ ص ٦٧٦؛ ٦٨١
(٥) نفسه، ٢ص ٦٧٤؛ انظر. ولفنسون، تاريخ اليهود، ص ١٤١ فما بعدها.
(٦) انظر. هذه الصحيفة ابن هشام، ١ ص ٣٤١ — ٣٤٤؛ مجموعة الوثائق، ص ١ — ٧؛ انظر. قبله
(٧) ابن هشام، ٢ ص ٦٨٩. عن سيد الاوس انظر. نفسه، ٢ ص ٦٧٥.
(٨) انظر. بعده

وإذا كان النبي قد اطمأن على دعوته ، فإنه أراد أن يجرب نوعاً جديداً من السياسة مع المشركين من أهل مكة ، لعلهم يثوبوا إلى رشدهم ؛ خصوصاً وأن دعوته ما كانت لتعم العرب دون أن تعترف بها مكة لمكانتها المقدسة عندهم .
ففي آخر سنة[1] ستة (٦٢٨) قرر النبي الخروج معتمراً[2] — أي زيارة الكعبة في غير موسم الحج العام — فخرج لابساً ملابس الإحرام ومعه الهدى[3] إلى الكعبة ، ولا يحمل معه إلا السيوف . وقد أوقع هذا القرار قريشاً في مأزق ، فلم يكن من الممكن أن يرد أي حاج إلى الكعبة ، ثم إن مجيء النبي إليها بعد سماع العرب بدعوته ؛ قد يكون فيه احتفاظ للمكيين بنفوذهم وكبريائهم ، وما يدره عليهم هذا النفوذ من ثروة .

على أن قريشاً كانت لا تأمن عاقبة مجيء النبي وأتباعه إلى مكة ، ولذا اتخذت حذرها وخرجت مع حلفائها من البدو ؛ لتتعرف حقيقة مقاصده . وقد تبادل النبي معها السفارات ، فأرسل من قبله صاحبه عثمان بن عفان[4] — وهو سيصير الخليفة[5] الثالث فيما بعد — بحيث أنه لما بلغه أنه قد يكون قتل دعا المسلمين إلى الحرب ، وهو ماعرف ببيعة الرضوان[6] . ولكن قريشاً قبلت دخول محمد مكة ، على أن لا يدخلها هذا العام ، وإنما الرجوع[7] في العام الذي يليه بدون سلاح إلا السيوف في قرابها ، والمقام بها ثلاثة أيام فقط . كذلك رضوا بامضاء هدنة « الحديبية »[8] معه لمدة عشر سنين ، وهي : تعطى الحرية لأهل المدينة أو مكة في التنقل بأمان في الجزيرة ، وللقبائل أن تدخل في عهد «عقد» محمد أو قريش ، وأن يرجع محمد موالي قريش الفارين ولا ترجع مكة ممن مع محمد إذا جاءوها ؛ كما

(١) ابن هشام ؛ ٢ ص ٧٤٠ .
(٢) لسان العرب ، ٦ ص ٢٨٢ . وهي كلمة مأخوذة من الاعتمار . وهي الزيارة . انظر . قبله .
(٣) القرآن ٢ : ١٩٦ .
(٤) ابن هشام ، ٢ ص ٧٤٦ .
(٥) انظر . بعده .
(٦) نفسه ، ٢ ص ٧٤٦ .
(٧) نفسه ، ٢ ص ٧٤٨ .
(٨) نفسه ؛ ٢ ص ٧٤٧ ؛ مجموعة الوثائق ، ص ١٤٠ . الحديبية هي مكان اسفل مكة . ابن هشام ، ٢ ص ٧٤١ . وقد تنسب إلى بئر . الخشني ، شرح السيرة ، ٢ ص ٣٣٩ .

رفض القرشيون الاعتراف فى هذه المعاهدة بالنبى كرسول من عند الله ـ مع أن ذلك من دعائم الدين الجديد ـ وعنونوا الصلح باسمك «اللهم»[١]، وقبل النبى ذلك .

وقع النبى هذا الصلح ، الذى اعتبره القرآن فتحاً[٢] مبيناً ، على الرغم من أن بعض كبار الصحابة كانوا يريدون[٣] القتال فى أول الأمر. وقد دل النبى بقبوله هذه الهدنة على دبلوماسية ماهرة ، لأنه بمقتضى هذا الصلح استطاع أن يأخذ أول اعتراف من مكة بزعامته السياسية بين العرب ، وكان سبباً فى نشر دعوته واتساعها بانضمام القبائل التى ترددت فى حلفة ، على الخصوص قبيلة خزاعة المجاورة للمدينة[٤] . ولعل النبى — كما يذكر مؤرخ السيرة — أرسل فى ذلك الوقت الكتب[٥] إلى جميع ملوك العالم المعروفة، مثل : هرقل عظيم الروم وكسرى فارس ونجاشى الحبشة ومقوقس مصر ، ورؤساء القبائل فى أطراف الجزيرة العربية، مثل: الغساسنة واللخميين وأهل عُمان واليمامة والبحرين وملوك اليمن ، يدعوهم إلى الاسلام . كذلك استفاد من هذه الهدنة : بالقضاء على الخطر اليهودى فى خيبر وفدك ووادى القرى وتيماء ، وهى مجموعة من الواحات فى أقصى شمال الحجاز[٦] ، خصوصاً وأنهم بعد أن أخرج النبى اليهود من المدينة ، كانوا يؤلبون القبائل العربية فى هذه المنطقة عليه؛ فقام النبى بغزوها : فصالح من رضى المصالحة ، وحارب من امتنع عليه ، وإن ترك أراضيهم فى أيديهم، وأقام بينهم عماله[٧]، واستولى على جزء من محصول[٨] أراضيهم.

(١) ابن هشام ، ٢ ص ٧٤٧ .
(٢) القرآن ٤٨ : ١
(٣) ابن هشام ، ٢ ص ٧٤٧ .
(٤) نفسه ، ٢ ص ٧٤٧ — ٧٤٨ .
(٥) انظر ما ذكرناه عن صحة هذه الكتب . وقد اختلف فى تاريخ ارسالها فقيل إنها سنة الحديبية (ابن هشام ، ٢ ص ٩٧١) أو فى السنة العاشرة (٦٣١) انظر . ابن قتيبة المعارف، ص ٨٢ . عن هذه الكتب جميعاً انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢٣ فا بعدها ؛ حيث تقدمها بمراجعها التى وردت فيها ؛ انظر. أيضاً . ابن الفراء ، كتاب رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٣ و ٤ و ٥ .
(٦) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٥ .
(٧) ابن هشام ، ٢ ص ٧٥٧ .
(٨) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٥٩ — ٦٠ .

وفى السنة السابعة[١] (٦٢٧) عاد النبى ومعه ألفان من الحجاج المسلمين إلى مكة ، ولم يجد فى هذه المرة أى عائق ، وقام بتأدية « العُمرة » بالطواف حول الكعبة والسعى بين الصفا والمروة ؛ وإن لم يمنعه ذلك من التفكير فى تحطيم الأصنام التى بداخلها يوماً ما . وقد ترك منظر النبى وأصحابه أثراً عميقاً فى نفوس كبار المكيين ، فانضم إليه منهم اثنان : خالد بن الوليد[٢] — الذى كان سبب هزيمة أحد — وعمرو بن العاص[٣] ، وكلاهما سيكون من كبار قواد الفتوح الإسلامية .

ومنذ عاد النبى من مكة وهو السيد الذى لا ينازع : فقد أرسل حملة فى جمادى الأولى سنة ثمان[٤] للهجرة (أغسطس ٦٢٩) ، مكونة من ثلاثة آلاف مقاتل نحو مشارف الشام ، بقيادة زيد بن حارثة[٥] ، الذى كان النبى تبناه . ونحن لا نعرف الغرض من هذه الحملة الصغيرة نحو بلاد الشام ، فلعل النبى قصد بارسالها اشعار العرب المسيحيين بالشام بقوة الإسلام فى الحجاز ؛ وإن كنا نستبعد أن يكون قصده من ارسالها نحو الشمال هو التمويه على القرشيين ، حتى يهاجم مكة . وقد تلاقت هذه الحملة مع عرب الشام ، وهم الذين يشير إليهم ابن هشام باسم « الروم[٦] » — لعله بسبب أنهم من أتباع الروم أو البيزنطيين — فى موضع بالشام اسمه : « مؤتة[٧] » ، فهُزم جيش المسلمين ، وقتل زيد بن حارثة وجعفر

(١) ابن هشام ، ٢ ص ٧٨٨ .
(٢) نفسه ، ٢ ص ٧٤١ .
(٣) اختلف فى تاريخ اسلامه الذى قد يكون فى نفس وقت اسلام خالد ، أو بعد الحديبية انظر . نفسه ، ٢ ص ٧١٦ .
(٤) المعارف ، ٢ ص ٨١ ؛ انظر . رضا ، محمد ، ص ٣٦٢ — ٣٦٣ .
(٥) ابن هشام ، ٢ ص ٧٩١ و ٧٩٤ ؛ ابن سعد ، ٣/١ ص ٢٦ — ٣١ ؛ Ency. de l'Isl, 4 p 1261 . لعل هذه الحملة أرسلت لأن الغساسنة قتلت رسول النبى إليها . انظر Ency. de l'Isl. (art Mu'ta) 3, p. 699
(٦) ابن هشام ، ٢ ص ٧٩٢ . هم — ولا ريب — المقصود بهم « روم العرب » . الطبرى ١ : ٢١٠١ ؛ انظر . بعده .
(٧) الخشنى ، شرح سيرة النبى ، ٢ ص ٣٥٣ ؛ انظر Théophane : Chrongraphia éd. de Boor, I, 335

ابن أبي طالب[١] — ابن عم النبي — ولم ينقذهم غير تراجعهم بقيادة خالد ابن الوليد ، الذى أصبح من قواد النبى .

على كل حال يؤكد بن هشام — مؤرخ السيرة — أن النبى سار على مكة فى رمضان من نفس العام[٢] (ديسمبر ٦٣٠) ، بسبب أن قريشاً نقضت[٣] الصلح لما علمت بانكسار المسلمين فى « مؤتة » فهاجمت خزاعة[٤] ؛ وهى القبيلة التى كانت تواثبت لمحالفة المسلمين عند عقد هدنة « الحديبية » . ويبدو أن أبا سفيان[٥] — زعيم المكيين — والعباس عم النبي، أسرعا إلى النبى قبل وصول الحملة ، ليسلم الأول نفسه حيث اعتنق الإسلام ، وأخذ الأمان لقريش ؛ وقد أراد النبى أن يعامل عدوه المهزوم معاملة كريمة فأعلن أن من يدخل دار أبى سفيان فى مكة فهو آمن، وذلك على الرغم من أن أبا سفيان شنها حرباً شعواء على المسلمين؛ منذ ظهور الدعوة . وحين وصول النبى إلى مكة على رأس عشرة[٦] آلاف مقاتل — وهو عدد لم يعرف له مثيل من قبل فى جيش النبى ، مما يدل على أنه استفاد حقاً من المدنة بجمع الأنصار حوله — ولم يقابل إلا بمقاومة ضعيفة من جانب بعض المشركين ، ولكن خالد بن الوليد تمكن من القضاء[٧] عليها ، فأقبل الرجال والنساء على النبى لمبايعته[٨] . وبذلك سقطت مكة فى الصراع بينها

(١) أبو الفرج الأصبهانى ، كتاب مقاتل الطالبين ، النجف ١٣٥٣ ﻫ ، ص ٧ .

(٢) المعارف ، ص ٨١ .

(٣) ابن هشام ، ٢ ص ٨٠٢ .

(٤) البلاذرى ، فتوح ، ص ٣٦ .

(٥) ابن هشام ، ٢ ص ٨١٤ . لم يكن العباس قد أسلم قبل ذلك ، وإن كان موقفه من الدعوة الإسلامية هو موقف المحايد، وإليه ستنتسب الخلافة العباسية فيما بعد.

(٦) ابن هشام ، ٢ ص ٨٤٢ . سبق للقرشيين أن جمعوا هذا العدد من عرب نجد وتهامة . انظر . قبله.

(٧) نفس المرجع ، ٢ ص ٨١٧ .

(٨) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ١٧١ — ١٧٢ . هذه الكلمة تعنى العهد على الطاعة ، وتتم بالمصافحة . انظر . بعده

وبين المدينة ؛ وسمى ذلك اليوم « بيوم الفتح[١] » .

وكان أول ما قام به النبى بعد فتح مكة هو هدم[٢] أصنام الكعبة ، وإن أبقى على الحجر الأسود ، الذى كان مقدساً[٣] بسبب أنه كان بالكعبة منذ زمن إبراهيم، وكان وهو يكسر الأصنام يقول : ﴿ وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ١٧ : ٨١ ﴾ . ولم يحاول النبى أن يقضى على نفوذ هذه المدينة المهزومة ، فأعلن أنها تبقى دائماً حراماً[٤] لا يقاتل فيها ؛ وأن تكون الكعبة هى بيت الله الحرام ، يحج إليها العرب حتى المشركون[٥] منهم . كذلك لكى يقضى على نفوذ مكه الحربى ألغى[٦] اللواء نهائياً ؛ وهو قيادة الحرب كما ذكرنا .

وقد كان سقوط مكة بين يديه سبباً فى زيادة نفوذه فى الجزيرة العربية ، بحيث أصبح يعرف « بأمير الحجاز » أو « أمير مكة[٧] » . ولكن عارضت هذه السيطرة بعض قبائل الحجاز التى غلبت عليها حمية الجاهلية فى التعصب لحريتها ، مما دعا النبى إلى أن يسير إليها بنفسه : فانتصر على هوازن بعد أن حمى وطيس[٨] الحرب بينه وبينها فى يوم « حنين[٩] » ، ثم سار إلى ثقيف[١٠] فى الطائف — وهى التى

---

(١) ابن هشام ، ٢ ص ٨٢٢ .

(٢) الأصنام ، ص ٣١ س ٤ فما بعدها .

(٣) انظر . قبله .

(٤) البلاذرى ، فتوح ، ص ٤٢ . انظر . بعض الأحادث النبوية عن قداستها . النويرى ، ١ ص ٢٩٨ .

(٥) حتى ذلك الوقت لم يكن المشركون منعوا من الحج إليها . انظر . بعده

(٦) ابن هشام ، ٢ ص ٩٦٨ . النصوص متضاربة بخصوص إلغاء هذه الوظائف ؛ فينقل ابن الأثير بأن السقاية والرفادة لما أخذها العباس من أبى طالب ، بقيت فى أيدى أبنائه حتى صار يليها الخلفاء العباسيون انظر . الكامل ، ٢ ص ١٤ . كما يذكر أن الحجابة بقيت ، وأن دار الندوة تحولت فيما بعد إلى دار الامارة . انظر . نفسه .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٩ س ٢٠ .

(٨) الميدانى ، ٢ ص ٢٧١ .

(٩) القرآن ٩ : ٢٥ .

(١٠) ابن هشام ، ٢ ص ٨٦٩ .

كانت رفضت اجارته قبل الهجرة إلى يثرب — فحاصرها ورمى حائطها[١] بالمنجنيق ، وهاجمها بدبابة[٢] مغطاة بجلد البقر .

وليوطد النبي نفوذه على حدود الحجاز الشمالية — وهى منطقة كانت تسكنها قبائل عربية مسيحية[٣] فى الغالب،مثل: كلب وقضاعة ولخم وجذام وعذرة وغيرها، وبعض القبائل اليهودية[٤] — سار بنفسه على رأس حملة فى رجب من السنة التاسعة[٥] (اكتوبر ٦٣٠) ، فبسط نفوذه فيها على قرى ومراكز عديدة بعضها حتى من أرض الشام، منها: تبوك[٦] ودومة الجندل[٧] وأيلة[٨] ومعظم سكانها من المسيحين[٩]، وأذرح والجرباء ومقنا[١٠] وهم من اليهود[١١]؛ فعقد مع جميع أمراء هذه المراكز معاهدات أمان[١٢]، تؤمنهم على دياناتهم وأموالهم لقاء دفع الجزية[١٣]؛ بحيث ستكون بالنسبة لخلفاء الإسلام نسقاً للاتفاقات التى يتعامل بها المسلمون مع أهل الكتاب .

وفى نفس العام التاسع[١٤] (٦٣١) أصبح الحج إلى مكة يشمل عدداً كبيراً من عرب الجزيرة ، وعرف « بالحج الأكبر[١٥] » — وهى أول[١٦] حجة

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ١٤ .

(٢) البلاذرى ، فتوح ، ص ٥٥ . المنجنيق آلة لرمى الحجارة أو المواد الملتهبة، أما الدبابة فهى ستارة يحتمى وراءها المقاتلة لنقب الحوائط انظر عن هذه الأخيرة Dozy : Suppl. aux dict arabes 2ed .I p 421

(٣) البلاذرى ، فتوح ، ص ٣٣ — ٣٤ .

(٤) ابن سعد ، ١/٢ ص ٣٨ .

(٥) المعارف ، ص ٨٢ .

(٦) ابن هشام ، ٢ ص ٩٠٢ ؛ معجم البلدان ، ٢ ص ٣٦٥ .

(٧) البلاذرى ، فتوح ، ص ٣٣ — ٣٤ ؛ ياقوت ، ٤ معجم البلدان ، ٦ ١٠٦ فما بعدها.

(٨) ابن سعد ، ١/٢ ص ٣٧ . وهى التى اليوم تعرف بالعقبة ؛ انظر . قبله وبعده .

(٩) البلاذرى ، فتوح ، ص ٣٣ — ٣٤ .

(١٠) نفسه ، ص ٥٩ — ٦١ ؛ معجم البلدان ، ١ ص ١٦١ — ١٦٢ ؛ ٣ ص ٧٢.

(١١) ابن سعد ، ١/٢ ص ٣٨ .

(١٢) انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٣٢ — ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ — ٣٩ .

(١٣) ابن سعد ، ١/٢ ص ٢٨ — ٢٩ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٣٢ عن كلمة الجزية انظر . بعده .

(١٤) المعارف ، ص ٨٢ .

(١٥) القرآن ٩ : ٣ .

(١٦) المعارف ، ص ٨٢ .

فى الإسلام — وقد أناب فيه أبا بكر[١] صديقه ليقرأ عليهم سورة براءة[٢]، التى يتبرأ فيها محمد ممن يحج من المشركين بعد هذا العام إلى مكة، واستجاز فيها قتل[٣] من يدخلها منهم ؛ وإلى وقتنا الحاضر لا يحج إلى مكة إلا المسلمون . كذلك جاءته وفود عديدة من جميع أنحاء الجزيرة إلى المدينة — التى أبقى عليها كعاصمة للمسلمين — حتى من المسيحيين فى نجران، والغساسنة[٤] فى الشام، بحيث سمى هذا العام أيضا « بعام الوفود »[٥]، وأخذ الناس يدخلون فى دين الله أفواجا .

أما الحجة المعروفة بحجة الوداع[٦]، وهى فى السنة العاشرة (٦٣٢)، فقد قام بها النبى بنفسه، يحيط به عدد كبير من العرب[٧]، جاءوا من كل أركان الجزيرة، فحج بالناس، وخطب فيهم خطبته، التى نزل فيها الوحى مبشراً أنه : ﴿ اليَوْمَ أكملتُ لكُم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتى ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً ٥ : ٣ ﴾ . وهذه الحجة الأخيرة مازالت معتبرة كنموذج لتأدية فريضة الحج حتى وقتنا الحاضر .

بعد هذه الحجة اضمحلت صحة النبى وغلبت عليه الحمى، ووافاه الأجل يوم الاثنين[٨] ١٣ من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة (٨ يونيو سنة ٦٣٢)، وهو عند زوجته عائشة، التى كان تزوجها[٩] عند هجرته إلى يثرب . وتصور لنا كتب «السيّر» شخص[١٠]

---

(١) ابن هشام، ٢ ص ٩١٩ ؛ انظر . هيكل، الصديق أبو بكر، ص ٥٣ .
(٢) القرآن سورة (٩)، وتسمى سورة التوبة .
(٣) القرآن ٩ : ٥ .
(٤) انظر . تاريخ النسطوريين (P. O.)، الجزء ١٣ / ٢، ص ٦٠١ [٢٨١] ؛ ص ٦٠٢ — ٦١٧ [٢٨٢ — ٢٩٧] ؛ انظر . مجموعة الوثائق، ص ٨٠ فما بعدها .
(٥) ابن هشام، ٢ ص ٩٣٣ .
(٦) نفسه، ٢ ص ٩٦٨ فما بعدها .
(٧) نفسه، ٩٧٠ .
(٨) نفسه، ٢ ص ١٠٠٩ .
(٩) المعارف، ص ٦٥ وهى بقيت حتى خلافة معاوية، وتوفيت حوالى سنة ٥٨هـ/٦٧٧ .
(١٠) ابن اسحق، كتاب فتوح مصر، ص ٩ .

النبي الجليل على أنه كان وسيماً قسيماً ، معتدل القامة ، بعيد الهامة ، أشم العرنين ، واضح الجبين ، أسيل الخدين ، رقيق الشفتين ، براق الثنايا ، بعينيه دعج ، وبحاجبيه زجج ، وبأسنانه فلج ، وأنف غير معوج .

. وبذلك انتهت سيرة النبى المليئة بالكفاح والنضال فى سبيل إعادة العرب إلى عقيدة الدين القديم أو الاسلام ، والأخذ بيدها من وهدة الوثنية المظلمة التى حولت حياة العرب إلى حياة لا أهداف لها أو مثل ؛ ولاريب أن نجاحه فى تحقيق رسالته يرجع قبل كل شىء إلى إيمانه الشديد بالكرامة البشرية .

* * *

كثر حديث بعض المستشرقين[١] ؛ بأن الاسلام بحذافيره لم يأت بجديد، وأنه نقل كثيراً عن الأديان الأخرى ، وفى الحق إن بعض عقائد الاسلام تشابه فى أسسها بعض العقائد فى الأديان الأخرى[٢] ؛ إلا أن الاسلام قد أوجد صورة غير منكورة من دين جديد مطبوع بالطابع العربى[٣] ، سرعان ما احتل مكانته المرموقة بين الأديان الأخرى ، وقد كان النبي هو أول نمط من معتنقيه الذى نجد له مثيلاً[٤] بعد ثلاثة عشر قرناً من ظهور الاسلام .

---

(١) انظر . Shedd : Islam and the Oriental Churches, Philadelphia, 1904, p. 21 sqq ؛ Bell : The origin of Islam in its Christian environment. p. 13 ؛ فون كريمر ، الحضارة الإسلامية ، تعريب طه بدر ، ص ٥١ فما بعدها .

(٢) الأبشيهى ، المستطرف ، بولاق ١٢٦٨ هـ ، ١ ص ٦ . يحاول العلم المعروف « بعلم الأديان » أن يبحث عن طريقة للربط بين الأديان جميعاً . انظر . Saurat : Hist, de Relig, p. 54 ; 298 ؛ De Lafont : Le Mazdéisme. Préface de Burnouf ; Paris 1897 Introd, p. 6

(٣) انظر . Perron : L'Islamisme son Institution, Paris 1877, p. 24 — 25.

(٤) انظر . Tor Andrae : Mah, p. 9.

ففى الحياة الدينية الصرفة : جاء الاسلام بعقائد أساسية كعقيدة التوحيد(١) ، وهى : « لا إله إلا الله » . فكانت الدعوة إلى التوحيد شبه ثورة على عقيدة الأغلبية من سكان الجزيرة العربية الوثنية ، وحتى الأديان السماوية المعروفة وقتئذ فيها كان قد اندس فيها نوع من الوثنية : فإله اليهود أصبح إلههم وحدهم(٢) ، وإنهم — بحسب ما ورد فى القرآن كانوا يعبدون « عُزَيراً »(٣) — أحد رجال دينهم الصالحين — على أنه ابن الله ، كما كانوا لا يتبعون ما جاء فى التوراة ، بحيث ضرب القرآن المثل بهم بقوله : ﴿ مَثَلُ الذينَ حُمِّلوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لم يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ٦٢ : ٥ ﴾ ؛ ثم إن النصرانية العربية لم تعد نصرانية صحيحة ، فالقبائل النصرانية فى الجزيرة كانت لها نفس طباع العرب فى الثأر ، ومنهم من كان يتسمى كالعرب بعبد الله(٤) ، أو يحلف برب مكة(٥) ، أو باللات والعزى(٦) من أصنام العرب . ومن ناحية أخرى ؛ أضحت عقيدة المسيحية غامضة بعد ما غلبت عليها الفلسفة اليونانية(٧) ، وكل فرقة فيها تختلف عن الأخرى فى جوهر العقيدة نفسها ، ولا بد أن الجدل زعزع أسس هذه العقيدة . لذلك كانت دعوة الاسلام بالسمو إلى إله واحد مجرد ، دعوة إلى الإيمان بالعقل .

كذلك نصت العقيدة الاسلامية — كما تخرج من القرآن(٨) — على الاعتراف

---

(١) النعمان بن حيون ، دعائم الإسلام ، تحقيق فيضى ، القاهرة ١٩٥٠ ، ١ ص ٥ و ٦ .

(٢) انظر . Bertram : Les Arabes, p. 33

(٣) القرآن ٩ : ٣٠ . عزير هذا هو الذى عرف اليهود بدينهم ، الذى كانوا قد تناسوه . الثعلبى ، قصص الأنبياء ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ .

(٤) ابن هشام ، ١ ص ٢٠ .

(٥) شعراء النصرانية ، جمع وتصحيح شيخو ، ١ ص ٤٥١ ؛ انظر . Tor Andrae : Mah, p. 24.

ورد فى شعر عدى بن زيد .

سعى الأعداء لا يألون شراً عليك ورب مكة والصليب

(٦) ابن هشام ، ١ ص ١١٦ .

(٧) أرنولد ، الدعوة ، ترجمة حسن إبراهيم وعابدين والنحراوى ، ص ٦٦ .

(٨) سورة ٣٣ آية ٤٠ .

بمحمد كرسول الله وأنه خاتم النبيين، إذ أن الاسلام يشمل ضمناً معنى الاعتراف برسالته[١]، وهو وإن أرسل إلى العرب إلا أنه اعتبر نفسه أنه مرسل[٢] لـكافة الناس ؛ فالدين الاسلامى يجب أن يعمّ العالم كله ؛ ليعيد الناس إلى ملة إبراهيم[٣] — أى الاسلام — التى فطر الناس عليها . فالاسلام وسيلة للربط بين الشعوب التى تعتنقه ، إذ رسالته كالمسيحية[٤] عامة ، وليست كاليهودية[٥] خاصة .

وفوق ذلك فرض الاسلام عقيدة الأيمان بالحياة الأخرى ، وهى بالنسـبة لأغلبية العرب لم يكن من السهل تصورها[٦] ، فجميع السور — التى نزلت على النبى فى مكة — تحض على الايمان بحياة أخرى بعد الموت . وكانت هذه السور تذكر اليوم الآخر قريباً ، ثم ذكرته بعد ذلك بعيداً ، وأن الله وحـده هو الذى يعرف الميعاد ، ولهذا اليوم سمات منها : نفخة[٧] واحدة ، أو نداء من المنادى[٨] ، أو صوت مخيف يشبه الرعد ، أو رجة[٩] للأرض ، فتسقط الجبال كالرماد ، وتختفى السماء[١٠] ، وتمتلىء الـكون بالدخان[١١] ، وعندئذ يسقط الأحياء صرعى، ويخرج الأموات من قبورهم[١٢] بعد نفخة أخرى ، ليقفوا أمام الله والملائـكة ليحاكموهم[١٣] على ما سلف من أعمالهم : فمن كان قد أساء ساقتهم الملائـكة إلى

(١) انظر رأى Margoliouth فى هذا الصدد: The Early development of Mohammedanism London 1914 p. 15 ؛ انظر . قبله .

(٢) القرآن ٣٤ : ٢٨ .

(٣) نفسه ٣٠ : ٣٠ .

(٤) فمع أن المسيحية كانت رسالة خاصة لبنى إسرائيل ، إلا أنها اكتسبت العموم على يد الحواريين .

(٥) انظر . ارنولد ، الدعوة ، ص ١٧ .

(٦) انظر . قبله .

(٧) القرآن ٦٩ : ١٣ .

(٨) نفسه ٥٠ : ٤١ .

(٩) نفسه ٥٦ : ٤ — ٦ .

(١٠) نفسه ٢١ : ١٠٤ .

(١١) نفسه ٤٤ : ١٠ ؛ ٥٥ : ٣٧ .

(١٢) نفسه ٣٩ : ٦٨ .

(١٣) نفسه ٧٨ : ٣٨ .

إلى النار التى وقودها الناس والحجارة[١]، وأما من عمل صالحاً فإنه يدخل الجنة[٢]، التى فيها فاكهة ولحم طير وحور[٣] أبكار وولدان، وأنهار[٤] من ماء ولبن وخمر وعسل. هذا هو تصوير القرآن للحياة الأخرى، ولعل العرب أيام النبى لم يفهموا من تصوير الدار الآخرة إلا المعانى وليس الحسيات، خصوصاً وأن سياق القرآن يفهم منه ضمناً وجود جنة روحية يتمتع فيها الناس برؤية الخالق ولا يشعرون فيها عتاعب الدنيا: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فيها لَغْواً وَلاَ تأثيماً، إلاّ قيلاً سَلاَماً سَلاَماً ٥٦ : ٢٥ — ٢٦﴾[٥]. ولعل القرآن — كما يذكر خلف الله[٦] — انما قصد من مثل هذا الوصف ماتثيره الألفاظ من انفعالات ليس لذاتها، ولكن بقصد الردع، ودفع الناس إلى الخير، والأخذ بمبدأ الصرامة فى الحياة الدنيا.

كذلك جاء الاسلام بواجبات دينية تعرف عند الفقهاء «بالعبادات[٧]»، من حيث هى خضوع لله، وحث على الفضائل، وتعتبر من أركان الاسلام، وسنرتبها على حسب أهميتها:

الصلاة: وهى من دعائم[٨] الدين الاسلامى، وتعنى فى كلام العرب الدعاء[٩]. وهذه الصلاة التى فرضت على المسلمين — كما نقل عن النبى — هى

---

(١) نفسه ٢ : ٢٤.

(٢) نفسه ١٠ : ٩.

(٣) نفسه ٥٦ : ٢١ فما بعدها.

(٤) نفسه ٤٧ : ١٥.

(٥) نفسه ٣٥ : ٣٤ — ٣٥.

(٦) الفن القصصى فى القرآن الكريم، القاهرة ١٩٥٠ — ١٩٥١، ص ١٤٤ و١٤٦ و١٤٧ و١٥٣.

(٧) النعمان بن محمد، دعائم الإسلام، ١ ص ٧.

(٨) ينقل كتاب الدعائم أن النبى قال فى حديث له إن المقصود بقول القرآن ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ٤ : ١٠٣﴾، قال: مفروضاً. انظر، دعائم، ١ ص ١٥٩.

(٩) اللسان، ١٩ ص ١٩٨ — ١٩٩. إن كتابة حرف الألف فى هذه الكلمة «صلاة» واواً مثل «صلوة» يتكرر فى القرآن. انظر. Ency. de l'Isl. (art Salât) 4, p, 99 sqq.

صلاة ابراهيم(١) ، أراه إياها الوحى « جبريل(٢) » ؛ فصلى به الظهر حين مالت الشمس ، ثم صلى به العصر حين كان ظلّه مثله ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس، ثم صلى به العشاء حين ذهب الشفق ، ثم صلى به الصبح حين طلع الفجر . وإن كنا لا نجد فى القرآن تحديداً لهذه الصلوات الخمس مجموعة هكذا : وتذكر إحدى السور صلاتين(٣) ، إحداهما عند غروب الشمس والثانية عند ظلمة الليل لعلها العشاء ، مع ترتيل القرآن فى الفجر ؛ وتذكر ثانية(٤) صلاة الصبح والمغرب والعشاء ؛ وفى ثالثة(٥) حض على الصلوات والصلاة الوسطى التى قد يكون المقصود بها صلاة الظهر أو العصر . وهذه الصلوات اليومية عبارة عن ترتيل للقرآن والركوع والسجود ، وهى تكون وقوفاً ، وفى حالات خاصة مثل المرض تكون والمصلى جالس(٦) ، كما أنها لا تكون بالضرورة فى المسجد أو فى جماعة إلا صلاة الجمعة(٧) التى تحل محل صلاة الظهر ، وعندئذ ينتظم المسلمون فى صفوف . وعلى عكس الأديان الأخرى ؛ فإن يوم هذه الصلاة لا يكون يوم عطلة ، كما يكون يوم الأحد عند المسيحيين مثلاً ، بل هو يوم صلاة وعمل(٨) . كذلك وجدت أنواع(٩) أخرى من الصلاة غير هذه الصلوات اليومية ، مثل :

---

(١) ابن هشام ، ١ ص ١٥٩ .

(٢) نفسه ، ١ ص ١٥٨ . تجد مثيلا لهذه الرواية عن الصلوات فى أوقات النهار بما فيها من سجود وركوع عند الكلام عن «المنانية» دين الفرس . انظر . ابن اسحق ، المنانية تحقيق Fluegel بعنوان : Mani, seine Lehre und seine Schriften. Ein Beitrage zur Geschichte des Manichaismus aus dem Fihrist des Abu'l Faradsch Muhammed b. Ishak al-Warack 1862, p. 50. انظر . بعده .

(٣) القرآن ١٧ : ٧٨ . انظر أيضاً الموطأ ، طبعة دلهى ، ص ٤ ؛ دعائم ، ١ ص ١٥٩ .

(٤) القرآن ١١ : ١١٤ ؛ انظر : دعائم ، ١ ص ١٦٠ .

(٥) القرآن ٢ : ٢٣٨ . الصلاة الوسطى قد تكون أيضاً صلاة الجمعة. دعائم ، ١ ص ١٦٠ .

(٦) الموطأ ، ص ٣٠ — ٣١ .

(٧) دعائم ، ١ ص ١٨٥ — ١٨٩ .

(٨) القرآن ٦٢ : ٩ — ١٠ .

(٩) الموطأ ، ص ٦٤ فما بعدها ؛ دعائم الإسلام ، ١ ص ٢١٦ فما بعدها .

صلاة الخوف والكسوف والاستمطار والاستسقاء والصلاة على الجنائز والعيدين ؛ وأيضا الصلوات المسماة السنة والنافلة[١] ، أى الصلوات التى استنها النبى مع كل صلاة ، والتى يقوم بها الشخص تطوعاً .

وقد كانت هذه الصلاة تتم بما يعرف « بالأذان[٢] » أو من غيره إلا فى صلاة الجمعة ، والمقصود به « المناداة » أو « النداء[٣] » إلى اقامة الصلاة . وبذلك أصبح لمناداة المسلمين للصلاة طابع خاص بهم ، حيث لم يقبلوا استخدام نواقيس المسيحيين أو أبواق[٤] اليهود . وقد كان الآذان فى أول الأمر بسيطاً لا يتعدى هذه العبارة : « الصلاة جامعة[٥] » ؛ وإن اختلف فى صيغته[٦] ، وأيضاً فى هل جاء به الوحى[٧] كالصلاة ، أو أنه جاء فى منام صحابى[٨] أو أكثر .

كذلك لا تقام الصلاة إلا « بالوضوء[٩] » ، والمقصود به التطهر من الدنس . وقد بيّن القرآن[١٠] شروطه : فهو غسل الوجه ، والأيدى إلى المرفقين ، والأرجل إلى الكعبين ، ومسح الرأس . وقد كان الوضوء من الأمور المعروفة

---

(١) دعائم ، ١ ص ٢٤٩ . من هذه الصلوات صلاة التراويح — التى لا يقوم بها الشيعة — وهى الصلاة التى تضاف إلى صلاة العشاء فى رمضان ، وتتكون من عشرين ركعة وعشر تحيات. انظر عنها . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٦٦ .

(٢) دعائم الإسلام ، ١ ص ١٧٧ .

(٣) القرآن ٦٢ : ٩ ؛ ٥ : ٦٣ .

(٤) أبو مسلم ، صحيح ، طبعة القاهرة ١٢٩٠ هـ ، ١ ص ١١٢ فما بعدها ؛ ابن سعد ، ١/٢ ص ٧ ؛ انظر . ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ٢١ .

(٥) ابن سعد ، ١/٢ ص ٧ س ٨ .

(٦) يقول الشيعة إن الأذان على عهد النبى كان يشمل عبارة « حى على خير العمل » ؛ ولكن عمر بن الخطاب — الخليفة الثانى للنبى — أمر بحذفها ، وقال : « إذا سمع الناس أن الصلاة خير من العمل تهاونوا بالجهاد وتخلفوا عنه » انظر . دعائم الإسلام ، ١ ص ١٧٢ .

(٧) نفسه ، ١ ص ١٧٢ .

(٨) ابن سعد ، ١/٢ ص ٧ .

(٩) دعائم الإسلام ، ١ ص ١٢١ فما بعدها ؛ مسلم ، صحيح ، ١ ص ٨٠ فما بعدها . يعبر أيضاً عنه فى الجاهلية « بالغسل » . ابن هشام ، ١ ص ١٠١ س ١٢ .

(١٠) القرآن ٥ : ٦ .

فى الجاهلية[١] ، يقوم به الشخص قبل الطواف بالكعبة . ولكن لظروف متعددة منها المرض أو قلة الماء — خصوصا بالنسبة لسكان البادية — كان المصلى «يتيمم[٢]» ، أى يضرب الأرض ضربة لوجهه ، وضربة ليديه ويمسحهما إلى المرفقين[٣] .

الصيام : كان من فروض[٤] الدين الهامة ، وهو يعنى ترك الطعام والشراب والنكاح[٥] ، وكف السمع والبصر واللسان واليد والرجل عن الآثام[٦] . ولا يكون الصيام إلا برؤية هلال[٧] الشهر التاسع من السنة القمرية ، أى فى شهر رمضان ، وذلك من الفجر حتى الغروب[٨] . وهذا الصيام له مثيل فى الأديان[٩] الأخرى ، كما عند اليهود[١٠] ؛ ولكن لم يعرف عند العرب بمثل هذه القواعد . وعلى عكس الصلاة ظهر الصيام متأخراً ، إذ فرضه النبى على المسلمين فى المدينة[١١] ، حيث اعتبره زكاة[١٢] الجسد ؛ وإن استثنى[١٣] منه من كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ؛ أما من لا يستطيعه فعليه اطعام المساكين . ويقول ابن العبرى[١٤] المسيحى (Barhebraeus) ؛ بهذا الصدد عن الصيام الاسلامى : إنه رياضة وتذليل وقمع للشهوة ، تحصل به رقة القلب وصفاء النفس .

---

(١) ابن هشام ، ١ ص ١٠١ .
(٢) القرآن ٥ : ٦ .
(٣) الموطأ ، ص ١٩ .
(٤) سورة ٢ آية ١٨٣ .
(٥) اللسان ، ١٥ ص ٢٤٢ .
(٦) الابشيهى ، المستطرف ، ١ ص ١٣ .
(٧) الموطأ ، ص ٨٥ .
(٨) سورة ٢ آية ١٨٧ .
(٩) سورة ٢ آية ١٨٣ .
(١٠) ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ١٢٢ .
(١١) السورة (٢) مدنية .
(١٢) الابشيهى ، المستطرف ، ١ ص ١٣ س ١٣ .
(١٣) القرآن ٢ : ١٨٤ .
(١٤) مختصر الدول ، تحقيق الأب صالحانى ، بيروت ١٨٩٠ ، ص ١٦٨ .

الزكاة[١] : وهى من فرائض[٢] الدين ، وترادفها كلمة « صدقة[٣] » ، بمعنى ما كان يجمعه[٤] النبى من المسلمين . وقد بيّن القرآن[٥] أوجه صرفها ، فقد أراد دفعها إلى ثمانية أصناف ، هم : الفقراء ، والمساكين أو الضعفاء ، والعاملين على جبايتها ، والمؤلفة قلوبهم وذلك بدفعها للترغيب[٦] فى الاسلام ومحاربة الكفار ، والرقيق ، والغارمين أو الذين عليهم دين[٧] ، وفى سبيل الله ولعل المقصود به الجهاد[٨] ، وابن السبيل أى المسافر . وهذه الزكاة كانت تؤخذ فى الحرث والعين والماشية والمعادن[٩] ، وإن اختلف إلى من تدفع : للحكام أو أن الناس تتصرف فيها بإرادتها[١٠] ؛ وإن تمسك خلفاء النبى الأوائل بجبايتها بأنفسهم ؛ كما كان يفعل[١١] النبى . وقد كانت الزكاة من الواجبات الدينية حتى فى الأديان الأخرى مثل المسيحية واليهودية ، فكان يجمعها رجال[١٢] الدين لتدفع للمساكين. كذلك كانت العرب قبل الاسلام تدفع الصدقة بترك بهائمها للآلهة أو بذبحها ، وإن كانت تسمى بأسماء مختلفة ذكرها القرآن[١٣] ، منها : البحيرة والسائبة والوصيلة

(١) القرآن ٢٣ : ٤ ؛ ٨٧ : ١٤ .
(٢) نفسه ٩ : ٦٠ .
(٣) نفسه ٩ : ٦٠ ؛ ١٠٣ .
(٤) الموطأ ، ص ١٠٣ فما بعدها .
(٥) القرآن ٩ : ٦٠ .
(٦) اللسان ، ١٠ ص ٣٥٣ .
(٧) نفسه ، ١٥ ص ٣٣١ .
(٨) نفسه ، ١٣ ص ٣٤٠ .
(٩) الموطأ ، ص ١٠٣ .
(١٠) دعائم ، ١ ص ٢٩٣ .
(١١) القرآن ٩ : ١٠٣ ؛ دعائم ، ١ ص ٣٠٦ — ٣٠٧ .
(١٢) ابن هشام ، ١ ص ١٣٨ .
(١٣) سورة ٥ : ١٠٢ . « البحيرة » هى نتاج الناقة التى يشق أذنها وتوهب للآلهة، فينتفع بلبنها الرجال دون النساء ، و« السائبة » هى ما يترك من المال أو البهائم وتكون حراماً ، و« الوصيلة » وهى سابع نتاج الشاة إذا كانت أنثى ويحرم أكلها ، وهى أيضاً ينتفع بلبنها الرجال دون النساء ، و« الحامى » الفحل الذى يترك ولا يركب إذا صار نجداً ، وإذا مات جعل للآلهة . النويرى ، ٣ ص ١١٦ — ١١٧ .

والحامى . وإنه من الخطأ أن نتصور أن اهتمام الاسلام بالزكاة كما يظهر من الآية السابقة يرجع إلى المشاكل الاجتماعية[١] ، فى جميع حالاته ، أو أنه نوع من التضامن الاجتماعى كما فى وقتنا ، وإنما هو يفسر من الناحية الدينية من حيث أنه حث على الشفقة والرحمة ، واستغلالها فى الجهاد ونشر الدين .

الحج : وهو من الواجبات الدينية على المسلمين ؛ الذين يستطيعون[٢] الذهاب إلى مكة ؛ وهو نفسه الحج الذى كان يقام فى مواسمه[٣] المعروفة قبل الاسلام ، وينسب إلى زمن[٤] ابراهيم — مؤسس الحنيفية — بما فى ذلك من الطواف ورمى الجمار والتضحية والسعى بين الصفا والمروة . وإن كان الاسلام قد حتم على الحجاج أن يلبسوا شيئاً من الملابس[٥] الموحدة ، تتألف من القماش غير المصبوغ[٦] ، تغطى أعلى الفخذ والصدر والأكتاف ؛ على أن تبقى الرأس عارية ، كما يلبس نعلين[٧] . ويعتبر الحج الذى قام به النبى فى آخر حياته ، وهو حجه الوداع[٨] ، الأساس الذى قام عليه الحج إلى الآن . كذلك أبقى الاسلام على النوع الآخر من الحج وهو « العُمرة »[٩] ، وهو يشمل الطواف ، والسعى بين الصفا والمروة ، ويكون فى غير أشهر الحج[١٠] .

---

(١) انظر . Tor Andrae : Mah, p. 74

(٢) القرآن ٢ : ١٩٧ .

(٣) انظر . Zaayer : Het Mekkanesche Feest. Leiden 1880, p. 20.

(٤) الثعلبى ، قصص الأنبياء ، ص ٦٠ .

(٥) الموطأ ، ص ١٢٥ .

(٦) نفسه ، ص ١٢٦ .

(٧) نفسه .

(٨) انظر . قبله .

(٩) القرآن ٢ : ١٩٦ .

(١٠) الموطأ ، ص١٣٤ ؛ انظر . Gaud-Demombynes : Le Pélerinage à la Mekke, p. 192 — 193.

أمّا ما جاء به الاسلام فى الحيـاة الاجتماعية فأثره واضح ، وذلك لأن الدين الجديد اعتنى بالأسس التى يقوم عليها المجتمع ، بعكس بعض الأديان الأخرى التى تقوم فى جانب والحياة فى جانب آخر مثل المسيحية ؛ أو بعض العقـائد السياسية التى قامت والتى تقوم متخلصة من كل أثر دينى ، مثل الشيوعية التى تجحد الدين. ومع ذلك لا يمكن أن نقول إن الدين الاسلامى عالج نظم الحياة بنصوص صريحة ، ولـكنه على كل حال صاغ هذه النظم وفق فـكرته الأساسية كدين .

فاعتنى الإسلام — قبل كل شىء — بتهذيب المجتمع العربى ، فسعى إلى إصلاح الخلل فى الأخلاق الذى كان سائداً فى الجاهلية . فلـكى يحفظ للأسرة كيـانها جعل الزنا[1] ، الذى هو اختلاط للأنساب ومفسد للنوع ، جريمة كبرى «فاحشة»[2] ، مع أنه لم يكن فى الجاهلية بالجريمة ذات الشأن . ولـكن الاسلام وإن كان لم يقض على كل النظم الجاهلية التى تبيح التمتع الجنسى ، فشرع الزواج من مثنى وثلاث ورباع[3] ، وأخذ بنظام نـكاح الإماء[4] وهن الجوارى ، وذهبت بعض مذاهبه إلى تحليل زواج المتعة[5] — وهو الزواج المؤقت — فلعله لم يرد أن يأخذ المجتمع العربى بطريق التغيير الفجائى لما يترتب على ذلك من أخطار قد تدمّر أصول هذا المجتمع ؛ كما أنه وضع بعض القيود بأن جعل العدل أساساً فى الزواج بأكثر[6] من واحدة، وذكر أن الانسان لا يستطيع — مع ذلك — أن يعدل ، أما بالنسبة للاماء، وهو نظام يستطرد إلى نظام الرق والاسترقاق ، فقد وضع له قيوداً تجعل عدمه خيراً من وجوده فدعا إلى تحرير[7] الرقيق، أما زواج المتعة فقد بيّن النبى[8] كرهه له.

(١) القرآن ٢٥ : ٦٨ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣١ س ٢ .
(٢) القرآن ١٧ : ٣٢ .
(٣) نفسه ٤ : ٣ .
(٤) نفسه ٢٤ : ٣٢ .
(٥) الموطأ ، ص ١٩٦ .
(٦) القرآن ٤ : ٣ .
(٧) نفسه ٤ : ٩٢ ؛ ٥٨ : ٣ ؛ ٩٠ : ١٣ ؛ البخارى ، صحيح ، بولاق ١٣١٤هـ ، ٧ ص ٦ (المجلد الثانى).
(٨) الموطأ ، ص ١٩٦ .

كذلك عالج الاسلام حرية المرأة وفق روحه الدينية بقصد صيانتها ، وذلك دون أن يكون من أنصار تحريرها بالمعنى المعروف فى وقتنا . فقد جعلها فى حماية زوجها[١] بحكم أن الرجل أقوى من المرأة ولإنفاقه[٢] عليها ؛ كما حد من إبداء[٣] زينتها إلا لزوجها وأقارب زوجها ؛ مما كان سبباً فى جعل المرأة المسلمة ، أو حتى المسيحية فى الشرق تلبس النقاب[٤] ، وأعطى الحق للزوج فى وعظها أو هجرها فى المضاجع[٥] إذا لم ترتدع ، أو ضربها . ومع ذلك فالاسلام قد رفع من شأن المرأة عن ذى قبل ، وسار فى سبيل ذلك بخطوات واسعة بقضائه على بعض عادات المجتمع الجاهلى ، مثل : وأد[٦] البنت خشية الاملاق ، أو وراثة نكاح المرأة وهو ما يعبر عنه « بنكاح المقت »[٧] ، أو نكاح ما نكح الآباء أو الاخوة ، أو العمات أو الخالات أو بنات الأخ أو بنات الأخت أو الأم أو أمهات الزوجات أو الأخوات فى الرضاعة أو الجمع بين الأختين[٨] . كذلك حفظ الاسلام حقوق المرأة مما لم يكن معترفاً به من قبل ، مثل : حفظ حقوقها فى الزواج والأولاد والطلاق والأجور[٩] ، وطالب باستئذان[١٠] البكر والأيم فى نفسيهما ، وإحسان المعاملة[١١] ، بل أصبح للزوجة حق مفارقة الزوج إذا كانت العصمة بيدها . ولا ريب أن الذى ساعد على اتخاذ الاسلام هذه الخطوات ، أن حياة الأسرة العربية كانت متقدمة فى الحجاز

---

(١) انظر رأى Perron : Femmes Arabes, p. 171.
(٢) القرآن ٤ : ٣٤ .
(٣) نفسه ٢٤ : ٣١ .
(٤) انظر . Tor Andrae : Mah, p. 78
(٥) القرآن ٤ : ٣٣ .
(٦) نفسه ١٧ : ٣٠ .
(٧) انظر قبله ؛ النويرى ، ٣ ص ١٢٠ . و« المقت » من مقيت أى مبغوض مكروه . الألوسى ، ٢ ص ٥٣ .
(٨) القرآن ٤ : ٢٣ .
(٩) سورة النساء (٤) .
(١٠) الموطأ ، ص١٨٩ .
(١١) ابن هشام ، ٢ ص ٩٦٩ (خطبة الوداع) ؛ الأبشيهى ، المستطرف ، ٢ ص٢٧٨ .

عنها فى بقية أنحاء الجزيرة ، بحيث أن السيدة خديجة هى التى اختارت[1] النبى زوجاً لها .

وفوق ذلك أوجد الاسلام تشريعات كثيره لصالح المجتمع العربى ، والرفع من شأنه حتى يقيمه على دعائم قوية : فنظم القصاص أو مايعرف «بالحدود»[2] ، وهى زواجر[3] وضعها الله للردع عن ارتكاب ما حظر ، وترك ما أمر ، معظمها كان معروفاً[4] عند العرب أو اليهود ؛ فوضع لها قواعد وشروطاً حتى لا يساء تطبيقها . فمثلا ترك الشفاعة[5] للسارق ، وإذا قطعت يده فتقطع يده اليمنى[6] من مفصل الكوع ، وان استمر فى السرقة قطعت إحدى رجليه أيضا وهى اليسرى من مفصل الكعب ؛ أو ضرورة وجود البيّنة[7] فى حالة رجم الزانى . كذلك حارب الربا كل المحاربة — وهو أخذ الفائدة — وذلك لأن معظم القائمين به هم اليهود ، الذين اعتبروه نوعاً من التجارة[8] ؛ مع أن دينهم كان يحرمه ؛ وقد صور[9] الاسلام من يأخذه بالشيطان . كذلك منع الخمر[10] والميسر — وهذا الأخير هو وقتئذ القمار على لحم الجمال — وإن كان تحريم الخمر لم يحدث دفعة واحدة[11] ، وكان هذا التحريم فى السنة الرابعة أو الخامسة[12] الهجرية ؛ وإن ذكر بعض

(١) انظر . العبادى ، صور من التاريخ الإسلامى ، ص ٢٧ ؛ ٢٨ . انظر أيضا ابن سعد ١/١ ص ٤٦ س ٥ — ٦ .
(٢) القرآن ٦٥ : ١ .
(٣) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م ، ص ١٩٤ ؛ انظر . Tyan : Hist. de l'Org. Jud. Paris 1943. 2 p. 355
(٤) الموطأ ، ص ٣٤٧ ؛ ابن هشام ، ١ ص ١٢٢ .
(٥) الموطأ ، ص ٣٥١ .
(٦) الماوردى ، أحكام ، ص ١٩٧ .
(٧) نفسه ، ص ١٩٦ .
(٨) ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ١٨ .
(٩) القرآن ٢ : ٢٧٥ .
(١٠) نفسه ٢ : ٢١٩ .
(١١) نفسه ٢ : ٢١٩ ؛ ٤ : ٤٣ ؛ ٥ : ٩٠ — ٩١ .
(١٢) النويرى ، ٤ ص ٧٩ فمابعدها .

الفقهاء إن الخمر المحرمة فى القرآن هى المتخذة فقط من عصير العنب والتمر[١] . ويبدو أن سبب تحريم الاسلام للخمر هو تهيئتها الشخص للخطيئة ، والمنع من الصلاة لله ؛ فضلاً عن أنها توقع البغض والعداوة بين الناس بما يخوضون فيه فى مجالسهم الخمرية من أعراض الغير[٢] . كذلك نظم الاسلام ما يعرف « بالمعاملات »[٣] من بيوع وأقضية وميراث .

وفى الواقع لم يدّع الاسلام أنه بنى مجتمعاً فى غاية التنظيم ، وإنما على أية حال نهض بالمجتمع القديم ، ووضع بذوراً طاهرة تحفظ عليه كيانه من طغيان المادة ، بل هناك فكرة سائدة هى أنه ليس من السهل اقامة مجتمع مثالى ، لأن ذلك يعارض طبيعة التطور .

أما التشريعات السياسية فى الاسلام ؛ فانها كانت هى الأخرى تقوم مرتبطة بالقيم الأخلاقية ؛ فنى الاسلام اشتراكية خلقية[٤] لا تؤمن بحق الملكية التى تجعل الناس عبيداً للارض ، أو بحق فرض العمل فرضاً على الناس مما يجعلهم أشبه برقيق الأرض ، فالاسلام كالأديان الأخرى دعا إلى المساواة وأنه ضد ظلم المجتمع واضطهاده ، بحيث نادى باعتاق الرقيق : « تحرير رقبة[٥] » ، أو « فك رقبة[٦] » . كذلك وإن كان الاسلام لم يحدد نظام الانتخاب أو يوضح نظام الشورى[٧] ، إلا أن مسلكه ضد الملوك والحكام يبين أنه ضد الاستبداد[٨] ؛ وأن هؤلاء يعتبرون خلفاء الله فى الأرض ؛ لحماية الناس من الاستبداد .

من كل هذا نرى أن الاسلام حفز البدو إلى تحسين كيانهم ، بما أقامه لهم من أسس قويمة ، وتشريعات نظمت مجتمعهم المضطرب .

(١) نفسه ، ٤ ص ٧٦ — ٧٧ .
(٢) الماوردى ، الأحكام ، ص ١٩٩ .
(٣) نفسه ، ص ٢١٩ ؛ انظر أيضا الموطأ ، ص ٢٢٤ فما بعدها .
(٤) هيكل ، حياة محمد ، ص ٥٤٢ .
(٥) القرآن ٤ : ٩٢ ؛ ٥٨ : ٣ .
(٦) نفسه ٩٠ : ١٣ . (٧) نفسه ٤٢ : ٣٨ . (٨) نفسه ٢٧ : ٢٤ .

الخلفاء الراشدون

١١ — ٤٠ = ٦٣٢ - ٦٦١

	هجرية	ميلادية
أبو بكر الصديق	١١ — ١٣	٦٣٢ — ٦٣٤
عمر بن الخطاب	١٣ — ٢٣	٦٣٤ — ٦٤٤
عثمان بن عفان	٢٣ — ٣٥	٦٤٤ — ٦٥٦
عليّ بن أبي طالب	٣٥ — ٤٠	٦٥٦ — ٦٦١

الفصل الثالث

عصر الخلفاء الراشدين

ظهور منصب الخلافة وتولية أبي بكر — ردة العرب — قمع الردة — سير حركة الفتوح — فتح العراق — فتح الشام — تولية عمر بن الخطاب — فتح فارس — فتح الجزيرة — فتح مصر — فتح برقة وطرابلس — معاهدة البقط — تنظيم البلاد المفتوحة — تولية عثمان — سيطرة المسلمين فى البحر — فتح أرمينية — جمع القرآن — أسباب الفتنة الأولى — تولية علىّ — الصراع على الخلافة — ظهور الفرق الإسلامية — التحكيم — عام الجماعة الأول .

قد عرفنا مدى التطور السياسى الذى ظهر فى الحجاز بهجرة النبى إلى المدينة، وممارسته فيها الزعامة السياسية بجانب الزعامة الدينية[١] ، وأنه جعل من المسلمين « أمّة[٢] » واحدة ؛ أى طائفة دينية متميزة قائمة بذاتها ، وبهذا حقق النبى فى المدينة مبدأً جديداً فى حياة المجتمع العربى يكون فيه الشعور القبلى من نسب وحسب وعصبية ثانوياً بجانب الرابطة الدينية[٣] .

وقد كان موت النبى مفاجأة لم يصدقها العرب[٤] ، بحيث أوجدت مشكلة هى : مسألة خلافته الشائكة . حقاً إن النبى — لا يبدو — أنه عين لهذه « الأمّة » المسلمة نظام الحكم بعده ، إلا أنه أوجد لها مبدأ الطاعة ونص عليه

---

(١) انظر . الريس ، النظريات السياسية الإسلامية ، القاهرة ، ص ١٥ .

(٢) القرآن ١٠ : ٤٧ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Umma) 4, p. 1070

(٣) القرآن ٣ : ٢٨ ؛ ٩ : ٢٣ ؛ انظر . أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٤٢ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢١٩ .

في القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ٤ : ٥٩ ﴾؛ ويقصد بأولى الأمر من يقوم بأمور الأمة الإسلامية[١]. ويظهر أنه طالما كان النبى حياً كانت الخلافات على رئاسة « الأمة » الإسلامية من بعده نائمة ؛ وإن كان الراغبون فيها كثيرين :

فكان بنو هاشم يطمعون فيها خصوصاً وأنهم ظنوا أن انتصار النبى على البيت الأموى – الذى تزعم مقاومة الدعوة الاسلامية – معناه عودة زعامتهم فى مكة والحجاز. وقد كانوا ينتظرونها لعلىّ[٢]، ذلك لأن أباه حمى النبى فى الأيام السوداء[٣]، وعلى نفسه كان من أوائل المسلمين[٤] ، ومن أقربهم قرابة[٥] من النبى : فهو ابن عمه، وزوج ابنته فاطمة[٦] ؛ فضلاً عن أنه أعلن أن النبى أوصى[٧] إليه صراحة فى إمامة المسلمين من بعده . ولذلك نجد العباس عم النبى – وكان قد تأخر[٨] اسلامه إلى ما قبل فتح مكة – يقبل على ابن أخيه علىّ ، ويقول له[٩] : «ابسط يدك ولنبايعك». ولكن لعل علياً تباطأ فى قبول ذلك لظهور اطماع من أكثر من جانب، وخوفاً من أن تدخل الشبهة فى أن النبوة ملك متوارث[١٠]، وانشغل بدفن النبى[١١].

(١) يذكر الشيعة أن المقصود بأولى الأمر هم الأئمة من نسل على ؛ ولذلك يجعلون الطاعة لهم من أولى دعائم الإسلام ويطلقون عليها « الولاية » انظر. دعائم الإسلام ، ١ ص ٣ ؛ ٢٥ فما بعدها .

(٢) النوبختى ، فرق الشيعة ، تحقيق صادق . النجف ١٣٥٥ / ١٩٣٦ ، ص ٢ .

(٣) انظر . قبله .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٣٧ ؛ ٣ ص ٩٨ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٩٨ .

(٦) تزوجها بالمدينة ، وماتت بعد وفاة النبى بمائة يوم؛ وقد ولدت لعلى الحسن والحسين ومحسنا وأم كلثوم وزينب . المعارف ، ص ٧٠ .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٦٨ . نقل الشيعة أحاديث كثيرة تؤيد وصاية النبى لعلى ؛ فقد كان من عادة الأنبياء أن يختاروا أوصياء من أسرهم (دعائم ، ١ ص ٢٥) . وقد حدثت هذه الوصاية ، أثناء حجة الوداع فى السنة العاشرة من الهجرة بقرب غدير خم ، مكان بين مكه والمدينة . نفس المرجع ، ١ ص ٢٠ — ٢١ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، ١ ص ٥١ فما بعدها .

(٨) انظر . قبله .

(٩) المقريزى ، النزاع والتخاصم ، ص ٦ .

(١٠) نفسه ، ص ٤٨ .

(١١) ابن هشام ، ٢ ص ١٠١٨ — ١٠٢٠ .

ومن ناحية أخرى كان المهاجرون — وهم الذين هاجروا مع النبى إلى يثرب ، يريدون[1] الخلافة فيهم ، ويميلون بها إلى أبى بكر[2] ، ذلك لأنه كان من السابقين[3] إلى الإسلام ، والمشاركين فى الدعوة من أولها إلى آخرها ، حتى استحق لقب « صديق[4] » ، وكان إيمانه بدعوة الإسلام ، وبضرورة تغيير العرب لدينهم يفوق إيمان جميع المسلمين ، فيقول النبى[5] : « مادعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده فيه كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبى بكر » ؛ هذا وأنه والد عائشة[6] زوج النبى المحبوبة .

كذلك الأنصار — وهم مسلمو المدينة — الذين نصروا النبى وعملوا على إنجاح دعوته كانوا يطمعون فى الرئاسة فيهم ، خصوصاً وأن النبى حتى بعد فتح مكة رجع معهم إلى المدينة ، ولم يبق فى قومه[7] ، ودفن بها . ويظهر أنهم كانوا يميلون بالخلافة إلى سعد بن عبادة[8] سيد الخزرج[9] ؛ ولكن سعد بن عبادة لم يكن يملك الشخصية التى تجعله يخلف النبى . أضف إلى ذلك أن الأوس — وهى القبيلة الأخرى الهامة بالمدينة — كانت قد فقدت سيدها سعد بن معاذ[10] ، الذى توفى قبل وفاة النبى[11] . ومعنى هذا أنه لم يكن بين الأنصار من يستطيع أن

---

(١) نفسه ، ص ١٠١٥ س ١١ ؛ ابن حزم ، الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، مصر ١٣١٧ هـ ، ج٤ ص ٩٧ . انظر أيضا نص الرسالة المنسوبة إلى أبى بكر وعلى ، وما يتصل بها من كلام عمر بن الخطاب وجواب على ؛ وهذه الرسالة قد تكون موضوعة ولكنها تعبر عن ظروف الوقت أصدق تعبير . النويرى ، ٧ ص ٢١٣ فما يليها .

(٢) النوبختى ، ص ٣ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٣٨ .

(٤) ابن هشام ، ١ ص ١٦١ .

(٥) نفسه ، ١ ص ١٦٢ س ١٠ — ١١ ، انظر . هيكل ، الصديق أبو بكر ، الطبعة الثانية ١٣٦٢ هـ ، ص ٣٤ .

(٦) تزوجها فى السنة الأولى من الهجرة . ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٧٧ .

(٧) نفس المرجع السابق ، ٢ ص ١٨٥ .

(٨) ابن هشام ، ٢ ص ١٠١٥ .

(٩) نفسه ، ٢ ص ٦٧٥ س ٢ .

(١٠) نفسه ، ٢ ص ٦٧٤ — ٦٧٥ .

(١١) نفسه ، ٢ ص ٦٩٧ .

يضم صفوف الأنصار ، ويحقق لهم أملهم فى جعل الخلافه فيهم .

على كل حال حلت مسألة خلافة النبي الشائكة بسرعة عجيبة ، وفى نفس العام الذى توفى فيه (١١هـ/٦٣٢) . ولعل ذلك يرجع إلى الخوف من الفتنة على هذه الأمة الناشئة ، خصوصاً وأن بعض القبائل أعلنت خروجها على طاعة النبي فى حياته[١] . وينسب حل هذه المسألة إلى صحابى كبير ، هو : « عمر بن الخطاب[٢] » ، الذى كان يهدف قبل كل شيء إلى توحيد الصفوف منعاً لفتنة[٣] ، والرجوع بالعرب إلى تقاليدهم فى اختيار « السيد[٤] » أو « الزعيم » ، على أن تكون الرئاسة فى قريش[٥] وحدها . فأعلن فى سقيفة بنى ساعدة[٦] — وهو المكان الذى كان يتشاور فيه المهاجرون والأنصار بالمدينة — أن أبا بكر بحكم — سنه وتجربته — خليفة[٧] رسول الله . فلقى هذا الإعلان فى أول الأمر معارضة من الأنصار وبخاصة من الخزرج[٨] ؛ إلا أن أغلبهم وافق على اختياره بعد أن تأكدوا أن الأمر سيستمر شورى[٩] بينهم وبين المهاجرين .

وقد تأكدت طاعة الأنصار والمهاجرين لأبى بكر بما يعرف «بالبيعة[١٠] » ، وهى كلمة فى القرآن[١١] تعنى العهد على الطاعة ، وتكون ببسط[١٢] اليد أو

(١) النوبختى ، ص ٤ ؛ انظر بعده .
(٢) ابن الجوزى ، كتاب تاريخ عمر بن الخطاب ، ص ٣٤ و٣٥ .
(٣) انظر . الرسالة المنسوبة إلى أبى بكر . النويرى ، ٧ ص ٢٢٣ فما بعدها .
(٤) انظر . قبله .
(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٥٣ — ١٥٤ ؛ النوبختى ، ص ٣ .
(٦) ابن هشام ، ٢ ص ١٠١٣ — ١٠١٧ .
(٧) ابن حزم ، الفصل ، ٤ ص ١٠٧ . المقصود بالخليفة فى اللغة من يخلف النبى ، ولذلك نهى أبو بكر مناداته «بخليفة الله» ، وقال : ولكنى «خليفة رسول الله» . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٥١ .
(٨) ابن الأثير ، ٢ ص ٢٢٤ .
(٩) نفسه ، ٢ ص ٢٢٣ .
(١٠) ابن هشام ، ٢ ص ١٠١٦ ؛ حسن وعلى إبراهيم ، النظم الإسلامية ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص ٢٩ .
(١١) القرآن ٤٨ : ١٠ . هذه الكلمة مصدر باع انظر . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٦٥ .
(١٢) ابن هشام ، ٢ ص ١٠١٦ س ١١ .

بضربها[١] على يد المبايع . ويظهر أن البيعة تكون من الرجال والنساء على السواء؛ فقد سبق أن بايعت النساء[٢] النبي ، وتكون مبايعتهن من غير لمس أو مصافحة ، وإنما فقط بإعلان الطاعة بالكلام . أما أن تكون البيعة بتقبيل الأرض أو اليد أو الرجل أو الذيل ، كما ستكون فى العصر العباسى ، فهذه أساسها فى تقاليد الفرس[٣] لا العرب . ومع ذلك فإن علياً — على مايظهر — تأخر[٤] فى المبايعة ، أما سعد بن عبادة فيبدو أنه لم يُجبر[٥] على المبايعة إلى أن قتل فى حروب الشام .

وفى الحق أن أبا بكر يمثل بحق روح « سيد » العرب ، التى امتزجت بروح الدين الجديد ؛ ويتبين هذا فى أول خطبة له ألقاها من على منبر النبى فى المسجد ، قال فيها[٦] : « أيها الناس إنى قد وليتُ عليكم ولستُ بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأتُ فقوّمونى ، الصدق أمانةٌ ، والكذبُ خيانةٌ ، والضعيفُ فيكم قوىٌّ عندى حتى أريح عليه حَقَّه إن شاءَ الله ، والقوىُّ فيكم ضعيف عندى حتى آخذَ الحق منه إن شاء الله . . . أطيعونى ما أطعتُ الله ، ورسوله ، فإذا عصَيْتُ الله ورسوله ؛ فلا طاعة لى عليكم . . . » .

ولكن رأى أهل السقفية فى خلافة أبى بكر للنبى لم يكن رأى السواد الأعظم من عرب الجزيرة ، فمنهم من ارتد[٧] عن دين الإسلام بحكم أن الإسلام[٨] انتهى بموت النبى ، ومنهم من توقف عن المبايعة لأبى بكر مع تمسكهم بالإسلام،

---

(١) نفسه ، ١ ص ٣٠٠ س ٤ .
(٢) القرآن ٦٠ : ١٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ١٧١ .
(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٦٥ .
(٤) ابن الأثير، الكامل ، ٢ ص ٢٢ .
(٥) نفسه ، ٢ ص ٢٢٤ س ١٢ .
(٦) ابن هشام ، ٢ ص ١٠١٧ ؛ انظر . هيكل ، الصديق ، ص ٧١ .
(٧) انظر . الطبرى (Annales) ١ : ١٨٨١ — ١٨٨٤ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .
(٨) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٤٧ .

وامتنعوا عن دفع الزكاة التى كان النبى يجبيهـا من القبائل ، حتى يصح[١] عندهم لمن الأمر، ومن الذى استخلفه النبى . فـكان على ولىّ الأمر الجديد أن يرسل الحملات الحربية نحو من رجع عن الإسلام ، أو من لم يبادر بمبايعته ، أو امتنع عن دفع الزكاة ، وسمى هؤلاء : « بأهل الردة[٢] » . وهذه الحروب التى سيقع معظمها فى الجزيرة بين سنتى إحـدى عشرة واثنتى عشرة من الهجرة (٦٣٢ — ٦٣٤[٣]) ، هى أشبه بأيام العرب ووقعاتهم ، حيث سميت كل منهـا بيوم من أيامها المشهورة[٤] .

وفى الحق أن الوحدة السياسية لعرب الجزيرة جميعاً لم تقم فى أى وقت ، وليس لدينا سند تاريخى واحد يشير إلى قيامها فى زمن النبى ، فقبل موته بثلاث سنوات كانت مكة وأرباضها فى عداء سافر مع المدينة ؛ وإن كان من المحتمل أنه عند موت النبى وبيعة أبى بكر بالخلافة كان قد تـكون فى المنطقة الوسطى من الحجاز حكومة واحدة تشتمل على مكة والمدينة وبعض القبائل العربية المجاورة ؛ أما الجزء الأكبر من قبائل الجزيرة فلم يكن خضوعها لنفوذ المدينة إلا خضوعاً اسمياً، مظهره: ارسال الوفود[٥] إلى المدينة، وإيتاء الزكاة[٦] التى كانت تؤخذ من غلات البلاد لأن الجزيرة لم تـكن تعرف العملة إلا فى أيدى[٧] تجـار قريش المتعاملين مع بيزنطه وفارس ، واعطاء الخمس[٨] من المغانم التى يحصلون عليهـا فى غاراتهم ، ومفارقة المشركين ، وقبولهم العمال[٩] أو القراء[١٠] لجباية الصدقة وتعليم الدين ، لأن العرب كانوا أمّـة أمية .

---

(١) النوبختى ، ص ٤ .

(٢) نفسه ؛ الماوردى ، الأحكام ، ص ٤٤ .

(٣) ابن الأثير ، الـكامل ، ٢ ص ٢٥٢ .

(٤) الميدانى ، ٢ ص ٢٧١ فما بعدها .

(٥) ابن هشام ، ٢ ص ٩٣٣ ؛ انظر . قبله .

(٦) ابن سعد ، ١/٢ ص ٢٣ س ٣ . فمثلا كان النبي يأخذ صدقة اليمن من التمر والشعير والذرة والحنطة والزبيب والبن . انظر . البلاذرى ، فتوح ، ص ٧٢ .

(٧) انظر . قبله . (٨) ابن سعد ، ١/٢ ص ٢٣ س ٢ .

(٩) ابن هشام ، ٢ ص ٩٦١ — ٩٦٢ .

(١٠) هم الحافظون للقرآن أو الذين يقرءون الـكتاب . ابن خلدون، المقدمة، ص٣٥٣ .

ومن ناحية أخرى كان الجزء الأكبر من العرب فى الجزيرة — فيما عدا عرب المدينة ومكة — لا يعرف من الاسلام غير اسم محمد والقرآن ، ولم يكن فى كل الحجاز من متحمس لدين الإسلام غير أهل المدينة من الأنصار ، وأهل مكة من المهاجرين . فى الواقع لم تحفل العرب بالإسلام ، كما لم يحفلوا من قبل بأى دين من الأديان السماوية الأخرى ، ولم يحاولوا فهم قوانينه ، أو القيام بمظاهره من صلاة وصيام ووضوء ؛ حيث نعرف قسوة الحياة فى البادية وقلة الماء . واهمال العرب للاسلام ظهر فى حياة النبى نفسه ، فهم يطالبونه باسقاط الصلاة أو الزكاة[1] ؛ وكلاهما من تعاليم الإسلام وأركانه . وقد قدر القرآن هذه الطبيعة العربية فى مجافاة الدين ، وعدم الاحتفال به ، بقوله : ﴿قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ٤٩ : ١٤﴾ . ولا ريب أن النبى نفسه تعب من استهتار العرب بالدين ، وعدم ميلهم إليه ؛ فوصف القرآن العرب بالعبارة الآتية : ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ٩ : ٩٧﴾ . لذلك كانت العرب فى ذلك الوقت تلوم[2] بإسلامها .

وحتى قبل موت النبي لم تتردد روح الانفصال[3] عن الظهور ، وإن كانت البواعث الدينية لم تلعب إلا دوراً ضئيلاً . فقد كان عرب الجزيرة يطلبون الفكاك من سيطرة المدينة ؛ حيث أن روح الإسلام لم تكن وصلت بعد إلى قلوب القبائل ؛ ولكى تقطع[4] صلتها بالمدينة منعت الزكاة التى سماها بعض العرب « أتاوة[5] » ، والتفوا حول زعماء من قبائلهم ادعو « النبوة[6] » ، وهؤلاء كانوا يدعون إلى نقض نفوذ المدينة والإسلام باسم « الله[7] » و « الوحى » ، وليس باسم آلهة العرب

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٣٢ ؛ البلاذرى ، فتوح ، ص ٩٤ .
(٢) ابن سعد ، ١/٢ ص ٧٠ س ١٠ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٢٨ ؛ انظر . بعده .
(٤) النوبختى ، ص ٤ .
(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٣٨ .
(٦) النوبختى ، ص ٤ .
(٧) ابن الأثير ، ٢ ص ٢٣٢ س ١١ ؛ ٢٤٢ .

القديمة ؛ كما حاولوا أن يقلدوا(١) القرآن فى عباراتهم الدينية . ويعرّف ابن خلدون(٢) « التنبؤ » بأنه من خواص النفس الإنسانية ، ومرتبة من مراتب ادراك الغيب ، وأنه انسلاخ إلى الروحانية بالفطرة . وقد تصحبه الخوارق وهى الأفعال التى يعجز البشر عن فعلها ؛ ولذلك كان التنبؤ أعلى مرتبة من الكهانة التى تنال بالاكتساب والاستعانة بالمدارك والتصورات . ويبدو أن بعض العرب كانت تسعى(٣) إلى التنبؤ ، وأنه لم يكن غريباً عنها حتى قبل الإسلام : فمثلاً كان الشاعر أمية بن أبى الصلت(٤) يطمع فى النبوة ويسعى لها — وإن كنا لا نعرف وسائل الحصول عليها ، وإن أعتبرت عندهم من الفراسة(٥) أو الشعور بالبعيد ؛ كذلك كان عبد المطلب — جد النبى — يأتيه فى المنام آت(٦) يكلمه عن حفر بئر زمزم ، بل إن التنبؤ بالأمور كان يشمل الأحبار اليهود والرهبان النصارى(٧) فى الجزيرة ، الذين تحدثوا بأمر النبى قبل مجيئه . ولكن بعد محمد مُنع التنبؤ ، فهو — كما ورد فى القرآن(٨) — خاتم النبيين ؛ كما مُنعت الكهانة(٩) أيضاً . ولذلك وجدنا أن من يدعى النبوة يسمى : « بالكذاب(١٠) » ؛ ويصغّر اسمه تحقيراً لشأنه .

قصارى القول كفرت عامة العرب ، واندلع العصيان فى كل مكان ، وأصبح

---

(١) نفسه ، ٢ ص ٢٤٤ (آخر الصفحة) .
(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٣ فما بعدها .
(٣) نفسه ، ص ٨١ .
(٤) نفسه .
(٥) نفسه ، ص ٨٧ . لعلها فى وقتنا ما يعبر عنه بكلمة Telepathy .
(٦) ابن هشام ، ١ ص ٩١ — ٩٤ .
(٧) نفسه ، ١ ص ١٢٩ .
(٨) القرآن ٣٣ : ٤٠ .
(٩) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٨١ .
(١٠) أطلق النبي هذه الكلمة على «مسيلمة» ، الذى ادعى النبوة . انظر . ابن هشام ، ٢ ، ص ٩٦٤ — ٩٦٥ . سيكون التنبؤ فى عهد العباسيين فيما بعد من الفكاهات والنوادر . النويرى ، ٤ ص ١٤ — ١٦ .

المرتدون[١] حرباً على من يبقى على اسلامه . وقد أخذ أبو بكر على عاتقه أن يحارب أهل الردة ، فقد كان فى رأيه : أنه لا يجوز أن يهادنوا[٢] أو يصالحوا ، أو حتى يتساهل معهم فى بعض أمور الدين ؛ وإلا انقض بناء الإسلام ركناً ركنا . وقد بدأ جهاده معهم بالطريقة السلمية : بأن أرسل رسله بكتب[٣] مفتوحة إلى المرتدين ، يدعوهم فيها من جديد إلى الرجوع إلى الإسلام وقواعده ، وإلا فالحرب .

ولكى يظهر أبو بكر تصميمه على ذلك خرج إلى ذى القَصّة[٤] — وهى قرب المدينة[٥] — ليوجه منها الزحوف[٦] إلى أهل الردة . فخرجت إليه بعض قبائل البدو وعلى رأسها عبس[٧] وذبيان وغطفان فقاتلها وهزمها ، فهربت فلولها إلى قبيلة أسد فى « عين بُزاخة[٨] » — قرب مكة[٩] — التى كان فيها رجل اسمه طلحة بن خويلد[١٠] ، كان قد ادعى النبوة فى عهد النبى — ويسميه المسلمون تحقيراً له « طليحة[١١] » — وكان قد سخر من تأدية المسلمين الصلاة ، وأمرهم بترك السجود[١٢] وعبادة الله وقوفا ؛ وكان يدعى أن جبريل ينزل عليه ، وكان يقول السجع .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٣١ س ٢٣ .
(٢) الماوردى ، الأحكام ، ص ٤٦ — ٤٧ .
(٣) الطبرى (Annales) ١ : ١٨٨١ — ١٨٨٤ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢٠٧ — ٢٠٩ ؛ انظر . رفيق العظم ، كتاب أشهر مشاهير الإسلام ، الطبعة الثالثة ، ١ ص ١٠٩ — ١١١ .
(٤) بفتح القاف والصاد المهملة . ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٣٥ .
(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ ص ١١٤ .
(٦) البلاذرى ، فتوح ، ص ٩٥ س ١٠ .
(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .
(٨) بضم الباء . نفس المرجع ، ٢ ص ٢٣٦ .
(٩) ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ١٦٠ — ١٦١ .
(١٠) فتوح البلدان ، ص ٩٥ .
(١١) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٣١ .
(١٢) نفسه ، ٢ ص ٢٣٢ .

بعد هذا النصر الأول وجه أبو بكر من ذى القصة الزحوف[١] إلى أهل الردة بقيادة أحد عشر قائداً[٢] ، بعد أن منحهم عهود[٣] قتال المرتدين . ونحن لا نستطيع أن نتتبع خطة سير كل واحد منهم – وإن كنا نعرفهم بأسمائهم[٤] – ولكن لا ريب أن أكبر المساهمين فيها : خالد بن الوليد ، وهو الشخصية المعروفة ببطشها ، والتي ظهرت أول ما ظهرت فى غزوة أحد التى انكسر فيها المسلمون ، ثم دخل الإسلام وعرف بشجاعته ومكيدته فى فتح مكة وموقعة مؤتة التى انقطع فيها فى يده تسعة[٥] أسياف حتى لقبه النبى « سيف الله »[٦] . ويوصف[٧] بأنه كان رجلاً طويلاً مهيباً ، ضخماً بعيد المناكب واسع الهيكل ، يعتبر من القواد الأفذاذ الذين لم يعرف لهم التاريخ مثيلاً من قبل . وقد قال[٨] أبو بكر لخالد قبل أن يغادر ذى القصة لحرب أهل الردة : « احرص على الموت توهب لك الحياة » .

خرج خالد من ذى القصة إلى الشمال نحو « عين بزاخه » ليقض على بقايا[٩] غطفان وعبس وذبيان ، ومن انضم إليهم من أسد[١٠] وفزارة ؛ وقد استطاع خالد تفريق جمعهم وهرب طليحة عند قبيلة كلب[١١] فى الشام ؛ مع أنه كان هو

(١) فتوح البلدان ، ص ٩٥ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٣٤ .
(٣) الطبرى (Annales) ١ : ١٨٨٤ — ١٨٨٥ ؛ مجموعة الوثائق ، ص ٢٠٩ — ٢١٠ ؛ هيكل ، الصديق ، ص ١٤٧ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٣٤ .
(٥) البخارى ، طبعة بولاق ١٣١٤ هـ ، ٥ ص ١٤٤ (المجلد الثانى) .
(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ١٦٠ ؛ انظر Ency. de l'Isl. (art Khâlid) 2, p. 930 — 931.
(٧) الأزدى ، فتوح الشام ، تحقيق W. N. Lees ، طبعة Calcutta ، ١٨٥٤ ، ص ١٧٧ ؛ الواقدى ، فتوح الشام ، ١ ص ٤٣ .
(٨) الميدانى ، ٢ ص ٢٧٦ .
(٩) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٣٤ .
(١٠) نفسه ، ٢ ص ٢٣٥ ؛ فتوح البلدان ، ص ٩٩ .
(١١) نفسه ، ٢ ، ص ٢٣٥ .

الآخر معروفاً بشدة بأسه[١] فى القتال ؛ وعرف هذا اليوم « بيوم بُزاخة[٢] ».
وقد اسر طليحة ارسل إلى المدينة وقبلت توبته[٣] ، وعاد إلى إسلامه[٤] ،
وسيكون له شأن فى حرب فارس[٥] .

بعد ذلك سار خالد إلى بلاد بنى عامر[٦] المجاورة ، وهى تشمل البلاد الممتدة من شرق المدينة حتى الخليج الفارسى ، وكانت تسكنها[٧] قبائل بنو تميم وعشائرها من بنى حنظلة ، وكان معظم هؤلاء من البدو . وكان النبى قد بعث إليهم يدعوهم إلى الإسلام ، وجعل زعيمهم مالك بن[٨] نويرة على صدقات بنى حنظلة . ولكن بعد موت النبى نجد أن مالك بن نويرة مع تمسكه بالإسلام ، كان قد حجز[٩] الصدقة فقط ، حتى يصح[١٠] عنده لمن الأمر ، ومن استخلفه النبى . ومن ناحية أخرى كانت هناك امرأة ذات شخصية غير واضحة اسمها « سَجَاح[١١] » ، نشأت فى قبيلة تغلب النصرانية الموجودة فى الشمال قرب منطقة الجزيرة (مسبوتاميا)، قد أقبلت عند قومها من بنى تميم ؛ الذين التفوا حولها . ومع أنها لم تدع النبوة إلا أنها تكهنت[١٢] على حسب ما كان معروفاً فى الجاهلية . ونحن لا نعرف قصد سجاح منذ مجيئها إلى بلاد بنى عامر ، وجمع القبائل حولها ، فلعلها كانت تريد

---

(١) الذهبى ، دول الاسلام ، الطبعة الثانية ، حيدر آباد ١٣٦٤ ﻫ ، ١ ص ٦ .

(٢) الميدانى ، ٢ ص ٢٧١ .

(٣) للماوردى ، الأحكام ص ٤٥ .

(٤) برهان الدين ، سيرة حلبية ، طبعة مصر ، ٢ ص ٣٠٦ — ٣٠٧ .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٨١. شهد القادسية ونهاوند مع المسلمين ، واستشهد فى سنة ٢١ ﻫ . انظر . الذهبى ، دول الاسلام ، ١ ص ٦ ؛ أبو الفضل والبجال ، أيام العرب فى الاسلام ، ص ١٤٣ هامش (١) .

(٦) فتوح البلدان ، ص ٩٧ .

(٧) ابن هشام ، ٢ ص ٩٦٥ ؛ البلاذرى ، فتوح ، ص ٩٧ — ٩٨ .

(٨) ابن هشام ، ٢ ص ٩٦٥ س ٦ .

(٩) البلاذرى ، فتوح ، ص ٩٨ .

(١٠) النوبختى ، ص ٤ ؛ انظر . قبله .

(١١) فتوح البلدان ، ص ٩٩ .

(١٢) نفسه . ولكن ابن الأثير يقول إنها ادعت النبوة . الكامل ، ٢ ص ٢٣٩ .

أن تدافع عن قومها بالتعاون[١] مع مالك بن نويرة ضد نفوذ المدينة الطاغي ، ولعلها فى سبيل ذلك ذهبت[٢] أيضاً إلى بلاد اليمامة التى تجاور بلاد بنى عامر لتستعين بهم كذلك . على كل حال انقطعت أخبار سجاح فجأة ، فلم نعد نسمع عنها شيئاً ، فلعها عادت[٣] إلى بنى تغلب فى الجزيرة وماتت عندهم ، أو أنها أسلمت ثم انتقلت إلى البصرة ، وعاشت حتى زمن معاوية . مهما يكن فإن خالداً سار نحو بلاد بنى عامر ليقاتل فيها المرتدين ؛ فهزم العشائر التى قاومته وبث فيهم الرعب[٤] ، كما قتل مالك بن نويرة مع استسلامه هو وبنى حنظلة[٥] ، وتزوج امرأته الجميلة[٦] ؛ ولكن — ولاريب — أن الذى حمل خالداً يقدم على ذلك ، هو أن منع الصدقة كان يعتبر ردة ، وأن هذه الردة كانت تُبطل[٧] المناكحات بارتداد أحد الزوجين .

ثم سار خالد إلى أرض اليمامة[٨] ، وهى بلاد واسعة تمتد حتى الخليج الفارسى ، تسكنها قبائل عديدة من ربيعة أقواها بنو حنيفة[٩] المعروفة بكثرة عددها ، وشدة بأسها ، وكثرة وقائعها . وقد ظهر فيها فى حياة النبى رجل اسمه مسلمة ، ويسميه المسلمون « مسيلمة » تصغيراً واستهزاءً ، وقد شهد له رجال بأنه رسول[١٠] الله ، وأنه يناجى ربه وينزل عليه ملك[١١] بآيات[١٢] مثل القرآن ؛

---

(١) نفسه ، ٢ ص ٢٣٩ .
(٢) فتوح البلدان ، ص ٩٩ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ٦ ص ٤١ .
(٤) نفسه ، ٢ ص ٢٣٦ فما بعدها .
(٥) البلاذرى ، فتوح ، ص ٩٨ .
(٦) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص ٧٠ .
(٧) الماوردى ، الأحكام ، ص ٤٧ س ٦ .
(٨) هى قرية من البحرين . معجم البلدان ، ٨ ص ٥١٥ .
(٩) ابن هشام ، ٢ ص ٩٦٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٤٥ س ٨ ؛ كحالة ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، دمشق ١٩٤٩ ، ١ ص ٣١٢و٣١٣ .
(١٠) الجاحظ ، الحيوان ، ٤ ص٣٧٢ .
(١١) نفسه ، ٤ ص ٣٧٣ .
(١٢) السيوطى ، الاتقان ، ٢ ص ٢٠٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٤٤ (آخر الصفحة) .

بل أنه كان يعرف فى السحر والنجوم[١] ، ويأتى بالمعجزات[٢] . ويظهر أن مسيلمة كان كاهناً[٣] يدرك الأمور قبل وقوعها ، مما جعله يظن أنه يتنبأ واستمر فى عناده[٤] . وقد دعا مسيلمة إلى نفسه ، وكان يطوف فى الأسواق التى يلتقى فيها الناس للبيع والشراء والبلدان[٥] ، مثل : الأُبُلَّة والأنبار والحيرة لنشر الدعوة ؛ كما أنه كتب[٦] إلى النبي محمد ليشاركه فى رسالته وفى ملكية نصف الأرض ، ولكن محمداً رد[٧] عليه بقوله إن الأرض يورثها الله من يشاء من عباده . وكان دين مسيلمة يشتمل على بعض مبادىء الإسلام كإقامة الصلاة وإن جعلها ثلاث[٨] صلوات بدلاً من خمس بحذف صلاة الفجر والعشاء ، وأيضاً تنفيذ الشرائع[٩] من قطع الأيدى والأرجل ؛ وإن دخلت دعوته عقائد نصرانية ومجوسية[١٠] : فدعا إلى الزهد والصوم ، والامتناع عن شرب الخمر والتقشف . وكان مسيلمة ذا شخصية قوية يسيطر على أتباعه ، مع أنه كان قصيراً[١١] شديد الصفرة أفطس الأنف ، يلبس ملابس البدو المهلهلة .

وقد جمع مسيلمة جيشاً كبيراً عدده أربعون ألفاً[١٢] ، تمكن به قبل وصول

---

(١) الحيوان ، ٤ ص ٣٧٠ .

(٢) نفسه ، ٤ ص ٣٧١ ؛ ٣٧٢ . فمثلا وضع بيضة فى قارورة ضيقة العنق دون أن تنكسر .

(٣) نفسه ، ٤ ص ٣٧٠ .

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٨١ س ٢٠ .

(٥) الحيوان ، ٤ ص ٣٦٩ . الأبلة بلد على شاطىء دجلة ، فى زاوية الخليج الفارسى (ياقوت، معجم البلدان ، ١ ص ٨٩) . والأنبار مدينة على الفرات (نفسه ، ١ ص ٣٤١) . والحيرة مدينة قرب الكوفة . نفسه ، ٣ ص ٣٧٦ .

(٦) ابن هشام، ٢ ص ٩٦٥ ؛ انظر، مجموعة الوثائق ، ص ١٧٨ ؛ عبد المنعم خان ، رسالات نبوية ، طبعة الهند ١٣٤٦ هـ ، عدد (٩٣) .

(٧) صبح الأعشى ، ٦ ص ٣٨١ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ١٧٩ .

(٨) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٤١ .

(٩) فتوح البلدان ، ص ٨٩ .

(١٠) انظر عن هذه الكلمة بعده .

(١١) فتوح البلدان ، ص ٩٠ س ١٧ — ١٨ ؛ انظر . هيكل ، الصديق ، ص ١٦٦ .

(١٢) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٤٤ س ١٠ .

خالد من هزيمة جيش صغير للمسلمين مرسل من المدينة بقيادة عكرمة بن[1] أبي جهل — أحد قواد الردة البارزين — وقد حفزه هذا النجاح إلى التقدم نحو الشمال ؛ ليقابل الجيش الذى كان يقوده خالد بن الوليد . فتقابل جيش مسيلمة مع جيش خالد بمكان من الصحراء فى طرف اليمامة يسمى « عقرباء[2] » ، واشتبكا فى معركة فاصلة لم تشهد لها الجزيرة مثيلاً من قبل ، حيث كان القتال فيها قتالاً بسبب الكبرياء[3] ، فقسّم خالد جيشه إلى أقسام أو « رايات[4] » من المهاجرين والأنصار وغيرهم من مسلمي البوادى ، كما كان أهل اليمامة يذودون عن « أحسابهم[5] » ونسائهم اللاتى يحثين الرجال فى القتال على عادة العرب . وقد اضطر المسلمون إلى التقهقر[6] فى أول الأمر أمام جيش مسيلمة ، ولكن بفضل قيادة خالد الماهرة تمكن المسلمون من كبح جماح عدوهم . ولما أيقن مسيلمة بالهزيمة أسرع فى الانسحاب إلى ريف[7] اليمامة المزروع ؛ ليتحصن بداخله ، ولكن المسلمين تبعوه واشتبكوا فى مذبحة هائلة منى الطرفان فيها بخسائر فادحة ، فقتل مسيلمة[8] وعشرة آلاف من اتباعه ، كما قتل كثير من وجوه المسلمين[9] وقراء القرآن ، بحيث سمى هذا المكان الذى دارت فيه المعركة « بحديقة[10] الموت » وسمى يوم المعركة « بيوم اليمامة[11] » ، نظراً لأهمية المعركة التى دارت رحاها . أما بقية أنصار مسيلمة الذين هربوا والتجأوا[12]

(١) نفسه ، ٢ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ . هو ابن أبى جهل — عدو النبى — الذى قتل ببدر، أسلم بعد الفتح ، وقتل يوم اليرموك . المعارف ، ص ١٧٠ ؛ الكامل ، ٢ ص ٤٩ ؛ ٨٨ .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ١٩٣ — ١٩٤ .

(٣) فتوح البلدان ، ص ٨٩ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٤٥ — ٢٤٦ .

(٥) نفسه ؛ انظر . هيكل ، الصديق ، ص ١٧٠ .

(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٤٤ س ١١ .

(٧) هو المنطقة المزروعة من اليمامة . ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ١٩٤ .

(٨) فتوح البلدان ، ص ٨٦ .

(٩) نفسه .

(١٠) نفسه .

(١١) الميدانى ، ٢ ص ٢٧١ .

(١٢) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٤٧ .

إلى الحصون ، فإنهم انقذوا حياتهم بالتسليم . وبذلك كسرت شوكة بنى حنيفة إلى الأبد بعد أن دفع المسلمون ثمنها غاليا .

بعد ذلك اتجه خالد إلى البحرين على الخليج[١] الفارسى ؛ ليخلص عامل المدينة العلاء بن عماد الحضرمى[٢] ، الذى حاصرته القبائل المرتدة فى مدينة «هجر» ، قصبة[٣] البحرين ، وإحدى أسواق[٤] العرب المشهورة . وكان سكان البحرين معظمهم من عناصر الفرس واليهود والنصارى[٥] الذين يسكنون الساحل ، ومن بدو العرب من قبائل عبد القيس[٦] من ربيعة[٧] وبكر وتميم[٨] داخل البلاد . ومع أن هذه البلاد كانت من مملكة[٩] فارس ، إلا أن النبى دعاها إلى الإسلام[١٠] ، وأرسل إليها عماله[١١] ومعهم العلاء لجمع الصدقات ولنشر الدين . ويبدو من الكتب[١٢] المتبادلة بين النبى وزعماء العرب من سكان البحرين أنهم قبلوا[١٣] الإسلام . كما أخذ الصدقة من مجوسى[١٤] هجر ؛ بل وارسلوا وفدا[١٥] منهم إلى المدينة . ولكن ارتدت العرب بعد موت النبى ، وإن بقى[١٦] بعضهم مسلماً ، وقد تزعم

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٧٢ .

(٢) ابن سعد ، ١/٢ ص٢٨ ؛ انظر . Caetani : Annali dell'Isl. 8 : 185.

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٧٢ .

(٤) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٣١٣ .

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٧٤ س١٢ .

(٦) ابن سعد ، ١/٢ ص ٥٤ .

(٧) نفسه .

(٧) ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٧٥ .

(٩) نفسه ، ٢ ص ٧٤ س ٤ — ٥ ؛ البلاذرى ، فتوح ، ص ٧٨ .

(١٠) ابن سعد ، ١/٢ ص ٢٧ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٥٦ — ٦٤ .

(١١) ابن سعد ، ١/٢ ص ١٩ ؛ ٢٨ .

(١٢) نفسه ، ١/٢ ص ١٩ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٥٦ — ٦٤ .

(١٣) ابن سعد ، ١/٢ ص ١٩ .

(١٤) نفسه .

(١٥) نفسه ، ١/٢ ص ٥٤ .

(١٦) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٤٩ .

طائفة من المرتدين النعمان[١] بن المنذر أو فقط المنذر ، ولعله من سلالة ملوك الحيرة ، أما أغلبيتهم فإنها ارتدت برئاسة رجل اسمه «الحُطم» . فسار المسلمون إليهم بقيادة العلاء عامل النبي ، فهزمه الحُطم وألجأه إلى حصن مدينة « هجر » ، إلى أن جاء خالد من اليمامة فقتل « الحُطم[٢] » ، ودخل « هجر » وأنقذ العلاء ؛ ثم غادرها أى «هجر» بعد ذلك إلى العراق . وبقى العلاء فى البحرين وهاجم[٣] المنذر الذى هرب بعد هزيمة الحُطم إلى الحصن المسمى « جُوَاثاء[٤] » ، فهزمه وقتل المنذر ، وعرف ذلك اليوم « بيوم جُوَاثاء[٥] » .

أما عُمان وهى تقع شرق[٦] البحرين ، فإن أبا بكر وجه إليها عِكرمه[٧] بن أبى جهل بعد هزيمته على يد مسيلمة . وكانت عُمان بلاداً[٨] كثيرة تسكنها على الخصوص قبيلة الأزد[٩] ، التى هاجرت إليها من اليمن . وكان النبى قد بعث بكتبه[١٠] إلى شيوخها من أسرة «الجُلُندى[١١]» — ملوك عُمان فى الجاهلية — بل وجاءه وفد[١٢] منهم إلى المدينة، وأرسل إليهم أحد رجاله[١٣] ليأخذ صدقة أعيانهم.

---

(١) فتوح البلدان ، ص ٨٣ .

(٢) نفسه ، ص ٨٤ . الحطم فى اللغة القليل الرحمة ، وهو من الحطم وهو الكسر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٢٩٧ .

(٣) فتوح البلدان ، ٣ ص ٨٤ .

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ١٥٥ . وهى تقع فى البحرين أيضا .

(٥) فتوح البلدان ، ص ٨٥ ؛ انظر . أبو الفضل والبجاوى ، أيام العرب فى الاسلام ، ص ١٧٢ .

(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ٢١٥ .

(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٤٤ .

(٨) معجم البلدان ، ٦ ص ٢١٥ .

(٩) فتوح البلدان ، ص ٧٦ ؛ كحالة ، معجم قبائل العرب ، ١ ص ١٦ — ١٧ .

(١٠) صبح الأعشى ، ٦ ص ٣٨٠ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٦٩ .

(١١) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٥٢ .

(١٢) ابن سعد ، ١/٢ ص ٨٠ — ٨١ .

(١٣) فتوح البلدان ، ص ٧٦ .

ولكن قبيلة الأزد ارتدت عن الاسلام بعد موت النبي ، والتفت حول زعيمها المسمى « ذى التاج[١] » ، فقتل عكرمة هذا الزعيم ، وعدداً كبيراً من المرتدين ، ودخل « دَبا[٢] » قصبة عُمان ، وهى سوق من أسواق العرب الهامة .

بعد ذلك انتقل[٣] عكرمة إلى بلاد جنوب الجزيرة : الشِحر[٤] وحَضرَموت[٥] واليمن ، وهى بلاد واسعة بحذاء بحر الهند ، وكانت اليمن منها على الخصوص خاضعة لنفوذ الفرس[٦] منذ أن طرد منها الأحباش ؛ وإن كانوا — قبل الاسلام — قد تركوها وشأنها ؛ بسبب انشغال الفرس بحروبهم مع بيزنطة ومشاغلهم الداخلية ، وبقى لهم فى « صنعاء » — عاصمة اليمن — نفوذاسمى ، يتمثل فى شخص الحاكم الفارسى « باذان[٧] » . وقد أصبح يسكن جنوب الجزيرة قبائل[٨] البدو من : طيء وخولان وكندة ومراد وحمير ومذحج وهمدان ، وهى القبائل التى حلت مكان الشعوب المعينية والسبئيـة والحميرية ؛ كما كانت تسكنها طائفة « الأبناء[٩] » ومعظمهم من سلالة الجيش الفارسى الذى أُرسل لطرد الحبش . وبظهور الاسلام أرسلت القبائل البدوية فى جنوب الجزيرة وفودها[١٠] العديدة للنبى ، وقبلت الاسلام ، ورضيت بدفع[١١] الزكاة ، كمعظم قبائل شبه الجزيرة . كذلك أسلمت فى ذلك الوقت طائفة « الأبناء[١٢] » ، وعلى رأسهم « باذان[١٣] »

---

(١) البلاذرى ، فتوح ، ص ٧٦ .
(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ٤ ص ٤٠ — ٤١ .
(٣) البلاذرى ، فتوح ، ص ٧٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٥٢ س ١٩ .
(٤) تقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن . ياقوت ، معجم البلدان ، ٥ ص ٢٤٠ .
(٥) انظر . قبله .
(٦) انظر . قبله .
(٧) انظر . قبله ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٢٧ س ١٥ . فى البلاذرى «باذام» فتوح ، ص ١٠٥ .
(٨) ابن سعد ، ١/٢ ص ٥٩ وما يليها .
(٩) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٠٥ .
(١٠) ابن سعد ، ١/٢ ص ٥٩ ؛ ٦٦ ؛ ابن هشام ، ٢ ص ٩٦٣ .
(١١) ابن هشام ، ٢ ص ٩٦١ — ٩٦٢ .
(١٢) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٠٦ .
(١٣) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٢٧ س ١٥ — ١٦ .

الذى قبل أن يكون نائب[1] النبي فى « صنعاء » ، واستمر على ذلك إلى أن مات. ولم يمض وقت قليل حتى كان عمال[2] النبي قد انبثوا فى كل مناطق جنوب الجزيرة فى اليمن وحضرموت على الخصوص ، ينظمون جباية الصدقة ، ويقومون بنشر العدل والدين ؛ كما بعث النبي إلى اليمن باثنين من كبار الصحابة هما[3] : على بن أبى طالب وخالد بن الوليد ، ولعل ذلك لتنظيم هذا القطر الغنى بالزراعة والتجارة .

على كل حال لما ارتدت قبائل جنوب الجزيرة ؛ لتتخلص من نفوذ المدينة نجد أن عكرمة بعد عمان يتجه إلى منطقة « الشحر[4] » ، ليقض على من ارتدوا حتى ظفر بهم . ثم توجه بعد ذلك إلى صقع حضرموت ، وكان على رأس المرتدين فيها من قبائل كندة شخص اسمه الاشعث بن قيس[5] ، كان قد جاء مع وفد بلاده إلى النبي . وقد ساعد عكرمة أحد عمال حضرموت من قبل النبي ، وهو زياد[6] ابن لبيد البياضى ، فى القضاء على المرتدين الذين التجأوا إلى حصن لهم ، فحصرهم[7] عكرمة وزياد بن لبيد حتى جهدوا ، وتمكن المسلمون من فتح الحصن ، وأسر[8] الأشعث بن قيس ، الذى أرسل إلى أبى بكر وقبلت توبته ، وتزوج فيما بعد بأخت الخليفة « أم[9] فروة » .

---

(١) نفسه .

(٢) نفسه ، ٢ ص ٢٢٧ س ١٧ فما بعدها .

(٣) ابن هشام ، ٢ ص ٩٩٩ .

(٤) البلاذرى ، فتوح ، ص ٧٧ ابن الأثير يقول مهرة (انظر . الكامل ، ٢ س ٢٥٢ — ٢٥٣) . ولعلها قبيلة (ياقوت ، معجم البلدان ، ٨ ، ص ٢١١) كتسكن بين عمان واليمن ، فى منطقة الشحر .

(٥) ابن هشام ، ٢ ص ٩٥٣ .

(٦) نفسه ، ٢ س ٦٩٥ .

(٧) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٠١ .

(٨) نفسه ، ص ١٠٤ .

(٩) ابن حجر . الإصابة فى تمييز الصحابة ، مصر ١٣٥٨/١٩٣٩ ، ١ ص ٦٩ ؛ ابن الأثير ، أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، القاهرة ١٢٨٥ هـ ، ١ ص ٦٩ . شهد بعد ذلك موقعتى اليرموك والقادسية ، وكان ممن ألزم علياً بالتحكيم ، وتوفى سنة ٤٠ هـ ؛ انظر المعارف ، ص ١٧٠ ؛ انظر بعده .

أما فى اليمن فنى حياة النبي كان قد ظهر شخص من قبيلة مذحج[١] — كان أول[٢] من أدعى النبوة — اسمه عبهلة[٣] بن كعب وهو الاسود[٤] العنسى ، وقد استطاع أن يسيطر على أجزاء كثيرة من اليمن ، وطرد[٥] عمال النبي منها ؛ ثم دخل « صنعاء[٦] » وقتل « شهر بن باذن » ، وأكره زوجته « آزاد[٧] » على الزواج منه ، كما سيطر على « نجْران[٨] » الواقعة على حافة بلاد الحجاز الجنوبية ، وكانت تدفع الجزية[٩] للنبي بمقتضى عهد[١٠] بينهاوبينه. وقد كان العنسى كغيره من المتنبئين يدعى إدراك الغيب ، ويستعين فى سبيل ذلك بحمار[١١] « معلم » ، فسمى : « بذى الحمار » ، كما سمى نفسه باسم مبهم : « رحمان اليمن[١٢] » . ولكى يزيد الاسود العنسى من التفاف قبائل اليمن حوله استذل[١٣] الابناء ، وهى الطبقة

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) نفسه ، ٢ ص ٢٢٨ س ٦ — ٧ .

(٣) تقرأ فى النص « عبهلة بن كعب » (انظر البلاذرى ، فتوح ، ص ١٠٥) ، ولكنى أقرأها « عبهلة » مفرد « عباهلة » وهى صيغة تعنى أميرا أو سلطانا قاهرا (اللسان ، ١٣ ص ٤٤٩ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، شرح الألفاظ ، ص ٣٣٤) ، خصوصا وأنه كان يسمى أيضاً « الأسود بن كعب» ، لسواد لونه كصفة دالة عليه .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٢٧ .

(٥) نفسه ، ٢ ص ٢٢٨ .

(٦) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٠٥ .

(٧) الكامل ، ٢ ص ٢٢٩ س ٥ .

(٨) نفسه ، ٢ ص ٢٢٨ س ٧ ؛ معجم البلدان ، ٨ ص ٢٥٩ .

(٩) البلاذرى ، فتوح ، ص ٦٨ .

(١٠) تاريخ النسطوريين (P. O.) ١٣ ص ٦ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٨٠ وما يليها .

(١١) فتوح البلدان ، ص ١٠٥ . فى بعض المراجع الأخرى ، تلقب « بذى الخمار » ، ولعل ذلك بسبب أنه كان دائماً يتغطى بثوب أولانكبابه على شرب الخمر . الكامل ، ٢ ص ٢٢٧ س ١٥ ؛ المصباح المنير ، ١ ص ٢٨٠ ؛ انظر . هيكل ، الصديق أبو بكر ، ص ٨٦ .

(١٢) الرحمن هو الله ، وإن كانت هذه الكلمة على ما يظهر غير حجازية ، بحيث أن العرب فى الحجاز اعتبروها دخيلة . انظر . Ency. de l'Isl. I, p. 306 . كذلك قد يكون « الرحمان » أيضا إله فى اليمن قبل الاسلام . انظر . Nöldeke : Gesch. des Qorâns, p. 92 — 93 ; n (1) ؛ هيكل ، الصديق ، ص ٨٨ هامش (١) .

(١٣) فتوح البلدان ، ص ١٠٥ .

الارستقراطية التى كان معظمها من سلالة الفرس ، الذين كانوا يسيطرون فى البلاد.
وقد استطاع النبى فى حياته أن يقض على ردة الأسود العنسى بتأليب: القبائل التى لم تسكن قد ارتدت من حمير وهمدان[١] ، أو باستمالة أهل نجران النصارى[٢] الذين كانوا حلفاء النبى ، وأيضا طبقة الأبناء[٣] المسلمين . وبفضل هذا تمكن عمال النبى من تدبير مؤامرة فى صنعاء ساعدتهم عليها امرأة شهر الفارسية «آزاد» ، التى كانت تحقد على الأسود قتل زوجها ، فذُبح الاسود العنسى ذبح الشاة[٤] وهو نائم، بحيث أنه كان يخور خوار الثور ؛ وكان قتل الأسود العنسى قبل وفاة[٥] النبى بأيام . وبذلك عادت اليمن إلى طاعتها ، وأرسل أهل نجران وفداً ، فجدد أبو بكر[٦] لهم العهد الذى عقدوه مع النبى . وقد ارتدت بعض القبائل من حمير فى عهد أبى بكر ، فكان عِكرمة[٧] أكبر مساعد على القضاء على هذا التمرد بعد مجيئه من حضرموت .

أما شمال الحجاز فنعرف أن قبائل عديدة كانت تسكن تخوم الشام ، مثل : جذام وكلب[٨] وقضاعة وطى[٩] وعذرة وبلى[١٠] ؛ وان هذه القبائل كان أغلبها من النصارى[١١] وبعضها من اليهود[١٢] ، بل ان من كان منها بدومة الجندل — وهى إحدى الأسواق[١٣] الهامة لعرب الشمال — كانت تعترف للبيزنطيين[١٤]

(١) الكامل ، ٢ ص ٢٣٠ س ٣ .
(٢) نفسه ، ٢ ص ٢٢٩ س ٤ .
(٣) فتوح البلدان . ص ١٠٦ .
(٤) نفسه .
(٥) نفسه .
(٦) الكامل ، ٢ ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .
(٧) نفسه ، ٢ ص ٢٦٠ .
(٨) سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، ٢ ص ١٣ .
(٩) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٣١ ؛ ٢٣٤ .
(١٠) نفسه ، ٢ ص ١٥٦ س ١٥ — ١٦ .
(١١) نفسه ، ٢ ص ٢٢٧ س ٥ .
(١٢) ابن سعد ، ١/٢ ص ٣٨ .
(١٣) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٣١٣ .
(١٤) المسعودى ، التنبيه ، ص ٢١٥ ؛ انظر Cheira : La Lutte, p. 21 .

بالسيطرة . وقد ذهب النبي إلى هذه القبائل بنفسه فى غزوة « تبوك[١] » ، ولعله أراد أن يشعرها بوجود الاسلام ؛ وقد أمضى النبى معها معاهدات ، كما أنها أرسلت وفودها[٢] إلى المدينة ؛ ومن الكتب المتبادلة بين النبى وبعض القبائل، نعرف أن بعضها أسلم[٣] . بل ان النبى كان قد أرسل خالد بن الوليد إلى دَوْمَة الجَنْدل من جديد ليهدم[٤] أصنامها ، مما يدل على وجود وثنيين فى هذه المنطقة بجانب المسيحيين . ولكن هذه القبائل الشمالية مثل غيرها من قبائل الجزيرة قلبت ظهر المجن للمدينة وارتدت[٥] ، ولعل ذلك كان قبل وفاة النبى ، الذى جهز بعثاً[٦] بقيادة أسامة بن زيد إلى الشمال . وعلى الرغم من حاجة المدينة إلى جميع من فيها للدفاع عنها ضد القبائل التى أخذت تهجم عليها ، فإن أبا بكر صمم[٧] على ارسال البعث ، ولعل سبب ذلك قد يكون رغبته فى تنفيذ[٨] ارادة النبى ، أو التمويه[٩] على قبائل العرب بقوة المدينة ، وأيضا القضاء[١٠] على حركة الارتداد، خصوصاً وأن هذه المنطقة الهامة كانت منفذاً لتجارة الحجاز. وإن كنا نجهل ماقام به البعث وغايته ومدى نجاحه ، إلا أنه يبدو أنه لم ينجح فى القضاء على حركة الارتداد فى شمال الحجاز ، بدليل أن أبا بكر أرسل نحوهم قواداً آخرين ، مثل :

---

(١) ابن هشام ، ٢ ص ٩٠٢ — ٩٠٤ ؛ انظر . قبله .

(٢) ابن سعد ، ١/٢ ص ٤٤ ؛ ٦٦ — ٦٨ .

(٣) البلاذرى ، فتوح ، ص ٦١ ؛ انظر مجموعة الوثائق ، ص ١٦٧ فما بعدها .

(٤) البلاذرى ، فتوح ، ص ٦١ . كانوا يعبدون ود . انظر . ابن هشام ، ١ ص ٥٢ ؛ الأصنام ، ص ١٠ س ٣ ؛ انظر . قبله .

(٥) البلاذرى ، فتوح ، ص ٦٢ .

(٦) ابن هشام ، ٢ ص ١٠٠٦ — ١٠٠٧ ؛ انظر . هيكل ، الصديق ، ص ١٠١ .

(٧) انظر . قبله .

(٨) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٢٦ س ١١ ؛ ٢٠ .

(٩) نفسه ، ٢ ص ٢٢٧ س ١١ — ١٣ .

(١٠) نفسه ، ٢ ص ٢٢٧ س ١٠ .

عمرو بن العاص[١] وشُرَحبيل[٢] بن حَسنة نحو قضاعة ؛ كما أن[٣] خالداً حينما ترك العراق إلى الشام استولى فى طريقه على دَومَة الجَندل ، التى قد تكون آخر من سلم لنفوذ المدينة .

كل هذه الحملات التى وجهت نحو المرتدين فى أنحاء الجزيرة انتهت بنجاح ، وساعد على ذلك عدم اتحاد القبائل المرتدة فى حلف واحد ؛ بسبب طبيعتها البدوية التى لم يكن من الممكن أن تتخلص من العصبية ؛ وذلك على عكس الأمة الإسلامية الواحدة ، التى تربطها صلة الدين وذكريات الجهاد فى سبيله . فانتهز أبو بكر هذه التفرقة وطعنهم قبيلة قبيلة[٤] ، معتمداً على قواد مهرة . هذا فضلاً عما امتاز به هذا العجوز المحنك وقواده من الحزم والتصميم فى قتال المرتدين : وذلك بحرقهم[٥] بالنار ، وقطع[٦] أيدى وأرجل بعض النساء المرتدات ، والرجم بالحجارة ، ورميهم من الجبال ، وتنكيسهم فى الآبار ، وتخزيقهم بالنبال[٧] ؛ وحتى بسبى النساء والذرارى . وكان نتيجة ذلك أن بسطت المدينة سيطرتها على ربوع الجزيرة العربية ؛ ولذا كانت هذه الجزيرة فى عهد أبى بكر تعتبر بحق وحدة سياسية لا تتخللها جيوب المقاومة ، وهى الوحدة التى تكونت لأول مرة فى تاريخ الجزيرة القديم ، بحيث تحول العرب إلى اتباع زعيم واحد يسيرون خلفه . وكان انتصار أبى بكر على المرتدين هو انتصار الاسلام على الشعور القبلى ، ومعناه أيضا أن نشرت صفحة جديدة فى تاريخ العرب .

---

(١) الطبرى (Annales) ١ : ١٨٨٠ ؛ ٢٠٨٢ ؛ انظر . Caetani : Ann. dell'Isl an. 12 no. 367 ؛ Cheira : La Lutte, p. 28 عن عمرو بن العاص ، انظر . قبله .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٣٤ س٩ . هو منسوب إلى أمه . انظر . المعارف ، ص ١٦٥ .

(٣) البلاذرى ، فتوح ، ص ٦٢ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٤٩ — ٢٥٠ ؛ ٢٥٢ — ٢٥٣ .

(٥) نفسه ، ٢ ص ٢٣٦ س ١٨ .

(٦) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٠٢ س ١١ — ١٢ .

(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٣٦ س ١٨ — ١٩ .

هذه القوة العربية التي أوجدها ووحدها تصميم أبي بكر سرعان ما انتشرت على الأرض، واستطاعت في سرعة البرق الخاطف الإطباق على البيزنطيين[1] والفرس[2]، وهما أكبر دول العالم آنئذ، بسرعة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً من قبل، وأصبح لقب «خليفة» مساوياً لقب «Imperator[3]» البيزنطي فما السر في ذلك؟.

فلعل ذلك راجع إلى أن جيران العرب الأقوياء من بيزنطيين — وهم ورثة الرومان — في شمال الجزيرة العربية، والفرس في شرقها، كانا قادرين في أيام قوتهما أن يحجزا العرب في بلادهم، ولكن الخصومة الشديدة التي كانت بينهما قد أدت إلى ضعفهما. وهذه الخصومة بين الفرس وكل من يسود في منطقة البحر الأبيض تأصلت منذ قديم الزمان، وكأنها عداء طبيعي بين الشرق والغرب، فظهرت بين دول الفرس: الاكينيين[4] والبارثيين[5]

---

(١) تنسب هذه الدولة إلى مدينة بيزنطة القديمة، التي أنشأها اليونان في ٦٥٢ ق.م، قرب البسفور، وهي التي اتخذت منذ ٣٢٦ م اسم القسطنطينية، نسبة إلى قسطنطين (Costantinus) مؤسس الدولة الرومانية المسيحية في الشرق، بعد أن زالت دولة الرومان الوثنية نتيجة لهجمات البرابرة. انظر. Runciman : La Civilisation byzantine 330 — 1453. trad, Lévy. Paris 1952, p. 9 — 14.
ولكن هذه الدولة كانت تعرف للعرب باسم دولة «الروم». القرآن ٣٠ : ١ ؛ الأزدي، فتوح الشام، طبعة كلكتا ١٨٥٤، ص ٣٠ ؛ انظر. بعده.

(٢) انظر. ما يلي.

(٣) نقصد بهذا اللقب هنا ملك على عدة بلاد ؛ وإن كان أصله من كلمة «Imperium» بمعنى السلطة. انظر. Homo : Roman Political Institutions. London 1929, p. 217 ; 220.

(٤) سعيد بن بطريق، ١ ص ٧٤ ؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ١٨٣ س ١٠. وهي تسمى أيضاً الكيانية، وهو اسم يوناني محرف عن الاسم الأصلي : هخامنشية (أي الدولة العظيمة)، وهذه الدولة حكمت في إيران من ٥٥٨ ق.م، إلى أن قضى عليها الاسكندر الأكبر حوالي ٣٣١ ق.م. Huart et Delaporte : L'Iran Antique, p. 345 sqq. ; Aymard : La civilisation iranienne. Paris 1952 p. 48. ؛ انظر. بعده.

(٥) سميت بالبارثيين نسبة إلى المكان الذي ظهرت فيه، وهو شرق إيران الذي كان يعرف ببارث (خراسان الحالية) ؛ كما أنها سميت أيضاً بالاشكانيين أو بالارشكانيين. وهذه الأخيرة نسبة إلى «ارشك» مؤسس دولتهم، وقالوا إن هذا اللقب اتخذوه لأنفسهم لأنهم =

والساسانيين[(١)] من ناحية، وبين سكان المدن اليونانية والسلوقيين[(٢)] والرومان وأخيراً البيزنطيين من ناحية أخرى. وقبل ظهور الاسلام انتهز ملك فارس خسرو الأول المسمى أنوشروان (٥٣١ — ٥٨٩) حدوث نزاع[(٣)] بين عرب الحيرة وعرب الغساسنة فهجم على أملاك البيزنطيين فى عهد الامبراطور جستنيان[(٤)] (٥٢٧ — ٥٦٥)؛ فاستولى على أجزاء كثيرة من الشام والجزيرة[(٥)]، بحيث أنه استمر يحارب أكثر من اثنى عشر عاماً، فلما قل الرجال أدخل النساء[(٦)] فى الجيش. ولكن مالبث أن دخل جيش بيزنطى بقيادة الامبراطور موريس — يسميه العرب[(٧)] مورق — فى فارس، ليساعد أبرويز خسرو الثانى (٥٩٠ — ٦٢٨)، الذى قتل والده هرمز[(٨)] الرابع، واستولى على العرش. ولكن بعد قتل موريس نجد خسرو الثانى يقلب للبيزنطيين

= يصلون نسبهم بالدولة الأكمينية، فيقولون إنهم من سلالة أرشك بن أردشير الثانى. (انظر. حسن بيرنيا، إيران قديم، طهران ١٣١٣ هـ.ش، ص١٢١ وما بعدها؛ L'Iran Antique p. 321). ويسمى العرب البارثيين باسم دولة الطوائف، لكثرة ملوكها؛ وهى استمرت من ٢٤٧ ق.م إلى ٢٢٤ م. انظر. اليعقوبى، تاريخ، ١ ص ١٧٩ ص٤ — ٥؛ انظر بعده.

(١) نسبة إلى جد مؤسسها «اردشير» واسمه ساسان، وكان من رجال الدين؛ وهى استمرت من ٢٢٤ م حتى مجىء الإسلام. أبو الفدا، المختصر، ١ ص ٤٧؛ انظر. Civil. Iran, p. 120 : Grousset ; Op. cit, p. 341 sqq. : H. et Del

(٢) هو اسم الأسرة أو الدولة التى تنسب إلى القائد اليونانى Seleucos، الذى حكم فى شمال الجزيرة بعد موت الاسكندر الأكبر، واستمرت من ٣١٢ ق.م إلى ٨٤ ق.م. انظر. Grousset ; Histoire des Lagides, Paris 1934, p. 43 : Bevan : Civil. Iran, p. 88

(٣) انظر. الثعالبى، غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، تحقيق Zotenberg، ص ٦٠٥ — ٦٠٦.

(٤) يسميه المؤرخون العرب أحيانا يخطيانوس. اليعقوبى، تاريخ، ١ ص ١٨٦ س ١٢.

(٥) اليعقوبى، تاريخ، ١ ص ١٨٦؛ انظر. Op. cit, : H. et Del p, 354 sqq.

(٦) يذكر Essad Bey ذلك فى كتابه : Mahomet, Paris 1948, p. 36 ; Op. cit. 354 — 5 : H. et Del

(٧) اليعقوبى، تاريخ، ١ ص ١٩١. اسمه باللاتينية هو Mauricius انظر. بل، مصر، ص ٢٥٢.

(٨) انظر. Op. cit, p. 356 — 7. : H. et Del

ظهر المجن ، ويغزو فى آسيا الصغرى والجزيرة وسورية وفلسطين ومصر[1]. وتبع ذلك هجوم الجيش البيزنطى لاستعادة المستعمرات المفقودة بقيادة هرقل[2] (٦١٠ — ٦٤١) ، فى سنة ٦٢٢ . وقد كان لهذا الصراع صدى فى القرآن[3] ، بحيث أنه لدينا سورة تسمى : « سورة الروم » ، ذُكر فيها غزو الفرس ، والتنبؤ بغلبة الروم . فكأن هذه الخصومة قد رسمت للدولتين بيدها الهلاك[4] ، بحيث أن الحاجز الشمالى والشرقى لم يجد مقاومة من جانب أمة العرب الفتية المتحدة على يد أبى بكر .

ولكنّا لا نوافق بعض المستشرقين[5] فى قولهم : إن العرب كانوا مدفوعين نحو الفتوح بالحماس الدينى ، وإن الحروب التى قاموا بها تعتبر حروباً دينية . فنحن لا نظن أن العرب — ومعظمهم من البدو — كانت تسودهم الروح الدينية والرغبة فى نشر الاسلام ؛ فقد رأينا كيف انتقضت العرب ، وأنها لم ترجع إلى الاسلام إلا بحد السيف . ومهما تكن البواعث الدينية قوية عند الخلفاء وبعض أتقياء المسلمين فى المدينة ومكة ؛ فإنه من غير الممكن أن يخرج البدوى — وهو الذى لا يهتم[6] بالدين — لنشر الاسلام . بل جاء القرآن بنص صريح فى حرية العقيدة: ﴿لا إكراهَ فى الدين ٢ : ٢٥٦﴾[7] . ولا تمام هذه الحرية لم ينص على وجود طبقة كهنوتية[8] ، كما جرى العرف منذ أن وجدت الأديان ؛ فالاسلام دفع بالحرية

---

(١) الدينورى ، الأخبار الطوال ، طبعة مصر ، ص١٠٦ فما بعدها ؛ سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، ١ ص ٢١٦ ، ٢١٨ ؛ انظر . بل ، مصر ، ص ٢٥٤ .

(٢) المسعودى ، التنبيه والاشراف ، تحقيق De Goeje ، طبعة Brill ، ١٨٩٣ ، ص ١٤٧ ؛ انظر . بل ، ص ٢٥٤ ؛ Seston : Civil. Iran, p. 137.

(٣) انظر ، سورة (٣٠) مكية .

(٤) انظر . Gibbon : Decline, 5 p. 207

(٥) انظر . Ivring : Lives of Mahomet and his Successors, Paris 1850, p. 174.

(٦) انظر . Caetani : Studi di Storia Orientale, Milano 1911, I, p. 365sqq.

(٧) انظر أيضاً القرآن ١٠ : ٩٩ .

(٨) انظر . Gold : Le Dogme. p. 29 sqq.

الإنســـانية خطوات . ولا ريب أن المسلمين الذين ذاقوا الأمرين من الكفار فى عقيدتهم؛ لا يمكن أن يجبروا غيرهم على اعتناق دينهم؛ هذا بالاضافة إلى أن الكتب التى كتبها النبى[١] أو قواد[٢] الفتوح مع غير المسلمين ، فيها تأمين على الحرية الدينية . أما « الجهاد » الذى ورد فى القرآن[٣] أو على لسان[٤] أبى بكر، وأصبح عند بعض المذاهب[٥] ركناً من أركان الشريعة ، فهو لم يكن يعنى فى أى وقت غير الدفاع عن الإسلام ومحاربة أعدائه ، وليس اطلاقاً تحويل الناس إلى الاسلام . بل على العكس جاء الاسلام فى وقت ليس فيه حرية للعقيدة فى كل أجزاء المعمورة ، بل اضطهاد وتعذيب ؛ فقد كانت الدولة البيزنطية تفرض مذهبها الرسمى[٦] على أهالى مستعمراتها فى سورية ومصر ، ومن لا يقبله لا يتعرض فقط للأذى ، وإنما تنسب إليه تهمة الخروج[٧] على الدولة ؛ بل إن هذه الدولة حينما اعتنقت المسيحية — بعد الرومان الوثنيين — كانت تجبر اليهود[٨] فى بيت المقدس على التنصر أو القتل . وحتى فى فارس نجد أن الدولة الساسانية كانت تقاوم بالقتل والتعذيب كل حركة إصلاحية[٩] دينية .

---

(١) انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٣٢ و ٣٤ — ٣٦ ؛ انظر . قبله .

(٢) انظر مثلا صلح خالد مع أهل الحيرة المسيحيين . أبو يوسف ، الخراج ، ص ٨٤ — ٨٥ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢١٨ — ٢٢٠ ؛ انظر . بعده .

(٣) القرآن ٩ : ٨١ .

(٤) ابن هشام ، ٢ ص ١٠١٧ .

(٥) دعائم الاسلام ، ١ ص ٣ ؛ انظر . Lammens : L'Islam, Beyrouth 1941, p. 82.

(٦) نقصد به المذهب المعروف باسم « الملكانى » ، وهو مأخوذ من لفظة « مالك » ، ولعل أصل هذه التسمية سريانية . بتلر ، فتح العرب لمصر ، ترجمة فريد أبى حديد ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٣٤ هامش (٢) ؛ بل ، مصر ، ص ٢٢٨ هامش (١) .

(٧) انظر . Thoumin : Histoire de Syrie 2ed, p. 155.

(٨) سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، ١ ص ١٣٣ س ١ — ٢ .

(٩) فمثلا قتل مانى ومزدك ، وكلاهما كان من المصلحين الدينيين . انظر . بعده .

ومع ذلك فإن بعض الباحثين يرون أن الفتوح تفسر على أنها هجرة[١] عربية ؛ خصوصاً وأنه سبق أن خرجت هجرات من داخل الجزيرة نحو المناطق الخصبة المحيطة بها ، بحكم أن المناطق الخصبة تجذب البدو إليها ، مثل: هجرة[٢] العاموريين والكنعانيين والآراميين والعبرانيين والفلسطينيين والاسرائيليين : بحيث كانت شبه الجزيرة أشبه بمستودع للجنس السامى ينساب من حين إلى حين . وقد زاد من مصائب الجزيرة قبل ظهور الاسلام بعدة قرون ، اختلال نظم اليمن الزراعية ؛ بحيث حدثت هجرات يمنية عديدة نحو بادية الشام والخليج الفارسى ، بعضها كان يخضع لفارس ، وبعضها الآخر للدول التى سادت فى البحر الأبيض كاليونان والرومان وأخيراً البيزنطيين . ومع ذلك فليس لدينا ما يدل على أن حركة الفتح العربى سببها الجفاف[٣] أو حتى الجوع[٤] — وان كان البيزنطيون[٥] يظنون ذلك — كما أن المستشرق كيتانى « Caeta i » يميل إلى تفسير دوافعها الأولى بقصد[٦] الغارة .

كذلك لا نعتقد أن العرب حصلت على سلاح جديد أرادت تجربته ، بحيث كان عاملاً حاسماً فى حدوث الفتوح . فنحن نعرف أن الحرب عند العرب كانت فطرية ، فكل قبيلة تحارب على حدة ملتفة حول زعيمها[٧] ، حيث ينشروا راية[٨] .

---

(١) انظر . Caetani : Studi di Storia Orientale, Milano 1911, 2 : 831 — 861 p. ؛ ارنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم وعابدين والنحراوى ، الجيزة ١٩٤٧ ، ص ٤٧ .

(٢) انظر . Huzyyin : Arabia and the far east, p. 7 ؛ انظر . Driot et Vand. : Les Peuples, p. 403 ; 421 ; 521

(٣) انظر . Huzyyin : Arabia, P. 7.

(٤) O'Leary : Islam at the Cross roads. London 1923 p. 2

(٥) الواقدى ، فتوح الشام ، طبعة Calcutta ، ١٨٥٤ ، تحقيق W. N. Lees ، ١ ص ٩ .

(٦) انظر . Caetani : Annali. ann. 12. no. 305 — 312 ; ann 14, no 95 — 96. ؛ Cheira : La Lutte, p. 31 — 32.

(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ١ ص ٣٨١ .

(٨) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٤ .

أو مايعرف «باللواء[١]» ، وهم يبقون على النساء[٢] معهم فى المؤخرة لتشجيع المقاتلة وإثارة غيرتهم عليهن ، إذ هن «العرض» كما بينا ، وقد يصطحبون معهم الشاعر[٣] الذى يستثير همم الأبطال . أما خططهم فى القتال فتكون بالكر والفر[٤] ، أو الزحف بالصفوف ؛ ويقوم المقاتلون[٥] بالطعن بالرماح والرمى بالنبال والضرب بالسيف . ولا ريب أن العرب ستعرف عند التقائها بالجيوش البيزنطية والفارسية خططاً[٦] جديدة ، وتوزيعات للمقاتلة أسهل فى الحركة . أما آلات حربهم فكانت أقل جودة من آلات الحرب عند أعدائهم[٧] ، وقليـــــل من العرب كان يلبس الدروع ، كما كان أكثرهم عراة[٨] ؛ ولكن العرب حينما شاهدوا أسلحة غيرهم لم ينتظروا إلا قليلاً حتى كانت لهم مثل هذه الأسلحة[٩] من خوذ ودروع ... الخ . أما الابل وهى الحيوانات الصبورة والسريعة[١٠] ، فقد كانت معروفة عند أعدائهم ؛ هذا فضلاً عن أن هؤلاء كانوا يملكون عدداً كبيراً من الخيل ، التى كان وجودها يعتبر عنصراً فعالاً فى الحرب القديمة .

وأخيراً أكبر الظن أن الدافع إلى هذه الفتوح يرجع على الخصوص إلى ارتفاع معنويات العرب بالدين الجديد . وقد لاحظ ابن خلدون — كما جاء فى مقدمته[١١] —

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ص ٣٨١ س ٦ — ٧ ؛ النويرى ، ٦ ص ١٦٨ س ٧ .
(٢) الواقدى ، فتح الشام ، ٢ ص ١٢٠ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ١٩٢ .
(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٤ س ٨ — ١٠ .
(٤) نفسه ، ص ٢١٤ .
(٥) الأزدى ، فتوح الشام ، ص ١١٥ ؛ انظر Huart : Hist. des Arabes. Paris 1912, I, p. 34
(٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢١٥ — ٢١٦ . كتقسيم الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب وجناحين وساقه إلى غير ذلك من التعابير التى تدل على تطور خطط القتال .
(٧) ومع ذلك فقد عرفوا بعضها ، بحكم صلة الجوار مثل المجانيق ؛ فالنبى نصب على أهل الطائف منجنيقا . انظر قبله ؛ النويرى ، ٦ ص ١٦٥ .
(٨) الواقدى ، فتوح الشام ، ١ ص ٦٢ ؛ ١٢٤ ؛ ١٣٨ .
(٩) نفسه ، ١ ص ١٣٨ ؛ الأزدى ، ص ٢٢٩ .
(١٠) انظر Herodotus .7 86 (vol 3, p. 393)
(١١) المقدمة ، ص ١١٩ — ١٢٠ .

أن العرب لا يحصل لها الملك إلا بظهور نبوة أو أثر عظيم من الدين ؛ وذلك لأن بيئتهم كانت تدفعهم إلى التطاحن والفردية ، وأن سلطة الدين وحدها هي التي تتمكن من نفوسهم المتوحشة ، وتعمل على تأليف قلوبهم ، وبذلك يحصل لهم التغلب والملك. والواقع أن ظهور الاسلام بين العرب، كان من شأنه أن أوجد بينهم رابطة الدين التي تسمو على الرابطة القبلية . وقد كان القرآن من جانبه يثير فيهم الاحساس بالكرامة[١] ، بقوله مثلاً : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ٣ : ١١٠﴾[٢] . ومن ناحية أخرى كانت الثقة في الجنس العربي قد بدأت تظهر حتى قبل الإسلام ، وذلك حينما خرج جيش الحبشة بقيادة أبرهة[٣] مهزوماً من مكة ؛ كما نسمع أن العرب تحدت ملك فارس ، واشتبكت مع جيوشه في موقعة ذي قار[٤] ، التي انتصروا فيها . ولكن العرب التي قويت معنوياتها بالاسلام ، وتوحدت بعد حرب الردة ما زال بعضهم تحت سيطرة بيزنطة في بادية الشام ، والبعض الآخر تحت سيطرة الفرس في بادية العراق ، أو في منطقة الخليج الفارسي؛ وها هي الفرصة سانحة لأبي بكر في أن يلم شمل العرب جميعاً ، أو يحوّل[٥] من لم يسلم منهم إلى الدين العربي، كما فعل بالنسبة لعرب الجزيرة ، مما يكون قد جر إلى حركة الفتوح ، خصوصاً وأن النبي وضع بذور هذه السياسة ، حتى أنه قام بنفسه بغزوة تبوك[٦] ، بل ان سورة براءة[٧] نزلت لتؤيد هذه السياسة .

---

(١) انظر . ارنولد ، الدعوة ، ترجمة حسن ابراهيم وغيره ، ص ٣٤ .

(٢) انظر أيضاً القرآن ٤٣ : ٣ .

(٣) انظر قبله .

(٤) انظر قبله .

(٥) انظر. Caetani : Annali, ann. 12 no305 ؛ Cheira : La lutte, p .31

(٦) انظر قبله .

(٧) انظر . القرآن سورة ٩ ؛ انظر . قبله .

على العموم ما أن انتهى خالد بن الوليد من حروبه مع المرتدين فى البحرين حتى طلب منه الخليفة أبو بكر السير[١] إلى « العِـرَاق[٢] » ، أو ما يعرف فى ذلك الوقت باسم «السَّوَاد[٣] » ؛ لـكثرة زرعه ونخيـــله وأشجاره : وهو يشمل النصف الجنوبى من دجلة والفرات الممتد حتى الخليج الفارسى ، والذى يتاخم أرض العرب حيث توجد بادية « السَّماوَة[٤] » .

وقد كان يسكن العراق عدة عناصر منها : عناصر فارسية « عجم[٥] » أتت إليه من ايران ، وعناصر آرامية أو سريانية[٦] ، انتقلت إليه منذ قديم الزمان من داخل الجزيرة وما لبثت أنْ دخلت فى جملة الفرس وهم ما يعرفون « بانباط[٧] السواد » أو العراق ؛ لتمييزهم عن نبط الشام ، وأخيراً عناصر عربية من قبائل تنوخ[٨] وبكر[٩] ، كانت تسكن البادية على الخصوص .

ومنذ قديم الزمان ، وقد نشأت فى العراق دول عــديدة ، أشهرها مملـكة

(١) الطبرى (Annales) ١ : ٢٠١٦ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، س ٢١٧ .

(٢) لعل هذه التسمية آتية من « العروق » ، للدلالة على كثرة شجره . انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ س ١٣٣ فما بعدها ؛ انظر . Ency. de l'Isl, t2, p. 546

(٣) سمى هكذا لخضرته ، وذلك على عكس جزيرة العرب الصفراء التى لا زرع فيها ، خصوصاً إذا نظر إليه من بعد . انظر . معجم البلدان ، ٥ س ١٥٩ ؛ Ency de l'Isl. t 2, p. 546 ؛ Le Strange : The Lands of the Eastern Caliphate. Cambridge 1930, p. 24.

(٤) معجم البلدان ، ٥ س ١٣٠ . هى الأراضى التى بين الـكوفة والشام .

(٥) الـكامل ، ٢ س ٢٦٥ ، س ٢ ؛ ٢٦٨ س ٩ .

(٦) المسعودى ، التنبيه والاشراف ، س ٧٨ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ س ٣٧٩ س ٤ ؛ ابن صاعد الأندلسى ، طبقات الأمم ، بيروت ١٩١٢ ، س ٦ .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، س ١٠٣ س ١٢ — ١٣ ؛ المسعودى ، التنبيه ، ص ٣٦ ؛ ٧٨ .

(٨) معجم البلدان ، ٣ س ٣٨٠ .

(٩) الـكامل ، ٢ س ٢٦٤ .

بابل[١] « Babylonia » الآرامية ، التى عرفت للعرب باسم « كلدة[٢] » ، وملوكها باسم « النماردة[٣] » . ولكن منذ أن ظهرت فى فارس الدولة الاكينية، وهى التى استطاعت أن تقضى على مملكة بابل[٤] فى ٥٣٩ ق . م ، فإن العراق كان يخضع لنفوذ دول الفرس فى إيران . وقبل الاسلام بعدة قرون نجد أن الفرس شجعت عرب البادية المجاورين لهم على تكوين مملكة الحيرة[٥] على حدودهم ؛ لتمنع غارات البدو من داخل الجزيرة العربية ، بحيث سيعرفون « بالعباد[٦] » لطاعتهم الفرس ؛ ولكن مالبث هؤلاء أن خافوا منهم ؛ بعد أن اعتنق سكان الحيرة المسيحية على المذهب النسطورى[٧] ، فاخضعوهم[٨] لسلطانهم نهائياً ، وبثوا فى بلادهم الحاميات فى « حصون[٩] » أو « قصور[١٠] » ؛ كما أن أغنياء الفرس المسمون « دهاقين[١١] » ، أصبحوا يملكون معظم الأراضى الخصبة فى السواد .

ونحن لا نعرف السبب الذى من أجله أقدم العرب على مهاجمة العراق ، وهل كان ذلك بناءً على خطة مدبرة فى المدينة بسبب ارتفاع معنويات العرب بالدين

---

(١) ابن صاعد الأندلسى ، طبقات الأمم ، ص ٦ .

(٢) سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٨ س ١٣ . الكلدانيون هم أهل بابل ، ويظهر أن هذه الكلمة سريانية . التنبيه ، ص ٧ و٣٥ .

(٣) التنبيه ، ص ٣٦ .

(٤) سعيد بن بطريق ، ١ ص ٧٤ ؛ انظر . La Civil. Iran, : Beneviste p.45.

(٥) انظر . قبله .

(٦) معجم البلدان ، ٣ ص ٣٨٠ ؛ انظر . حسن ابراهيم ، الدولة العربية ، ص ٤٣ . وقد سبق أن ذكرنا رأياً آخر بصدد هذه التسمية هو : إعتناقهم المسيحية . انظر التنبيه ، ص ٧ ؛ الشابستى ، ديارات ، ص ٢٣ ؛ انظر . قبله .

(٧) انظر . قبله .

(٨) التنبيه ، ص ٣٩ س ١٧ .

(٩) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٦٣ س ٦ .

(١٠) الدينورى ، الأخبار الطوال ،طبعة مصر ، ص ١١٥ .

(١١) هذه الكلمة أصلها فارسى « دهكان » من كلة « ده » أى قرية ، ثم عربت الى « دهقان » ، بمعنى مالك الأرض ، والجمع « دهاقنة » أو « دهاقين » انظر . Noldeke : Geschichte der Perser und Araber, p. 440 ؛ فان فلوتن ، السيادة العربية ، ترجمة حسن ابراهيم وزكى ابراهيم ، القاهرة ١٩٣٤ ، ص ٤٥ .

الجديد كما ذكرنا، والرغبة فى ضم عرب العراق إلى حظيرة الإسلام ؛ خصوصاً وأن الجيوش العربية المنتصرة بقيادة خالد كانت تحارب بجوارهم فى اليمامه والبحرين. ومن ناحية أخرى يدل الواقع على وجود عداء بين العرب والفرس ، بسبب أن هؤلاء طمعوا فى العرب ، وأخضعوا لهم معظم أطراف الجزيرة العربية فى البحرين[١] واليمن . كذلك كان ملوك الفرس يستعملون القسوة مع العرب : فمثلاً شهبور الثانى — أو سابور[٢] — (٣١٠ — ٣٧٩) يسمى « بذى الأكتاف[٣] » لكثرة ما قتل من العرب انتقاماً لوالده ، الذى يبدو أن العرب قتلوه[٤] ، أو أن خسرو الثانى (٥٩٠ — ٦٢٨) قتل ملك الحيرة النعمان[٥] ، مما جر إلى موقعة ذى قار ، التى انتصر فيها العرب على العجم . فكان إذن لابد من تسوية هذا الثأر القديم ؛ وقد رأينا القرآن[٦] يعلن سرور العرب برجوع الروم وغلبتهم على الفرس . ومن ناحية أخرى نعرف أن السهول الخصبة فى الدجلة والفرات كانت تجذب[٧] البدو دائما إليها من داخل الجزيرة، حتى أنهم سموها السواد لكثر زروعها.

مهما يكن من أمر فقد كانت مهاجمة خالد للعراق مفاجأة للحاميات الفارسية فيها ، خصوصاً وأن معظمها كان قد سحب إلى داخلية ايران ؛ بسبب اضطراب شئونها الداخلية . ولكن معلوماتنا عن خطة هجوم العرب فى العراق غير واضحة[٨] ؛ وإن كان من الجائز أن خالداً سار أولاً فى بعض أجزاء البادية ،

---

(١) انظر . قبله ؛ Massé : La Civil. Iran, p. 168

(٢) عن هذا الاسم Sapor. انظر L'Iran Antique, p. 343 ؛ انظر . قبله .

(٣) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ١٨٣ س ٣ ؛ الثعالبى ، غرر ملوك الفرس ، ص ٥١٩ ؛ انظر . قبله .

(٤) انظر . L'Iran Antique, p. 346

(٥) انظر . قبله ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Sâsânides) 4 p. 187

(٦) القرآن ٣٠ : ١ .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١١٩ ؛ انظر . Ency. de l'Isl .t 2, p. 549

(٨) الكامل ، ٢ ص ٢٦١ .

حيث سهّل فتحها وجود قبائل عربية فيها ، وأن قائداً آخر اسمه المثنى[١] بن حارثة الشيبانى كان يقوم بالغارة فيها قبل مجىء خالد ؛ وقد أمضى خالد مع رؤساء العرب معاهدات[٢] تؤمنهم على ديانتهم — التى كانت مسيحية فى الغالب — وإن أمرهم ببعض الواجبات كدفع الجزية[٣] ، وترك مساعدة الأعداء . ثم سار خالد فى منطقة السواد[٤] واستخدم السفن[٥] لعبور قنوات المياه الكثيرة المتفرعة من الفرات ، فاستولى على قريات[٦] عديدة ، وحصون كثيرة . ويظهر أن مقاومة الفرس فى العراق كانت شديدة ، مما جر إلى مواقع هامة منها : موقعة ذات السلاسل[٧] التى ترتب عليها الاستيلاء على : ميناء « الأُبُلّة[٨] » الهام على الخليج الفارسى ، وذلك على الرغم من أن الفرس ربطت نفسها فى السلاسل حتى لاتفر ، وأن معظم أهلها هربوا فى السفن[٩] ، وموقعة «الثِنى[١٠] » أو النهر — لعله أحد فروع الفرات — التى قتل فيها ثلاثون ألف فارس ؛ وموقعة « ألّيس[١١] » على الفرات، التى جرت فيها الدماء أنهاراً . وعلى العموم نجد نتيجة لهذه الانتصارات أن الدهاقين فى العراق أسرعوا بالتسليم إلى خالد من كل النواحى[١٢] ؛ وقد عومل

---

(١) نفسه ، ٢ ص ٢٦٢ س ٢ .

(٢) الطبرى (Annales) ١ : ٢٠٤٤ — ٢٠٤٥ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢١٨ .

(٣) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٣٣ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢١٨ .

(٤) تاريخ النسطوريين ، (فى P.O.) الجزء ١٣/٢ ، ص ٥٨٠ [٢٦٠] .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٦٥ س ١٨ .

(٦) الطبرى (Annales) ١ : ٢٠١٦ — ٢٠١٧ .

(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٦٢ .

(٨) معجم البلدان ، ١ ص ٨٩ — ٩٠ .

(٩) نفسه ، ٥ ص ٢٧ .

(١٠) نفسه ، ٣ ص ٢٥ ؛ الكامل ، ٢ ص ٢٦٣ .

(١١) الكامل ، ٢ ص ٢٦٤ — ٢٦٥ ؛ معجم البلدان ، ١ ص ٣٢٨ .

(١٢) الكامل ، ٢ ص ٢٦٨ س ٣ .

الفلاحون المجوس كالنصارى على أساس أنهم من أهل[١] الكتاب ، ففرضت عليهم الجزية[٢] . ولكن أبا بكر لم يترك قائده خالداً فى العراق ليستفيد من نصره فى مهاجمة فارس ، وإنما أمره[٣] بترك العراق فى يد القائد المثنى بن حارثة الشيبانى ، ليتقابل مع قوات كانت مرسلة لفتح الشام ؛ وقد كانت فتوح العراق أول فتوح فى الاسلام .

بعد العراق جاء دور الشَام أو ما يسميه العرب أيضا « الشأم[٤] » واليونان بسُورية «Syria[٥]» : وهو صقع كبير يمتد من شمال الحجاز إلى البحر الأبيض ، ومن الفرات إلى الديار المصرية ؛ فيشمل الأراضى الخصبة قرب الساحل التى تغذيها عدة أنهار أهمها : اليرموك[٦] ، والأردن[٧] ، و بَردَى[٨] والأرُند[٩] و قوَيق[١٠] . وأيضاً بادية واسعة تمتد حتى قرب الحجاز ومصر تعرف « بالبلقاء[١١] » .

وقد كان يسكن الشام عناصر أغلبها سامية ، جاءته باستمرار من داخل الجزيرة

---

(١) نفسه ، ٢ ص ٢٦٣ س ١٦ ؛ أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٥٥ ؛ انظر . بعده .

(٢) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٣٣ .

(٣) الطبرى ١ : ٢٠٧٦ ؛ انظر مجموعة الوثائق ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ ؛ الكامل ، ٢ ص ٢٧٩ س ٤ .

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، ٥ ص ٢١٧ . قيل فى هذه التسمية عدة أقوال منها : لأن الشام على يسار جزيرة العرب أو لأنه من شمال الأرض . انظر . نفسه ، ٥ ص ٢١٧ فما بعدها ؛ ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، المجلدة الأولى ، ص ٨ .

(٥) معجم البلدان ، ٥ ص ١٧١ ؛ ٢١٨ . أطلق الإغريق هذه التسمية على بلدة «صور» ثم عمت على البلاد الشامية كلها . انظر . Le Strange : La Palestine under The Moslems, London 1890, p. 14.

(٦) وهو يصب فى نهر الأردن . معجم البلدان ، ٨ ص ٥٠٤ .

(٧) وهو يصب فى بحيرة طبرية . نفسه ، ١ ص ١٨٥ فما بعدها .

(٨) وهو يمر بمدينة دمشق . نفسه ، ٢ ص ١١٨ — ١١٩ .

(٩) وهو فى شمال الشام يمر بحمص وحماة ، ويسميه العرب أيضاً بالعاصى لذهابه إلى الشمال بدل الجنوب . نفسه ، ١ ص ٢٠٦ ؛ ٦ ص ٩٦ .

(١٠) وهو يمر بحلب . نفسه ، ٧ ص ١٨٨ .

(١١) نفسه ، ٢ ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

العربية فى شكل موجات ضخمة منتظمة كالفصول[١] ، مثل[٢] : العامورين والكنعانيين والفينيقيين والآراميين والعبرانيين والفلسطينين والاسرائيليين والأنباط ، وأخيراً العرب اليمنيين من قبائل الضجاعم وكلب وغسان وعذرة وجذام وجهام ؛ حيث أن هذه قبل الإسلام كانت تكون معظم[٣] سكان الشام ، وتمتد فى جنوبه من دمشق حتى حدود الحجاز .

ومنذ قديم الزمان ، نشأت فى الشام دول عديدة نتيجة لهذه الهجرات ؛ ولكونه منطقة اتصال طمعت فيه الدول المسيطرة فى حوض البحر الأبيض ، مثل : المصريين القدماء والبطالة والرومان ، وأخيرا البيزنطيين ، الذين كانوا يعرفون للعرب باسم «الروم[٤]» . ومن ناحية أخرى كانت دولة الشرق الكبرى — فارس — تطمع فيه هى الأخرى ؛ ولذلك اكتسحته جيوشها[٥] عدة مرات ؛ وإن كان بقاؤها فيه غالباً لا يطول .

ومع ذلك ، فإنه كانت تظهر فى الشام من آن لآخر دويلات[٦] من سكانه لها كيان مستقل ؛ تقوم فيه بتشجيع الدولة المستعمرة ، لتقف حارسة لحدود أملاكها فى الشرق ، ضد غارات عرب الحجاز أو الفرس ، مثل[٧] : مملكة النبط وتدمر وأخيراً الغساسنة ؛ فكان هؤلاء يسمون :

---

(١) انظر . Nau : Les Arabes Chrétiens de Mésopotamie et de Syrie S. d. p. 31.

(٢) انظر . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٨٢ — ١٨٣ ؛ Driot et Vand : Peuples, pp. 403 ; 421 ; 521 ؛ Huzyyin : Arabia, p. 7. ؛ فيليب حتى ، تاريخ العرب ، ترجمة مبروك نافع ، الطبعة الثانية ١٩٤٩ ، ص ١٠ فما بعدها .

(٣) الكامل ، ٢ ص ٢٦٠ ؛ ٢٧٠ ؛ انظر . قبله .

(٤) القرآن ٣٠ : ١ .

(٥) انظر . قبله .

(٦) انظر . قبله .

(٧) انظر . قبله .

« روم العرب[١] » لمخالفتهم البيزنطيين . ويبدو أن حروب الفرس الأخيرة فى الشام ، وتغلب هرقل البيزنطى عليهم فى ٦٢٢ م[٢] ، جعل بيزنطة تشرف على الشام اشرافاً مطلقاً ، فقسمته أقساماً حربية عرفت باسم « Thema »[٣] ، وبثوا فيه الحاميات ؛ وهذا النظام هو الذى سيطبقه العرب فيما بعد وسيعرف عنـــدهم « بالجند[٤] » .

وقد كان ظهور المسيح فى الشام سبباً فى أن تحول أهله منذ عهد مبكر إلى الدين الجديد ؛ وساعد على ذلك أن الدولة البيزنطية — التى ورثت الرومان فى الشرق — جعلت المسيحية ديانتها الرسمية حوالى القرن الرابع الميلادى . ومع ذلك كان سكان الشام — الذين كان أغلبهم وقتئذ من العرب المتنصرة[٥] — يعتنقون المسيحية على أساس مذاهب مخالفة للمذهب البيزنطى أو ما يعرف بالملكانى[٦] ، بالنسبة إلى الاختلاف فى طبيعة المسيح ، مثل : المارونية[٧] فى شمال الشام واليعقوبية[٨] فى جنوبه ؛ وهذه الأخيرة كانت منتشرة فى مصر أيضا . كذلك تميزت المسيحية الشامية أيضا

---

(١) الطبرى (Annales) ١ : ٢١٠١ ؛ انظر . La lutte, p. 19 : Cheïra

(٢) انظر . بل ، مصر ، ترجمة عواد وعبد اللطيف ، ص ٢٥٤ ؛ انظر . قبله .

(٣) أومان ، الامبراطورية البيزنطية ، تعريب طه بدر ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ١٣١ — ١٣٢ ؛ Diehl et Marçais : Le Monde Orientale de 395 à 1081 2ed p. 223 ; 224.

(٤) جمعها « أجنـــاد » ، والتجنيـــد التجمع . ياقوت ، معجم البلدان ، ١ ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٥) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ١٢١ ؛ الكامل ، ٢ ص ١٩٢ س ١١ — ١٢ ؛ انظر . La lutte, p. 19 : Cheïra

(٦) انظر . Wright : Early Christianity in Arabia, London 1895, p. 181 ; Thoumin : La Syrie, p. 155 — 160 ؛ انظر . قبله .

(٧) نسبة إلى مارون راهب ظهر فى عصر الامبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢ م) قال بالطبيعتين للمسيح : إلهية وبشرية . انظر سعيد بن بطريق ، ١ ص ٢١٠ س ١٣ — ١٨ ؛ التنبيه ، ص ١٥٣ — ١٥٤ .

(٨) نسبة إلى يعقوب البرذعانى Jacobus Baradeus ، ومذهبه هو الأرثوذكسية (عن « الأرثوذكسية » ، سعيد بن بطريق ١ ص ١٤٦ س ١٥) أى أتباع الدين الصحيح ، وهولا يعترف إلا بطبيعة واحدة للمسيح ؛ وهذا المذهب كان مذهب المصريين أيضاً . انظر . ابن حزم ، الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ١ ص ٤٩ ؛ انظر . قبله وبعده .

بالرهبنة[١] التى لعلها جاءتها من مصر ، إذ ظهرت فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه فى مصر ؛ بحيث كثرت فى الشام الصوامع[٢] والديارات فى هذه المنطقة .

وفى الواقع أننا نستطيع أن نقول : إن حرب العرب ضد الشام بدأت منذ عهد النبي ، وذلك حينما أرسل حملة « مؤتة[٣] » التى التقت فيها عرب الحجاز بروم[٤] العرب فى أطراف الشام ، ثم اعداده بعث أسامة[٥] بن زيد قبل وفاته . وإن كنا لا نعرف قصد النبي من هذه الحملات ، إلا أننا نستبعد أن يكون ارسالها بقصد فتح الشام أو محاربة البيزنطيين[٦] ؛ وذلك لصغر أعداد هذه الحملات ، ولمشاغل النبي فى الحجاز التى لم تكن استقرت بعد . ولعل النبي كان يرمى من وراء ذلك إلى اشعار عرب الشام بظهور دولة عرب الحجاز وضرورة التحالف[٧] معها بحكم صلة العروبة ، أو لعله أراد تأديب قبائلها بسبب اعتدائها على الآمنين من سكان الحجاز . كذلك — فى أول الأمر — سار أبو بكر على أساس خطة النبي : فأرسل[٨] بعث أسامة بن زيد على الرغم من حاجة المدينة لهذا البعث فى الدفاع عن نفسها ، كما اتبع البعث بعدة حملات[٩] أخرى ؛ لإعادة عرب شمال الحجاز إلى الطاعة ، وبخاصة عرب دُومة الجندل[١٠] التى كانت تعتبر من تخوم[١١] الشام ، وتابعة لبيزنطة . ولكن

---

(١) ساويرس ، سير الآباء البطاركة (فى P. O) ١ ص ٤٩٨ .
(٢) الكامل ، ٢ ص ٢٢٧ .
(٣) نفسه ، ٢ ص ١٥٨ فما بعدها ؛ أبو الفرج الأصبهانى ، مقاتل الطالبيين ، ص ٦ فما بعدها ؛ انظر . قبله .
(٤) الطبرى ١ : ٢١٠١ ؛ انظر قبله .
(٥) الكامل ، ٢ ص ١٩٢ ؛ انظر قبله .
(٦) يستخدم المؤرخون الإسلاميون عادة كلمة « الروم » (الكامل ، ٢ ص ١٥٩ س ٣) ، ولكننا لا نظن بأن قصدهم كان البيزنطيين ، فمن سياق تاريخهم يبدو أنها حرب ضد روم العرب فى هذه المناطق . انظر . La lutte, p. 21. ; Cheïra
(٧) كما فعل مثلا فى غزوة تبوك ؛ انظر . قبله .
(٨) انظر . قبله .
(٩) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٣٤ ؛ انظر . قبله .
(١٠) البلاذرى ، فتوح ، ص ٦٢ ؛ انظر . قبله .
(١١) انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٤ ص ١٠٧ ؛ التنبيه ، ص ٢١٥ ؛ انظر . La lutte, p. 21. : Cheïra ؛ انظر . قبله .

من المحقق أن أبا بكر بعد أن انتهى من المرتدين فى الجزيرة وجه الحملات — هذه المرة — بقصد اخضاع عرب الشام للحجاز ، بدليل إرسال الحملات الأولى نحو جنوب[1] الشام على الخصوص . وإن كنا نجهل الأسباب المباشرة أو غير المباشرة لذلك ؛ فلعل الحوادث هي التى جر بعضها بعضاً ، وان نجاح الحملات الأولى ضد المرتدين من عرب الشمال جر إلى السير فى فتح الشام ؛ أو لعلها خطة مدبرة للغزو والفتح خصوصاً وأن حركة الفتوح كانت قد بدأت فى العراق ، وان لاحظنا أنها فى هذا القطر لم تتعد أيضا عرب العراق . ولكن « Caetani[2] » يرى أن الذى جعل أبا بكر يقدم على فتح الشام هو حدوث اتفاق بين عرب الروم وعرب الحجاز للغارة فى الشام — كما حدث فى العراق — وبخاصة أن بيرنطة كانت قد منعت الجعل السنوى عنهم ، بسبب ما حدث من اضطراب نتيجة لهجوم الفرس الأخير. ولكن أستاذنا شميرة[3] يرد على هذا الرأى بقوله إنه لم يصلنا ما يؤيد هذا الاتفاق إلا من الأسقف الأرمنى Sébèos (توفى حوالى القرن السابع الميلادى) الذى يتحامل على العرب ؛ وأنه على العكس كان هناك عداء واضح بين عرب الحجاز وعرب الشام استمر فى عهدى النبى وأبى بكر ، بل سنجد أن عرب الشام سيقاومون حملات أبى بكر مع حلفائهم البيزنطيين[4] .

على كل حال : لما استنفر[5] أبو بكر عرب الجزيرة لغزو الشام — وقد كانت هذه البلاد معروفة لهم ؛ بسبب تجارتهم فيها — جاءته أعداد كبيرة من جميع أجزائها[6] ، وبخاصة من اليمن وعلى رأسهم عكرمة[7] بن أبى جهل

---

(١) انظر بعده .

(٢) انظر . Annali, ann 12 no 309

(٣) انظر . La lutte, p. 30 ; 34 — 35

(٤) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ١٢١ .

(٥) انظر نص كتاب الاستنفار فى الأزدى ، ص ٥ — ٦ ؛ الواقدى ، كتاب فتوح الشام ، ١ ص ٢ — ٣ .

(٦) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٠٧ .

(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٧٦ ؛ انظر . قبله .

— بطل حروب الردة المعروف — فوجههم أبو بكر نحو الشام بقيادة عدد[١] من القواد أشهرهم ثلاثة عرفوا فى حروبهم مع عرب شمال[٢] الحجاز ، وهم : عمرو[٣] بن العاص ، وشرحبيل[٤] بن حسنة ، وأضاف إليهم يزيد[٥] بن أبى سفيان . وقد أراد الخليفة أن يكون زحف القواد الثلاثة من جهات متعددة : فسار عمرو بن العاص عن طريق «أيْـلة[٦]» أوساحل البحر الأحمر (القُـلزُم) نحو أرض فلسطين ، وسلك يزيد وشرحبيل طريق « تَبُـوك[٧] » أو البلقاء نحو شرق الأردن . وقد قوبل القواد الثلاثة بمقاومة[٨] ، وبخاصة من العرب المتنصرة فى هذه المنطقة ، وهم الذين كانوا فى عداء مع عرب الحجاز منذ عهد النبى ، مما جعلهم يطلبون المدد من المدينة ؛ وإن كانوا قد ثبتوا أقدامهم بنجاح فى جنوب الشام ؛ مما يؤيد أن محور سياسة[٩] أبى بكر فى هذه الفتوح كان ضم العنصر العربى الشامى إلى عرب الحجاز .

ولذلك يُرسل إليهم الخليفة المدد الذى توافد على المدينة، بقيادة أحد الصحابة ، هو أبو عبيدة بن الجراح ، الذى كان النبى يلقبه « بأمين الأمة[١٠] » ، وكأنه

---

(١) الأزدى ، ص ٤ — ٥ . (٢) انظر . قبله .

(٣) وهو القائد الذى كان قد أسلم مع خالد (المعارف ، ص ١٤٦) ، وأرسله أبو بكر لمحاربة قضاعة . الطبرى (Annales) ١ : ١٨٨٠ ؛ انظر . قبله. وقد شبه عمرو نفسه بسهم من سهام الله ، وأن أبا بكر هو الرامى . ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٧٦ .

(٤) المرجع السابق ، ٢ ص ٢٣٤ س ٩ ؛ انظر . قبله . وهو منسوب إلى أمه ، وهو أحد كتاب النبى . المعارف ، ص ١٦٥ ؛ انظر . الواقدى ، فتوح الشام ، (ملاحظات) Notes, p. 28.

(٥) كان أبوه هو الذى قاد المقاومة المكية ضد المسلمين ، ولكن النبى قربه بعد فتح مكة ، وفعل أبو بكر نفس الشىء ، فعينه قائداً لحملات الشام . انظر . ابن الأثير ، الكامل ، ٢ص ٢٧٦ ؛ انظر . قبله .

(٦) الواقدى ، فتوح الشام ، ١ ص ٢٢ س ٧ . وهى على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام . ياقوت ، معجم البلدان ، ١ ص ٣٩١ .

(٧) البلاذرى ، فتوح الشام ، ص ١٠٨ ؛ انظر . La lutte, p. 36 -7 : Cheïra

(٨) البلاذرى ، فتوح الشام ، ص ١٠٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل، ٢ ص٢٧٧؛ ٢٨٦.

(٩) انظر . La lutte; p. 37 : Cheïra

(١٠) ابن الأثير ، الكامل، ٢ ص ٢٢٠ س ١١ .

ينتظر على يديه حماية أمة الاسلام، والرفع من شأنها ؛ فخرج نحو البلقاء[١] فى اتجاه دمشق . وفى نفس الوقت أمر[٢] خالداً — قائده بالعراق — بالتوجه إلى الشام ، على أن تكون له القيادة[٣] العامة «أمير الأمراء[٤]» على جميع جيوش المسلمين . فما كان من خالد إلا أن أسرع بترك العراق صاعداً الفرات نحو الشام ، فاستولى فى طريقه على عدة بلاد — معظم سكانها من العرب — منها : عين التمر[٥] وقَرقيسيا[٦] ودُومَة الجنْدل[٧] وتدمر[٨] ، وظهر فجأة أمام دِمَشق[٩] . وكان عبور خالد الصحراء القفر إلى الشام من هذا الطريق دليلاً على عبقريته الحربية : وتنقل الرواية أنه لجأ إلى تعطيش[١٠] الجمال قبل مغادرته العراق وسقيها بالماء ، ثم شد أفواهها حتى لا تجتر ، وجنب الخيل وركب الجمال ، فكان كلما وصل إلى مكان ليس به ماء نحر بعض الجمال وشق بطونها وأخذ ما فيها من الماء ؛ ليسقيه للجنود والخيل .

وما أن وصل خالد قرب دمشق حتى علم بتحرك جيش كبير للروم ضد المسلمين ، فأمر[١١] جميع جنوده بالتجمع فى أجنَادِين[١٢] ، وهى بلدة قرب الرملة من أرض

(١) نفسه ، ٢ ص ٢٧٧ س ٢٠ ؛ البلاذرى ، فتوح ، ص ١١٢ ؛ الواقدى ، فتوح الشام ، ١ ص ٢٤ .

(٢) الطبرى (Annales) ١ : ٢٠٧٦ و ٢١١٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٧٩ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٣) الأزدى ، ص ٥٧ .

(٤) البلاذرى ، فتوح الشام ، ص ١٠٩ . كلمة أمير تعنى قائد . انظر . قبله .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٦٩ . وهى بلدة على سيف الصحراء قرب الفرات ، عرفت بكثرة تمرها . ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ٢٥٣ .

(٦) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١١٠ . وهى بلد على نهر الخابور أحد فروع الفرات ، معجم البلدان ، ٧ ص ٥٩ — ٦٠ .

(٧) الكامل ، ٢ ص ٢٧٠ ؛ انظر . قبله .

(٨) الواقدى ، فتوح الشام ، ١ ص ٤٤ .

(٩) الأزدى ، ص ٦٤ ؛ البلاذرى ، ص ١١٢ . وهى قصبة مدن الشام . معجم البلدان ، ٤ ص ٧٢ .

(١٠) الواقدى ، فتوح الشام ، ١ ص ٤١ .

(١١) الأزدى ، ص ٧٢ — ٧٣ .

(١٢) موضع من نواحى فلسطين . انظر . معجم البلدان ، ١ ص ٢٦ ، يظهر من سياق كلام الطبرى أنها قلعة ، انظر . (Annales) ١ : ٢٤٠٨ : Ency. de l'Isl. (art Adjnâdain) I, p. 144.

فلسطين ، حتى لا يؤكلوا لقمة سائغة وهم متفرقون . فقد أرسل هرقل من حمص[١] فى شمال الشام أخاه تيودور « Theodoros[٢] » — الذى سماه العرب « وردان[٣] » — على رأس جيش كبير يزيد عدده على مائة ألف[٤] من الروم والعرب المتنصرة[٥] (الأنباط)[٦] ، ومعه البطارقة والقسس والرهبان[٧] بالصلبان ؛ وقد سُلحوا بالأسلحة المعروفة فى ذلك الوقت : فكان القاتلة منهم يلبسون خفاف الحديد فى أرجلهم ، وهى مكفونة فى الدروع[٨] ، لا يُرى منهم إلا الحدق . وحينما وصل تيودوروس إلى أجنادين نظم جيوشه أمام العرب على أحدث ماهو معروف عند الروم من فن الحرب ، فوضع فارساً بين كل اثنين من المشاة[٩] : أحدهما ناشب والآخر رامح .

أما المسلمون الذين تجمعوا فى أجنادين فقد كان عددهم لا يزيد على ثلاثين[١٠] ألفاً من قبائل[١١] متعددة اتخذت لها رايات وألوية[١٢]، شعارها[١٣] عقيدة الاسلام:

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٧٨ س ١٤ . بلد مشهور بين دمشق وحلب فى داخل البلاد . معجم البلدان ، ٣ ص ٣٣٩ .

(٢) انظر . Sébêos : Histoire d'Héraclius. traduite de l'arménien et annotée par Macler, Paris 1904, p. 96 ؛ انظر . De Goeje : Mémoire sur la conquête de Syrie, 2ed. Leyde 1900, p. 35. ؛ Cheïra : La lutte, p. 39

(٣) الأزدى ، ص ٧٢ — ٧٣ . اختلف فى اسمه ، بسبب خلط مؤرخى العرب بين موقعتى أجنادين واليرموك — سنتكلم عنهما — فمثلا ابن الأثير يقول « تذارق » ، الكامل ، ٢ ص ٢٨١ س ٢٠ .

(٤) فتوح البلدان ، ص ١٣ ؛ انظر . Gibbon : Decline 5, p. 314 يقول الواقدى تسعين ألفا . انظر . فتوح الشام ، ١ ص ١٢٧ .

(٥) المرجع السابق ، ١ ص ٣١ ، ٥٣ ، ٩٨ .

(٦) هم غير أنباط السواد . انظر . قبله . (٧) نفسه ، ١ ص ٥٧ .

(٨) نفسه ، ١ ص ١١٠ .

(٩) الأزدى ، ص ١١٤ . (١٠) فتوح البلدان، ص ١٠٩ .

(١١) الأزدى ، ص ٧٧ س ٤ .

(١٢) الواقدى، فتوح الشام ، ١ ص ٣ . كان لخالد راية خاصة به اسمها العقاب . انظر. ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٨١ .

(١٣) الواقدى ، فتوح الشام ، ١ ص ٣٣ .

« لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وكانوا على عكس الروم منهم العراة[١] الحفاة ، الذين ليس عليهم غير السراويل ، وفى أيديهم أسلحة لاتصل إلى قوة أسلحة الروم ؛ وإن كان بعضهم من أهل اليمن يلبس الدروع والبيض[٢] (أى الخوذ) . وقد نظمهم خالد إلى فرق للرجالة : ميمنة وميسرة[٣] ، وجعل الفرسان وحدهم ليحاربوا على حدة ، وكان منهم من يمتطى الخيل أو الإبل[٤] . أما خالد نفسه ، فقد تعمم[٥] بعمامة صفراء ، واشتهر بحريرة حمراء حتى يراه الجميع .

ومع عدم تكافؤ العدد والسلاح من الجانبين ، فقد استطاع المسلمون أن يتغلبوا على الروم بشجاعتهم وارتفاع روحهم المعنوية بالدين الجديد : فتمكن المسلمون من قتل عدد كبير من الروم بلغ خمسين[٦] ألفاً فى هذه الموقعة، التى دارت رحاها فى جمادى[٧] الأولى من سنة ١٣ هـ (يوليو ٦٣٤) . وهذه أول وقعة عظيمة[٨] بين عرب الحجاز والبيزنطيين ، منذ أن ظهر الاسلام .

ولقد كان للانتصار فى « أجنادين » وقع عظيم ؛ بحيث اعتقد المسلمون أن هذا النصر من الله[٩] ، خصوصاً وأن العربى فى العهد الاسلامى الأول كان مستعداً لأن يقبل كل ما يحدث له على أساس أنه من الدين ، وأن النبى قد تنبأ[١٠] بالنصر. وقد استغلت المدينة هذا النصر استغلالاً كبيراً فى حث المسلمين على الجهاد[١١] ، بحيث

---

(١) نفسه ، ١ ص ٦٢ .
(٢) نفسه ، ١ ص ٣ س ٢١ — ٢٢ .
(٣) الأزدى ، ص ٧٦ — ٧٧ .
(٤) الواقدى ، فتوح الشام ، ١ ص ١٨ س ٨ .
(٥) نفسه ، ١ ص ١٢١ .
(٦) نفسه ، ١ ص ١٢٧ س ٢ .
(٧) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١١٤ .
(٨) الأزدى ، ص ٨١ س ١ .
(٩) الطبرى (Annales) ١ : ٢١٥٨ ؛ انظر . La lutte, p. 40sqq : Cheïra
(١٠) نفسه ١ : ٢٢٥٤ ؛ Ibid, p. 41 ; 42
(١١) الواقدى، فتوح الشام ، ١ ص ٣٤ ؛ انظر . La lutte, p. 41 : Cheïra

أنه أشعل الحماس فى عرب الجزيرة مما جعلهم يقبلون زرافات[١] على الشـــام ، وشجعهم على السير بدون تردد فى مشروع الفتح ، بل منهم من فـكر فى سكنى[٢] الشام نهائيا .

وعلى العكس كانت الهزيمة لاعدائهم الروم فى «أجنادين» طعنة غير منتظرة، بحيث لم يصدق هرقل أنهم «ليسوا بشراً[٣]» . ومع ذلك لم يتصوروا اطلاقاً بأن هزيمتهم فى «أجنادين» ستؤدى إلى القضاء على امبراطوريتهم فى الشرق، وانما اعتقدوا أنها محنة نزلت بهم من المسيح[٤] ؛ بسبب ما ارتـكبوه من الخطايا[٥] والذنوب ، وأنه من الممكن اصلاح الخطأ بالرجوع إلى المسيح .

* * *

توفى أبو بكر فى ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ١٣[٦] (٢٣ أغسطس ٦٣٤) بعد هذا الانتصار الرائع ، وذلك بعد أن قضى فى الخلافة حوالى سنتين (١١ – ١٣/٦٣٢ – ٦٣٤) ؛ وقد حافظ على الاسـلام من ردة العرب ، ووجه الجيوش نحو الفتوح ، مما يجعلنا نعتبره من أعظم مؤسسى الدولة الاسلامية بعد النبى . وكان على المسلمين أن يبحثوا لهم عن خليفة جديد ، ولـكن أبا بكر أخذ على عاتقه قبل موته اختيار خليفة لهم ؛ حتى يجنبهم الفُرقة فى هذه الظروف العصيبة ، فـكتب لعمر بن الخطاب — وهو الذى كان قد رضى[٧] عن طيب خاطر

---

(١) الواقدى ، فتوح الشام ، ١ ص ١٣١ .

(٢) نفسه ، ٢ ص ١١٨.

(٣) الأزدى ، ص ١٣٣ س ١ .

(٤) انظر . Sébéos : Op. cit, p. 97 ؛ انظر . De Goeje : Mém. p. 56 ؛ Cheïra : La lutte, p. 40

(٥) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ١١٢ .

(٦) ابن الجوزى ، كتاب تاريخ عمر ، صححه الهادى حسين ، القاهرة ، ص ٤١ س١ ؛ ابن الأثير، الـكامل ، ٢ ص ٢٨٧ ؛ انظر . Ency de l'Isl.(art Abu Beker,)I, p.84

(٧) انظر ما حدث فى السقيفة . ابن الأثير ، الـكامل ، ٢ ص ٢٢٠ فما بعدها ؛ هيكل ، الصديق ، ص ٦١ ؛ انظر . قبله .

أن يترك مقاليد الحكم له بعد موت النبي — عهداً[١] بالخلافة ، لقى قبولاً من جميع المسلمين .

فمارس عمر بن الخطاب حقه فى الخلافة بناءً على اختيار أبى بكر له ، لذلك تسمى فى أول الأمر : « خليفة خليفة رسول الله[٢] » ، أو حتى « خليفة أبى بكر[٣] » . ولكن ثبت بالتجربة تعقيد[٤] المخاطبة بهذا اللقب ، فتسمي عمر « بالخليفة » فقط . كما أنه أضاف إلى هذا اللقب لقباً جديداً متمشياً ومناسباً لعهد الفتوح ، هو لقب : « أمير المؤمنين »[٥] ، لأن الأمير عند العرب يقصد به من ولى[٦] جهة من جهات المسلمين ، أو سرية أو جيشاً ، والمؤمن هو المسلم الذى دخل الاسلام فى قلبه[٧] ، خصوصاً وأن العرب رجعت إلى الاسلام بعدارتدادها ، وخرجت للجهاد ؛ فكان عمر أول[٨] من يتسمى به ، وتوارثه الخلفاء من بعده ، لا يشاركهم فيه أحد .

فى الواقع أن مؤرخى العرب يبرزون شخصية هذا الخليفة كأعظم ما يكون فى جزيرة العرب وقتئذ لحماسه الشديد للاسلام ، ولموقفه الحاسم فى يوم السقيفة ، ولأنه أيضاً أبو حفصة زوج[٩] النبي . فما لاريب فيه أنه أشهر خلفاء المسلمين ، فعصر عمر يعتبر العصر الذهبي للاسلام ، ولم يحدث أبداً فى تاريخ الاسلام أن عهدين كمل[١٠] ثانيهما أولها ؛ كما حدث فى عهدى أبى بكر وعمر .

---

(١) انظر نص كتاب عمر . ابن الجوزى ، تاريخ عمر ، ص ٣٦ ؛ الكامل ، ٢ ص ٢٩٢ ؛ رفيق العظم ، كتاب أشهر مشاهير الاسلام ، ١ ص ١١١ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٩ س ١٦ .

(٣) ابن الجوزى ، عمر ، ص ٤١ س ١٦ .

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٩ .

(٥) نفسه . يبدو أن هذا اللقب كان مألوفاً عند العرب وقتئذ ؛ فقد كان سعد بن أبى وقاص أحد قواد جيوش العرب فى فارس يدعى بأمير المؤمنين أيضا . نفسه .

(٦) نفسه ، ابن حزم ، الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، طبعة مصر ١٣١٧ هـ ، ٤ ص ٩٠ .

(٧) هذه تستند أيضاً إلى القرآن : ﴿ قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ٤٩ : ١٤ ﴾ .

(٨) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٩ .

(٩) الكامل ، ٢ ص ٢١٠ ؛ انظر Ency. de l'Isl. t 3, p. 1051 وهى ماتت سنة ٢٦/٦٤٦ الكامل ، ٣ ص ٤٧ .

(١٠) انظر Cheïra : La lutte, p. 44

ولكن ما أن تولى عمر الخلافة حتى أمر بعزل[١] خالد بن الوليد من قيادة الجيش فى الشام ، وولى مكانه أبا عبيدة بن الجراح ، أحد قواد الحملة فى سورية . ويبدو أن عمر اتخذ هذه الخطوة لأنه كان قد غضب من أن خالداً سعى إلى تولية على[٢] بن أبى طالب بعد موت النبى . وإن كان من الجلى أن الرجال الأشداء[٣] يخشون الأشداء مثلهم، وعلى الأخص شخصية قائد مثل خالد: فاقىء[٤] الردة، وبطل « أجنادين » . ولم يخيب خالد أمل المسلمين فيه ، أو يعمل على انقسامهم ، فلم يعترض على عزله بل اذعن وعمل كجندى[٥] تحت قيادة القائد الجديد ، واستمر يقاتل مع المسلمين ولا يرجع[٦] إلى المدينة ، حتى توفى فى سنة ٢١ هـ[٧] (٦٤٢) بحمص[٨] . وفى الواقع لم يظفر قائد منذ الاسكندر بمركز يضارع مركز خالد ، بحيث أصبح اسمه شيئاً يدل على القوة والبطولة ، ويخوّف به الأعداء .

ومع ذلك فإن العرب سارت بخطوات سريعة نحو الاستفادة من نصرها فى اجنادين ، فقصد[٩] كل أمير إلى ناحية من الشام ليغزوها ويبثها غاراته : فعمرو قصد فلسطين[١٠] ، وشرحبيل الأردن[١١] ، وأبو عبيدة وخالد دمشق[١٢] ، ويزيد

---

(١) ابن الجوزى ، تاريخ عمر ، ص ٦٧ . اختلف فى تاريخ العزل ، فمثلا ابن الأثير يجعله تارة بعد اليرموك وقبل حصار دمشق ، (الكامل ، ٢ ص ٢٩٣) وتارة أثناء حصار دمشق قبل اليرموك (نفسه ، ٢ ص ٢٩٣) ؛ وهذه الأخيرة هى الأصح ، كما تؤيدها روايات المؤرخين القدامى مثل الواقدى والأزدى والبلاذرى . انظر مثلا . فتوح ، ص ١١٥ .

(٢) الكامل ، ٢ ص ٢٧٦ س ١ .

(٣) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ٦ . انظر نص خطاب عمر لأبى عبيدة .

(٤) الكامل ، ٣ ص ٧١ س ١٤ .

(٥) نفسه ، ٢ ص ٢٩٣ فما بعدها .

(٦) معجم البلدان ، ٣ ص ٣٣٩ .

(٧) الطبرى (Annales) ١ : ٢٦٤٥ ؛ انظر . Annali, an 21 : Caetani no 83 . يقول الذهبى انه توفى وله ستون سنة ولم يبق فى جسده نحو شبر إلا وعليه طابع الشهداء . انظر ، دول الاسلام ، ١ ص ٦ .

(٨) معجم البلدان ، ٣ ص ٣٤٠ س ١٥ — ١٧ .

(٩) نفسه ، ص ١١٦ .

(١٠) نفسه .

(١١) نفسه .

(١٢) الواقدى ، فتوح الشام ، ١ ص ١٣٣ .

الساحل[١] . ولكن امبراطور الروم أسرع بارسال[٢] جيوش جديدة وصلت حتى شرق الأردن ، مما جر إلى حدوث معارك هامة انتصر فيها العرب ، وهى : « فِحْل[٣] » (فى ذى القعدة ١٣ / يناير ٦٣٥) — قرب عمَّان[٤] من أرض الأردن — وهى التى مهدت لسيطرة العرب فى شرق الأردن ، و « مَرْجُ الصُّفر[٥] » (فى المحرم ١٤/ مارس ٦٣٥) — قرب دمشق[٦] — التى هيأت لهم الاستيلاء على دمشق[٧] نفسها ، وفتحت لهم طريق الغزو حتى جبال طوروس[٨] وحدود بلاد الروم .

هال هرقل انتصارات العرب المتتالية ، ووصولهم حتى حدود بلاده فى آسيا الصغرى ، فاستجاش[٩] الجند من كل شعوب امبراطوريته : من الروم والصقالبة والروس والأرمن ، وحتى من العرب المتنصرة — حلفائهم — بقيادة زعيمهم جبلة[١٠] ابن الأيهم الغسانى ؛ فاقبلوا على العرب فى جحافل عديدة[١١] كأنها الجراد ، بقيادة

---

(١) فتوح البلدان ، ص ١١٧ .

(٢) الأزدى ، ص ٩٤ و ٩٧ .

(٣) نفسه ، ص ٩٧ فما بعدها ؛ فتوح البلدان ، ص ١١٥ .

(٤) معجم البلدان ، ٦ ص ٣٤٠ . اختلف فى ترتيب سنوات هذه المعركة : فقيل إن فحل بعد فتح دمشق فى عام واحد (الكامل ، ٢ ص ٢٩٤ ؛ الأزدى ، ص ٩٤) ؛ ولكن الواقدى يرى انها قبل دمشق . (انظر . البلاذرى ، فتوح ، ص ١١٥ ؛ ١١٨) . ونحن أيضا نميل إلى هذا الرأى ، من سياق تواريخ المؤلفين .

(٥) فتوح البلدان ، ص ١١٨ .

(٦) معجم البلدان ، ٥ ص ٢٦٧ ؛ ٧ ص ١٦ .

(٧) فتوح البلدان ، ص ١٢٠ .

(٨) نفسه ، ص ١٣١ . استولى العرب على عدة بلاد منها : صيدا وجبيل وبيروت وبعلبك وحمص وحماة وشيزر ومعرة النعمان وفامية . انظر . نفسه ، ص ١٢٧ و ١٣٠ و ١٣١ .

(٩) سعيد بن بطريق ، ٢ ص ١٣ .

(١٠) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ١٢١ .

(١١) نفسه ، ٢ ص ١٢٤ . اختلف فى عددهم : فابن خلدون يذكر ٤٠٠ ألفا (المقدمة ص ١٢٥ س ٢٦) ، والأزدى ٣٠٠ ألفاً أو ٤٠٠ ألفا (الأزدى ، ص ١٣٤ ؛ ص ١٨٥) ، والبلاذرى زهاء ٢٠٠ ألفا (فتوح ، ص ١٣٥ س ٣) ، وابن الأثير ٢٤٠ ألفا . الكامل ، ٢ ص ٢٨١ .

« باهان »[١] ، الذى يظهر من اسمه أنه كان أرمنيّاً . ولم يكن قصد هرقل من ارسال هذا الجيش الجرار فقط طرد العرب من الشام ، وإنما أيضا غزو[٢] الجزيرة العربية ؛ وكأنه قدر مدى الخطر على بلاده من وجود العرب فى الشام، الذين لن يقنعوا[٣] به قط ، وإنما قد يسمون إلى غزو بيزنطة نفسها. وقد اصطحب الجيش البيزنطى — على عادته فى الحرب — القسس[٤] والرهبان ، الذين وضعوا الأناجيل على صدورهم ، وحركوا الصلبان والمباخر .

أما العرب الذين رأوا تحفز هذا الجيش للانقضاض عليهم،فقرروا الانسحاب إلى مكان يسهل منه ارسال المدد[٥] عبر الصحراء ، خصوصاً وأن عددهم كان أقل[٦] بكثير جداً من عدد عدوهم . ومع أن بعض العرب نصحت بالرجوع[٧] إلى الجزيرة وترك الشام ، فإن الأغلبية قررت البقاء فيه ، ولم ترهبها كثرة العدو : فقد سبق للعرب أن انتصروا فى اجنادين وفِحْل ومرج الصّفّر على الرغم من قلة عددهم ؛ هذا وأن المعارك على حسب اعتقادهم هى حكم[٨] من الله لهم أو عليهم. ولذلك قال[٩] خالد فى هذه المناسبة لسنا بمرتحلين « حتىّ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين » . أضف إلى هذا، أن أغلبية القاتلين العرب كانوا من البدو الفقراء ، فلم يرضوا أن يتركوا الشام الغنى ويرجعوا إلى جزيرتهم القاحلة، وها هى بعض عبارات[١٠] أهل الحجاز منهم : « وكيف ندع هذه الأعين المتفجرة،

---

(١) الأزدى، ص ١٣٤؛ سعيد بن بطريق، ٢ ص ١٤ س ١ . ويسمى أيضاً «ماهان».
(٢) انظر . Sébêos p. 96
(٣) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ١١٥ س ١٨ .
(٤) نفسه ، ١ ص ٥٧ ؛ ٢ ص ١١٣ .
(٥) نفسه ، ٢ ص ١١٩ .
(٦) يذكر البلاذرى عدد المسلمين ٢٤ ألفاً (فتوح ، ص ١٣٥ س ٧) ، وابن خلدون لجند الشام وفارس ٣٠ ألفا (المقدمة ، ص ١٢٥ س ٤ — ٥)، والأزدى ٣٠ ألفا (الأزدى ، ص ١٨٥) ، وابن الأثير ٤٦ ألفا (الكامل ، ٢ ص ٢٨١) .
(٧) الأزدى ، ص ١٣٧ ؛ ١٥٢ .
(٨) الواقدى ، فتوح الشام ، ١ ص ٦٣ س ٩ .
(٩) الأزدى ، ص ١٥٢ س ١٥ .
(١٠) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ١١٨ س ١٠ فما بعدها .

والأنهار والزرع والأعناب ، والذهب والفضة والحرير ، ونرجع إلى قحط الحجاز وجدوبة الأرض، وأكل الشعير ولباس الصوف» ولهذا قرر العرب التراجع — بناء على نصيحة[١] خالد — ونزلوا وادياً يعرف باليرموك[٢] يصب في نهر الأردن، ويصفه لنا الجغرافيون بأنه : سهل فسيح على سيف صحراء الأردن ، يصلح لأن يكون معسكراً لجيش كبير .

ولكن الجيش البيزنطى سار فى أعقاب الجيش العربى وعسكر هو الآخر فى ادى اليرموك بإزاء[٣] العرب ، وإن وصل إليه منهوك القوى[٤]. وقد أراد باهان بادىء ذى بدىء أن يستميل العرب بترك الشام ، بأن عرض عليهم المال[٥] ، والابقاء على اواصر الجيرة التى كانت فى الماضى بين الروم بينهم . ولكن العرب لم يرضوا بغير الحرب ، وبدأوا ينظمون صفوفهم استعداداً للقتال ؛ كما وضعوا النساء والأولاد على جبل[٦] خلف ظهورهم — على طريقتهم فى الحرب — وأخذوا يرقبون الجيش البيزنطى دون أن يستعجلوا الهجوم . وقد أفاد هذا التريث العرب لكثرة ما أتاهم من المدد[٧] الذى عبر الصحراء ؛ هذا فضلاً عن أنهم تمكنوا من استمالة[٨] العرب المتنصرة بقيادة جبلة، الذين كانوا فى صفوف الجيش البيزنطى ؛ فالعرب — ولا ريب — يميل[٩] بعضهم إلى بعض بحكم الجنس . ولما استعد المسلمون ، وضعف العدو بانسحاب العرب المتنصرة ، اختارت قيادة العرب

---

(١) نفسه ، ٢ ص ١١٩ س ١٤ .

(٢) انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٨ ص ٥٠٤ .

(٣) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ١٢٢ ؛ انظر . Theophanis : Chronographia ed Boor, p. 332 ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art al-Yarmûk) t4, p, 1223 .

(٤) انظر . Sébêos, p. 97.

(٥) الأزدى ، ص ١٨١ .

(٦) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ١٢٠ س ١٨ .

(٧) نفسه ، ٢ ص ١١٩ .

(٨) نفسه ، ٢ ص ١٢٨ ؛ البلاذرى ، فتوح ، ص ١٣٦ ،

(٩) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ١٢٤ س ١١ — ١٢ .

بحذق يوم هجومها : فى مساء يوم ذى ضباب[١] شديد ، غابت فيه الشمس وأظلم الأفق ، وعصفت الريح ، وسفت الرمال، هاجم العرب هم ونساؤهم[٢] البيزنطيين ؛ بحيث أن هؤلاء سادت بينهم الفوضى وأخذوا يتساقطون فى الوديان العميقة التى تجاور منطقة اليرموك ، حتى سقط منهم عدد كبير[٣] ، وتبعهم المسلمون يقتلون الأحياء منهم فى كل واد[٤] ، وفرت فلول جيوشهم نحو الشمال ؛ وقد دارت هذه الموقعة الحاسمة فى ١٥ من رجب من سنة ١٥[٥] / ٢٣ أغسطس ٦٣٦ .

وقد كانت موقعة اليرموك حاسمة تحمّل الروم فيها خسائر فادحة، فلم يستطيعوا بعدها أن يرسلوا حملة أخرى كبرى ، بل ينسب المؤرخون[٦] العرب وداعاً رمزيا من هرقل للشام عند هزيمة جيوشه هو : السلام عليك ياسورّية سلام مودّع لا يرى أنّه يرجع إليك أبداً : «Vale Syria et Ultimatum Vale» . وعلى العكس مهد النصر للعرب استعادة المدن السورية التى انسحبوا

(١) نفسه ، ٢ ص ٢٣٧ س ١٠ ؛ الأزدى ، ص ٢٠٧ س ١٣ .

(٢) الكامل ، ٢ ص ٢٨٤ س ٨ .

(٣) اختلف فى عدد القتلى من جانب البيزنطيين، يقول الواقدى أو الأزدى أنهم حوالى ١٠ آلاف (فتوح الشام ، ٢ ص ٢٣٩ ؛ الأزدى ، ص ٢٠٧) ، والبلاذرى ٧٠ ألفاً (فتوح ، ص ١٣٥ س ٩) ، والذهبى ٥٠ ألفا (دول الاسلام ، ١ ص ٤) ، أما Sébêos فيقول ألفين فقط ؛ انظر . Op. cit, p. 98

(٤) الأزدى ، ص ٢٠٨ س ١ .

(٥) فتوح البلدان ، ص١٣٧ . تخلط الروايات العربية بين اليرموك وأجنادين، ولكن النصوص المتقدمة تشير دائماً إلى أن أجنادين قبل اليرموك (الأزدى ، ص ٨١ س ١) ، ولعل الاضطراب جاء من أن المؤرخين المتأخرين (الكامل ، ٢ ص ٢٨٧) ، الذين بعد بهم الوقت عن هذه الوقائع الأولى . ويحاول بعض المؤرخين الحديثين إيجاد تعليل ذلك الاضطراب بوجود بلد اسمها يقرب من اسم اجنادين قرب اليرموك ، مع أن هذا البلد لا وجود له عند ياقوت (معجم البلدان) . انظر . De Goeje : Mém sur la conquête de la Syrie 2ed P. 59 suiv. ؛ Ency. de l'Isl, 4, p, 1223. ؛ بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ١ ص ١١٣ هامش (١٧) .

(٦) الأزدى ، ص ٢١٣ س ١٣ — ١٤ ؛ انظر : Cheira : La lutte, p. 45. أورد هذه الصيغة اللاتينية الكاتب المعروف الأستاذ العقاد فى كتيبه الشهرى عن « معاوية » . انظر كتاب الهلال ، عدد ٥٥ ، ص ٤١ .

منها ، فزحفوا من جديد على دمشق (١) التى رحب أهلها بهم ؛ ثم أخذت المدن تتساقط(٢) الواحدة بعد الأخرى ، ولم تعد الحاميات الرومية الباقية فى أى مكان فى الشام قادرة على صد اندفاع جيوش العرب الفتية . ولكن « إِيلِيَاء(٣) » (بيت المقدس) فى فلسطين اشترطت أن تسلم للخليفة نفسه ، على أن يمنحهم الأمان لدينهم وكنائسهم ؛ فقبل عمر وقدم فى سنة ١٧ /٦٣٨(٤) وهو راكب بعيراً أحمر ، وخلفه جفنة(٥) مملوءة بالتمر وقربة ماء ، ودخل القدس التى سلمها إليه البطريرك صفرنيوس « Sophronius(٦) » ، فمنح أهلها الأمان(٧) ، وصلى هناك ركعتين على الصخرة المقدسة ، وخط المسجد(٨) الذى سيعرف باسمه .

ولا ريب أن مجىء عمر ، وقبوله تسلم القدس يدل على مدى اهتمامه بالشام ؛ وقد كان أن نظر العرب إلى هذا القطر نظرة جدية ، حيث أنهم سيعتبرونه فيما بعد فى عهد الأمويين(٩) أرضاً عربية أفضل من الحجاز : لغناه وموقعه الممتاز ، ووجود الصخرة المقدسة(١٠) به . وقد انتهز عمر فرصة وجوده بالشام ، وعقد فى « الجابية »(١١) —

---

(١) الأزدى ، ص ٢٠٨ .
(٢) الواقدى ، فتوح الشام ، ٣ ص ٢٠١ س ١١ فما بعدها .
(٣) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ٢٤٤ ؛ انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ١ ص ٣٩٢ — ٣٩٣ . أصل هذه التسمية غير معروف ، ولعله على اسم أحد الأباطرة : المسمى هدريانوس « اندريانوس » الذى أخرج اليهود وأسكن اليونان . سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٠١ — ١٠٢ .
(٤) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٣٦ س ٧ .
(٥) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ٢٥٧ .
(٦) سعيد بن بطريق ، ٢ ص ١٧ .
(٧) أغابيوس (Agabios) ، العنوان ، تحقيق Vasiliev ، ٢ ص ٢١٥ ؛ سعيد ابن بطريق ، ٢ ص ١٧ .
(٨) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ٢٦٧ س ٦ .
(٩) انظر بعده .
(١٠) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ٢٧١ .
(١١) ابن الجوزى ، تاريخ عمر ، ص ٦٨ س ٨ ؛ الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ٢٧١ . انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٣٣ ؛ انظر . قبله .

عاصمة الغساسنة(١) — مؤتمراً من قواده ، وضع فيه خطة استمرار الغزو ، وأفضل السبل(٢) للاحتفاظ بالبلاد المفتوحة فى الشام والعراق .

والواقع أنه بعد موقعة اليرموك لم يعد فى سورية مقاومة إلا فى المدن الساحلية(٣) ؛ التى كانت بيزنطة تحتفظ بها عن طريق تموينها من البحر ، أو كانت قد استعادتها(٤) قبل وقعة اليرموك . وعلى الرغم من حدوث طاعون شديد سنة ١٨ (٦٣٩) ، عرف بطاعون عَمَواس(٥) — قرية من أرض فلسطين — توفى فيه كبار قواد الشام المعروفين ، وهم(٦) : أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد ابن أبى سفيان ، وغيرهم من الصحابة ؛ فقد استمر العرب قابضين على زمام السيطرة فى الشام ، ولم تستطع بيزنطة استعادة ما ضاع . بل عمل معاوية — الذى ولى(٧) الشام بعد موت أبى عبيدة ويزيد بن أبى سفيان — على الاستيلاء(٨) على المدن الساحلية ؛ وبذلك تمت فتوح الشام .

بعد الشام جاء دور بلاد الفرس ؛ ونقصد بها البلاد التى سماها العرب « فارس »(٩) أو اليونان « Persis » : وهى تلك الهضبة(١٠) أو منطقة الاستبس من الأراضى

---

(١) انظر . قبله .
(٢) يقول الواقدى إنه « دون الدواوين » فتوح الشام ، ٢ ص ٢٧١ س ١٠ .
(٣) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٢٧ ، ١٤٠ — ١٤١ .
(٤) الكامل ، ٢ ص ٢٩٦ .
(٥) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٣٩ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ٢٢٦ .
(٦) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٣٩ — ١٤٠ . روى أنه مات فيه نحو خمسة وعشرين ألفاً من المسلمين .
(٧) نفسه ، ص ١٤١ .
(٨) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٢٧ ؛ ١٤٠ — ١٤٢ .
(٩) هذه الكلمة « فارس » معربة عن الكلمة الفارسية « فارس » أو « بارس » ، وهى تعنى المنطقة الواقعة شرق دجلة ، وإن أطلقها اليونان على جميع بلاد الفرس . ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ٣٢٤ — ٣٢٥ ؛ انظر . Massé : Civil. Iran, p. 32 ؛ Le Strange : The Lands of the Eastern Caliphate, Cambridge 1930, p. 248.
(١٠) انظر . H. et Del. : Op. cit, p 3 — 4 et cartes

الصلبة والصحارى والجبال؛ التى تمتد فى الجنوب إلى ساحل بحر الهند، وفى الغرب إلى الخليج الفارسى ودجلة والفرات، وفى الشرق إلى السند، وفى الشمال إلى بحر قزوين ونهر جيحون(١).

ومنذ الزمن القديم كانت بلاد الفرس مقاماً لهجرات متعددة من أجناس البحر الأبيض(٢)، إلا أنها مالبثت أن أصبحت مستودعاً للجنس الآرى(٣) «Aryas»، الذى ظهر على الخصوص فى المنطقة الشمالية الغربية من الهضبة، أو ما يعرف بميديا «Mydia»(٤)، وهى التى سيسميها العرب «بالجبال»(٥)، لكثرة جبالها. ويظهر أن الآريين — وبهم سميت ايران(٦) — كانوا يسكنون أول الأمر هذه البلاد مع الهندوس الذين غادروها إلى الهند، بدليل تقارب اللغتين: الزند(٧) الايرانية والسنسكريتية الهندية. ولكن جاء إلى بلاد ايران هجرة الفرس، التى امتدت على الخصوص حتى دجلة، فعرفت بهم المنطقة التى سميت «فارس(٨)» شرق الدجلة؛ وان اندمجوا مع العناصر السابقة فى انحاء ايران، وكونوا الشعب الذى سماه العرب «العجم(٩)»، كما ظهرت لهم اللغة التى عرفت «بالفهلوية(١٠)».

وقد كانت هذه الهجرات المتعددة سبباً فى حدوث اضطراب فى بلاد الفرس

---

(١) وهو نهر ببلاد خراسان يحدد منطقة ما وراء النهر، ويعرف أيضاً بنهر بلخ، (ياقوت، معجم البلدان، ٣ ص١٨٨)، أما اليونان فيسمونه Oxus انظر. Le Strange: Lands of the East., p. 8.

(٢) انظر. H. et Del.: Op. cit, p. 47sqq.

(٣) انظر. De Lafont: Le Mazdéisme. L'Avesta, Paris 1897, p.19

(٤) انظر. Le Strange: Lands of the East, p. 5

(٥) معجم البلدان، ٣ ص ٤٤ — ٤٥.

(٦) انظر. Le Strange: Lands of the East, p 248

(٧) ابن صاعد، ص ٦؛ انظر. De Lafont: Le Mazd, p. 20

(٨) انظر. ياقوت، معجم البلدان، ٣ ص ٣٢٤.

(٩) الكامل، ٢ ص ٢٦٨.

(١٠) ابن صاعد، ص ٦؛ التنبيه، ص ٧٨؛ براون، تاريخ الأدب فى ايران، ترجمة الشواربى، القاهرة ١٩٤٠، ٢ ص ١١.

مما أطمع[١] فيها ممالك العراق كالأشوريين والبابليين ؛ الذين كان أغلبهم من الجنس السامي[٢] . ولكن الفرس استطاعوا أن يوحدوا بلادهم بقيادة كورش الأكبر[٣] « Cyrus » (٥٥٨ — ٥٢٩ ق . م) ، الذى أسس فى فارس الدولة المخامنشية أى العظيمة ، وهى التى أطلق اليونان عليها الاسم المحرف : الأكمينية « Achaemenid »[٥]. وقد استطاع كورش الأكبر هذا سنة ٥٣٩[٦] ق.م القضاء على بابل « Babylonia » ، وكان جده المسمى ايضا كورش قد استولى على نينوى « Ninive » عاصمة أشور سنة ٦١٤[٧] ق . م ؛ كما أن خلفاءه اشتهروا بحروبهم ضد مصر[٨] والمدن اليونانية[٩] ، ومدوا سيطرتهم من النيل حتى التركستان[١٠] . ولكن الاسكندر[١١] الأكبر استطاع أن يقضى على هذه الدولة سنة ٣٣١ ق . م ؛ بحيث أن بلاد فارس تفرقت إلى قطيعات على كل منها ملك ؛ وإن خضعت حوالى سنة ٢٤٧ ق . م إلى أسرة الارشكانيين[١٢] « Arsacides » ، التى ظهرت

---

(١) انظر . Op. cit, p. 187 : H. et Del

(٢) انظر . La Civilisation Babylonienne, 1945, p. 1 : Pirenne

(٣) سعيد بن بطريق ، ١ ص ٧٢ . وهو كورش الثانى . انظر . H. et Del : Op. cit, p. 231.

(٤) انظر . قبله .

(٥) انظر . سعيد بن بطريق ، ١ ص ٧٤ ؛ Herodotus I. 123 — 130 ؛ La Civil. Iran, p. 48 : Aymard

(٦) سعيد بن بطريق ، ١ ص ٧٤ ؛ Op. cit, p. 239—240 : H. et Del

(٧) انظر . Op. cit, p. 225 : H. et Del

(٨) Herodotus I. 1 — 4, 9 — 16

(٩) انظر . فشر ، تاريخ أوربا فى العصور القديمة ، ترجمة نصحى وعواد ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٤٣ فما بعدها ؛ Civil. Iran, p. 48 : Aymard

(١٠) انظر . Civil. Iran, p. 33 : Massé

(١١) أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، ١ ص ٤٥ ؛ انظر . Op. cit : H. et Del p. 321

(١٢) نسبة إلى أرشك مؤسسها ، التى ينتسب إلى دولة الاكمينيين . حسن بيرنيا ، إيران قديم ، ص ١٢١ فما بعدها ؛ انظر . Op. cit, p. 320 : H. et Del

فى بارث[١] ، وهى خراسان الحالية ؛ فحتمت عليهم الظروف مهمة قتال السلوقيين[٢] — خلفاء الاسكندر فى الشرق — فكان الملك منهم يلقب « بشاهنشاه[٣] » أى ملك الملوك ، وهم الذين يسميهم العرب « ملوك الطوائف[٤] » . ولكن هذه الدولة الممزقة توحدت من جديد على يد « الساسانيين[٥] » سنة ٢٢٤ ق . م ، بقيادة اردشير[٦] ، وهى الدولة التى سيحاربها العرب .

ولم يكن السبب الذى مهد لفتح العرب فارس فى عهد هذه الدولة ؛ هو أن قواها كانت قد انهكت فى حروب مستمرة مع الرومان ثم مع الروم ، أو حتى مع العناصر المغولية المعروفة « بالهياطلة[٧] » التى هددت حدودها الشمالية منذ القرن الخامس ؛ ولكن أيضاً بسبب سوء حكم ملوكها : فقد كان ملوك هذه الدولة يستبدون بشعب فارس ، ويحكمونه بالحق الإلهى المقدس ، معتبرين أنفسهم ظل الله[٨] على الأرض ؛ فكان الشعب ينظر إليهم بعين الكراهية . وقد زادت

---

(١) انظر أيضاً حسن بيرينا ، إيران قديم ، ص ١٢١ فما بعدها ؛ H. et Del : Op. cit. p. 321.

(٢) تنسب هذه الدولة إلى Seleucos أحد قواد الاسكندر ، وهى حكمت فى الشرق من ٣١٢ ق.م إلى ٨٤ق.م . انظر . Bevan : Histoire des Lagides, p. 43 ؛ انظر . قبله .

(٣) انظر Massé : Civil. Iran, p. 88

(٤) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ١٧٩ س ٤ — ٥ .

(٥) أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ٤٧ ؛ انظر . H et Del : Op. cit. 341 ؛ انظر . Ency. de l'Isl. 4, p. 186 sqq نسبة إلى ساسان جد اردشير ، مؤسس الدولة .

(٦) سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٠٦ ؛ اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ١٧٩ .

(٧) يقول البلاذرى عنهم إنهم ترك أو فرس (الفتوح ، ص ٣٩٤) ، ولكن المقصود بهم قبائل مغولية تعرف للأوربيين باسم الهون البيض ، كانت قد ظهرت فى القرن الخامس الميلادى واستولت على حدود إيران الشمالية . انظر شعيرة ، الممالك الحليفة ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب جامعة فاروق (الاسكندرية حالياً) ، المجلد الرابع سنة ١٩٤٨ ، ص ٤ . انظر . Gaudefroy - Demombynes : Le Monde musulman et byzantin, Paris 1931, p. I.

(٨) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣١ س ٩ — ١٠ .

الهوة عمقاً بين الشعب والملوك ؛ بسبب أن هؤلاء عملوا على تقوية[١] نفوذ رجال الدين ؛ بقصد الابقاء على طغيانهم ومباركته ، وتمسكوا بالمبدأ القائل : بأن الدولة والدين اخوان[٢] ، فحاربوا كل حركة دينية انشقاقية .

ومع ذلك فإن دين الفرس القديم وهو ما يعرف بالمجوسية[٣] — ككل ديانة — لم يكن يقبل الاستبداد : فهو فى أصله يعترف باله عادل[٤] ، يتمثل فى خالق العالم وكل مافيه اسمه « آهورامزدا[٥] » ، ويرمز له بالنور[٦] . أما عناصر خلق هذا الاله فهى بخاصة ما يعرف بلفظة « يزت[٧] » أى ما يستحق الإعجاب ، مثل : الشمس والماء والريح والأرض ، وهى عناصر ضرورية للوجود . ولكن هناك الشر المسمى « اهرمن[٨] » ، الذى لايخلق وانما يهدم ، ويرمزله بالظلام[٩] ؛ وأنه فى عداء مستمر مع الخير ، إلا أن الخير سيفوز[١٠] فى نهاية الأمر ، ويعيش

---

(١) انظر · Ency. de l'Isl. 4, p. 187 ؛ Hist. des Rel., p. 140: Saurat

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ٢ ص ١٦٢ .

(٣) هى كلمة فارسية انتقلت إلى العربية لتدل على دين الفرس ، والمؤمن بهذه الديانة يسمى « مجوسى » مثل يهودى ، والجمع مجوس (انظر عن هذه الأخيرة القرآن ٢٢ : ١٧) ؛ وهى — بحسب روايه العرب — ديانة تنسب إلى شخص معين اسمه منج كوش ، ظهر قبل زرادشت — سنتكلم عنه — الذى بشر بها ، ومن اسم منج كوش أخذت لفظة « المجوسية » . لسان ، ٨ ص ٩٨ — ٩٩ ؛ انظر . Ency. de l. Isl. (art Madjûs) t 3, p. 101

(٤) ابو الفدا ، المختصر ، ١ ص٨٣ ؛ انظر · De Lafont : L'Avesta, p142;151.

(٥) هذا الاسم مكون من « آهورا » أى الخالق ، و « مزدا » أى المعرفة أو الخير انظر · L'Avesta, p. 139 ؛ Benveniste : The Persian Religion according to the Chief Greek texts, p. 15.

(٦) لسان ، ٨ ص ٩٩ ؛ L'Avesta, p. 144

(٧) انظر · L'Avesta, p. 180 sqq ؛ The Pers. Rel, p. 27 ؛ H. et Del : Op. cit, p. 408 ؛ عبد الله رازى ، تاريخ إيران ، طهران ١٣١٧ ش ، ص ١٢٢ .

(٨) انظر · L'Avesta, p. 147 ؛ The Pers. Rel, p. 15

(٩) لسان ، ٨ ص ٩٩ ؛ L'Avesta, p. 152

(١٠) انظر · L'Avesta, p. 148 ؛ الرازى ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ٨٦ .

الناس فى هناء . كذلك الانسان يحاسب[١] على عمله بعد موته ، وتوزن[٢] حسناته ، فإذا أحسن عبر الصراط « پُل چينْوات[٣] » إلى الجنة حيث يوجد عرش الخالق[٤] آهورا مزدا ، أما إذا أساء فيذهب إلى الجحيم[٥] التى هى عذاب . ولذلك كانت المجوسية ديانة رمزية ، لا تعتقد فى التماثيل كما عند المسيحيين أو الوثنيين، وانما تشعل النار « اتش »[٦] وتعظمها فى المعابد «بيوت النيران» ، أو تشعلها على رءوس الجبال ، على أنها مصدر النور الذى هو أساس الخير الذى يحرق[٧] الشر .

وقد كان رسول هذه الديانة إلى الفرس نبى[٨] اسمه زَرَادشت «Zarathustra»[٩]، ظهر فى عصر قديم فى منطقة ميديا[١٠] — وهى منطقه الجبال — موطن الآريين، ودعا الفرس إلى ما سماه الدين المجوسى ، وحضهم على ترك السحر؛ وحاول هذا النبى تفسير[١١] الوجود على أساس مبدأى الخير والشر ، ولذلك عرفت هذه الديانة للعرب أيضا « بالثنوية[١٢] » . وهذا الخير والشر نجد له شبهاً فى عقائد المسلمين، حيث توجد فكرة الخير ممثلة فى الله ، والشر فى إبليس أو الشيطان . وقد جمع

(١) انظر . L'Avesta, p. 179

(٢) انظر . Ibid, p. 225

(٣) انظر . Ibid, p. 222; 224

(٤) انظر . Ibid, p. 225

(٥) انظر . Ibid, p. 226

(٦) ابن صاعد ، ص ١٧ ؛ L'Avesta, p. 180 ؛ The Pers. Rel. p.23 ؛ الشهرستانى ، الملل والنحل ، تحقيق Cureton ، طبعة London ، ١٨٤٦ ، ١ ص١٩٧ .

(٧) انظر . L'Avesta, p. 151

(٨) ابن حزم ، الملل ، ١ ص ١١٥ ؛ L'Avesta, p. 152; 201

(٩) الرازى ، اعتقادات، ص٨٦ ؛ انظر . Hastings : Ency. of Relig. and Ethics, 12, p. 807 هذا الاسم معناه النجم الذهبى . انظر . L'Avesta. p. 109 - 110

(١٠) يقول الرازى آذربيجان انظر . اعتقادات ، ص٨٦ . هو ولاريب شخصية واقعية ، دعا فى أول الأمر عشيرته ، ثم هاجر إلى خراسان فآمن به الملك بشتاسف وابنه اسبنديار ، وكانت له ثلاث زوجات . انظر . L'Avesta, p. 114 sqq ؛ الرازى ، اعتقادات، ص ٨٦.

(١١) انظر . L'Avesta, p. 151 - 152

(١٢) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ١٨٠ س ٥ .

زرادشت هذه العقائد من تراث الأجداد الدينى فى عدة كتب(١) أو سور(٢) ، تشتمل على أغانى(٣) وحكم مسجوعة وحوار بينه وبين آهورا مزدا ، سماها : « الأفستا(٤) » أى النص الأصـــلى ، وهى التى عربت باسم « الابستاق(٥) » أو « الابستا » .

وثم ظهرت حركات دينية اصلاحية ترمى إلى جعل الدين المجوسى القديم يتلاءم مع تطور الزمن والمجتمع الفارسى الجديد ؛ الذى ظهر من أندماج الهجرات المختلفة فى إيران ، خصوصـــاً وأن ملوك الفرس الذين كانوا يقيمون فى إصْطَـخْر(٦) « Persopolis » أو غيرها(٧) فى داخل البلاد ، انتقلوا فى عهد الساسانيين إلى الطيْـسَفون(٨) « Ctésiphon » عند وسط دجله والفرات ، فاقتربوا من مواطن اليونان والمسيحية ، بل إنهم بنوا مدينة جديدة سموها « جُنْـدَيْسَابور(٩) »

(١) انظر L'Avesta, p. 8 . أشهرها كتب : ونديداد ويسنا ويسپرد وكاتا . Ibid, p. 81 sqq . يذكر المسعودى أسماء أخرى . انظر . التنبيه ، ص ٩١ ــ ٩٢ ؛ كما أن للافستا شرحاً اسمه « الزند » (الكامل ، ١ ص ١٤٦) ، وشرح الشرح اسمه « بازند » نفسه ، ١ ص ١٤٦ ؛ التنبيه ، ص ٩٢ .

(٢) التنبيه ، ص ٩١ .

(٣) انظر . L'Avesta, p. 88; 97

(٤) انظر . Ibid, p. 1. sqq ؛ التنبيه ، ص ٩١ ؛ Horn : Geschichte der Perischen Litteratur, Leipzig 1901. S. (2) . يظهر أن جزءاً كبيراً من الأفستا أحرق أيام غزوة الاسكندر (التنبيه ، ص ٩٢) ؛ وان ذكر Burnouf أن بقية هذا الكتاب المقدس كادت تضيع عند غزوة المسلمين لولا هروب بعض الفرس الذين سيعرفون بالبارسيين الى الهند . انظر . L'Avesta. Préface p. Ix ؛ Ency. de l. Isl. (art Pârsîs), t 3, p. 1097

(٥) التنبيه ، ص ٩١. (٦) معجم البلدان ، ١ ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦ ؛ كانت عاصمة الاكمينيين انظر . Le Strange : The Lands of the Eastern caliphate, p. 6; 275 (٧) معجم البلدان، ١ ص ٢٧٦ .

(٨) نفسه ، ٦ ص ٨٠ ؛ ٧ ص ٤١٣ . هى مسكن الملوك الساسانيين ، فكان كل واحد منهم إذا ملك بنى لنفسه مدينة إلى جانب التى قبلها وسماها باسمه ، وإن كان أشهرها « توسفون » التى عربها العرب إلى الطيسفون والطيسفونج ، ولذلك ستسمى فى العهد العربى « بالمدائن » لكثرة مدنها . انظر . Ency. de l'Isl. (art al - Madâ'in) t, 3, p. 76 sqq.

(٩) معجم البلدان، ٣ ص ١٤٩ ــ ١٥٠ ؛ تاريخ النسطوريين (فى P. O.) ٤/١ ص ٢٢١ [١١] . وهى تنسب إلى سابور الأول (٢٤١ ــ ٢٧٢) .

فى خوزستان فى منطقة شرق الخليج الفارسى ؛ ليقيموا فيها ما كانوا يجلبونه من سبي الروم أو المسيحيين ؛ مما جعل ثقافة البحر الأبيض وديانته تنتشر فى فارس. ومع ذلك لم يعترف ملوك الفرس الساسانيون بضرورة الاصلاح ، وتمسكوا بالدين المجوسى على علاته مع أنه كان قد أهمل فى عهد[١] ملوك الطوائف ؛ مما كان له أثره فى اضطراب البلاد .

وقد ظهرت فى آخريات أيام الملك شهبور الأول (٢٤١ — ٢٧٢) — سابور[٢] — رجل يدعى مانى[٣] ، وإليه تنسب فرقة[٤] المنانية ، وادعى بأنه ملك موهبة النبوة[٥] وهو فى سن الثانية عشرة ، فكان يأتيه الملك المسمى «التوم[٦]» برسالة مؤداها : تخليص الانسانية من دنس المادة . وقد آمن بزرادشت وعيسى[٧] ، وآمن بالخير والشر[٨] ؛ كما ألف مانى كتباً[٩] عديدة ، ودعا إلى الزهد ورفض الدنيا ومقاطعة النساء ؛ لينقطع النسل ويضمحل هذا العالم الجسدى[١٠] ، وكان يؤمن أيضا بالتناسخ[١١] . ولما كانت الأرواح الطاهرة الإلهية قد امتزجت بالأبدان النجسة[١٢] ، فإنه شرّع الصيام وفرض صلوات[١٢] بأن يقوم الرجل فيمسح بالماء الجارى أو غيره ، ويستقبل النير الأعظم قائماً ، ثم يسجد ويقوم

---

(١) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ١٧٩ ؛ انظر Op. cit, , p. 343. : H. et Del
(٢) انظر . Op. cit, P. 343 : H. et Del
(٣) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ١٨٠ فما بعدها .
(٤) انظر . ابن اسحق الوراق ، المنانية ، تحقيق Fluegel ، ص ٤٩ .
(٥) نفسه ، ص ٥٠ .
(٦) نفسه .
(٧) ابن حزم ، الملل ، ١ ص ١٠٢ .
(٨) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ١٨٠ س ٧ .
(٩) نفسه ، ١ ص ١٨١ س١٢ .
(١٠) الثعالبى ، غرر أخبار ملوك الفرس،ص ٥٠٢ ؛ انظر . Saurat : Hist. des Rel, P. 139.
(١١) تاريخ النسطوريين،(فى P. O.) ، ٤/١ ، ص ٢٢٨ [١٨] .
(١٢) الثعالبى، غرر أخبارملوك الفرس ، ص٥٠٢.
(١٣) محمد بن اسحق الوراق ، ص ٦٤ فما بعدها .

ويذكر بعض التسبيحات ؛ فتكون إحدى الصلوات عند الزوال ، والثانية بين الزوال وغروب الشمس ، ثم صلاة بعد غروب الشمس ، ثم صلاة العتمة بعد المغرب. ويظهر أن مانى ذهب إلى الهند[١] وبشر فيها أيضا بمذهبه ، كما أرسل تلاميذه حتى اليمن[٢] . وتعتبر الدعوة المانية إلى الزهد مرآة للحياة التعسة التى كان يعانيها شعب فارس فى ظل دولة الساسان . ويظهر أن مانى هرب فى آخر أيام شهبور ، فلما جاء بهرام الأول (٢٧٣ — ٢٧٦) دعا مانى واتهمه بالخروج عن الدين المجوسى وقتله[٣] ، ثم صلبه على باب مدينة جنديسابور ، كما قتل من اتباعه اثنى عشر ألفاً . ومع ذلك انتشرت المانية بعد ذهاب مانى بين الفرس وفى خارج بلادهم ، فنذكر ممن تأثر بمانى كثيراً من بطاركة[٤] بيزنطة ؛ وبقيت[٥] هذه الديانة إلى العهد الاسلامى .

والظاهر أن هذا الاضطهاد الدينى لم يمنع من ظهور حركة أخرى ، تهدف فى نفس الوقت إلى اصلاح[٦] المجتمع الفارسى . فبعد قرنين من ظهور مانى ، قام مزدق[٧] (أو مزدك) فى عهد الملك قباذ الأول (٤٨٨ — ٥٣١) بحركة[٨] جديدة ، فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه فى الهند حركة دينيه ؛ لاصلاح مفاسد الديانة البرهمانية . وقد آمن مزدك — مثل مانى — بالنور والظلمة[٩] ، ولكن امتازت

(١) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ١٨١ .

(٢) تاريخ النسطوريين (فى P. O.) ، ٤/١ ، ص ٢٢٧ [١٧] .

(٣) الثعالبى ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٥٠٣ ؛ اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ١٨٢ .

(٤) سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٣٨ . نذكر ممن تأثر بمانى الفيلسوف أوغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠) ظل مانياً عهداً طويلا قبل اعتناقه النصرانية . دراز ، الدين ، ص ١١ ؛ Hist. des Rel., P. 261-3 : Saurat

(٥) انظر . محمد بن اسحق ، ص ٦٦ . كانت تسمى الديناورية فى عهد الخليفة الأموى : الوليد بن عبد الملك . انظر . بعده .

(٦) انظر Ency. de l'Isl, (art Mazdak) t 3, P. 492.

(٧) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ١٨٦ ؛ الثعالبى ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٥٩٦ .

(٨) انظر . بعده .

(٩) انظر . Ency. de l'Isl. t 3, P. 492 sqq

تعاليمه بالاصلاح الداخلى والاشتراكية[١] الصريحة ؛ فهو قد فسر الافستا لصالح الشعب[٢] : فكان يرى[٣] أن الله جعل الأرزاق فى الأرض ؛ ليتقاسمها العباد بينهم بالسوية ، حتى لا يكون لأحدهم فضل على الآخر ، ولكن الناس تظالموا وتغالبوا ، فغلب الأقوياء الضعفاء واستأثروا بالأرزاق والأموال عليهم ، والواجب المفروض أن يؤخذ للمقلين من المكثرين ، حتى يتساووا فى الأملاك ، ومن كان عنده فضل من الأموال والنساء والخدم والأمتعة فما هو أولى به من غيره . وقد مال الفقراء إلى مزدك وأحبوه حباً شديداً ، واعتقدوا فيه النبوة[٤] ؛ خصوصاً وأن المجاعة[٥] كانت تعم ايران وقتئذ ، وأهلكت كثيرين . ويظهر أن الملك قباذ قبل الانخراط[٦] فى سلك دعوة مزدك ؛ لرغبته فى الحد من نفوذ طبقة رجال الدين « الموابذة[٧] » ، وطبقة الحكام « المرازبة[٨] » : فالأولى كان الملك يعتمد عليها فى مباركة حكمه مما جعلها تسيطر على كل شىء ، والثانية كانت تقوم بامداد الجيش بالجند بحيث كانت تسيطر على المملكة . وقد كان أن حشر مزدك الغوغاء والمساكين ، وجعلهم

---

(١) انظر . Ibid ؛ انظر . Nöldeke : Geschichte der Perser, Leyde, 1879, P. 455 - 467 ؛ Christensen : Le règne de roi Kawâdh I et le Communisme mazdakite, (Det Kgl. Danske Videnskabernes Selskab, Hist - Filol Meddelelser t, Ix, no 6), Kopenhague 1925.

(٢) التنبيه ، ص ١٠١ — ١٠٢ .

(٣) الثعالبي ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٦٠٠ ؛ سعيد بن بطريق ، ١ ص ٢٠٦ س ١٥ فما بعدها .

(٤) الثعالبي ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٦٠٠ .

(٥) نفسه ، ص ٥٩٧ .

(٦) نفسه ، ص ٥٩٦ .

(٧) انظر . L'Avesta, P. 237 . كان رئيس هذه الطبقة يسمى موبذان — موبذ أى أعلم العلماء ؛ وهم طبقات . الشهرستانى ، ص ١٨٠ ؛ انظر . Huart : La Perse, Antique, Paris 1925 P. 169 sqq.

(٨) « المرازبة » واحدها « مرزبان » ، وهو صاحب البلد وبخاصة الثغر ، لأن « المرز » هو الثغر . اليعقوبى . تاريخ ، ١ ص ٢٠١ ؛ التنبيه ، ص ١٠٤ ؛ انظر . Huart : Ency. de l'Isl. t3, P, 360 ؛ la Persa Antique, P, 170. . وقد كان من نظام المرازبة ألا يعد بعضهم بعضا إلا باذن الملك . الطبرى (Annalas) ١ : ٢٠٣٧ .

يسيطرون على المملكة[١] ، وأغضى قباذ عن نفوذه خوفاً من العامة ، بل منع مزدك الملك نفسه من حاشيته[٢] .

ولكن خلفه خسرو الأول (٥٣١ — ٥٧٩) جمع إليه الموابذة[٣] والارستقراطية حتى يستعيد سلطانه المفقود ؛ خصوصاً وأن رجال الدين كانوا لا يستسيغون هذه الآراء المزدكية فى المساواة : إذ كيف[٤] يعمل الناس بعضهم لبعض مع تساويهم ، وكيف يعرفون أولادهم ويصححون أنسابهم إذا تشاركوا فى النساء ، وكيف لاتخرب الدنيا مع هذه الحالة . ولذلك أعدهذا الملك عدته فأوقع بالمزدكيين عند النهروان[٥] بالقرب من الفرات ، فقابله منهم نحو ثمانين[٦] ألفاً ، وسقى الأرض من دمائهم ، وحينما هم بقتل مزدك قال هذا الأخير — الذى كان يعتقد أن حركته الاصلاحية ستبقى بعده — : « أو تقدر على قتل الناس كلهم[٧] » . وقد سُر الموابذة من استعادة الملك نفوذه ونفوذهم ، ولقبوه العادل « داد كر » و « أنو شروان[٨] » أى النفس الخالدة .

ولكن خلفه هرمز الرابع (٥٧٩ — ٥٩٠) الذى وجد أن الارستقراطية استعادت سلطانها ، وبدأت تتطاول عليه ، أراد أن يوجد التوازن باتباع سياسة اصلاحية متأثرة بالحركة[٩] السابقة . ولكن سوء الحظ حالفه فهجم الأعداء من الترك والبيزنطيين[١٠] على بلاده ، وهم الذين كانوا يترقبون الحالة الداخلية ؛

(١) الثعالبى ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٥٩٧ — ٥٩٨ .
(٢) نفسه ، ص ٦٠٠ — ٦٠١ .
(٣) نفسه ، ص ٦٠٢ .
(٤) نفسه .
(٥) معجم البلدان ، ٨ ص ٣٤٧ .
(٦) الثعالبى ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٦٠٥ .
(٧) نفسه ، ص ٦٠٤ .
(٨) نفسه ، ص ٦٠٦ . وهذه الكلمة مكونة من آنوش بمعنى خالد وروان أى نفس. انظر Op. cit, p 354 : H. et Del
(٩) الكامل ، ١ ص ٢٧٧ ؛ انظر . Les Penseurs, : Carra de Vaux de l'Islam, 3, p. 9.
(١٠) الكامل ، ١ ص ٢٧٧ وما بعدها .

ليطمئنوا فارس . لذلك انهزت الارستقراطية ضعف مركز الملك نتيجة لهزائمه فعزلته وسملت عينيه(١) ، وقبضت على نواصي الأمور ، وطلبت من ابنه أبرويز خسرو الثاني قتل(٢) أبيه . وبعد قتل هرمز أصبح مصير الملوك في يد الارستقراطية، ولذلك لم يستقر الملوك في الحكم إلا قليلا(٣) ، وقد كان منهم النساء والصبيان(٤)، مما أجرى أمور الدولة — كما يقول الثعالبي(٥) مؤرخ ملوك الفرس — اسوأ مجاريها، فتحرك الأعداء ، وتمرد المرازبة(٦) ، وهبت ريح العرب. وقد كان آخر ملوك الفرس يزدجرد الثالث ؛ الذي تولى العرش عندما بدأ الفتح العربي لفارس ، وقد كان هو نفسه غلاماً(٧) مراهقاً ، ودولة العجم لم يبق منها إلا رمق .

فنحن نعرف أن العرب كانوا قد بدأوا في حرب الفرس بغزو منطقة السواد أو العراق (٨) ؛ ولكن أخروا فتحهم لفارس إلى ما بعد الانتهاء من معاركهم الأولى في الشام . ويظهر أن العرب بعد نجاحهم في الشام قصدوا إلى تكوين امبراطورية كبيرة في هذه الناحية ، خصوصاً وأنهم كانوا قد سبروا غور قوة الفرس في العراق فوجدوها خاوية ضعيفة ؛ كما كان العرب يعتقدون أن النبي تنبأ لهم بالاستيلاء(٩) على فارس .

والظاهر أن عمر — كما ذكرنا — لم تكن تعجبه الشخصيات القوية، فعزل المثنى بن حارثة الشيباني ؛ الذي كان خالد تركه في العراق بعد ذهابه إلى الشام ،

---

(١) الكامل ، ١ ص ٢٧٧ .
(٢) نفسه ، ١ ص ٢٧٩ .
(٣) نفسه ، ٢ ص ٢٦٨ س ١٢ .
(٤) الثعالبي ، غرر اخبار ملوك الفرس ، ص ٧٣٦ ؛ الكامل ، ٢ ص ٢٨٥–٢٨٦؛ ٢٩٨ .
(٥) الثعالبي ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ١ ص ٧٣١ .
(٦) بخاصة رستم والفيروذان اللذين سيقاتلان العرب . الكامل ، ٢ ص ٣٠٨.
(٧) الثعالبي ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٧٣٧ .
(٨) انظر . Ency. de l'Isl, (art al'Irâq) t 2, p. 549
(٩) الكامل ، ٢ ص ٢٦٧ س ٧ .

وولى مكانه أبا عبيد[1] بن مسعود الثقفى وزوده بالامدادات ، وبقى المثنى يحارب تحت لواء[2] القائد الجديد ، كما فعل خالد . وقد بدأ أبو عبيد غزاته بعبور الفرات على جسر[3] ، ولكن الفرس ردوا العرب على أعقابهم وكادوا يسحقونهم بحيث غرق كثير منهم ، ودهس أبو عبيد[4] تحت أرجل الفيلة . ولم ينقذ فلول الجيش العربى إلا إسراع المثنى — القائد السابق — إلى الدفاع عن الجسر ، وان كان هو نفسه جرح ، وسيموت[5] متأثراً بجرحه ؛ وقد سميت هذه الموقعة الخاسرة بموقعة الجِسْر ، وكانت سنة ١٣[6] هـ (٦٣٤) .

وفى نفس الوقت قرر يزدجرد أن يخوض معركة حاسمة ضد العرب ، فندب رستم[7] — أحد المرازبة الأقوياء — على رأس جيش كبير[8] مزود بالفيلة[9] لملاقاة العرب ، وقد ساروا ومعهم راية كسرى الكبيرة المساة : «دِرِفْش[10] كاوْيان » المصنوعة من جلد البقر ؛ كما اتفقوا[11] مع أهل العراق على القتال معهم . ويظهر أن الخليفة قدر خطورة هذا الزحف ، فأسرع بارسال الامداد التى

---

(١) الدينورى ، الاخبار الطوال ، ص ١١٢ ؛ ابن الجوزى ، تاريخ عمر ، س ٦٧ . يقال إن السبب هو أن المثنى لم يكن من السابقين إلى الاسلام ، على عكس أبى عبيد الذى كان قد شهد بدراً . الكامل ، ٢ ص ٢٩٧ .

(٢) الدينورى ، الاخبار الطوال، ص ١١٢ — ١١٣ ؛ الكامل ، ٢ ص ٢٩٩ .

(٣) الدينورى ، الأخبار الطوال ، ص ١١٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ١٠٥ .

(٤) الكامل ، ٢ ص ٣٠٢ س ٤ .

(٥) نفسه ، ٢ ص ٣١١ . وكانت وفاته قبل موقعة القادسية . انظر . بعده .

(٦) معجم البلدان ، ٣ ص ١٠٥ .

(٧) الثعالبى ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٧٣٨ .

(٨) يختلف المؤرخون فى تقدير عددهم ، فمثلا ابن خلدون يذكر أنهم كانوا حوالى ٢٠٠ ألف أو حتى ستون ألفاً (المقدمة ، ص ٨) ، أما ابن الأثير فيقول إنهم كانوا ١٢٠ ألفاً . الكامل ، ٢ ص ٣١٦ س ٦ .

(٩) المرجع السابق ، ٢ ص ٣١٩ ؛ فتوح البلدان ، ص ٢٥٨ .

(١٠) الكامل ، ٢ص ٣٠١ ؛ ٣٣٥ ؛ فتوح البلدان، ص٣٠٢؛ انظر H. et Del. : Op. cit, p. 359. هذه الكلمة مكونة من درفش بمعنى علم ، وكاويان بمعنى رأس البقرة . ويقصد بها العلم الكبير .

(١١) الطبرى (Annales) ١ : ٢٢٣٠ ؛ الكامل، ٢ص٣١٤ .

سحب بعضها من الشام[١]، ووجه معها الخطباء والشعراء[٢] والنساء[٣] على عادة العرب فى القتال ، وجعل القائد عليهم سعد[٤] بن أبى وقاص ، وهو صحابى اشتهر بشجاعته فى غزوة أحد ؛ بل يبدو أن الخليفة عمر فكر فى الذهاب[٥] بنفسه للقتال . وقد تقابل الجيشان فى الصحراء ، عند مكان قرب الحيرة اسمه « القَادسيّة[٦] » وهى التى كانت تعرف عند العرب فى الجاهلية على أنها باب فارس[٧] . وقد حمى وطيس الحرب بين العرب والفرس ، واستمرت المعركة عدة أيام[٨] : وكان العرب يقاتلون بالنهار ، ومن يجرح منهم يُرسل إلى النساء[٩] لترعاه ، فاذا جن الليل يدوون[١٠] بالقرآن دوىّ النحل . وقد انتصر العرب على الفرس ؛ لتعودهم على الحرب فى الصحارى ، كما أن سعد بن أبى وقاص أعلم العرب أن مقتل الفيل من خرطومه[١١] ؛ فقتل[١٢] قائد الفرس رستم ، وأخذت رايتهم الكبرى . ويبدو أن هذه الموقعة كانت بعد عام ١٤[١٣] (٦٣٥ — ٦٣٦) — وهو عام اليرموك — لكثرة ما أرسل إلى المحاربين من امدادات ؛ وعرفت عند العرب بالفتح الأعظم[١٤] ، لما سيترتب عليها من انتصارات متعددة هامة .

---

(١) الطبرى (طبعة مصر) ٣ ص ٧٩ س ٩ .
(٢) الكامل ، ٢ ص ٣١١ س ٩ . كانت العرب فى بضعة وثلاثين ألفاً . الكامل ، ٢ ص ٣١١ .
(٣) الطبرى (Annales) ١ : ٢٣٦٣ .
(٤) نفسه ١ : ٢٢٢٣ — ٢٢٢٧ ؛ ٢٢٣٠ — ٢٢٣١ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Sa'd B."abî Waqqâs) t 4, p. 30—31.
(٥) الكامل ، ٢ ص ٣١٠ ؛ ابن الجوزى ، تاريخ عمر ، ص ٦٧ .
(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ ص ٥ فما بعدها ؛
(٧) الطبرى ١ : ٢٢٢٨ .
(٨) الكامل ، ٢ ص ٣٠٩ فما بعدها .
(٩) نفسه ، ٢ ص ٣٣١ .
(١٠) الطبرى (Ammales) ١ : ٢٣٦٦ .
(١١) فتوح البلدان ، ص ٢٥٨ .
(١٢) الكامل ، ٢ ص ٣٣٥ ؛ تاريخ النسطوريين (P. O.) ١٣/٢ ، ص ٦٢٧ [٣١٧] .
(١٣) الكامل ، ٢ ص ٣٣٧ . اختلف فى التاريخ ، فقيل فى سنة ١٤ أو ١٥ أو ١٦ .
(١٤) الثعالبي ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٧٤٠ .

استغل العرب هذا النصر فى القادسية ، وما أحدثه من اضطراب بين الفرس ، لغزو العاصمة طيسفون[١] ، الواقعة عند اقتراب دجلة والفرات ، وهى التى أطلق عليها العرب المدائن[٢] لكثرة مدنها . ففتح العرب منها المدينة الشرقية ، وعند ذلك رفع الفرس المعابر وأحرقوا[٣] الجسور ؛ ليمنعوا المسلمين من الاستيلاء على المدينة الغربية ، ولكن المسلمين عبروا دجلة سباحة وعبرت الخيل[٤] ، وسقطت المدائن جميعها فى قبضة يدهم بكنوزها[٥] وايوانها[٦] وقصورها ، وذلك سنة ١٦ هـ[٧] (٦٣٧) . ولكن يزدجرد الذى رأى اطباق العرب عليه ؛ أسرع بالانسحاب[٨] إلى داخل فارس ، كما أرسل فى طلب العون من ملك الصين[٩] .

ويظهر أن الفرس لم تيئس من صد العرب ، فجمع يزدجرد فى منطقة « جَلُولَاء[١٠] » جموعاً هائلة[١١] ، بعد أن أمر بحفر الخنادق حولها . ولكن العرب الذين كانوا بقيادة سعد بن أبى وقاص حاصروا المدينة ، وحملوا عليها حملة واحدة وتمكنوا من دخولها ، وأجبروا الفرس فيها على الهرب ؛ وكان ذلك آخر سنة ١٦[١٢] هـ (٦٣٧) . وقد مهد هذا النصر الجديد للعرب عبور[١٣] جبال زاجوراس الهائلة إلى هضبة إيران .

---

(١) معجم البلدان ، ٦ ص ١٣٤ ؛ انظر . قبله .
(٢) نفسه ، ٧ ص ٤١٣ ؛ انظر . قبله .
(٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٦٤ .
(٤) اغابيوس ، العنوان ، تحقيق وترجمة Vasiliev ، طبعة Paris ، ١٩٠٩ ، ٢ ص ٢١١ .
(٥) الكامل ، ٢ ص ٣٥٨ ؛ Sebêos, p. 99
(٦) المقصود بالايوان قاعة كبيرة ذات أعمدة سامقة .
(٧) الكامل ، ٢ ص ٣٥٤ .
(٨) الدينورى ، الأخبار الطوال ، ص ١٢٧ .
(٩) يروى الثعالبى أنه أرسل أحد بناته إلى ملك الصين . غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٧٣٩ ؛
(١٠) البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٦٤ فما بعدها ؛ الكامل ، ٢ ص ٣٦٢ . انظر ايضا معجم البلدان ، ٣ ص ١٢٩ .
(١١) الدينورى ، الأخبار الطوال ، ص ١٢٨ — ١٢٩ .
(١٢) البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٦٥ س ١٠ — ١١ .
(١٣) انظر . Op. cit, P. 359 : H. et Del

ولكى يتابع العرب فتحهم المظفر فى فارس عملوا فى سنة ١٧ (١) هـ (٦٣٨) على انشاء معسكرين على سيف الصحراء لإنزال جيوشهم : فكان أحدهما بقرب الحيرة ، وأطلقوا عليه الكُوفة(٢) ، والآخر فى الجنوب عند شط العرب وسموه البَصْرَة(٣) ؛ وقد عرف كل من هذين المعسكرين بالمصر(٤) ، أى الأرض التى على الحدود(٥) ، ولأنهما أثنان سميا بالمصرين ؛ كما أنه لقربهما من العراق سميا أيضا بالعراقين(٦) .

وبفضل امدادات البصرة والكوفة ذهب المسلمون لمقابلة جيوش الفرس الكثيرة ، التى تجمعت من جديد بقيـــادة الفيروزان (٧) فى مدينة « نَهاوَند » (٨) القديمة ، بمنطقة الجبال الشمالية موطن الآريين . وقد عمد عمر إلى عزل سعد بن أبى وقاص ، الذى قيل عنه إنه أساء(٩) استغلال سلطته فى الكوفة ، وعين بدلاً منه النعمان بن مُقَرن(١٠) المزنى ، الذى قُتل عند التقاء الجيشين ؛ وإن كان العرب نالوا النصر بعد قتال شديد على يد حذيفة بن اليمان(١١) . وقد سميت هذه الموقعة التى دارت رحاها حوالى سنة

(١) الكامل ، ٢ ص ٣٦٧ .

(٢) الطبرى (Annales) ١ : ٢٣٦٠ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢٣٥ ؛ Explication du Plan du Kûfa (Irak) Le Caire. : Massignon M. I. F, 68, P. 338. يظهر أنها سميت هكذا لاستدارتها ؛ أو لاجتماع الناس بها . ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ ص ٢٩٥ فما بعدها.

(٣) نفسه ، ٢ ص ١٩٢ فما بعدها . اشتقاق اسمها من الحجارة التى ليست صلبة ، أو حتى من أصل فارسى ؛ وكانت تقع بعيدة عن الدجلة على عكس ما هى عليه حالياً .

(٤) ولذلك يقال إن عمر : « مصر الأمصار» . البلاذرى ، فتوح ، ص٢٧٥ — ٢٧٧ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, 3, P. 591

(٥) لسان ، ٧ ص٢٤ .

(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ١٣٣ .

(٧) نفسه ، ٨ ص ٣٣١ .

(٨) نفسه ، ٨ ص ٣٢٩ — ٣٣٢ .

(٩) ابن سعد ، ٣/١ ص ٧٩ فما بعدها ؛ Ency. de l'Isl. t 4, P. 31

(١٠) كان قد اشترك فى القادسية من قبل . الكامل ، ٢ ص ٣١٥ ؛ ابن الجوزى ، تاريخ عمر ، ص ٦٨ س ١٢ .

(١١) ياقوت ، معجم البلدان ، ٨ ص ٣٢٩ .

١٩ (٦٤٠) بفتح الفتوح[١] ، نظراً لأنها قصمت[٢] ظهر المقاومة الفارسية، وبعدها هرب يزدجزد بفلوله منسحباً نحو خُرَاسَان[٣] ، وهى البلاد الواسعة فى الشمال الشرقى من إيران .

فى نفس الوقت خرجت جيوش عربية عديدة من الكوفة والبصرة عبر الخليج الفارسى ؛ ليغزو بعضها خُوزِسْتان[٤] ، فى الزاوية المجاورة للخليج الفارسى ؛ فاستولت على مدن كثيرة منها : « اصْطَخر[٥] » (Persopolis) — العاصمة القديمة للفرس — و « جُندَيسَابور[٦] » المدينة الحصينة التى كانت معسكراً لأسرى الروم ، واستولوا أيضا على بعض الجزائر فى الخليج الفارسى ، وذلك بعد أن استخدموا السفن[٧] لذلك .

كذلك خرجت قوات أخرى للتوغل فى منطقة بلاد الجبال ، فاستولت على : دِينَور[٨] والرّى[٩] و هَمَذَان[١٠] وغيرها من المواقع ، فى سلسلة من الانتصارات الرائعة ، حتى أن الخليفة الذى تولى الخلافة بعد عمر اقتصر عمله على جنى الثمر .

(١) البلاذرى، فتوح، ص ٣٠٥؛ الدينورى، الأخبار الطوال، ص ١٣٤ . اختلف فى تاريخ فتحها، فقيل سنة ١٩ أو ٢٠ أو ٢١ . انظر معجم البلدان ، ٨ ص ٣٢٩ ؛ الكامل، ٣ ص ٢ .

(٢) معجم البلدان ، ٨ ص ٣٣١ .

(٣) تاريخ النسطوريين (فى P. O.) ١٣/٢ ص ٥٨١ [٢٦١] ؛ انظر عن هذه البلاد . ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٤٠٧ .

(٤) انظر. Sébêos, p. 101 .عن هذه البلاد انظر. معجم البلدان، ٣ ص ٤٨٨ــ٤٨٩ .

(٥) الكامل ، ٢ ص ٣٧٧ . انظر عنها ياقوت ، معجم البلدان ، ١ ص ٢٧٦ ؛ The Lands of the Eastern caliphate, p. 6; 275. : Le Strange ؛ Ency. de l'Isl. (art Istakhr) 2, p. 592 sqq.

(٦) الكامل ، ٢ ص ٣٨٧ . انظر عنها معجم البلدان ، ٣ ص ٤٨٩ ؛ ١٤٩ — ١٥٠ . هذه المدينة بناها سابور ذو الأكتاف ؛ وفتحت سنة ١٩ هـ .

(٧) انظر . Sebêos, p. 101 .

(٨) الذهبى ، دول الاسلام ، طبعة حيدر آباد ١٣٦٤ الثانية ، ١ ص ٤ ؛ البلاذرى ، فتوح ، ص ٣٠٧ ؛ انظر عنها ياقوت ، معجم البلدان ، ٤ ص ١٨٨ — ١٨٩ .

(٩) معجم البلدان ، ٤ ص ٣٥٥ فما بعدها . اختلف فى عام فتحها سواء أكان فى ١٩ أو ٢٠ هـ ، على يد عمار بن ياسر عامل الكوفة بعد سعد بن أبى وقاص .

(١٠) ابن الجوزى ، تاريخ عمر ، ص ٦٨ ؛ ياقوت ، ٨ ص ٤٧١ فما بعدها . فتحها المغيرة بن شعبة فى آخر حكم عمر حوالى سنة ٢٤ هـ .

رأى يزدجرد ضياع ملكه؛ فولى هارباً[١] إلى سجستان[٢] فى وسط الهضبة، ومنها إلى كرمان[٣] ومكران[٤] على البحر الهندى ، ثم إلى خراسان ، آملاً أن يجد من المرازبة — حكام المقاطعات — معاونة ليعود إلى مقاتلة العرب . ومع أنه قوبل من المرازبة بالحماس لمقاومة العرب ، إلا أن مرزبان خراسان كان قد حقد عليه لرفضه أن يزوجه ابنته ، وأزمع قتله بالاستعانة بخاقان[٥] الترك ، الذى رحب بالانتقام من عدوه الفارسى ؛ فاسرع يزدجرد وابنه فيروز بالهروب ، حيث هرب هذا الأخير إلى الصين[٦] لعله يجد فيها المعاونة ، وهى أكبر دول الشرق وقتئذ . ولكن القدر كان يقف ليزدجرد بالمرصاد ، فقد أرسل إليه مرزبان خراسان الخائن أحد اتباعه ليذبحه وهو مختبىء فى إحدى الطواحين[٧] ؛ وذلك سنة ٣١/٦٥١ ، فى عهد الخليفة الثالث عثمان . وبموت يزدجرد مات آخر الساسانيين ، وما زالت ذكرى جهاده تعيش بيننا متمثلة فى طائفة فى الهند تعرف بالپارسيين[٨] ، تؤرخ لنفسها من يوم توليته العرش .

وفى الواقع أن العرب وجدوا مقاومة شديدة من جانب الفرس ، كما وجدوا مشقة كبيرة فى استمالتهم على عكس ما حدث فى سوريا ؛ وذلك لأن الفرس كانوا يختلفون بجنسهم الآرى عن السوريين الذين كانوا من نفس جنس العرب . وسنجد أن فارس ستظل محتفظة بقوميتها متمثلة فى لغتها ونظمها العديدة التى

---

(١) الثعالبى ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٧٤٢ — ٧٤٣ .

(٢) معجم البلدان ، ٥ ص ٣٧ — ٣٩ .

(٣) نفسه ، ٧ ص ٢٤١ فما بعدها .

(٤) نفسه، ٨ص١٣٠ فمابعدها؛ الثعالبى، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص٧٤٥. (٥) هو لقب تركى معرب أصله «قاغان» انظر. Ency. de l'Isl (art Khâkân) 2, P. 926-7

(٦) لعله هرب أيضا إلى بلاد الترك . انظر عن هذا البلاذرى ، فتوح ، ص ٣١٦ ؛ بدر الدين الصينى ، العلاقات بين العرب والصين ، القاهرة ١٣٧٠/١٩٥٠ ، ص ٢٤ ؛ ٣٢

(٧) الثعالبى ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٧٤٥ .

(٨) انظر . Menant : Les Zoroastriens de Perse R.M.M. vol 3. 10; 11-12. 193—221; 421 — 453. Ency. de l'Isl. ; Oct. et Nov. 1907; (art Pârsîs) t 3, p. 1097 — 1098.

ستنتقل إلى الحضارة العربية ، بل إن الاسلام نفسه سيتطور[١] فى فارس إلى مايعرف بالمذهب الشيعى[٢] ، بحيث أصبح الاسلام بصفة عامة حتى وقتنا الحاضر سنة وشيعة .

وبعد أن قام العرب بالاستيلاء على العراق والشام ، وخلال انتصاراتهم على الفرس فى إيران ، عمدوا بعد ذلك إلى الاستيلاء على ما يسمونه : « الجزيرة[٣] » أو مايعرف لليونان باسم ميزوبتاميا « Mesopotamia[٤] » : وهى المنطقة الشمالية الخصبة بين دجلة والفرات ، التى تجاور الشام ، وتمتد إلى منطقة الدروب[٥] عند سلاسل جبال طوروس والجبال[٦] الفارسية .

وقد كان يسكن هذه المنطقة عناصر مختلفة ، منها : الآراميون الذين عرفوا غالباً باسم لهجتهم : « السريان[٧] » ؛ ولكن قبل الاسلام كان غالبية سكانها من العرب الذين — على ما يظهر — جاءوها نتيجة للغزوات أو الغارة[٨] ، فخالطوا أهلها وكثروا بها ، أو لعلهم هاجروا إليها فى عهد الساسانيين[٩] ؛ حتى

(١) انظر René Grousset : L'Ame de l'Iran. Paris 1951, P. 8-9.

(٢) انظر . Aubin : Le Chiisme et la nationalité persane. R. M. M. vol 4, Mars 1908 n. (3), p. 457 sqq.

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٩٦ . تسمى أيضا « جزيرة أقوز » وإن كنا لا نعرف سبب هذه التسمية .

(٤) Strabo : Geog 1 : 2 ; 34 (Book 1, p. 153) ؛ انظر . Le Strange : The Lands of the Eastern Caliphate, P. 24.

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ٤ ص ٤٩ . وهذه الكلمة تعنى الطريق بين الجبال . انظر نفسه ، ٤ ص ٤٨ .

(٦) انظر . قبله .

(٧) مراد كامل والبكرى ، تاريخ الأدب السريانى ، القاهرة ١٩٤٩، ص ١٣، وهو لفظ اطلقه اليونان على من يتكلمون احدى اللهجات الآرامية فى هذه المنطقة .

(٨) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٩٧ .

(٩) نفسه ؛ إنظر . Le Strange : The Lands of the East. Cliph, P. 86

كانت الجزيرة بالنسبة لهم « دياراً[١] » ، عرفت بأسماء قبائلهم التى استقرت فيها مثل : ديار ربيعة ومضر وبكر وتغلب[٢] ؛ كما وجـــدت فيها بعض عناصر من السكان المجاورين من الأرمن والـكرد والفرس .

وقد عرفت هذه المنطقة ديانات متعددة قبل الاســلام ، منها على الخصوص ديانة مجهولة الأصل يسميها المؤرخون العرب «الصبائية[٣]» أو «الصابية[٤]» ، التى مركزها حرّان[٥] فى وســط الجزيرة؛ وقد كان أخص ما يميزها الاعتراف بخالق[٦] هو سيد الأرواح «روحانيات[٧]»؛ ولذا سُمى أيضاً «رب الأرباب[٨]» ، وكان الصعود[٩] إليه هو بالقيام بصلوات[١٠] — تشبه صلوات الفرس — عددها سبعة ، والصوم ثلاثين يوماً . كذلك كانت هذه الديانة تعترف بمعلمين أشبه بالأنبياء منهم شيت وادريس[١١] مما يدل على قدمها ، ولها كتب منها صحف شيث[١٢] أو «الـكنز الـكبير[١٣]» . ولـكن قبل الاسلام حدث لهذه الديانة المجردة ما حدث للحنيفية فى الجزيرة العربية ، فتحولت

(١) نفسه؛ انظر .Id

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٩٦ ؛ اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٢٩٨ س ٢٠ .

(٣) الرازى ، اعتقادات ، ص ٩٠ .

(٤) الشهرستانى ، الملل والنحل ، ١ ص ١٨٠ ؛ ٢ ص ٢٤٤ . وهى كلمة سريانية (التنبيه ١ ص ٩٠ — ٩١) لعلها اسم أحد الفلاسفة أو المعلمين (أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ١٣٢٥ هـ ، ١ص ٨٢) أو أصلها من فعل « صبأ » أى خرج من دين إلى آخر ؛ على أنهم فى الظاهر نصارى وفى الباطن عبدة الـكواكب . المصباح المنير ، ١ ص ٥٠٩ .

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٢٤٢ ؛ انظر Ency. de l'Isl. (art al - Sâb'a), 4, P. 23

(٦) الرازى ، اعتقادات ، ص ٩٠ ؛ أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ٨٢ .

(٧) الشهرستانى ، الملل ، ١ ص ١٨٠ ، انظر Ency. de l'Isl. 4, p. 22 . لعلها الملائـكة . المقريزى ، الخطط المقريزية ، طبعة مصر ١٣٢٤ ، ١ ص ٣٦٨ س ١٦ .

(٨) نفسه ، ٢ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(٩) نفسه ، ٢ ص ٢٢٦ .

(١٠) أبو الفدا ، ١ ص ٨٢

(١١) نفسه ؛ الشهرستانى ، ٢ ص ٢٠٦ ؛ ٢٤١ .

(١٢) أبو الفدا ، ١ ص ٨٢

(١٣) الأدب السريانى ، ص ١٢ . لا نعرف شيئاً عن هذا الـكتاب ، وإن كان لابد أنه يحتوى على عقيدة الصابية .

إلى عبادة النجوم[١]، والسيارات[٢] السبع : كزحل والمريخ والمشترى والشمس والقمر.. الخ ، أو ماعرف « بالهياكل[٣] » ، على أنها عاليه[٤] رمز للروحانيات . كما أنهم جعلوا لها صوراً[٥] وتماثيل ، أو ماعرف « بالأشخاص[٦] » ؛ فظهر من هنا عبادة الكواكب[٧]، وسموا : بعبدة[٨] الكواكب أو عبدة الأصنام[٩] . كذلك انتشرت فى الجزيرة النصرانية[١٠] المتأثرة بعقيدة بيزنطة ، وبخاصة النسطورية[١١] ، بحيث أن قبيلة تغلب[١٢] العربية كانت نصرانية ، كما أنه انتقلت إليها المجوسية[١٣] من فارس .

وقد نشأت فى هذه البلاد التى كانت فى طريق الغزاة والهجرات منذ أقدم العصور دول عديدة أشهرها : أشور[١٤] « Assyria » ، التى كانت عاصمتها نينوى[١٥] « Ninve » على الدجلة . ولكن بعد أن ظهرت فى إيران دول قوية ، أصبحت الجزيرة موضع نزاع بينها وبين الدول المسيطرة فى البحر الأبيض .

---

(١) الرازى ، اعتقادات ، ص ٩٠ .

(٢) الشهرستانى ، ١ ص ١٨١ ؛ ٢ ص ٢٢٤ .

(٣) نفسه ، ١ ص ١٨٠ .

(٤) نفسه ، ٢ ص ٢١٣ .

(٥) الرازى ، اعتقادات ، ص ٩٠ .

(٦) الشهرستانى ، ١ ص ١٨٠ ؛ ٢ ص ٢٤٥ .

(٧) الرازى ، اعتقادات ، ص ٩٠ .

(٨) الشهرستانى ، ١ ص ١٨٠ .

(٩) نفسه ، ١ ص ١٨١ .

(١٠) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٧٣ — ١٧٤ ؛ انظر Nau : Les Arabes, Chrétiens de Mesopotamie et de Syrie du VIIe au VIIIe siècle. Paris 1933, p. 5.

(١١) سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٥٨ ؛ انظر Bell : The Origin of Islam, p. 9 — 10 ; 24 — 25.

(١٢) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٢٩٨ س ٢٠ .

(١٣) سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٥٨ ؛ انظر Nau : Op. cit, p. 24.

(١٤) انظر Le Strange : The Lands of the East. Caliph, p. 24.

(١٥) Ibid ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ٨ ص ٣٦٨ .

ومع ذلك فقد ظهر فيها دويلات مستقلة عن هذه الدول الكبرى — تشبه الدويلات الحاجزة فى الشام — ولعل أشهرها دويلة الرُّها[١] « Edessa » : فهذه الدويلة كان يسكنها عناصر آرامية[٢] أو عربية[٣] ، بدليل أسماء[٤] ملوكها مثل أبجر ووائل ومعين ؛ وقد يكون الفرس[٥] هم الذين قضوا عليهم . أما قبل الاسلام ، فكانت هذه البلاد طائفة منها للروم[٦] ، وطائفة للفرس ، أى أنه لم يكن لها كيان مستقل .

ونحن لا نعرف سبباً للغزو العربى فى هذه المنطقة ؛ إلا أن العرب كانوا راغبين فى تأمين[٧] فتوحاتهم فى الشام والعراق وفارس ، بدليل أن فتح الجزيرة جاء مترتباً على السير فى حركة الفتوح ؛ خصوصاً وأن العرب كانت تقدر سهولة[٨] فتح هذه البلاد الغنية[٩] التى تقع بين العراق والشام الخاضعين لهم . ويظهر أن غزوها كان قد قرر فى مؤتمر الجابية[١٠] ، أو أنه جاء من جانب قائد الشام أبى عبيدة[١١] أو حتى من جانب قائد فارس سعد بن أبى وقاص[١٢] . كذلك يبدو أن الدافع إلى غزو الجزيرة ، هو أن الجيوش البيزنطية كانت لا تزال تحتفظ فيها ببعض المواقع[١٣] ، على الرغم من هزيمتها فى الشام .

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ٤ ص ٣٤٠ — ٣٤١ ؛ انظر . الأدب السريانى ، ص ١٢ . وتسمى أيضاً « أذاسا » . نفسه ، ١ ص ١٥٩ .

(٢) الأدب السريانى ، ص ١٢ .

(٣) يقول ياقوت إنهم قبيلة من مذحج . معجم البلدان ، ٤ ص ٣٤٠ .

(٤) الأدب السريانى ، ص ٢ ؛ ٢٣ — ٢٤ .

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٩٧ .

(٦) نفسه ، ٤ ص ٤٩ ؛ أبو يوسف ، الخراج ، ص ٤٦ .

(٧) انظر . Cheira : La lutte, p. 47

(٨) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٩٧ .

(٩) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٧٣ .

(١٠) نفسه ، ٣ ص ٩٨ .

(١١) نفسه .

(١٢) نفسه ، ٣ ص ٩٧ .

(١٣) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٤٦ .

وقد بدأ العرب غزوهم بلاد الجزيرة فى آخر سنة ١٨[١] (٦٣٩) بقيادة عياض[٢] بن غنم ؛ فاستولى على أهم مدنها ومنح بعضها الأمان، مثل : الرَّقَّة[٣] على الفرات، وحَرَّان[٤] القديمة « Carrhae »، والرُّها[٥] التى اتخذها معسكراً[٦] لفتح بقية المدن ؛ بحيث وصلت جيوشه إلى طرف بلاد الروم عند سُمَيْسَاط[٧] « Samosate » ، وإلى حدود أرمينية[٨] عند نينوى عاصمة آشور القديمة ، فبنى بجوارها مدينة المَوْصِل[٩] .

بعد فتح الجزيرة وجه العرب حملة لفتح مصر[١٠] : وهى البلاد التى تحيط بنهر النيل من حدود أرض النوبة[١١] إلى ساحل البحر الأبيض ، ومن بَرْقة[١٢] إلى

(١) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٧٢ . اختلف فى تاريخ الفتح فقيل أيضاً سنة ١٩ . ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٣٩٤ .

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٧٢ . توفى سنة ٢٠/٦٤٠ . الكامل ، ٢ ص ٣٩٨ .

(٣) نفسه ؛ معجم البلدان ، ٤ ص ٢٧٢ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢٧٠ .

(٤) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٧٤ ؛ معجم البلدان ، ٣ ص ٢٤٣ . فى النقوش المسمارية خارنو : بمعنى طريق . انظر . شيدر ، روح الحضارة العربية ، ترجمة وتعليق بدوى ، بيروت ١٩٤٩ ، ص ٩٩ حاشية (١) .

(٥) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٧٤ .

(٦) نفسه ص ١٧٥ ؛ انظر . Cheïra : La lutte, p. 48.

(٧) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٧٤ — ١٧٥ ؛ Sebêos, p. 99sqq. ؛ انظر . Cheïra : La lutte, p. 49. عن هذه البلدة ؛ انظر . معجم البلدان ، ٥ ص ١٣٨ .

(٨) انظر . بعده .

(٩) تاريخ النسطوريين (فى P.O.) ، ١٣/٢ ص ٦٢٨ [٣٠٨] . عن الموصل انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٨ ص ١٩٥ فما بعدها .

(١٠) انظر . عنها ياقوت ، معجم البلدان ، ٨ ص ٦٨ .

(١١) انظر عنها . الادريسى ، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، تحقيق de Goeje و Dozy ، طبعة Leyde ، ١٨٦٦ ، ص ١٣ ؛ انظر . بعده . هذه البلاد التى تقع جنوب مصر ، قد تكون نسبة إلى مدينة نوابه وبها عرفوا ؛ انظر بعده .

(١٢) هو صقع كبير يجاور اسكندرية . انظر . معجم البلدان ، ٢ ص ١٣٣ . انظر . بعده .

ساحل البحر الأحمر . وكانت هذه البلاد تسمى قديماً بلسان أهلها « كمت[١] » أى الأرض السوداء ، وذلك على عكس المنطقة التى تحيط بها ، فكانوا يسمونها « دشرت » — ومنها أخذت الكلمة الأوربية « Desert » — ويقصدون بها الأرض الحمراء أى الصحراء . ولكن غلبت على هذه البلاد التسمية اليونانية : « Aegyptos »[٢] — ومنها أخذت الكلمة الأوربية « Egypte » — التى لعلها مشتقة من أحد أسماء منف القديمة عاصمة مصر ؛ وهى التى ستنتقل مختصرة إلى العرب بلفظة « القبط[٣] » للدلالة على أهل مصر المسيحيين ؛ فهذه الكلمة الأخيرة مأخوذة من المقطع الأخير من « Aegyptos » . ويظهر أن مصر لم تسم مصر إلا من الساميين أو من العرب ، حيث تعنى : الأرض التى على الحدود[٤] أو الحضر[٥] أو الكثيرة[٦] الخيرات ؛ وقد ورد ذكرها فى القرآن[٧] عدة مرات ، مما يدل على أنها كانت معروفة للعرب فى الجاهلية بهذا الاسم .

ويسكن هذه البـــلاد منذ قديم الزمان جنس جمع خصال الحاميين[٨] والساميين ؛ وإلى عهد الفراعنة لم يكن فيه إلا أثر ضعيف من الجنس الزنجى . وقد

---

(١) انظر . Driot et Vand : Op. cit., p. 3 . وربما اشتقت كلمة « كيمياء » ، لتدل على العلم الخاص بتحويل العناصر .

(٢) Strabo : Geog. 1. 2. 29 (Books 1 — 11) p. 131 ؛ انظر . Ency de l'Isl. (art Egypte) t, 2. p. 5.
أصل هذه التسمية غامض ؛ كما أن الأشوريين كانوا يسمونها « هيكوبتاه » أى بيت روح بتاح . انظر . مراد كامل ، القبط فى ركب الحضارة ، صفحة من تاريخ القبط ، الاسكندرية ١٩٥٤ ، ص ٩ .

(٣) أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ٨٢ ؛ انظر . Ency de l'Isl. 2, p. 5.
يذكر المقريزى أنه اسم جد للمصريين . الخطط ، ١ ص ٢٨ ؛

(٤) لسان العرب ، ٧ ص ٢٣ — ٢٥ ؛ انظر . صفحة من تاريخ القبط ، ص ٩ . ينسب المقريزى « مصر » أيضا إلى شخص (الخطط ، ١ ص ٢٨ فما بعدها) وهى لم ترد فى كتاب يوحنا النقيوسى إلا لتعنى اسم بليدة غامضة . انظر ما قيل عن ذلك فى : Ency. de l'Isl. (art Misr) t3. p. 591

(٥) تفسير الطبرى ، تحقيق محمود شاكر ، ٢ ص ١٣٢ .

(٦) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٣٤ .

(٧) القرآن ١٠ : ٨٧ ؛ ١٢ : ٢١ ، ١٠٠ ؛ ٤٣ : ٥٠ .

(٨) انظر . Driot et Vand : Op. cit, p. 3; 18.

استطاع هذا الجنس أن يكون حضارة تعتبر من أقدم الحضارات[١]، التي يمتد تاريخها السياسي إلى أكثر من خمسة آلاف سنة قبل الميلاد . ولكن مصر فقدت استقلالها بفتح الاسكندر الأكبر في ٣٣٢[٢] ق٠م ، وخضعت بعد ذلك للبطالمة والرومان والبيزنطيين ، إلى أن جاءها العرب كغزاة . ومع ذلك فمصر خلال احتلال هذه الشعوب الغربية عنها ظلت تكون شعباً منفصلاً في الجنس[٣] واللغة[٥] ، والتقاليد .

ومع أن مصر عاشت بدينها الأول آلاف السنين ، إلا أنها اضطرت إلى تركه في ظل الحكم الروماني ، بسبب أن المحتل شوهه بما أدخله فيه من عباداته وعبادة ملوكه أو أباطرته ؛ ولذلك تحولت منذ وقت مبكر إلى المسيحية التي كانت تنادي ضد الظلم الروماني ،وكانت في جوهرها[٥] قد تشبه ديانتها القديمة . فلعل المسيحية انتشرت في مصر على يد أحد تلاميذ المسيح ، وهو القديس مرقس[٦] ، كما أنه قد ظهر فيها قبل أي مكان آخر نظام الرهبنة[٧] ؛ وإن كان لا ريب

---

(١) انظر . Ibid, p. 16 sqq. ؛ انظر أيضا ما يقوله ابن صاعد الأندلسي، طبقات الأمم ، ص ٣٨ فما بعدها :

(٢) انظر . بل ، مصر ، ترجمة عواد وعبد اللطيف ، ص ٦٠ .

(٣) انظر . Blackman : Les Fallahs de la Haute-Egypte. trad- Franc. Marty, Paris 1948, p. 15. وهو يبحث عن الأصل المصري من الناحية الانثروبولوجية حتى وقتنا .

(٤) انظر Driot et Vand : Op. cit, p. 7 — 8 حيث أن اللغة القبطية هي آخر مظهر للغة المصرية القديمة . انظر . صفحة من تاريخ القبط ، اللهجات القبطية ، بقلم يسى عبد المسيح، ص٣٦؛ انظر أيضا . Crum : Coptic Dictionary, Oxford 1929.

(٥) فمثلا الثالوث في المسيحية يشبه ثالوث أوزوريس وايزيس وحوريس في الديانة المصرية القديمة ؛ كذلك الإيمان بحياة آخرة وخلود الروح والثواب والعقاب: صفحة من تاريخ القبط ، ص ٦٠ .

(٦) سعيد بن بطريق ، ١ ص ٩٥ س ٥ — ٦ .

(٧) أول راهب هو أنبا أنطوان الذي بنى الديارات وجمع الرهبان . انظر . سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٣٧ س ٢٠ — ٢١ ؛ انظر . O'Leary : The Coptic Churches and Egyptian Monasticism. The Legacy of Egypt ed Glanville) Oxford 1941, p. 317sqq.

فى أن المسيحية انتشرت فى جميـــع أنحاء مصر فى القرن الثالث الميلادى ، بدليل كثرة روايات اضطهاد الدولة الرومانية وتعذيبها[1] للمصريين . وحتى بعد أن جاءت بيزنطة — وارثة الرومان فى الشرق — التى جعلت ديانتها الرسمية المسيحية، نجد أن المسيحيه المصرية تتخذ صبغة تتفق وعقلية أهلها : وهو الاعتقاد فى الطبيعة[2] « Phusis » الواحدة للمسيح ، أو ما عرف بالأرثوذكسية[3] أى الدين الصحيح، أو أيضا اليعقوبية[4] نسبة إلى يعقوب البراذعى الذى بشر بها ؛ وذلك على عكس البيزنطيين الذين قالوا بالطبيعتين[5] الإلهية والبشرية للمسيح ، أو ما عرف بالمذهب الملكانى[6]، نسبة إلى الملك أو الامبراطور البيزنطى . وقد كان هذا الموقف الدينى من جانب المصريين — على الرغم من المجامع[7] التى عقدت لتقريب وجهات النظر — سبباً فى أن جعل المسيحية فى مصر تواكبها حركة قومية[8] منذ ظهورها ، خصوصاً وأن البيزنطيين كانوا كالرومان يضطهـدون المصريين اليعاقبة ، ويزيلون بطاركة[9] كنيستهم ؛ ويستحلون سفك دمائهم[10] ولـكن المصريين قاوموا البيزنطيين كما فعلوا مع الرومان من قبل ،وكانوا يثورون ويقتلون[11] بطاركة

---

(١) انظر . Milne : A History of Egypt under Roman Rule, London 1924, p. 128; 212.

(٢) سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٩٥ س ١٦ ؛ ابن حزم ، الملل ، ١ ص ٤٩ .

(٣) سعيد بن بطريق، ١ ص ١٤٨ ؛ انظر Munier : L'Egypte Byzantine. Précis de l'hist - d'Egypte t 2. Paris 1932, p. 48 ؛ سيدة كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٥ .

(٤) نسبة إلى يعقوب البراذعى الذى سمى هكذا ، لأنه كان يلبس البراذع والثياب البالية المخرقة ؛ وهو قس من أهل نصيبين . تاريخ النسطوريين (.P. O) ٧/٢ ص ١٤١ [٤٩] ؛ سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٩٥ .

(٥) سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٨٢ س ١٨ .

(٦) لعل هذه الـكلمة نسبة إلى شخص ظهر ببلاد الروم (الشهرستانى، ١ ص١٧٣) ؛ أو نسبة إلى ملك أى الامبراطور البيزنطى . انظر . قبله .

(٧) مثل مجمع نيقيـــة فى ٣٢٥ وافسوس فى ٤٣١ وخلقدونية فى ٤٥١ . سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٥٥ ؛ ١٥٧ ؛ انظر . بعده .

(٨) ساويرس ، سير الآباء البطاركة (.P. O) ، ١ ص ٤٩٨ ؛ انظر . Munier : Op. cit, p. 48 ؛ بل ، مصر ، ص ٢٢٢ .

(٩) هذه الـكلمة تعريب الـكلمة اللاتينية Patricius . انظر . قبله .

(١٠) سعيد بن بطريق ، ١ ص ٢٠٠ س ٥ — ٦ .

(١١) نفسه .

أعدائهم . ويولون عليهم سراً بطاركة من عندهم عرفوا فى أول الأمر باسم «البابا[(١)]» ، ليتميزوا عن البطاركة البيزنطيين . وأخيراً لما جاء الامبراطور هرقل[(٢)] «Heraclius» أرسل نحو المصريين فى عام ٦٣١م[(٣)] حاكماً «Praefectus Augustalis» كان قد عرف بقسوته فى القوقاز ، اسمه كيروس[(٤)] «Cyrus» ـ وإن سماه المصريون سخرية بالمقوقس[(٥)] أى القوقازى ـ ليحول المصريين إلى عقيدة بيزنطة . ولكن بنيامين[(٦)] «Benjamin» البطريرك المصرى أرسل إلى القسوس والشعب يطلب إليهم المقاومة والتمسك بمذهبهم ، وهرب بنفسه إلى الصحراء فى أديرة الرهبان ، واستمر فى مخبئه حتى جاء العرب .

وقد عهد الخليفة عمر بفتح مصر إلى عمرو[(٧)] بن العاص ، أشهر قواد المسلمين بعد خالد ـ وكان أسلم معه سنة ثمان[(٨)] ـ واشترك[(٩)] فى قمع الردة ، ويرجع إليه الفضل فى فتح فلسطين المجاورة لمصر . ويوصف هذا الفاتح بأنه كان قصيراً عظيم الهامة مريض

---

(١) نفسه ، ٩٦ س ٤ فما بعدها ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٨٥ . وهى مأخوذة من الكلمة أب أى جد ، وستنتقل هذه الكلمة إلى أسقف روما لتدل عليه ؛ بحيث أن بطريرك مصر سيعرف فقط « بأنبا» .

(٢) انظر . Chronique de Jean, publ. et trad. par Zotenberg, Paris 1879. p. 237.

(٣) بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ١ ص ١١٨ ؛ بل ، مصر ، ص ٢٥٦ .

(٤) Chronique de Jean, p. 237

(٥) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، تحقيق Torrey ، طبعة New Haven ، ١٩٢٠ ، ص ٧٢ س ١٧ . وهو الذى يسمونه خطأً عظيم القبط ؛ وإن كان يبدو بوضوح أنه رومى (نفسه ، ص ٧٢ س ١٧ ؛ انظر . بتلر ، فتح العرب لمصر ، عربه محمد فريد أبو حديد ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٣٧٥ فما بعدها) ؛ وإن كان أصل تسمية المقوقس غامضة . انظر Ency. de l'Isl (art Al-Mukawkas), t3, p. 761sqq ؛ أيضاً . Lane-Poole : A History of Egypt, London 1901, p. 6—7: n (1)

(٦) ابن عبد الحكم ، ص ٥٨ س ٢١ يسميه أبو يامين ؛ انظر . Lane-Poole : A History of Egypt, p. 2.

(٧) المعارف ، ص ١٤٥ — ١٤٦ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art 'Amr B. al-'As) t1, p. 338 sqq.

(٨) المعارف ، ص ١٤٦ ؛ انظر . قبله .

(٩) انظر . قبله .

مابين المنكبين(١) ، معروفاً بالدهاء(٢) وهو مظهر الزعامة بين العرب ، وأنه عارف(٣) بمصر التي دخلها في الجاهلية . وقد صحبه في الحملة على مصر بعض مشاهير الصحابه(٤) وأبنائهم ؛ مما يدل على أهمية هذه الغزوة .

وعلى العكس تحاول بعض الروايات(٥) العربية أن تجعل فكرة غزو مصر آتية من عمرو بن العاص وحده، وأنه أخذ على عاتقه السير إلى مصر على الرغم من أن الخليفة عمر كان غير راغب فيه ، وأنه أرسل إليه كتاباً(٦) يأمره بالرجوع إلا إذا كان دخل في أرض مصر ؛ ولكن القائد المخاطر لم يُلق بالاً إلى أوامر الخليفة واجتاز الحدود المصرية ، ليضع خليفته أمام الأمر الواقع . ولكننا نرى أن مثل هذه الرواية ليس لها أساس واقعي(٧) ؛ ففتح مصر قد يغلب عليه أنه أتى نتيجة تفكير الخليفة وقواده في مؤتمر الجابية(٨) حين محيئة الشام ، لأهميته بالنسبة للامبراطورية العربية الناشئة - ولعل التردد الذى تنسبه الرواية العربية إلى عمر ؛ قد يكون مبعثه تخوفه(٩) على سلامة المسلمين . ولدينا نص قاطع أورده ابن اسحق(١٠) يأمر فيه الخليفة عمرو بن العاص بالتوجه بعسكره إلى مصر ، بمجرد قراءة كتابه ؛ مما يدل على أن خطة الفتح كانت مدبرة من قبل الخلافة نفسها .

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٥٨ س ٤ — ٥ .

(٢) الجاحظ ، رسالة برأيه في معاوية والأمويين ، تحقيق عزت العطار ، مصر ١٣٦٥/١٩٤٦ ، ص ١٥ — ١٦ .

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٥٣ س ١٧ فما بعدها ؛ انظر . على ابراهيم، مصر في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٢٣ .

(٤) المقريزى ، الخطط المقريزية ، ٢ س ٧٤ .

(٥) ابن عبد الحكم ، ص ٥٣ س ١٧ .

(٦) نفسه ، ص ٥٦ — ٥٨ ؛ سعيد بن بطريق ، ٢ ص ٢١ .

(٧) انظر . Wellhausen : Skizzen und Vorarbeiten, Berlin 1899, VI, p. 93.

(٨) ابن عبد الحكم ، ص ٥٣ س ١٧ . وهى قرية قرب دمشق . انظر . معجم البلدان ، ٣ ص ٣٣ .

(٩) سعيد بن بطريق ، ٢ ص ٢١ س ٢ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٥٦ س ٤ ؛ انظر. Cheira : La lutte, p. 51.

(١٠) فتوح مصر وأعمالها ، القاهرة ١٢٧٥هـ ، ص ٤ .

ففتح مصر كان ضرورياً للقضاء على كل محاولة بيزنطية لاستعادة سورية ، ولعل التفكير فيه حدث بعد اليرموك[١] مباشرة : فقد كان على العرب أن يعملوا ألف حساب لرد فعل يأتى من جانب الجيوش البيزنطية الكثيرة فى مصر ؛ خصوصاً وأن بعض قوات[٢] فلسطين كانت قد انتقلت إليها ؛ هذا وحتى لا تقع جيوش العرب بين رحى[٣] جيوش آسيا الصغرى ، وجيوش مصر .

ومن ناحية أخرى كان احتلال بيزنطة لسواحل مصر وما تهيئه لأساطيلها من قوة بحرية ، فيه تهديد للجزيرة العربية نفسها من هجوم اسطول بيزنطى فى البحر الأحمر على سواحلها ، أو فى البحر الأبيض على سواحل سورية . ولعل العرب أنفسهم طمعوا فى احتلال سواحل مصر بقصد إنشاء قوة بحرية[٤] ، تمهيداً للتغلب على البيزنطيين فى البحر كما تغلبوا عليهم فى البر .

وأخيراً لا ننسى أن مصر كانت معروفة عند العرب من الذين زاروها[٥] منهم فى الجاهلية أو من تجار[٦] القبط الذين كانوا يذهبون إليهم بثرائها الواسع ؛ فهى فى نظرهم الدرة[٧] السوداء أى الخصبة ، وأنها أكثر من سورية والعراق أموالاً[٨] ؛ مما يجعل من فتحها قوة[٩] للمسلمين وعوناً لهم . فضلاً عن إمكان إضعاف بيزنطة بحرمانها من هذا القطر الغنى بميرته[١٠] ورجاله .

---

(١) انظر . La lutte, p. 51. : Cheïra

(٢) الطبرى (Annales) ، ١ : ٢٤٠٤ ؛ انظر . شكرى فيصل ، حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٨٤ .

(٣) انظر . La lutte, p. 51. : Cheïra

(٤) الخطط ، ٣ ص ٣١٧ ؛ ٣١٩ ؛ انظر . La lutte, p. 51. : Cheïra

(٥) انظر . قبله .

(٦) السيوطى ، حسن المحاضرة ، مصر ١٣٢٧ هـ ، ١ ص ٦٩ س ٤ .

(٧) ابن عبد الحكم . ص ٤ س ٨ .

(٨) ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ٣٧٧ .

(٩) نفسه .

(١٠) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٥١ .

على كل حال اجتاز الجيش العربى الحدود المصرية من ناحية الشام سنة ١٨/٦٣٩[١]، فى فئة يسيرة تبلغ أربعة[٢] آلاف جندى: فاستولى على رَفح[٣] أول رمال الصحراء المصرية، ثم العَريش[٤] على ساحل بحر الروم وكان يسكنها قوم من العرب المتنصرة، ثم سار بقرب الساحل فى طريق صحراوى وعر مملوء بالكثبان إلى أن وصل إلى الفرَما[٥] «Pelusium» القديمة، حصن على الساحل معظم سكانه من القبط[٦]، فوقعت فى أيدى العرب بعد حصار استمر نحواً من شهرين[٧]، قاتل القبط والروم فيهما قتالاً شديداً[٨]؛ وبسقوطها أمّن العرب الطريق المؤدية إلى مصر، وربطوا بينهم وبين قواعد تموينهم فى الشام.

بعد الفرَما سار العرب إلى بِلبيس[٩] فى أول الدلتا، حيث قاتلوا فيها، ومنها ساروا إلى عَين شمس[١٠] «Heliopolis» أو أون[١١] القديمة، وكان معظم حاميتها من القبط ومن أهل النوبة «النوب»[١٢]، حيث قاتلوا العرب حتى أشرفوا

(١) اختلف فى تاريخ الحملة. انظر. الكامل، ٢ ص ٣٩٤؛ معجم البلدان، ٦ ص ٣٦٨.

(٢) ابن عبد الحكم، ص ٥٦ س ٦. اختلف فى عددهم، فقيل أيضا ثلاثة آلاف وخمسمائة.

(٣) نفسه، ص ٥٦ س ١٦؛ معجم البلدان، ٤ ص ٢٦٦؛ ٦ ص ٣٧٧.

(٤) ابن اسحق: فتوح مصر، ص ١٢ س ١٩؛ معجم البلدان، ٦ ص ١٦٢؛ ٣٧٧.

(٥) ابن عبد الحكم، ص ٥٨ س ١٨. قد يكون اسم يونانى (معجم البلدان، ٦ ص ٣٦٧ فما بعدها)، أما بلوزيم «Pelusium»، فهى على اسم أحد أفرع النيل. Strabo : Geog. 1: 2: 31 (Book I) p.141؛ انظر. Lane-Poole : History of Egypt, p. 2.

(٦) معجم البلدان، ٦ ص ٣٦٨.

(٧) نفسه، ٦ ص ٣٧٨. يقول سعيد بن بطريق، (٢ ص ٢٢ س ٣) أن حصارها كان شهراً. انظر أيضا ابن عبد الحكم، ص ٥٨ س ١٨.

(٨) معجم البلدان، ٦ ص ٣٦٨. يذكر ابن عبد الحكم أن القتال من جانب الروم ابن عبد الحكم، ص ٥٨ س ١٨.

(٩) معجم البلدان، ٢ ص ٢٦٢؛ ٦ ص ٣٧٨؛ المقريزى، الخطط، ١ ص ٢٩٦؛ ابن عبد الحكم، ص ٥٩.

(١٠) معجم البلدان، ٦ ص ٢٥٦.

(١١) انظر. Chronique de Jean, p. 231.

(١٢) القلقشندى، ١٣ ص ٣٢٤. هذا يدل على أن الأواصر القديمة بين الشعبين كانت وطيدة، حتى عندما جاء العرب إلى مصر.

على الملكة[١] ، ولكنهم سلموا أخيراً فمنحهم العرب الأمان؛ وبعد ذلك سار هؤلاء إلى أمّ دُنَين[٢] القريبة — ولعلها اسم عربى لمنف[٣] القديمة — فقاتلهم الروم فيها بشدة بقيادة Theodoros[٤] البيزنطى ، ولكن الروم هُزمت حينما وصل للعرب مدد[٥] عبر الصحراء بقيادة الزبير بن العوام أحد الصحابة . ثم أحاط العرب بمركز حصين قرب النيل اسمه بابليون[٦] « Babylonia » أو فقط « الحصن »[٧] أو حتى « قلعة الشمع[٨] » ؛ كان فيه الروم وكيروس الحاكم البيزنطى ، ومعهم حامية من القبط[٩] قاتلت العرب بحماس ، وكانت ترى أن الموت أهون إليها من التسليم .

ولما طال الحصار دخل كيروس فى مفاوضات[١٠] مع عمرو بقصد عقد هدنة[١١] ؛ وإن كنا لا نعرف السبب الذى دفعه إلى ذلك : فلعله قدر

---

(١) نفسه ، ١٣ ص ٣٢٤ ؛ الكامل ، ٢ ص ٣٩٥ — ٣٩٧ .

(٢) هى المقس فى عهد الفاطميين (قرب الأزبكية حاليا) معجم البلدان ، ١ ص٣٣٣ ؛ ٦ ص ٣٧٨ .

(٣) انظر عن هذا Lane-Poole : Hist. of Eg, p. 3; n (1).

(٤) انظر . Sebêos, p. 230 ; Ency. de l'Isl, 2, p. 6

(٥) ابن عبد الحكم ، ص ٥٩ س ١٢ فما بعدها ؛ ص ٦١ ؛ انظر . Chronique de Jean. p. 231 ؛ سعيد بن بطريق ، ٢ ص ٢٢ . اختلف فى عدد المدد ، فقيل أربعة آلاف (نفس المراجع) . وفى رواية أخرى اثنى عشر ألفا ؛ وأنه جاء تباعا . معجم البلدان ، ٦ ص ٣٧٨ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٥٦ س ٩ ؛ انظر . بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٧٢ :

(٦) ابن عبد الحكم ، ص ٦١ س ٢ . هو حصن قديم (الخطط ، ٢ ص ٦١) ؛ ولعله سمى هكذا بسبب أن أحد فراعنة مصر جلب جماعة من أسرى بابل وأنزلهم فى هذا المكان (انظر ماقاله بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص١٨١) ، أو لعله مشتق من اسم مصرى قديم (انظر . Ency. de l'Isl, (art Babylone) I,p. 560 — 561) ، وبقاياه لا زالت حتى موجودة الآن : انظر . Guest : The Foundation of Fustat, J. R. A. S.1907, p. 49sqq.

(٧) ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ٣٧٩؛ ابن عبد الحكم ، ص ٦٩ .

(٨) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٦١. لعله سمى هكذا لأنه كان يوقد عليه الشمع .

(٩) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٥١ س٢ .

(١٠) ابن عبد الحكم ، ص ٦٣ س ١٧ ؛ السيوطى ، حسن ، ١ ص ٥١ .

(١١) الكامل ، ٢ ص ٣٩٧ س ٦ — ٧ .

الهزيمة أو رغب فى كسب الوقت للمقاومة . ولكن كان على كيروس أن ينقل شروط الهدنة إلى هرقل ليقرها[١] أوعلى الأقل يكتب إليه ليعلمه [٢] ؛ وإن كان كيروس قد فضل السفر إلى بيزنطة . وعلى الرغم من موت هرقل سنة[٣] ٢٠/٦٤١، مما كان سبباً فى تأجيل عقد هذه الهدنة ؛ إلا أن خلفه وحفيده[٤] قنسطانز الثانى « Konstas II » (٦٤٢ — ٦٦٨) وأمه ، كانا غير راغبين فى مواصلة القتال لحاجتهما إلى القوات البيزنطية فى مصر لقتال عناصر الصرب والكروات فى البلقان[٥] ، واللومبارديين فى إيطاليا[٦] ؛ ولذلك سمحوا لكيروس بامضاء[٧] الهدنة .

وفى أثناء غياب كيروس فى بيزنطة كان العرب قد انتشروا فى طول مصر وعرضها : فاستولوا على الفيُّوم[٨] فى وسط مصر وقتلوا فيها القائد القبطى يوحنا[٩]؛ كما استولوا على حصن بابليون[١٠] ، وعبروا النيل فى الدلتا ، ليتجهوا إلى الاسكندرية العظمى — عاصمة مصر منذ أن فقدت إستقلالها على يد اليونان — يقيناً منهم أنها إذا فتحت انتهت مقاومة الروم فى مصر[١١] . ولكن العرب قوبلوا من

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧١ س ٣ ؛ معجم البلدان ، ٦ ص ٣٧٩ .
(٢) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٥١ س ١٨ — ١٩ .
(٣) نفسه ، ١ ص ٥٢ آخر هذه الصفحة .
(٤) انظر . Sébêos, p. 104.
(٥) انظر . بعده .
(٦) بركلمان ، تاريخ الشعوب ، ١ ص ١٢٠ .
(٧) انظر . Chronique de Jean, p. 247 — 248 ؛ انظر . سيده كاشف ، مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٤ .
(٨) انظر . Chronique de Jean, p. 232 ؛ انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ٤١٤ — ٤١٦ .
(٩) انظر . Chronique de Jean, p. 228:230
(١٠) ابن عبد الحكم ، ص ٦٣ س ١٦ .
(١١) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٥٢ س ٢٥ ؛ معجم البلدان ، ٦ ص ٢٣٤ .

القبط فى قرى كثيرة من منطقة الدلتا بمقاومة[١] عنيفة مثل : طوخ[٢] وسلطيس[٣] ودمسيس[٤] وقرطسا[٥] ومصيل وبلهيب[٦] ، بحيث أنهم لم يستطيعوا فتحها إلا بعد أن أحرقوا المزارع ، وسبوا[٧] أهلها ؛ فكانت مصر[٨] — كما نرى — تقاوم من قراها . وأخيرا وصل العرب أمام الإسكندرية[٩] وحاصروها ، وإن بدت صعبة الفتح بسبب حصونها المتينة[١٠] ، ولاحاطتها بالبحر الأبيض والبحيرات .

فى الواقع ان مقاومة المصريين للعرب تدل على أن هؤلاء كشعب حر لم يكونوا يريدون أن ينتقلوا كسلعة إلى العرب بعد الروم ؛ وهم الذين كانوا منذ اعتناقهم المسيحية مدفوعين بروح قومى يتمثل فى اللغة والأدب والفن القبطى ؛ الذى كان يعبر عن شخصية مصر القديمة . ولكن يظهر أن أغلب مؤرخى المسلمين لم يرضوا ان يذكروا هذه المقاومة إلا تلميحاً ، حتى لايظهر المصريون بمظهر المقاوم للمسلمين ؛ وذلك لأن مصر فيما بعد ستتحول إلى الإسلام وتحتل مركز الزعامة فيه . وعلى العكس ذكروا كثيراً أن المصريين عاونوا الغزاة

---

(١) ابن اسحق ، فتوح مصر ، ص ٣٦ ؛ الكامل ، ٢ ص ٣٩٧ س ٤ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٨٣ س ٣ — ٤ ؛ معجم البلدان ، ٢ ص ٢٨٢ ؛ Chronique de Jean, p. 236.

(٢) قرية بالحوف الغربى . معجم البلدان ، ٦ ص ٦٧ .

(٣) نفسه ، ٢ ص ٢٨٢ س ٣ . يذكرها مع بلهيب .

(٤) قرية قرب سمنود . نفسه ، ٤ ص ٧٢ .

(٥) نفسه ، ٧ ص ٥٥ .

(٦) نفسه ، ٢ ص ٢٨٢ . كانت هذه البلدة مركزاً للثورة على العرب حتى بعد فتحهم مصر . الخطط ، ١ ص ١٢٨ .

(٧) معجم البلدان ، ٢ ص ٢٨٢ س ٤ . وان ذكر نفس المرجع أن بعض السبى أرجعه عمر إلى أهله ، بعد أن خرج الروم . نفسه

(٨) ابن عبد الحكم ، ص ٨٣ س ٣ — ٤ .

(٩) هى المدينة التى بناها الإسكندر وسماها على اسمه ، كما سمى ثلاث عشرة مدينة غيرها باسمه . ياقوت ، معجم البلدان ، ١ ص ٢٣٤ — ٢٣٦ .

(١٠) الخطط ، ١ ص ٢٤٦ .

عما كانوا يمدونهم بما يحتاجون إليه من الأطعمة[1] والعلوفة، وأنهم كانوا يصلحون لهم الطرق ويقيمون الجسور لتسهيل تنقلات جيوشهم ، بل وجعلوا المقوقس الحاكم البيزنطي — الذى رضخ لهم — عظيم القبط[2]. ولكننا نستطيع أن ندرك مقاومة المصريين للعرب مما ذكره المؤرخون عن مقاومة قرى مصر، ومما وقع فيه المؤرخون المسلمون من الاختلاف عند معالجتهم مسألة يحبون الخوض فيها ، وهى مسألة فتح مصر : وهل كان بصلح أو عنوة[3]، أوحتى هل كان للمصريين عهد[4]!!

ولكن تخاذل البيزنطيين من ناحية ، وإدراك المصريين ألا فائدة من مقاومة جيوش العرب التى لم تقف أمامها جيوش بيزنطة أو فارس ، جعل مقاومتهم تفتر . ومع ذلك استمر أهل[5] الإسكندرية — واغلبيتهم من القبط — يقاومون وقتاً، حتى أن الخليفة وجد أن حصار الإسكندرية قد[6] طال. ولكن مجىء كيروس بعد أن أمضى الاتفاقية ، وقبوله الأذعان للعرب ، وسحب الروم من مصر ؛ بحيث اتهمه القبط بتسليم[7] مصر ، وأرادوا رمية بالحجارة ، جعلهم يرضخون للأمر الواقع . وتنفيذاً لنصوص الاتفاقية[8] خرج الروم من الإسكندرية بمالهم ومتاعهم وأهلهم سنة ٢١ (٦٤٢) ، حيث حملتهم المراكب ؛ واحتل العرب مصر . ومع ذلك يذكر يوحنا النقيوسى أن مصر ظلت تقاوم

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧٤ س ١٦ — ١٧ ؛ ٧٣ س ٤ ؛ حسن المحاضرة ، ١ ص ٥٢ ؛ الخطط ، ١ ص ٢٦٣ .

(٢) نفسه ، ص ٤٦ س ٩ .

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٨٤ — ٩٠ ؛ الخطط ، ٢ ص ٧٢ فما بعدها ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٥٥ .

(٤) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٢٦٧ ؛ معجم البلدان ، ٦ ص ٣٨٠ .

(٥) فتوح البلدان ، ص ٢٢٠ ؛ Chronique de Jean, p. 253

(٦) الطبرى ، ١ : ٢٥٨٢ ؛ حسن المحاضرة ، ١ ص ٥٣ س ٤ ؛ الخطط ، ١ ص ٢٢٦ س ١٦ — ١٧ .

(٧) ابن اسحق ، فتوح مصر ، ص ١٨ .

(٨) انظر عن المعاهدة : Chronique de Jean, p. 247 — 8 ؛ سيده كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، ص ١٤ ؛ طه بدر ، مصر الإسلامية ، القاهره ١٩٥٤ ، ص ١٣ — ١٤ .

اثنى عشر(١) عاماً أخرى ؛ كما أن العرب كانوا يخافون من أن تنتقض(٢) مصر فى أى وقت .

وقد أتهم العرب باطلاً أثناء احتلالهم الإسكندرية بأنهم خربوا مكتبتها(٣) الضخمة « Bibliothêkê » ، التى أنشأها ملوك البطالمة . ويظهر أن قصة حرق هذه المكتبه لم تظهر إلا أخيراً ؛ ولعل البيزنطيين هم الذين بدأوا بتبديد ما فى المكتبة ، خصوصاً وأن من شروط الصلح أن يخرج الروم بكل ما يستطيعون من المال(٤) والمتاع . ومن ناحية أخرى نعرف أن المكتبة احترقت(٥) حينما جاء يوليوس قيصر « Cesar » مطارداً بومبى « Pompeius » حتى الإسكندرية ، فلعلها احترقت أثناء حصار المصريين له .

وكرمز لاحتلال العرب مصر ، انشأوا فيها مدينة لهم قرب حصن بابليون سموها « الفسطاط »(٦) — وهو اسم غير عربى لعله من اللاتينية « Fossatum » ، بمعنى الخيمة(٧) أو المدينة(٨) — فسكنتها قبائلهم فى خطط(٩) أو قطائع . فقد أبى الخليفة عمر أن يجعل الأمير الذى أقامه فى مصر وجيشه يتخذ الإسكندرية العظمى

---

(١) انظر . Chronique de Jean, p. 236

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٥ س ١١ .

(٣) انظر ما قاله المؤرخ ابن العبرى (Barhebraeus) عن هذا . انظر . مختصر تاريخ الدول ، تحقيق أنطون صالحانى ، بيروت ١٨٩٠ ، ص ١٧٦ ؛ انظر أيضا بل ، مصر ، ص ١٠٣ .

(٤) حسن المحاضرة ، ١ ص ٥٤ س ١٠ — ١١ ؛ Chronique de Jean, p. 251.

(٥) انظر . Bevan : Histoire des Lagides, trad. p. 407.

(٦) معجم البلدان ، ٦ ص ٣٧٧ فما بعدها . هى تقرأ أيضا فسطاط وفساط وفستاط . نفسه ، ٦ ص ٣٨٠ . من معانيها أيضاً بيت من الشعر ، الخطط ، ٢ ص ٥٩ .

(٧) ابن عبد الحكم ، ص ٩١ س ١٩ ؛ معجم البلدان ، ٦ ص ٣٧٩ ؛ انظر . بتلر ، فتح العرب مصر ، ص ٢٥٠ .

(٨) الخطط ، ٢ ص ٧٦ س ١٢ .

(٩) نفسه ، ٢ ص ٧٦ فما بعدها ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٥٧ .

— العاصمة اليونانية — مقاماً، أو يُنزل العرب بمكان يفصلهم فيه عن جزيرة العرب قنوات المياه[١] المتشابكة الآخذة من النيل. وقد سميت الفسطاط « مصر[٢] » لكونها مدينة للعرب على الحدود[٣] مثل البصرة والكوفة ؛ وإن عرفت أيضا « بفسطاط[٤] مصر » أى بالأسمين معاً. وسيصبح هذا المعسكر مدينة عظيمة[٥]، حتى لما أقام الفاطميون القاهرة[٦] ؛ فعرفت إلى وقتنا الحاضر بمصر القديمة. كذلك بنى عمرو فيها مسجداً[٧] مكان إحدى كنائس[٨] القبط، ما زال يحمل اسمه حتى الآن، وذلك على نسق الجوامع التى كانت تقام فى مدن الأمصار.

وستبقى مصر بعد هذا الفتح بعيدة عن حوليات[٩] مؤرخى الشرق إلى العصر العباسى، فطول هذه المدة كانت الخلافة لا تهتم بمصر إلا من حيث أنها تنتج الحنطة أو القمح[١٠]، الذى كان ينقل إلى الحجاز عن طريق قناة حفروها من النيل إلى بحر القلزم[١١] عرفت باسم: «خليج أمير المؤمنين[١٢]»، بحيث اعتبرت مصر خزانة[١٣] أمير المؤمنين

---

(١) ابن عبد الحكم، ص ٩١ س ٥ ؛ معجم البلدان، ٦ ص ٣٧٩ ؛ الخطط، ١ ص ٢٦٠ — ٢٧٠.

(٢) الخطط، ٢ ص ٧٦. انظر ما ذكرناه عن هذا الاسم ؛ انظر أيضا.
Ency. de l'Isl. (art Misr) t 3, p. 591.

(٣) انظر. قبله.

(٤) المقريزى، الخطط، ٢ ص ٦٢.

(٥) معجم البلدان، ٦ ص ٣٨٢.

(٦) الخطط، ٢ ص ٥٩. ستحرق الفسطاط فى عهدهم، نتيجة لمهاجمة الصليبيين.

(٧) ابن عبد الحكم، ص ٩١ — ٩٢.

(٨) ابن اسحق. فتوح مصر، ص ٥٢ س ٢٣.

(٩) انظر. Lammens : Etudes sur le siècle des Omeyyades, p. 305.

(١٠) سعيد بن بطريق، ٢ ص ٢٦ — ٢٧ ؛ انظر. Weil : Geschichte der Chalifan. Mannheim 1846, I, p. 130 sqq.

(١١) الكامل، ٢ ص ٣٩٥ س ١.

(١٢) الخطط، ٣ ص ٢٢٩ — ٢٣٠، السيوطى، حسن المحاضرة، ١ ص ٦٨.

(١٣) معجم البلدان، ٨ ص ٧١.

التى يُحمل منها القوة والمال إلى جنده ؛ كما كان الحال فى عهد الرومان والبيزنطيين[١]. ولقد ثار المصريون عدة مرات على حكامهم بخاصة الأمويين ، الذين اعتبروا أن مصر فتحت عنوة وأن أهلها عبيد[٢]، لهم أن يزيدوا عليهم مايشاءون من المال . كذلك فى عهد العباسيين قام[٣] المصريون بثورة هائلة فى سنة ٢١٦[٤]/٨٣١، اضطرت الخليفة المأمون إلى الحضور بنفسه إلى مصر للقضاء عليها؛ فقتل الرجال وسبى النساء والأطفال، ومنذ ذلك ولم تقم للقبط قائمة . فلعل هذه المقاومة تبطل فرية السيوطى[٥] فى أن أهل مصر كانوا عبيداً لمن غلب . ولكن لظروف[٦] عديدة أقبل المصريون على الإسلام ، كما أنهم تركوا لغتهم القديمة ، وساعد على ذلك وجود أصول سامية فى حروفها وتراكيبها . وعند ذلك بدأت تظهر شخصية مصر الاسلامية فى عهدى الطولونيين والأخشيديين ، إلى أن أصبحت مركزاً للخلافة الشيعية فى عهد الفاطميين ، وللخلافة السنية فى عهد المماليك .

بعد فتح مصر سار عمرو إلى بَرْقه[٧] أو ما يسميه اليونان بنطابولس[٨] « Pentapolis » أى المدن الخمس ، وإلى طَرَابُلس[٩] « Tripolis » أى المدن الثلاث: وكلاهما عبارة عن صقع كبير يتكون من شريط ساحلى، تتوافر فيه الزراعة بسبب

---

(١) بل ، مصر ، ص ١٢٩ ؛ ٢٣٦ ؛ ٢٤١ .

(٢) الكامل ، ٢ ص ٣٩٧ س ٢٦ .

(٣) الخطط ، ١ ص ١٢٧ .

(٤) نفسه ، ١ ص ١٢٨ س ١١ فما بعدها ؛ ٤ ص ٣٩٦ .

(٥) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٧٨ س ٢٢ .

(٦) ليس مجال ذكر هذه الظروف هنا .

(٧) معجم البلدان ، ٢ ص ١٣٣ فما بعدها . وهى محرفة عن الكلمة اليونانية « Cyrenaica » التى اشتقت من مدينة قورينه « Kyrène » الإغريقية انظر . Cary : Oxford classical Dict. s. v.

(٨) يحرف العرب هذه الكلمة إلى انطابلس . معجم البلدان ، ٢ ص ١٣٣ .

(٩) وهى تسمى أيضا اطرابلس . نفسه .

سقوط الأمطار فى أودية تنساب إلى برك ، ولوجود المياه فى الآبار ، وخلفه صحراء مجدبة أوجبال ؛ حيث يكـّون جزءاً من البلاد الممتدة حتى المحيط ، التى كانت تعرف قديماً بلـوبية[1] «Libya» ، وللعرب « بالمـَغرِب »[2] .

وقد كان يسكن برقة وطرابلس عنصر من الناس يعرف للعرب باسم «البربر[3]» ، لعلهم من أجناس البحر الأبيض أو الجنس الحامى[4] ، وهم من نفس الجنس الليبى القديم الذى عرفه الفراعنة[5] : فـكانت أغلبيتهم كالعرب يعيشون فى قبائل معظمها من البدو ، الذين يتنقلون بين الوديان والجبال للانتجاع ؛ أما من كانوا قداختلطوا منهم بحياة الروم فيسمون « بالافارق[6] » أى المتحضرين ؛ وقد كانت أهم قبائل[7] برقه وطرابلس : لوَاته وهَوَّارة و نَفُـوسه .

وقد كانت هذه البلاد تخضع غالباً للدول المسيطرة فى مصر ،فاحتلها البطالمة والرومان[8] ومن بعدهم البيزنطيون[9] ، الذين غزوها عن طريق البحر[10] . ويظهر أن البيزنطيين كانوا عنـــد الغزو العربى — تحت ضغط[11] هجرات البربر — قد اقتصروا على احتلال عدة مدن قليلة محصنة بالأسوار مثل طرابلس .

---

(١) نفسه ، ٧ ص ٣٤١ . تطلق هذه الـكلمة الآن على برقة وطرابلس وفزان . انظر . الزاوى ، تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٢ . انظر أيضا Strabo : Geog. 1 : 2; 25 (Books 1 — 11) p. 119.

(٢) معجم البلدان ، ٨ ص ١٠٣ .

(٣) حسن المحاضرة ، ١ ص ٦٢ ؛ معجم البلدان ، ٢ ص ١٠٤؛ ١٣٤ . سموا هكذا لرطانتهم بلغة غير مفهومة للعرب . ابن خلدون،المقدمة ، ص ٩ س ١١ فما بعدها .

(٤) انظر . Seligman : Les Races de l'Afrique trad. Franc. Payot. Paris 1935, p. 86.

(٥) انظر . Driot et Vand : Op. cit, p. 171.

(٦) الـكامل ، ٣ ص ١٣ س ٩ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Barka) I, p. 677.

(٧) ابن عبد الحـكم ، ص ١٧٠ — ١٧١ ؛ حسن المحاضرة ، ١ ص ٦٣ ؛ الـكامل ، ٣ ص ١٣ .

(٨) انظر . Bevan: Hist. des Lagides trad. Lévy p. 32 ؛ نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، القاهرة ١٩٤٦ ، ١ ص ٣٢ ؛ ١١٦ ، ١٧ .

(٩) البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٢٥ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ٥ ص ٢٩ س ٥ .

(١٠) ياقوت ، معجم البلدان ، ٥ ص ٢٩ ؛ الـكامل ، ٣ ص ١٣ .

(١١) الـكامل ، ٣ ص ١٣ .فثلا انسحبوا من سبره تحت ضغط نفوسه.

ونحن لا نرى سبباً لغزو هذه المنطقة ؛ إلا رغبة العرب فى تأمين الحدود الغربية لامبراطوريتهم ، خصوصاً وأن وجود بعض الحاميات البيزنطية فى مدن برقة وطرابلس كان فيه تهديد لهم . ولذلك خرج عمرو فى سنة ٢١/٦٤٢[1] بعد أن انتهى من فتح مصر متجهاً نحو برقة ، فاستولى عليها بعد أن قاتل[2] أهلها ، وحينما ذهب إلى طرابلس وحاصرها رحل الروم[3] عنها فى السفن ، وتبع ذلك أن سلمت مدينة سَبْرَة[4] بدون قتال ، ولما توغل فى فزّان[5] ، استولى على زَوِيله[6] فى الجنوب ، قرب بلاد السودان .

وعلى عكس ما حدث فى مصر لم يبق العرب فى هذه البلاد ، وانما اكتفوا بفرض ضريبة[7] عليها ، وأجازوا لأهلها بيع أبنائهم ليدفعوا جزيتهم . ولكى يضمنوا خضوعها ، كانوا يرسلون من وقت لآخر السرايا من مدن[8] مصر بقصد الغنيمة[9] ، ولاشعار البربر بسطوتهم ؛ بحيث أن هذه السرايا كانت تصل إلى المناطق المجاورة لطرابلس فى إفريقية[10] .

---

(١) نفسه ، ٢ ص ١٣٤ س ٩ — ١٠ .

(٢) البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٢٤ .

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ١٧١ . وهى مدينة على شاطىء البحر . معجم البلدان ، ٦ ص ٣٤ فا بعدها .

(٤) الكامل ، ٣ ص ١٣ ؛ معجم البلدان ، ٥ ص ٢٨ . وتسمى أيضاً سبرت . انظر . ابن عبد الحكم ، ص ١٧٢ .

(٥) معجم البلدان ، ٦ ص ٣٧٤ — ٣٧٥ .

(٦) نفسه ، ٤ ص ٤١٨ — ٤١٩ ؛ فتوح البلدان ، ص ٢٢٤ .

(٧) حسن المحاضرة ، ١ ص ٦٣ ؛ فتوح البلدان ، ص ٢٢٤ .

(٨) انظر : Cheira . La lutte, p. 64.

(٩) الكامل ، ٣ ص ٤٤ .

(١٠) الكامل ، ٣ ص ٤٥ . اسم البلاد الواسعة قبالة جزيرة صقلية . معجم البلدان ، ١ ص ٣٠٠ فا بعدها ،

وكما أراد عمرو تأمين حدود الامبراطورية العربية الغربية بارسال حملة إلى برقة وطرابلس ، أرسل حملة أخرى إلى جنوب مصر ، أو ما كان يعرف فى وقت الفتح العربى : بالنوبة[١] ، وقديماً للمصريين باسم كوش ووات[٢] : وهى البلاد الواسعة العريضة فى الشطر الجنوبى من وادى النيل ، التى تمتد من أسوان[٣] آخر صعيد مصر ، حتى أواسط افريقية .

وكان يعيش فى هذه المنطقة جنس من السود « الأساود[٤] » استعمره المصريون القدماء منذ الأسرة السادسة[٥] ، ثم نقلوا إلى سكانه لغتهم وديانتهم وحضارتهم[٦] . ولكن يبدو أنه بعد العصر الفرعونى انتقلت إليها هجرات من داخل[٧] افريقية مجهولة الأصل عرفت « بالنوبة » أو « البرابرة » ، تجرى فى عروقها الدماء الزنجية[٨] ، وتتكلم لغة[٩] خاصة ؛

---

(١) معجم البلدان ، ٨ ص ٣٢٣ . هذا الاسم على ما يظهر فرعونى من كلمة « نب » بمعنى ذهب ، ذكره استرابون باسم « Nobai » . Geog. : Strabo 17 : 768 — 819 ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Nûba) t3, .p. 1009 ؛ كذلك يذكر الإدريسى أنها نسبة إلى مدينة نوابنة على مبعدة من النيل . (انظر . المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق ، تحقيق de Goeje ، طبعة Leyde ، ١٨٦٦ ، ص ١٣) . ويبدو أن كلمة السودان هى كلمة عامة ، تشتمل على البلاد التى تمتد من المحيط حتى البحر الأحمر ، والتى انتشر فيها السود . انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٨ ص ٣٢٣ س ٥ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Sudân) t4, p. 518.

(٢) انظر . Driot et Vand : Op. cit, p. 3. . يذكر الإدريسى أنه يوجد بالسودان بلدة اسمها كوشه . انظر . المغرب وأرض السودان ، ص ١٤ .

(٣) معجم البلدان ، ٨ ص ٣٢٣ . انظر عن هذه المدينة نفسه ، ١ ص ٢٤٨ .

(٤) نفسه ، ٤ ص ٨٢ س ٩ .

(٥) انظر . Driot et Vand : Op. cit, p. 208.

(٦) انظر . Ibid, p. 377 — 378.

(٧) انظر . Ency. de l'Isl. 3, p. 1008.

(٨) معجم البلدان ، ٨ ص ٣٢٣ ؛ انظر أيضا : Mac Michael A History of the Arabs in the Sudan. Cambridge, 1923, I, p. 14sqq ؛ Trimingham : Islam in the Sudan. London, 1949, p. 39 ؛ Ency. de l'Isl. 3, p. 1009 . يقول ياقوت أن ملوكهم من حمير :

(٩) انظر . Ency. de l'Isl, 3, .p. 1008.

بحيث استطاعت أن تكوّن فى جنوب مصر عدة ممالك[١] منها: النوبة ، ومقرّة ، وعلوا ؛ أما شرق النوبة ، بين النيل والبحر الأحمر ، فكان يسكنه عنصر بدوى اسود يعرف بالبجة[٢] . وكما فى العهد الفرعونى حرص المصريون المسيحيون على نشر عقيدتهم الأرثوذكسية[٣] أو اليعقوبية بينهم ؛ وذلك على الرغم من أن البيزنطيين كانوا يعملون من جانبهم على نشر عقيدتهم[٤] الملكائية ، ويعارضون انتشار العقيده المصرية . ولكن بقيت أغلبية سكان جنوب الوادى تعيش عيشة بدائية ، فهم عراة[٥] لا يلبسون شيئا ، ولا ديانة لهم إلا فى الاعتقاد فى السحر ، وفى بعض عقائد الأجداد[٦] الفطرية .

ومع أن معلوماتنا غير دقيقة عن الحملة التى أرسلها عمرو سنة ٢١/٦٤٢[٧] إلى النوبة ، فيبدو أنه لم يكن يقصد غزوها ، ولكن فقط إشعار النوبيين باحتلال العرب لمصر حتى لا يهاجموا صعيدها كما كانوا يفعلون[٨] غالباً ، أو لتأديب النوبة «النوب[٩]» بسبب أنهم عاونوا المصريين فى موقعة عين شمس . ولكن النوبيين قاوموا هذه الحملة ، بحيث اضطر العرب إلى التقهقر بعد أن لحقت بأغلبيتهم الجراحات وفقدوا حدقهم من سهام النوبيين ، حتى أنهم سموهم : « رماة الحدق[١٠] » .

---

(١) معجم البلدان ، ٨ ص٣٢٣ ؛ الخطط ، ١ ص٣٢٠ ؛ الإدريسى ، ص ١٣ — ١٤ و٢٠ و٢٦ .

(٢) نفس المراجع السابقة بخاصة : الخطط ، ١ . ص٣١٣ ؛ ٣١٨ ؛ الادريسى ص ٢١ .

(٣) معجم البلدان ، ٨ ص ٣٢٣ ؛ سعيد بن بطريق ، ٢ ص ٤٦ ؛ انظر . Le Christianisme en Afrique, p. 46 : Bonet-Maury

(٤) انظر . Ency. de l'Isl. 3, p. 1009

(٥) معجم البلدان ، ٨ ص ٣٢٣ .

(٦) انظر . Ency de l'Isl, 4, p. 519

(٧) الخطط ، ١ ص ٣٢٣ س ٥ .

(٨) نفسه ، ١ ص ٣١٥ .

(٩) انظر . قبله .

(١٠) فتوح البلدان، ص ٢٣٧ ؛ انظر . Mém. sur l'Egy, : Quatremère et sur quelques contrées voisines, Paris 1811. 2. p. 42 suiv.

ولكن فى عهد الخليفة الثالث عثمان ؛ توجه عامل مصر عبدالله بن سعد بن أبى سرح بحملة قوية نحو النوبة فى سنة ٣١/٦٥٢[١] ، استطاعت أن تصل إلى دنقلة أو دُمْقُلة[٢]، التى على مايظهر كانت وقتئذ عاصمة النوبة ومقرّة متحدتين[٣] ؛ فوضع أمامها المنجنيقات ودمر الكاتدرائية . لذلك سعى الملك المسمى قليدوروث[٤] إلى طلب الصلح ، وقبل ابن أبى سرح — الذى انهك القتال جيوشه — عقد الهدنة . فاتفق الطرفان على ما عرف بالكلمة المبهمة « بقط[٥] » ؛ وهى : أن يكون بينهما مهادنة وأمان ، وأن يسمح بتنقل التجار ، وأن يُسلم النوبيون الهاربين من عبيد المسلمين — لعل قصدهم المصريين — وأن يحافظوا على المسجد الذى ابتناه المسلمون بدنقلة ؛ ولعلهم بذلك قصدوا التمهيد لنشر الاسلام . كما نص الاتفاق على أن تحمل النوبة كل سنة إلى ولاة مصر ثلاثمائة وستين رأساً من الرقيق غير المعيب المتوسط العمر . ويبدو أن النوبة تعودت من جانبها — وان لم تذكر المعاهدة ذلك — أن تأخذ من مصر قمحاً[٦] وشعيراً وعدساً وثياباً وخيلاً عند دفع البقط ؛ بخاصة إذا ماحلت بها المجاعات . وقد كان عقد هذه المعاهدة يدل على أن العرب لم يكن فى نيتهم ضم بلاد النوبة إليهم ، أو العودة إلى غزوها ، بل أنهم وافقوا على قيامها على حدودهم ؛ ومثل هذا الاتفاق جعل أهل النوبة فى نظر

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٨ .

(٢) مدينة كبيرة على شاطىء النيل . معجم البلدان ، ٤ ص ٨٢ ؛ ٨ ص ٣٢٣ .

(٣) نفسه ، ٨ ص ٣٢٣ . لقب ملك النوبة يدل على ذلك .

(٤) الخطط ، ١ س ٣٢٣ س ١١ .

(٥) نفسه ، ١ ص ٣٢٢ فمابعدها ؛ البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٣٧ — ٢٣٨ ؛ ابن عبد الحكم ص ١٨٨ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢٧٨ — ٢٧٩ ؛ سيدة كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، ص ١٥ وهامش (٥) ؛ Ency. de l'Isl. (art Bakt) I, p. 621 أصل هذه الكلمة غير واضح، فلعله من العربية بقط بمعنى البقل والعشب (الخطط، ١ ص ٣٢٢) أو من اللاتينية « Pactum » أى اتفاق (انظر: (1) Trimingham, P. 62)، أو من الكلمة المصرية باك بمعنى عبد . (انظر . Ency. de l'Isl. I, p. 621). وهذا العهد لايشمل علواء، وإنما النوبة إلى حدود علوا فقط (الخطط ، ١ ص ٣٢٤) ؛ وإن كتب عهد مشابه مع البجه نفسه ، ١ ص ٣١٦ .

(٦) الخطط ، ١ س ٣٢٤ س ٧ — ٨ .

العرب : « مُصَالحين[١] » ، وهو ما عرّفه الفقهاء : « بأهل العهد[٢] » .

وقد ترتب على عقد هذه الهدنة أن زاد نفوذ الكنيسة المصرية فى النوبة ، وهى التى أصبحت وحدها مسيطرة فى مصر بسبب زوال الدولة البيزنطية ؛ بحيث أنه لما طلبت النوبة إرسال أساقفة أرسل إليهم البطريرك المصرى أساقفة[٣] من اليعاقبة ، كما امتد نفوذ هذه الكنيسة حتى علوا[٤] فى الجنوب . وفوق ذلك تحولت الحبشة التى كانت حليفة[٥] بيزنطة وعلى مذهبها إلى اليعقوبية[٦] المصرية ؛ فكانت مصر ترسل إليها أساقفتها أيضا ، وكان ملكها يلقب : « بأوحد[٧] ملوك اليعقوبية » ؛ وما زالت تخضع للكنيسة القبطية حتى الآن . وستبقى أغلبية النوبة مسيحية حتى القرن الرابع عشر الميلادى ، إلى أن يرسل إليها سلاطين المماليك فى مصر القبائل العربية والجيوش[٨] ، فتتحول إلى الاسلام . ولاريب أن بقاء النوبة مسيحية حتى ذلك التاريخ ، كان سبباً فى أن الاسلام[٩] لم ينتشر فى أعماق افريقية ، بحيث أن بعض سكانها مازالوا وثنيين حتى الآن .

---

(١) نفسه ، ١ ص ٣٢٤ س ٢٦ .

(٢) الماوردى ، ١ ص ١٢٣ ؛ انظر . Les Statuts des Pays : Cheïra des Ahd aux 7e et 8e Siècles. Ann. of the Fac. of Arts. Ibrahim Univ. vol. I, 1951, p. 43sqq.

(٣) الخطط ، ٤ ص ٣٩٥ — ٣٩٦ .

(٤) سعيد بن بطريق ، ٢ ص ٤٦ س ٢ — ٣ .

(٥) انظر . قبله .

(٦) الخطط ، ٤ ص ٣٩٦ — ٣٩٧ .

(٧) صبح الأعشى ، ٦ ص ٨٥ .

(٨) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر زيادة ، القاهرة ١٩٤١ ، ٢/١ ص ١٦١ .

(٩) وإن كان اسلام البجة حدث فى وقت مبكر منذ عهد الأمويين ، الخطط ، ١ ص ٣١٥ س ٢٦ .

هذه الفتوحات والصراع مع أكبر دول العالم : البيزنطين والفرس ، قوّى من وحدة الأمة الإسلامية ، التى وضع بذورها النبى ، وكانت على وشك الضياع لولا تصميم أبى بكر فى الإبقاء عليها ؛ ولكن من الآن — فى عهد عمر — لم يعد يسمح إلا بدين[١] واحد فى الحجاز هو الإسلام . وعملاً بهذه السياسة نقل عمر إلى الشام والعراق : نصارى نجران[٢] ويهود خيبر[٣] «خيابر[٤]» أو ما حولها[٥] وحتى مسيحيى دَوَمة[٦] الجندل، بحيث أصبح الحجاز خالصاً للمسلمين العرب وحدهم.

وعلى العكس كان المقاتلة العرب فى الامبراطورية المفتوحة يعيشون فى معسكراتهم كأقلية وسط شعوب تختلف عنهم كل الاختلاف فى الجنس واللغة والدين ؛ فقد كانوا يعسكرون: إما فى «الإمصار[٧]» جمع «مصر» وهى المدن التى انشئت على حدود الأراضى ، أو فى «الاجناد[٨]» جمع «جُند» وهى المناطق الحربية فى الشام والتى كانت تقابل التقسيم البيزنطى المعروف باسم «thema[٩]» ، أو فى «الثغور[١٠]» جمع «الثغر» وهى مواقع الحصون على الحدود البيزنطية وستعرف فيما بعد «بالعواصم[١١]» لأنها كانت تعصم حدود المسلمين ،أو فى الرباط[١٢] جمع «ربط»

(١) فتوح البلدان ، ص ٢٨ س ٢ ؛ الماوردى ، الأحكام ، ص ١٥٠ .

(٢) مع أن النبى وأبا بكر سمحا لهما بالبقاء على حدود الحجاز الجنوبية. انظر. البلاذرى، فتوح ، ص ٦٥ ؛ ٦٦ ؛ ابن سعد ، ١/٢ ص ٨٥ س ٢٧ .

(٣) البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٣ ؛ ٢٨ .

(٤) سميت هكذا لتكونها من عدة حصون . معجم البلدان ، ٣ ص ٤٩٤ — ٤٩٥ .

(٥) مثل فدك . البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٩ .

(٦) معجم البلدان ، ٤ ص ١٠٧ . (٧) انظر . قبله .

(٨) فتوح البلدان ، ص ١٣٢ . يقول كل ناحية لها جند يقبضون أعطياتهم بها تسمى جنداً . ويقول ياقوت التجند التجمع وجندت جنداً أى جمعت جمعا . معجم البلدان ، ١ ص ٤٢٥ .

(٩) انظر . قبله .

(١٠) معجم البلدان ، ٣ ص ١٦ فما بعدها ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Thughûr) 4, p. 777.

(١١) معجم البلدان ، ٣ ص ١٦ ؛ ٦ ص ٢٣٧ .

(١٢) القرآن (٨ : ٦٢) . الرباط والمرابطة ملازمة ثغر العدو أو الجهاد ، وأصله أن يربط فيه الخيل (لسان ، ٩ ص ١٧٣ فما بعدها ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Ribât) t 3, p. 1230 sqq. . وقد كانت الرباطات أغلبها على الساحل ، كما فى الأسكندرية . انظر ابن عبد الحكم ، ص ١٩١ فما بعدها .

أو « رابطة » وهي أماكن محصنة قد تكون على الساحل أو على الحدود لمراقبة العدو وجهاده . وفي كل هذه المعسكرات كان العرب يعيشون عيشتهم القبلية في « خطط [١] » أو « قطائع [٢] » ، وإن كان لا بد أن يكون لهم فيها مسجد [٣] ؛ لكي يقوموا بفروض دينهم ، وليجتمعوا فيه لاتخاذ قراراتهم .

كذلك لم يعد العرب بعد أن فتحوا هذه الإمبراطورية الواسعة يكتفون بالعيش على الغنيمة ، كما كان الحال في عهد النبي وأبي بكر على أن يأخذ الخليفة الخمس [٤] ؛ ولكن منذ عهد عمر صار المقاتلة من الحجاز أو من انضم إليهم من عرب الجزيرة « روادف [٥] » ، يتسلمون هم وعائلاتهم من الصبيان والنساء [٦] مرتبات ثابتة تسمى : « العطاء [٧] » ؛ إذا قيدوا في سجلات ، وهو ما عرف بالديوان [٨] — كما كان معروفاً عند البيزنطيين [٩] والفرس [١٠] — ولذلك قيل إن عمر أول [١١] من دون الدواوين . وكان هذا العطاء يقدّر على حسب قرابتهم [١٢] للنبي ، أو شهودهم بدراً [١٣] أو المواقع المشهورة مثل القادسية [١٤] واليرموك ؛ وحتى

---

(١) وهي جمع خطة . ابن عبد الحكم ، ص ٩١ ؛ الخطط ، ٢ ص ٧٦ فما بعدها .

(٢) الكامل ، ٢ ص ٣٦٨ (آخر الصفحة) ؛ اللسان ، ١٠ ص ١٥٤ .

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٩١ — ٩٢ ؛ الكامل ، ٢ ص ٣٦٩ س ١ ؛ انظر . قبله .

(٤) الكامل ، ٢ ص ٢٧٣ س ١٣ — ١٤ .

(٥) نفسه ، ٢ ص ٣٥١ س ٦ ؛ انظر . المصباح المنير ، ١ ص ٣٤٤ — ٣٤٥ .

(٦) الكامل ، ٢ ص ٣٥١ س ١٦ .

(٧) البلاذري ، فتوح ، ص ٤٤٩ س ٣ . يسمى أيضا رزق . الكامل ، ٢ ص ٣٥٢ س ١ .

(٨) نفسه ، ٢ ص ٣٥٠ ؛ ٣ ص ٣١ . وهي كلمة فارسية تعني السجل أو المكان الذي فيه الكتاب . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٩٢ ؛ انظر . بعده .

(٩) سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٩٢ .

(١٠) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٩٢ .

(١١) نفسه ؛ الكامل ، ٢ ص ٣٥٠ .

(١٢) فتوح البلدان ، ص ٤٤٩ س ٤ ؛ أبو يوسف ، الخراج ، ص ٥٠ ؛ المقدمة ، ص ١٩٣ س ١ .

(١٣) الكامل ، ٢ ص ٣٥٠ .

(١٤) نفسه ، ٢ ص ٣٥٠ — ٣٥١ .

النساء[١] اللاتى حضرن هذه المواقع كن يتميزن فى عطائهن . وقد استمر العطاء يدفع للعرب حتى سقوط الدولة العربية وقيام الدولة العباسية ، التى اعتمدت على الفرس والترك ، فمنع العرب فى عهـــد الخليفة العباسى المستعصم[٢] (٢١٨ — ٢٢٧ / ٧٣٣ — ٨٤٢) من تسلم العطاء . وعلى العكس استمر سكان الجزيرة منذ قمع الردة يدفعون الزكاة ، التى كان أغلبها من الإبل[٣] ؛ بحيث وجد ما يعرف بأمراء الصدقة[٤] ؛ كما أن عمر فرض على بضائع تجار الجزيرة ضريبة «العشر[٥]» ، خصوصاً وأن العرب كانوا مشهورين بتجارتهم الرابحة .

أما غير العرب من سكان البلاد المفتوحة ، فكانوا يعرفون وقتئذ بأسماء منها : « رعيه[٦] » بحكم أن العرب رعاتهم ، أو «ذمة[٧]» اذا كانوا من أهل كتاب ، كالمسيحيين واليهود والمجوس والصابئة[٨] ، أو « موالى[٩] » إذا اسلمـــوا بحكم أنهم صاروا اتباعاً للعرب . وقد كان على سكان البـلاد المفتوحة أن يقدموا العطاء للعرب ؛ بحيث أن هؤلاء أصبحوا يعيشون على حساب الشعوب المفتوحة . وقد كان هناك رأى : أن تقسم[١٠] الأراضى المفتوحة ،ولـكن عمر وجد أن هذه الطريقة قد تؤدى إلى مشاكل من الأولى تجنبها ؛ ولذا قرر : أن الأرض

---

(١) نفسه ، ٢ ص ٣٥١ .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، نشر وتحقيق Colin و Lévi - Provençal ، طبعة Lyden ، ١٩٤٨ — ١٩٥١ ، ٢ ص٤٠ س٥ .

(٣) الـكامل ، ٣ ص ٢٩ .

(٤) نفسه ، ٢ ص ٢٧٦ س ١٣ .

(٥) صبح الأعشى ، ٣ ص ٤٦٣ ؛ الخطط ، ١ ص ١٦٧ .

(٦) الـكامل : ٣ ص ٣٠ س ٨ ؛ انظر . المصباح المنير ، ١ ص ٣٥٤ . حسن المحاضرة ، ١ ص ٦٧ .

(٧) ابن عبد الحـكم ، ص ٨٣ س ٧ ؛ أبو يوسف ، الخراج ، ص ٢٣ ، ٢٩ ؛ انظر . ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام، ترجمة وتعليق حسن حبشى ،القاهرة ١٩٤٩ ، ص٩ .

(٨) الماوردى ، الأحكام ، ص ١٢٨ ؛ انظر. Menant : Les Zoroastriens de Perse. R. M. M Oct. 1907, vol. 3, p. 196.

(٩) لسان ، ٢٠ ص ٢٨٨ فما بعدها ؛ ابن الأثير ، الـكامل ، ٤ ص ١٥٨ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. t 3, p. 479.

(١٠) ابن عبد الحـكم ، ص ٨٣ ، ابن الجوزى ، تاريخ عمر ، ص ٦٨ .

لا تقسم وتبقى فى أيدى أهلها ؛ الذين عليهم أن يبقوا بجوارها يزرعونها ولا ينتقلون[١] عنها ؛ على أن يدفعوا ضريبة الأرض أو الخراج[٢]، التى كانت تفرض فى الممتلكات البيزنطية[٣] والفارسية ؛ وذلك للدلالة على خضوعهم للعرب، بحيث كانت تسمى أيضا «جزية[٤]» . وتشتمل[٥] هذه الضريبة على المال الذى يجبى كل سنة على الأرض المزروعة ، وعلى الواجبات العينية من حنطة وعسل وزيت وغيرها من منتجات القرية ، وهى تختلف[٦] بحسب طبيعة الفتح : فإذا كانت البـلاد فتحت صلحاً ، ففى هذه الحالة يتفق على قيمة الضريبة ، أما اذا أخذت عنوة فهى تعتبر غنيمة للفاتح وتكون « فيئاً[٧] » للمسلمين ؛ ولكن لما كان العرب لا يستطيعون أن ينفصلوا[٨] عن الجندية لزراعة الأرض ، فإنهم تركوها لملاكها على أن يزرعوها لهم . وفى الواقع لم يكن هناك تمييز بين الأرض المفتوحة صلحاً أو عنوة ، وكان الجميع يدفعون ضريبة الخراج ، حتى ولو أسلموا[٩] . أضف إلى ذلك أنه قرر على أهـل القرى من دون المدن ضيافة[١٠] المسلمين اذا مروا بهم ثلاثة أيام ، على ألا

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ١ ص٦٣ س٢٢ ؛ انظر . Gaud - Platonov : Le Monde Musul. et Byz,p. 202.

(٢) انظر . الماوردى ، ص ١٢٦ فما بعدها ؛ انظر . Vau Berchem : La Propriété territoriale el l'impôt foncier, Thèse de Leipzig 1861, p. 20. ؛ Ency. de l'Isl. (art Kharâdj) t 2, p. 955 — 956.

(٣) انظر . Massé : L'Islam. Paris 1940, p. 63 . ؛ الأحكام السلطانية ، ص ١٣٢ .

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ١٥١ ؛ حسن المحاضرة ، ١ ص ٦٣ ؛ انظر . بعده .

(٥) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ١١٢ — ١٢٣ ؛ انظر . Van Berchem : La Propriété. ,p. 49.

(٦) الماوردى ، الأحكام ، ص ١٣١ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٦٣ .

(٧) هذه الكلمة تعنى المال الذى لا يؤخذ قهراً ، ولا تخمس كما فى الغنيمة ، ولعلها تعنى مال المسلمين (الماوردى ، الأحكام ، ص ١١١ فما بعدها) ، وهى ذكرت فى القرآن ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، ٥٩ : ٦ ﴾ .

(٨) حسن المحاضرة ، ١ ص ٧٣ — ٧٤ ؛ انظر Ency. de l'Isl. (art Faï') t 2, p. 41 — 42 ؛ Well : Arab. King. 31 n (1),

(٩) الماوردى ، الأحكام ، ص ١٣١ — ١٣٢ . وان ذكر أنه يجوز أن تسقط باسلامهم ، الماوردى ، ص ١٣٢ ؛ انظر . بعده .

(١٠) نفسه ص ١٢٩ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٥٦ .

يسمعوهم أصوات نواقيسهم ولا يجاهروا بشرب الخمر ،ولا يركبوا الخيل ... الخ .

كذلك فرضت ضريبة أخرى على سكان البلاد المفتوحة تعرف بالجزية[١]، وتكون بدفع المال على الرءوس[٢] ؛ وذلك للدلالة أيضا على عزة الاسلام . وهذه الضريبة التى ذكرت فى القرآن[٣] وجباها[٤] النبى، كان يفرضها البيزنطيون[٥] على رعاياهم باسم : « Laographia » ، كما أن الفرس[٦] كانوا يأخذونها من اليهود والمسيحيين فى بلادهم . وقد كانت الجزية فى أول الأمر بسيطة أقصاها ديناران[٧] فى العام ، ولا تؤخذ إلا عن كل نفس من البالغين[٨] ، ولا تجبى من النساء والصبيان والشيوخ[٩] أو من العبيد ؛ وكانت قابلة للتعديل[١٠] بحسب حالة الشخص . أما الذين كانوا يعتنقون الاسلام ، فإنه كان من المفروض أن يعفوا[١١] منها ipso facto ، وان كان عليهم دفع الزكاة ؛ ولكن ولاة العرب استمروا فى فرضها[١٢] ، مما كان سبباً فى ثورة[١٣] الشعوب . وقد كان من يدفعها فى مصر يوضع حول عنقه ختم من رصاص[١٤] ، دليل على

(١) الماوردى ، الأحكام ، ص ١٢٦ فما بعدها ؛ الموطأ ، ص ١٢١ ؛ ابن الجوزى ، تاريخ عمر ، ص ١٦٨ ؛ انظر . فون كريمر ، الحضارة الإسلامية ، تعريب طه بدر ، ص ٦ . انظر مناقشة الماوردى فى معناها . الأحكام ، ص ١٢٨ ؛ وأيضا Ency .de l'Isl, (art Djizya) t I, p. 1082 — 1083)

(٢) وهى تسمى أيضا الجماجم انظر . الخطط ، ١ ص ١٥٩ ص ١٠ .

(٣) القرآن ٩ : ٢٩ . (٤) فتوح البلدان ، ص ٦٨ .

(٥) انظر . Liddil-Scott : Greek-English. Lexicon يظهر أنها كانت فى أول عهد الفتح العربى لمصر لها أسماء أخرى وردت فى الأوراق البردية ، مثل : Diagraphon و Andrismoss . انظر Cheira : La Documentation, Papyrologique. de l'Epoque Arabe. Alexandrie 1948. cf.

(٦) انظر . Menant : Les Zoroastriens .R. M. M, n. 10 Oct. 1917, p. 196.

(٧) سعيد بن بطريق ، ٢ ص ٢٤ س ٨ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٧٠ س ٥ .

(٨) حسن المحاضرة ، ١ ص ٥٦ س ٢٦ ؛ الموطأ ، ص ١٢٢ .

(٩) ابن عبد الحكم ، ص ٧٠ س ٦ — ٧ ؛ الماوردى، الأحكام، ص١٢٨ — ١٢٩.

(١٠) الماوردى ، ص ١٢٨ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. I, p. 1082

(١١) الماوردى ، الأحكام ، ص ١٣٠ س ٥ .

(١٢) الخطط ، ١ ص ١٢٥ .

(١٣) انظر . بعده . (١٤) ابن عبد الحكم ، ص ١٥١ س ١٥ .

أنه دفعها للعرب وهو صاغر، كما نص القرآن[١] ؛ ولذلك كانت بعض القبائل[٢] العربية غير المسلمة تعنى من دفعها، لما فيها من اذلال ..

هذا وقد أبقى عمر على النظام الادارى الذى وجده فى البلاد المفتوحة بدون تعديل كبير، وذلك لأن العرب فى ذلك الوقت لم تكن لهم آية حضارة ، أو تجارب حضارية تمكنهم من قلب الأوضاع واحلال نظم جديدة ؛ ولذلك كان لعمر من المرونة ما جعله يوافق على إدخال نظم فارسية وبيزنطية عديدة فى نظام[٣] الدولة الاسلامية . فقد أبقى عمر على الدواوين — وهى أى السجلات — تكتب بلغة[٤] أهلها : فكان ديوان الشام باليونانية ، وديوان فارس أو العراق بالفارسية، وديوان مصر بالقبطية . وقد كان مظهر عمل الدواوين الأساسى هو اخراج المال لأعطية الجند وسائر الكلف[٥] ، أما ما يفضل فكان أغلبه يحمل إلى بيت المال[٦] فى المدينة ، حتى ولو كان من الضريبة العينية كالحبوب[٧] . كذلك أبقى عمر على نظام العملة التى كانت فى التداول ، على الرغم من أنها كسروية وهرقلية[٨] ، ومنقوش عليها العقيدة المسيحية أو بيت النار ، وتواريخها قديمة[٩] قد يرجع بعضها إلى ما قبل الاسلام بأربعمائة سنة ؛ ولكن عمر أضاف إليها عقيدة[١٠] الاسلام ، وكلمة «جائز[١١]» للدلالة على أنها عملة جيدة، حسب المعيار الرسمى الذى

---

(١) القرآن ٩ : ٢٩ ؛ انظر أيضا الماوردى ، الأحكام ، ١ ص ١٢٧ .

(٢) انظر . Ency. de l'Isl. t I, p. 1082

(٣) انظر . فون كريمر ، الحضارة الاسلامية ، تعريب طه بدر ، ص ٦٠ .

(٤) الخطط، ١ ص١٥٨ س١٠ — ١١؛ انظر . La Documentation : Cheïra Papyrologique de l'Epoque Arabe. Alexandrie 1948. cf. Ency. de l'Isl. (art Dîwân), t I, p. 1006 عن معنى الديوان وتطوره انظر الهامش قبله وأيضا

(٥) الخطط ، ١ ص ١٥٦ س ١٩ — ٢٠ .

(٦) نفسه ؛ الكامل ، ٢ ص ٢٩ ؛ ٣ ص ٣١ .

(٧) انظر . قبله .

(٨) المقريزى ، النقود الاسلامية ، طبعة قسطنطينية ١٢٩٨هـ ، ص ٥ .

(٩) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٧١ س ٧ .

(١٠) انظر . Catalogue des Monnaies Musulmanes : Lavoix Khalifes Orientaux t I. Préface, p. I, 15 (50) ; 17 (57).

(١١) المقريزى ، النقود ، ص ٩ ؛ انظر . Lavoix : Cat, p. 3—4 ; 8 ; 9 ; 10 ; 13

أقره النبي (١) وأبو بكر من قبل؛ فبقيت وحدة العملة — كما كانت من قبل — بالدينار الذهبي والدرهم الفضي (٢). وفوق ذلك لم يغير عمر في التقسيم الاداري للبلاد المفتوحة: ففي مصر بقيت الكورة (٣) « Curia » أي المركز، وفي فارس « الرساتيق (٤) » أي الولايات؛ وإن وُلِّيَ على البلاد حكام من قبل الخليفة، هم عادة قواد الفتح يطلق عليهم: « صاحب العمل (٥) »، كما يلقبون « بالأمير (٦) ».

أما الشئون القضائية في البلاد المفتوحة فكان يشرف عليها بالنسبة للعرب رجل دين يسمى « القاضي (٧) »، وان كان عليه أيضاً أن يشرف على الفيء والغنائم (٨). أما الشئون الخاصة بالقضايا بين الرعية، فكان يشرف عليها رجال الدين من أهالي البلاد المفتوحة، وان صارت المنازعات القضائية (٩) للقبط في مصر تعرض على قاضي المسلمين. ولا ريب أن القضاء لم يبلغ مبلغ القوة كما بلغه في عهد عمر، بحيث أنه كان من الجائز أن يشكو أحد الرعايا (١٠) عامل الخليفة للخليفة.

كذلك يرجع الفضل إلى عمر في تنظيم مسألة التاريخ (١١) الهجري، فالعرب كانت تتبع تواريخ مختلفة على حسب الأحداث الجسام، مثل: يوم الفيل (١٢). ولكن

---

(١) المقريزي، النقود، ص ٤.

(٢) الدينار أصله لاتيني « Denarius » استخدم في عملة روما، فنقل إلى العربية بتحريف خفيف « دينار ». وعلى العكس فإن درهم لفظة فارسية معربة. انظر. انستاس ماري — النقود العربية وعلم النميات، القاهرة ١٩٣٩، ص ٢٣ — ٢٥؛ والملاحظات.

(٣) المقريزي، الخطط، ١ ص ١١٦.

(٤) روستاق من روستاى أو روستا. معجم البلدان، ٧ ص ٤٠٢؛ انظر.
A Comprehensive Persian English Dictionary 3ed, : Steingass London 1947, p. 594.

(٥) الكامل، ٣ ص ١٦ س ٥.

(٦) نفسه، ٣ ص ١٥ س ١٤؛ انظر. حسن ابراهيم، النظم الاسلامية، القاهرة ١٩٣٩، ص ١٩٧.

(٧) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٧٤؛ حسن المحاضرة، ٢ ص ٨٦.

(٨) الكامل، ٢ ص ٣١١ (آخر الصفحة).

(٩) الكندي، الولاة والقضاة، تحقيق Guest، ص ٣٥١.

(١٠) الكامل، ٣ ص ٣٠.

(١١) نفسه، ٣ ص ٣١؛ السخاوي، الأعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، دمشق ١٣٤٩/١٩٣٠، ص ٨٠. (١٢) السخاوي، ص ٨٠.

بمجيء الاسلام وقع اختيار المسلمين على سنة هجرة النبي إلى المدينة (٦٢٢م) مبدأ لتقويمهم ، لأن تاريخ مبعثه مختلف فيه ؛ كما أن وفاته كانت تثير عندهم الشجن ، مما حدا بهم إلى اختيار الهجرة لأنها — فى رأيهم — فرقت بين الحق والباطل ؛ كما أنهم لم يختلفوا فى تاريخها. ومع ذلك فمن المؤكد أن التاريخ الهجرى لم يتخذ أساساً للتقويم؛ إلا فى عهد الخليفة الثانى : عمر بن[1] الخطاب حوالى العام ٦٣٨/١٧ ؛ والذى دعاه إلى ذلك هو أن الامبراطورية الاسلامية كانت قد اتسعت ، واحتاج الخليفة إلى مخاطبة الولاة وتأريخ كتبه إليهم ، أما قبل ذلك فى عهد النبى وأبى بكر فكان يؤرخ بسنى اقامة النبى فى المدينة[2] .

وقد اتخذ العرب لتاريخ الهجرة السنة القمرية[3] ، وهى التى وردت فى القرآن عدة مرات : ﴿ هُوَ الذى جَعَلَ الشمسَ ضياءً والقمر نوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازل لتعلمُوا عددَ السنين والحساب ١٠ : ٥ ﴾ . ولكن على الرغم من أن الهجرة كانت فى ربيع الأول ، فإن المسلمين اختاروا شهر المحرم بداية لتاريخهم ، لأنه شهر حرام[4] ، ولأنه أول الشهور فى العدة ومنصرف الناس من الحج . فكانت شهور التقويم بالترتيب الآتى : المحرم ، صفر ، ربيع الأول ، ربيع الآخر ، جمادى الأولى ، جمادى الآخرة ، رجب ، شعبان ، رمضان ، شوال ، ذوالقعدة ، وذو الحجة . كذلك اتخذ التاريخ الهجرى الليالى[5] أساس التوقيت نظراً لاعتمادهم على السنة القمرية ، ولأن الليل سابق على النهار ، وذلك على عكس المسيحيين الذين اعتمدوا على السنة الشمسية واتخذوا النهار أساساً للتقويم . وقد ظهر للعرب بسبب اختيار الليالى فى التاريخ بعض التعبيرات الخاصة ، منها : أول ليلة فى الشهر لأول

---

(١) ابن الجوزى ، تاريخ عمر ، ص ٤٢ ؛ انظر. Ency. de l'Isl, (art Hidjra) 2, p. 321.

(٢) السخاوى ، ص ٧٩ ؛ ٨١ .

(٣) نفسه ، ٧٩ ؛ صبح الأعشى ، ٢ ص ٣٥٨ ؛ ٣٨٨ .

(٤) السيوطى ، كتاب الشماريخ فى علم التاريخ ، مصور بالفوتوستات فى جامعة القاهرة ، برقم ٢٦٠٦٢ ورقة ٧٢ ؛ صبح الأعشى ، ٣ ص ٣٦٤ .

(٥) السيوطى ، كتاب الشماريخ ، ورقة ٧٢ .

العام (السنة أو الحول) أو لغرّته أو لليلة خلت ، ثم لليلتين خلتا ، ثم لثلاث خلون إلى العشر ، فخلت إلى النصف ، فلنصف من كذا ، وهو أجود[١] من الخمس عشرة خلت ، بعد ذلك تقول لأربع عشرة ليلة بقيت إلى العشرين ، ثم لعشر بقين إلى آخره ، فلآخر ليلة أو لسلخه أولا نسلاخه .

* * *

ولكن عمر بن الخطاب الذى أعتبر متمماً لأعمال النبى وأبى بكر، قتل فى أواخر سنة ٢٣/٦٤٤[٢]، على يد عبد فارسى اسمه أبو لؤلؤة المجوسى ، لأسباب غير واضحة لعل منها الحقد الشخصى ؛ وبذلك خُتمت حياة رجل عظيم من رجال الاسلام ، كان يعبر بشخصيته القوية وطوله البائن[٤] عن شموخ دولة الاسلام .

وقبل موته عيّن ستة من أكابر صحابة النبى ، ليختار المسلمون واحداً منهم ليكون خليفة بعده ، وقد عرف هؤلاء : «بأهل الشورى[٥]» ، لتشاورهم فى هذا الأمر الخطير ، وهم[٦] : عثمان بن عفان ، وعلىّ بن أبى طالب ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله . وقد بدا منذ تشاورهم فى منزل عائشة[٧] ؛ أنهم يميلون — كما حدث فى اختيار الخليفة سابقاً — إلى تفادى تولية علىّ حتى لا تتحول الخلافة إلى ملك وراثى[٨] فى بنى هاشم ؛ خصوصاً وأن عمر أيضا رفض أن يعهد[٩] بها الى ابنه عبدالله . وعلى العكس كانوا يميلون إلى تولية

(١) نفسه ؛ انظر . ماجد ، مقدمة لدراسة تاريخ الإسلامى ، ص ٧٧ .
(٢) الكامل ، ٣ ص ٢٨ س ٣ — ٤ .
(٣) نفسه ، ٣ ص ٢٦ ؛ ابن الجوزى ، تاريخ عمر ، ص ١٥٢ .
(٤) الكامل ، ٣ ص ٢٨ س ٥ .
(٥) نفسه ، ٣ ص ٣٦ . لعل عمر لم يجد من يستأهلها حتى يعينه ، كما فعل أبو بكر معه . انظر . الماوردى ، ص ٩ .
(٦) الكامل ، ٣ ص٣٥؛ البلاذرى، أنساب الأشراف ، ٥ ص١٦ تحقيق Goïtein، س ٧ — ٨ .
(٧) الكامل ، ٣ ص ٣٥ س ١١ .
(٨) نفسه ، ٣ ص ٣٧ س ٢٧ — ٢٨ .
(٩) نفسه ، ٣ ص ٣٤ .

عثمان[١] بالذات لسابقته فى الاسلام ، وإصهاره للنبي مرتين فى ابنتيه رقية ثم أم كلثوم ، ولهجرته إلى الحبشة ، ومفاوضته المكيين قبل صلح الحديبية. هذا وأن عبد الرحمن كان صهره[٢] ، وسعداً من أقربائه[٣] ، وطلحة[٤] غائب عن المدينة، ولعل الزبير انضم إليه أيضا. ولكن قبل أن تعلن الأغلبية رأيها فى الاختيار، كان كل واحد من أهل الشورى يخلع[٥] نفسه ويفوض غيره فى اختيار الخليفة ، الى أن انتهى الأمر الى عبد الرحمن[٦] الذى أعلن تولية عثمان الخلافة ، وذلك فى المحرم سنة ٦٤٤/٢٤[٧] . أما علىّ فإنه اعتبر اختيار عثمان تحاملاً[٨] جديداً على بيت النبي، ولكنه اضطر[٩] الى البايعة مثلما حدث سابقاً عند اختيار أبى بكر وعمر ؛ وان لم يمنع هذا أن يبدى بنو هاشم[١٠] وامراء[١١] الأمصار امتعاضهم من هذا الاختيار، خصوصاً وأن عثمان هو أحد أفراد الأسرة الأموية[١٢] التى كانت منافسة لبنى هاشم فى الجاهلية ، وعارضت النبى والاسلام .

. . .

ومن المحقق أن عهد عثمان كمل العهدين السابقين ؛ ففى عهده نجد أن العرب الذين كانوا قد احتلوا سواحل سورية ومصر الطويلتين ، أخذوا يفكرون[١٣]

---

(١) أنساب ، ٥ ص ١ — ٢ ؛ انظر . طه حسين ، عثمان ، القاهرة ، ص ٥٠ — ٥٤ .
(٢) الكامل ، ٣ ص ٣٨ س ٤ .
(٣) نفسه ، ٣ ص ٣٥ (آخرها) .
(٤) أنساب ، ٥ ص ٨ س ٢١ — ٢٢ .
(٥) الكامل ، ٣ ص ٣٦ ؛ الماوردى ، الأحكام ، ص ٩ .
(٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٦٦ .
(٧) أنساب ، ٥ ص ٨٥ س ٢١ .
(٨) الكامل ، ٣ ص ٣٧ س ٩ فما بعدها .
(٩) الأنساب ، ٥ ص ٢٢ س ١٥ — ١٨ .
(١٠) الكامل ، ٣ ص ٣٥ .
(١١) نفسه ، ٣ ص ٣٧ .
(١٢) انظر تأييد بنى أمية لعثمان . نفسه ، ٣ ص ٣٧ س ١٣ .
(١٣) انظر . الحاح معاويه على الخليفة عمر فى القيام بالغزو فى البحر. الخطط، ٣ ص ٣٠٨ .

جدياً فى القضاء على قوة بيزنطة البحرية ، التى أصبحت مصدر تهديد لامبراطوريتهم الناشئة: فقد كان احتفاظ بيزنطة بالسيطرة البحرية أن جعلها تقاوم[1] فى مدن سورية الساحلية مدة طويلة ، كما استطاعت أن تعود الى مهاجمتها فى سنة ٢٣[2]/٦٤٤ ، فاحتلت بعض مدنها لولا همة عامل الشام معاوية ؛ وأنها هاجمت أيضا الاسكندرية فى سنة ٢٥[3]/٦٤٥ ، وإن طردهم عمرو بن العاص . وهكذا رأى العرب الذين تغلبوا على أقوى الجيوش البرية قوة بيزنطة البحرية تتحداهم ، وأن السواحل التى احتلوها تقف حائلا دون تقدمهم .

وفى أول الأمر لم يكن العرب يستطيعون شيئاً ضد هذه القوة البحرية ، التى كانت تصول وتجول أمام سواحلهم ، وتسيطر على معظهم جزره ، بحيث سمى البحر الأبيض باسم «بحر الروم[4]» ؛ وذلك لأن العرب أمة بدوية[5] لم يكن لهم خبرة بركوب البحر وإنشاء السفن. ولكن لكى يقضوا على خطر عدوهم البحرى لجأوا إلى تقوية وسائل الدفاع عن سواحلهم بعدة أمور ، منها: اصلاح الحصون[6] الساحلية القديمة التى تركها البيزنطيون فى مصر وسورية ، وأخذ بيوت على الساحل ؛ لتحويلها الى قلاع للمقاومة تسمى «اخائذ[7]» ، وإنشاء « مناظر[8] » أى أماكن يراقب منها العدو ، كانت تتخذ المواقيد[9] لطلب الامداد اذا حدث هجوم مفاجىء . كذلك رُتب الجند بطول الساحل ، حيث كانوا يغيرون كل ستة[10] أشهر ؛ وفى

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١١٦ — ١١٧ ؛ ١٢٦ — ١٢٧ ؛ ١٤٠ — ١٤٢ .

(٢) نفسه ، ص ١٢٦ — ١٢٧ ؛ انظر . Cheïra : La lutte, p. 97 — 98.

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٥ ؛ انظر . Cheïra : La lutte, p. 98 — 99.

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٩٩ س ١٩ .

(٥) نفسه ، ص ٢٠٠ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٠٩ س ١٦ . انظر وصف عمرو للبحر بقوله : هم فيه كدود على عود . نفسه ، ٣ ص ٣٠٨ .

(٦) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٢٨ .

(٧) ابن عبد الحكم ، ص ١٣٠ . وهى كلمة من أخذ منزلا .

(٨) نفسه .

(٩) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٢٨ ؛ انظر . Cheïra : La lutte, p. 88 — 89. ؛ العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٥٠ .

(١٠) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٢ .

الوقت نفسه عُمل على تكوين صفات بحرية للعرب بأنه شُجعوا على سكنى السواحل وهو ما عرف « بالرباط[١] » ، وذلك بمنحهم الاقطاعات[٢] ؛ حتى يكونوا على قدم الاستعداد للدفاع ضد هجوم الأساطيل المعادية .

ولكن فى عهد الخليفة عثمان[٣] بُدئ فى تجهيز اسطول[٤] عربى، ليكون ضماناً للقضاء على أى هجوم معادٍ من البحر، فضلاً عن إمكان قيامه بالجهاد[٥] ضد أملاك البيزنطيين . وقد وكل بناء هذا الأسطول إلى العناصر الخبيرة فى « الصناعة[٦] » — أى صناعة المراكب البحرية — فى البلاد المفتوحة فى كلٍ من مصر[٧] وسورية[٨]، وبخاصة إلى القبط[٩] الذين ساهموا بنصيب كبير فى بناء الأسطول الاسلامى فى دور صناعتهم، التى ستعرف بجزيرة[١٠] مصر أو الروضة ؛ بحيث لم تأت سنة ٣٣هـ/٦٥٤ حتى كان للعرب أسطول يتكون من أكثر من ألف[١١] وسبعمائة قطعة، استطاع العرب به أن يحطموا السيادة البيزنطية فى البحر الأبيض ، ويستولوا على بعض جزره .

وقد كان نشاط الأسطول العربى كبيراً فى أول عهده : فقد كان يُشحن فى السفن المقاتلة[١٢] ونساؤهم[١٣] — على عادة العرب فى القتال — من ثغور مصر والشام ،

(١) انظر . قبله .
(٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٥ ؛ انظر . اغابيوس (Agabios) ، العنوان ، طبعة Paris ، ١٩٠٩ ، ٢ ص ٢١٩ ؛ انظر . Cheira : La lutte, p. 91.
(٣) الكامل ، ٣ ص ٤٨ س ١٩ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٠٨ س ٢٣ .
(٤) هذه الكلمة غير عربية (الخطط ، ٣ ص ٣٠٧ س ٥ — ٦) ولعل أصلها يونانى ، تطلق على مجموع السفن الحربية وعلى السفينة الواحدة . انظر. عبادة ، سفن الأسطول الاسلامى ، القاهرة ١٩١٣ ، ص ١٠ ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٢١٨ هامش (١) .
(٥) الخطط ، ٣ ص ٣٠٩ س ٢٠ — ٢١ .
(٦) نفسه ، ٣ ص ٢٨٩ ؛ ٣٠٦ — ٣٠٧ .
(٧) نفسه ، ٣ ص ٢٨٩ ؛ انظر . Bell : Catalogue of the Greek, Papyri in the Brit. Mus. IV, 1376 ; 1410.
(٨) أغابيوس ، ٢ ص ٢٢٣ .
(٩) الطبرى (طبعة مصر) ، ٣ ص ٣٤١ .
(١٠) الخطط ، ٣ ص ٢٨٩ .
(١١) أغابيوس ، ٢ ص ٢٢٠ .
(١٢) الخطط ، ٣ ص ٣٠٧ س ٥ .
(١٣) الكامل ، ٣ ص ٤٨ (آخر الصفحة) ؛ ابن عبد الحكم ، ص ١٩١ س ١ .

صيفاً وشتاءً[١] ، للغارة على سواحل العدو ؛ حتى أن عبد الله[٢] بن قيس الذى استعمله معاوية فى البحر غزا خمسين مرة . ولكن جل جهود اسطول الشام كانت موجهة نحو جزيرة قُبْرُس[٣] ، التى كانت تسيطر عليها بيزنطة ، وتتخذها قاعدة للهجوم على سواحل الشام ومصر : فغزاها معاوية بنفسه فى سنة ٢٨[٤]/٦٤٨ بقصد الإغارة ، ولعله غزاها ثانية فى سنة ٢٩[٥]/٦٤٩ ؛ ولكن فى سنة ٣٣[٦]/٦٥٤ غزاها العرب من مصر والشام بقصد احتلالها ، وفعلاً أبقوا فيها الحاميات ، وأنشأوا المساجد .

ولكن يظهر أن هذا النشاط المتزايد من قبل العرب أخاف بيزنطة ، بحيث أن امبراطورها قنسطانز[٧] الثانى « Konstas II » (٦٤٢ — ٦٦٨م) جمع عدداً من المراكب لم يجمعها من قبل — تزيد على ألف[٨] مركب — وسار بها بقصد ملاقاة اسطول العرب ، أو بقصد احتلال الاسكندرية ، أكبر موانى البحر الأبيض ؛ فخرجت إليه اساطيل العرب فى اعداد[٩] كبيرة ، بقيادة عامل مصر عبد الله

---

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٠٨ س ٢٦ .

(٢) نفسه ؛ الكامل ، ٣ ص ٤٨ — ٤٩ .

(٣) انظر عنها معجم البلدان ، ٧ ص ٢٦ .

(٤) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٣ ؛ انظر . نقولا زيادة ، صور من التاريخ العربى القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٤٣ ؛ عبادة ، سفن الأسطول ، ص ٢١ ؛ La lutte, : Cheïra p. 99.

(٥) الكامل ، ٣ ص ٤٨ .

(٦) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٥٢ ؛ الكامل ، ٣ ص ٤٨ س ٢٢ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ١٧٥ ؛ انظر . La lutte, p. 101. : Cheira

(٧) الكامل ، ٣ ص ٥٨ .

(٨) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٠ — ١٩١ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٠٩ س ٢ .

(٩) اختلف فى عددها : فقال أغابيوس ١٧٠٠ (أنظر . العنوان ، ٢ ص ٢٢٠) ، وابن عبد الحكم مائتين (فتوح مصر ، ص ١٩٠) ، والبلاذرى خمسمائة . فتوح البلدان ، ص ١٥٣ .

ابن سعد بن أبى سرح . فتقابل الأسطولان فى سنة ٣٤[1]/٦٥٥ قرب سواحل آسيا الصغرى فى معركة عرفت باسم «ذات السوارى» لكثرة سوارى[2] المراكب: وقد كان القتال عنيفاً بين الطرفين، فبعد ليلة أمضوها فى العبادة، نظم القواد الجند على ظهر المراكب فى صفوف[3]، ثم قُربت السفن بعضها ببعض بعد ربطها،[4] مالا يحصى ودمرت[5] معظم مراكبهم، وانقذ الامبراطور حياته بصعوبة؛ بفراره[6] واقتتل العدوان بالسيوف والخناجر، فقتل من البيزنطيين إلى جزيرة صقلية. وقد كان النصر فى هذه الموقعة حاسماً، حتى أنه شبه بموقعة اليرموك[7] التى لم تقم للبيزنطيين بعدها قائمة فى الشام، ومهد لسيطرة العرب البحرية، فأخذوا يغيرون على جزره مثل صقلية[8] وردوس[9]؛ وإن كان العرب لم يستفيدوا من هذا الانتصار الباهر فى مهاجمة القسطنطينية[10] مباشرة، التى كان من الممكن أن تسقط بين أيديهم .

---

(١) الكامل، ٣ ص ٥٨؛ ابن عبد الحكم، ص ١٩١ س ١؛ Theophanis : Chronog. ed de Boor, p. 345؛ انظر . Weil : Die Kampfe der Araber, mit den Rômaern, Nachrichten der König. Gesellschaft der Wissensch. Phil. Hist. Klasse., Gottingen 1901, p. 420؛ Canard : Les Expéditions des Arabes contre Constantinople dans l'Histoire et dans la Légende J. A. Jan-Mars 1926, p. 63 — 64.؛ Cheira : la Lutte, p. 102 — 3,

(٢) الكامل، ٣ ص ٥٨ وتكتب أحياناً صوارى. الخطط، ٣ ص ٣٠٩؛ انظر . Dozy : Suppl. aux Dict. Arab., I, p. 651. وهى تسمى أيضا موقعة فونيقية (أغابيوس، ٢ ص ٢٢٤) لوقوعها قرب ثغر Phoenicus على ساحل آسيا الصغرى . انظر . Canard : Les Expéd, p 63 — 64.

(٣) الطبرى (طبعة مصر)، ٣ ص ٣٤١ .

(٤) الكامل، ٣ ص ٥٨ .

(٥) أغابيوس، ٢ ص ٢٢٤ .

(٦) الكامل، ٣ ص ٥٨ — ٥٩؛ انظر . Theophanis, p. 344.

(٧) انظر . Theophanis, p. 332؛ انظر . Weil : Kampfe, p. 420.؛ Cheira : La lutte, p. 103.؛ Canard : Les Expéd, p. 64.

(٨) ابن عبد الحكم، ص ٢١٦؛ انظر . زيادة، صور، ص ٤٦ .

(٩) أغابيوس، ٢ ص ٢٢٢؛ الخطط، ٣ ص ٣٠٩ .

(١٠) انظر . Canard : Les Expéd, p. 67,

أما فى البر فقد كان الجيش العربى منهمكاً فى اتمام فتح فارس ، وكان قتل يزدجرد فى سنة ٣١[١]/٦٥١ له أثره فى انهاء المقاومة فى هذه البلاد ، ومد سيطرة المسلمين فيها إلى الشمال ناحية الترك[٢] ، وإلى الشرق ناحية الهند[٣] . ومن ناحية أخرى كانت الخلافة تشجع الجهاد[٤] بقصد تأمين أطراف الإمبراطورية: فكان عبدالله ابن سعد بن أبى سرح يشن الغارات على البلاد المجاورة لمصر فى أفريقية[٥] غرباً، فى النوبة[٦] جنوباً، حيث عقد مع ملك هذه الأخيرة معاهدة «البقط»، كما كان معاوية فى الشام يبث غاراته فى بلاد الروم[٧] ذاتها ، مستفيداً من انتصارات المسلمين البحرية .

ولكن أهم ما حدث فى البر فى عهد عثمان هو فتح ارمينية[٨] : وهى صقع عظيم واسع يمتد إلى جبال القبق (أو القوقاز[٩]) والبحر الاسود شمالاً ، وبعض الجزيرة جنوباً ، وبحر الخزر[١٠] (أو قزوين) وهضبة آذربيجان شرقاً، وآسيا الصغرى والجزيرة غرباً؛ فيشمل الأراضى الجبلية التى كان يخترقها عدة أنهار عظيمة أهمها : الدجلة والفرات فى الجنوب ، والكر[١١] « Kyros » والرس[١٢] « Araxe » فى الشمال .

(١) الكامل ، ٣ ص ٥٩ ؛ انظر . قبله .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٤ ؛ ٥٤ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٦٥ س ٩ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٧٥ س ٨ ؛ انظر . Cheira : La lutte, p. 69 sqq.

(٥) الكامل ، ٣ ص ٤٤ ؛ ٤٥ ؛ ٤٦ ؛ ٤٧ . انظر عن افريقية ، معجم البلدان ، ١ ص ٣٠٠ فما بعدها .

(٦) انظر . قبله .

(٧) الكامل ، ٣ ص ٤٤ .

(٨) انظر عنها معجم البلدان، ١ ص ٢٠٣ فما بعدها ؛ صبح الأعشى، ٤ ص ٣٥٣ ؛ انظر . Ency. de l'Isl., (art Arménie) t I, p. 441sqq. ؛ العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ١١٣ .

(٩) معجم البلدان ، ٧ ص ٢٧ .

(١٠) نسبة إلى شعب الخزر . معجم البلدان ، ٢ ص ٦٦ — ٦٧ ؛ انظر . بعده . وهو له أسماء عدة منها بحر قزوين بسبب بلدة قزوين القديمة . انظر عنها معجم البلدان ، ٧ ص ٧٩ فما بعدها .

(١١) التنبيه ، ص ٦٢ ؛ فتوح البلدان ، ص ٢٠٣ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, t I, p. 442.

(١٢) نفسه ؛ نفسه ، انظر . Id.

وقد كان يسكن هذه البلاد شعب أسيوى لا نعرف أصله ، ينسب إلى هذه البلاد ويعرف بالأرمن[١] ، تحول إلى المسيحية[٢] من عهد مبكر ؛ مما كان سبباً فى أن بدأت تظهر له شخصيته ، التى لا يزال محتفظاً بها إلى الآن . كذلك كان يعيش فى ارمينية جماعات يهودية ومجوسية[٣] ؛ أتته من البلاد المجاورة .

ولكن وقوع هذه البلاد بين شعوب متعادية جعلها طعمة لجيرانها[٤] منذ قديم الزمان : كالسلوقيين والرومان والبيزنطيين من ناحية ، وممالك إيران من ناحية أخرى . ويظهر أن فرعاً من أسرة الأرشكانيين[٥] (البارثيين) الفارسية، استطاعت أن تكون فيها ملكاً دام مدة أربع قرون . وبعد زوالهم من أرمينية سيطر الساسانيون على جزء كبير منها ، فكانوا يعينون عليه حاكماً «مرزباناً[٦]» ؛ وإن كان البيزنطيون[٧] من ناحيتهم استولوا على الأجزاء المجاورة لهم . وقد كان ظهور شعب[٨] الخزر فى المناطق الشمالية المجاورة لارمينية — وهو شعب مجهول الأصل يتكلم لغة مخالفة للغة الترك — أن جعل الفرس تبنى قلاعاً أو قصوراً من الحجارة على أفواه شعاب جبال القبق أو القوقاز عرفت بالأبواب[٩] ، لمنع غاراتهم ؛ ومع ذلك تمكن الخزر من الاستيلاء على بعض أجزائها[١٠] . ويبدو أن الروم فى عهد هرقل[١١] استطاعوا

(١) انظر . فتوح البلدان ، ص ١٩٩ س ٩ ؛ معجم البلدان ، ١ ص ٢٠٣ ؛ انظر . Eucy. de l'Isl. t*l*, p. 442.

(٢) انظر . Sebêos, p. 109sqq. مذهبهم الكاثوليكية .

(٣) البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٠٠ .

(٤) أغابيوس ، ٢ ص٢٠٣ ؛ Sebêos, p. 4sqq ؛ انظر . Ency. de l'Isl. t I. p. 442 — 3.

(٥) انظر . Sebêos, p. I ؛ Langlois: Collection des Historiens anciens et modernes de l'Arménie, tome I et II, Paris 1867—9, p. 80.

(٦) أغابيوس ، ٢ ص ٢٠٣ ؛ Sebeos, P. 4 sqq.

(٧) معجم البلدان ، ١ ص ٢٠٤ ؛ فتوح البلدان ، ص ١٩٤ ؛ انظر . Laurent: L'Arménie entre Byzance et les Arabes, Paris 1919, p, 304.

(٨) فتوح البلدان ، ص ١٩٥ س ١٠ ؛ معجم البلدان ، ٣ ص ٤٣٢ فما بعدها ؛ انظر . Ency, dc l'Isl. (art Khazar) t2, p. 99sqq.

(٩) البلاذرى . فتوح ، ص ١٩٤ — ١٩٥ ؛ معجم البلدان ، ٣ ص ٩ .

(١٠) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٩٤ ؛ ١٩٧ .

(١١) أغابيوس ، ٢ ص ٢٠٤ ؛ انظر . H. el Del : Op. cit, p. 356,

أن يضموا الجزء الأكبر منها بعد هزيمتهم الفرس؛ بحيث أنهم جلبوا[١] إليها الجموع الكثيرة ؛ وإن كان الأرمن داعي الثورة عليهم للاختلاف في المذهب [٢] . وقد كان لطمع جيران ارمينية، ولطبيعة أرضها الجبلية أن قسمت منذ القدم إلى أقسام[٣] مختلفة ، مثل: ارمينية الكبرى وارمينية الصغرى، أو ارمينية الداخلة أو الخارجة ، بل ثلاث أو أربع أو خمس أرمينيات .

ونحن لا نرى في أسباب مهاجمة العرب لارمينيه؛ إلا أنهم أصبحوا على حدودها، بعد أن فتحوا بلاد الجزيرة ومنطقة آذربيجان[٤] الفارسية ؛ بحيث أنهم في عهد عمر كانوا قد منحوا بعض أهلها المجاورين للجزيرة الأمان[٥]؛ وفتحوا بعض مدنها[٦] . أضف إلى ذلك أن غزوها كان ضرورة لتأمين[٧] حدود امبراطوريتهم في الجزيرة وسورية لوجود حدود مشتركة ، وأن العرب أرادوا تضييق الخناق على دولة الروم بآسيا الصغرى بحرمانها من أرمينية الخاضعة لها ، تمهيداً للقضاء عليها كما قضوا على فارس من قبل .

على كل حال نجد أن الخليفة عثمان عهد لغزو أرمينية ، بجمع القيادة في سورية والجزيرة لمعاوية سنة ٢٥[٨]/٦٤٦ ، فارسل هذا الأخير قائداً عرف بحروبه مع بيزنطه[٩]، هو حبيب بن مسلمة الفهري، ليغزوها بجنود من سورية والجزيرة والعراق

---

(١) الكامل ، ٣ ص ٤٣ ؛ Sebêos, p. 107 .

(٢) انظر . Sebêos, p. 109sqq

(٣) البلاذري ، فتوح ، ص ١٩٣ — ١٩٤ ؛ ١٩٩ ؛ ابن حوقل ، تحقيق De Goeje ، ص ٢٩٥ ؛ معجم البلدان ، ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. tI, p 449.

(٤) معجم البلدان ، ١ ص ١٥٩ — ١٦٠ .

(٥) الطبري (Annales) ١ : ٢٦٦٥ — ٢٦٦٦ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢٦٣ .

(٦) انظر . معجم البلدان ، ١ ص ١٩٠ — ١٩١ ؛ ٢ ص ٩٠ .

(٧) انظر . Cheïra : La lutte, p. 70

(٨) فتوح البلدان ، ص ١٧٨ ؛ انظر . Cheïra : La lutte, p. 72

(٩) فتوح البلدان ، ص ١٩٧ ؛ الكامل ، ٣ ص ٤٣ .

والحجاز . ومع أن العرب قوبلوا فى ارمينية بمقاومة من الروم[١] – الذين جمعوا جموعاً عظيمة من الأرمن وشعوب الخزر[٢] ، فإن مدن ارمينية الهامة أخذت تقع فى أيديهم ، وعقد حبيب مع أهلها معاهدات[٣] أمان وصلح ؛ مثل : قاليقلا[٤] مركز ارمينية الرومية ، ودبيل[٥] مركز ارمينية الفارسية ، وتفليس[٦] الواقعة على نهر الكر قرب بلاد الخزر . كذلك خرج قواد آخرون متوغلين فى جميع أجزائها ، حتى أن العرب فى انسياحهم بلغوا بلنجر[٧] عاصمة الخزر ، وبرذعة[٨] فى أقصى نواحى آذربيجان الفارسية ، وشمشاط[٩] فى أقصى ارمينيه الرومية على شط الفرات . ولكن بدلا من أن يتولى حبيب عمل ارمينية ، ولى عثمان حذيفة بن[١٠] اليمان لينتفع بحبيب كغاز فى ثغور الشام والجزيرة . والواقع أن خضوع أرمينية للعرب كان يعتمد على معاهدات[١١] الصلح ، أكثر من اعتماده على حاميانهم ؛ وبذلك حققت الدولة العربية هدفها فى تأمين حدود بلادها ، وتضييق الخناق على دولة الروم .

(١) الكامل ، ٣ ص ٤٣ س ٩ — ١٠ ؛ انظر . Sebeos, p. 107.
(٢) فتوح البلدان ، ص ١٩٧ ؛ Ency. de l'Isl, I, p.444
(٣) فتوح البلدان ، ص ١٩٧ — ١٩٨ ؛ ٢٠٤ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢٥٨ — ٢٦١ .
(٤) معجم البلدان ، ٧ ص ١٧ . قد تكون « Erzurûm » انظر . Ency. de l'Isl, II, p. 443.
(٥) معجم البلدان ، ٤ ص ٣٥ . هى ماتعرف بـ(Dwin) انظر . Ency. de l'Isl, II, p. 444.
(٦) معجم البلدان ، ٤ ص ٣٩٦ .
(٧) نفسه ، ٢ ص ٢٧٨ .
(٨) نفسه ، ٢ ص ١٢١ .
(٩) نفسه ، ٥ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .
(١٠) فتوح البلدان ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥ . توفى سنة ٤٢ هـ بدمشق .
(١١) انظر . Sebêos, p. 133 ؛ انظر . Cheira : Les Statuts de pays des Ahd, p. 47.

ومن الجائز أن يكون لغزو ارمينية أثره الكبير فى جمع القرآن فى نص موحد: فقد ذُهل حُذيفة[١] بن اليمان — أحد قواد العرب — بسبب الاختلاف فى قراءة القرآن بين جنوده من أهل العراق والشام؛ فقدم على عثمان، وقال[٢] له: « ادرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى » ؛ لذلك عمل الخليفة على جمع القرآن فى نص موحد .

أما قبل ذلك فلم يرد إلينا ما يؤيد أن النبى قام بجمع القرآن فى كتاب واحد؛ وإنما كان يُملى ماينزل به الوحى على بعض الصحابة، الذين عرفوا بكتاب الوحى[٣]، فكانوا يكتبونه على الرقاع والعسب والأكتاف والأقتاب واللخاف والقراطيس وقطع الأديم، حيث كانت تقوم مقام الورق وقتئذ. وإن كنا لا نعرف كيف كان الاملاء، خصوصاً وأن القرآن لم ينزل دفعة واحدة على النبى، وإنما مفرقاً[٤]، وأنه كان ينزل عليه ليلا وهو نائم[٥]، أو نهاراً حتى وهو راكب ناقته[٦]؛ كما أن النبى كان ينسخ[٧] بعض الآيات التى أملاها ويأتى بأخرى محلها .

ولا ريب أن النبى لم يفكر فى جمع القرآن فى كتاب واحد ؛ لأنه كان

---

(١) أنساب، ٥ ص ٦٢ س ١٩. (٢) السيوطى، الاتقان فى علوم القرآن، ص ١٠٢؛ انظر Blachère : Le Coran. Introd. Paris 1947 ; p. 53.

(٣) السيوطى ، الاتقان ١٠١ — ١٠٢ . الرقاع مفردها رقعة تكون من جلد أو ورق ، والعسب جمع عسيب وهو جريد النخل ، والأكتاف جمع كتف وهو العظم الذى للبعير أو الشاة كانوا إذا جف كتبوا عليه ، والأقتاب جمع قتب وهو الخشب الذى يوضع على ظهر البعير، واللخاف وهى الحجارة الدقاق، والقراطيس جمع قرطاس وهو الورق، اما الأديم فهو الجلد. انظر أيضا Schwally : Gesch. des Qorâns. Die Sammlung des Qorâns, Leipzig 1919, p. 13. n. 2. 3, 4, 5, 6, 7.

(٤) الاتقان ، ١ ص ٤٨ .

(٥) نفسه ، ١ ص ١٣ ؛ ٣٤ ؛ ٣٧

(٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٩ س ٢٢ .

(٧) القرآن ٢ : ١٠٦ .

مثل بقية العرب يحبذ[١] الحفظ فى صدور الرجال على الكتابة ، وأن الله هو خير حافظ[٢] له فى الصدور ؛ وأنه وإن كان أملاه متفرقاً فلكى يحفظ لا ليكون عليه الاعتماد[٣] ، ولذلك كان النبى يرسل بقراء القرآن[٤] إلى أنحاء الجزيرة لتعليمه للعرب ؛ ولا يرسل ما كتب منه . وعلى العكس نحن لا نظن اطلاقاً بأن النبى لم يجمعه فى كتاب بسبب أنه أمى[٥] ، فهذه الكلمة فى القرآن لا تعنى الجهل وإنما تعنى أن العرب ليسوا من أهل الكتاب ، كالنصارى واليهود .

كذلك لم يفكر أحد فى حياة النبى فى جمعه ؛ لعدم ضرورة ذلك لوجود صاحب[٦] الرسالة . ولكن بعد موته وُجد حماس لجمع القرآن بين بعض الصحابة ، مثل : على[٧] وعبد الله بن مسعود[٨] وأبىّ بن[٩] كعب وأبى موسى الأشعرى[١٠] ... الخ . فكل من هؤلاء كان عنده نسخة من القرآن جمعها باجتهاده وبطريقته الخاصة ؛ وقد انتشرت هذه النسخ مع الفتوح وأصبحت عماد الدين . ولعل أهم ما جمع منها هو نسخة الخليفة أبى بكر ، الذى أمر[١١] زيد بن ثابت — أحد كتاب الوحى للنبى — بجمع القرآن فى كتاب بسبب أنه اخترم عدد كبير من القراء يوم اليمامة سنة ١١ / ٦٤٣ ؛

---

(١) كشف الظنون ، ١ ص ٢٦ . ينسب إلى النبى بعض الأحاديث بأنه نهى عن الكتابة ، لتبق العرب على ملكة الحفظ . انظر . نفسه ؛ الخطيب البغدادى ، تقييد العلم ، تحقيق يوسف العش ، دمشق ١٩٤٩ ، ص ٣٣ .

(٢) ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ١٥ : ٩﴾ انظر أيضا القرآن ٧٥ : ١٧

(٣) الخطيب البغدادى ، تقييد العلم ، ص ٦٨ .

(٤) الكامل ، ٣ ص ٥٦ س ٥ .

(٥) القرآن ٧ : ١٥٨ ؛ انظر . Noldeke : Geschichte des Qorâns, Gottingen 1860, p. 16.

(٦) انظر . Blachère : Introd. au Coran, p. 25

(٧) السيوطى ، الاتقان ، ١ ص ١٠٠ . يقال أنه أول من بدأ بجمعه .

(٨) نفسه ، ١ ص ١٠٧ ؛ الكامل ، ٣ ص ٥٥ . توفى فى خلافة عثمان . انظر . أنساب الأشراف ، ٥ ص ٣٧ س ٢٢ .

(٩) الاتقان ، ١ ص ١٠٧ ؛ ١٢٤ توفى فى خلافة عثمان ، انظر . Schwally : Die Sammlung des Qorâns, P. 30sqq.

(١٠) نفسه ، ص ١٢٤ . كان مصحفه يسمى لباب القلوب . الكامل ، ٣ ص ٥٥ . توفى عام ٥٢ / ٦٧٢ .

(١١) الكامل ، ٢ ص ٢٤٧ ؛ ٣ ص ٥١ ؛ الاتقان ، ١ ص ٩٩ .

لئلا يذهب القرآن . فلما جمعه زيد بقى عند أبى بكر إلى أن توفاه الله ثم عند عمر ، فلما توفى عمر أخذته حفصة . وإن كان من المعلوم أن أبا بكر أو عمر لم يفرض هذا القرآن على أحد ، وذلك بسبب عدم رغبتهما فى القيام بعمل لم يعمله النبى .

ولكن الخليفة عثمان بن عفان أخذ على عاتقه أن يقوم بذلك ، لأنه فى عهده اختلف[1] فى وجوه قراءته بين المسلمين بسبب تعدد لهجات[2] العرب . كذلك قد يكون هناك غرض سياسى بقصد التقليل من نفوذ القراء ، الذى تزايد بسبب أنهم وحدهم يعرفونهم مضمون القرآن ، بأن يوجد له نصاً مقروءاً . وقد اعتمد عثمان فى تنفيذ[3] هذا المشروع على جماعة منهم : زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ؛ وقال لهم إذا اختلفتم فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم . وقد اتخذ هؤلاء قرآن أبى بكر — الذى طلبه[4] عثمان من حفصة — أساساً لعملهم ؛ فكان هذا الاختيار موفقاً لثقة[5] الناس فى أبى بكر ، وان اعتمدوا أساساً على ذاكرة القراء ، وجعلوا النص قرينة[6] على صحة الحفظ . فلما أتموا جمعه نسخوا منه عدة[7] نسخ أرسلها الخليفة إلى كل أفق : فى مكة والبصرة والكوفة والشام واليمن والبحرين ، وأمر باحراق[8] ما سواه ، والاعتماد عليه دون غيره .

وقد كان هذا القرآن الذى جمع يسمى : «مصحف[9] عثمان» أو فقط «المصحف[10]»

---

(١) الاتقان ، ص ١٠٣ .

(٢) نفسه ؛ انظر . يحيى نامى ، أصل الخط العربى ، ص ٨٧ ؛ انظر . Ency, de l'isl. (art Othmân) t 3, P. 1078

(٣) الكامل ، ٣ ص ٥٦ ؛ الاتقان ، ص ١٠٢ . ولى عثمان فى حياته زيداً الديوان وبيت المال . نفسه ، ٣ ص ٩٨ س ٢١ .

(٤) نفسه ، ١ ص ٥٦ .

(٥) انظر . Noldeke : Qorâns, P. 205

(٦) الخطيب البغدادى ، ص ٦٨ .

(٧) اختلف فى عدد النسخ فقيل أربع أو خمس أو سبع . الاتقان ، ١ ص ١٠٤ ؛ انظر . Noldeke : Qorâns, p. 234.

(٨) الكامل ، ٣ ص ٥٦ .

(٩) هذا المصحف لم يتبق لنا ، وإن ذكر ابن بطوطة وجوده فى الجامع الأموى بدمشق . انظر . رحلته .

(١٠) الاتقان ، ١ ص ١٠٢ ؛ انظر . Noldeke : Qorâns, P. 193 n (1)

وقُسم الى سور[١] بلغ عددها مائة وأربع عشرة سورة ، فيهاست وثلاثون ومائتان وستة آلاف آية[٢] : وكل سورة فيه تبدأ بيسم الله الرحمن الرحيم ، ماعدا سورة براءة[٣] التى يبدو من سياقها أنها جزء من سورة الأنفال السابقة لها . ويبدو أن الذاكرة العربية لم تع الترتيب التاريخى لنزول الآيات ، فرتبتها[٤] على حسب قصرها وطولها ، مما كان سبباً فى أن جعل السور المدنية تظهر فى أول المصحف والمكية فى آخره ؛ مع أنه ورد عن النبى أنه كان يأمر كتاب الوحى بوضع الآية كذا بعد آية كذا[٥] . ومع ذلك فانّا نرى أن القرآن كتاب للدعوة الدينية ، وليس كتاباً تاريخياً .

ولكن ماقام به عثمان فى جمع القرآن لم يكن عملاً تاماً ، لأن سكان البلاد المفتوحة حينما أسلموا لم يكن فى استطاعتهم[٦] قراءة القرآن ؛ إلا بمساعدة أهل الحجاز وحفظه عن ظهر قلب ؛ وذلك لخلو اللغة العربية وقتئذ من التنقيط[٧] ، فكانت حروفها متشابهة . ويظهر أن الحجاج[٨] بن يوسف الثقفى فى عهد الأمويين أخذ على عاتقه وضع النقط للقرآن ؛ مما سهل قراءته . وإن كان بعض الفقهاء لهم رأىٌ فى ذلك : هو أن التنقيط مكروه ؛ لأنه يسيء[٩] الظن بالنص .

---

(١) لعل أصلها من السؤر أى ما بقى من الشراب ، أو مأخوذة من التسور بمعنى التصاعد . الاتقان ، ١ ص ٨٩ .

(٢) نفسه ، ١ ص ١١٢ .

(٣) إذا عدت الأنفال وبراءة سورة واحدة ، فانه يكون عدد سوره مائة وثلاث عشرة سورة . الاتقان ، ١ ص ١١٢ .

(٤) انظر . القرآن ؛ سعيد بن بطريق ، ٢ ص ٣٢ س ٢٢ .

(٥) الاتقان ، ١ ص ٥٢ ، ١٠٤ .

(٦) انظر . Blachère, Introd, P. 66 :

(٧) انظر يحيى نامى ، أصل الخط العربى ، ص ٨٧ .

(٨) كشف الظنون ، ١ ص ٤٦٧ — ٤٦٨ . انظر بعده .

(٩) نفسه ، ١ ص ٤٦٨ س ٤ .

مهما يكن فقد حدث فى آخر عهد هذا الخليفة ما يسميه المؤرخون المسلمون « بالفتنة[١] » : ويقصدون[٢] بها انفصام وحدة المسلمين السياسية واختلاف آرائهم ، وهى الوحدة التى أوجدها أبو بكر بقمعة الردة ، وزادها عمر قوة بما أوجد لها من تنظيم . وسيترتب على هذه الفتنة حروب بين المسلمين سيروح الخليفة نفسه ضحيتها ؛ ونحن لا نعرف أسباباً مباشرة لوقوعها ، وإن كنا نرجحها بعدة عوامل :

لعل أهمها تغيّر ظروف المجتمع العربى : فقد أثرى أهل الحجاز بخروج اليهود والنصارى من بلادهم، وبما ورد لهم من غنائم الأمم المفتوحة التى أخذت تترى عليهم كالسيل ، وباستقبال القصاد من الحجاج المسلمين . وقد خاف الخليفة عمر أن يكون هذا الثراء الطارىء سبباً فى فساد قريش ، فتؤثر التنعم على الجهاد والفتوحات ، لذلك حصرهم بالمدينة ولم يسمح لهم بالإنطلاق[٣] إلى البلاد المفتوحة لتكوين الثروات ، واكتفى بتقرير العطاء . ولكن عثمان الذى تولى الخلافة لم يسر على خطا سلفه ، وإنما زاد فى العطاء وأسرف فى منح الاقطاعات[٤] والجوائز والصلات ، وسمح لقريش بالإنتشار[٥] فى الأمصار ؛ بحيث وجدنا أن الصحابة قد أغتنوا ، فمثلاً طلحة[٦] جمع مائتى ألف .

وقد كان نتيجة هذا الثراء أن ظهر[٧] الترف واللهو فى المجتمع العربى : فعاد أهل الحجاز إلى حيـــاة الحواضر الحجازية القديمة فنعموا بسماع قصائد

(١) الـكامل ، ٣ ص ١٠٣ س ١٩ .
(٢) لسان العرب ، ١٧ ص ١٩٣ ، ١٩٦ .
(٣) الـكامل ، ٣ ص ٩١ س ١٣ .
(٤) الخطط ، انظر .
(٥) نفسه ، ٣ ص ٩١ .
(٦) انساب الأشراف ، ٥ ص ٨ س ٢٠ — ٢١ .
(٧) ابن خلدون ، المقدمه ، ص ٣٣٩ .

الحب(١) ، كما جلبوا القيان الفارسيات أو الروميات(٢) ، بحيث اشتهرت مدينة النبى ومكة فى عهد عثمان بوجود أمهر المغنين أمثال(٣) : طويس وابن محرز وابن سريج . وقد كان الخليفة نفسه يعيش عيشة فيها دعة ورفاهية: فشد(٤) أسنانه بالذهب ، وكان يأكل(٥) اللحم والسمن وصغار الضأن والدقيق المنخول ، وينظر إلى عمر على أنه حمّل نفسه مالا تطيق ؛ فقد كان عمر يعيش(٦) على العيش الخشن وخبز الشعير ، والثوب الخام المرقوع والقناعة باليسير . وقد كان نتيجة هذا الثراء واللهو حدوث رد فعل بين كثير من عقلاء المسلمين واتقيائهم ، ظهر أثرها فى دعوة أبى ذر(٧) الغفارى — أحد أصحاب النبى — الذى أخذ يجوب الأقطار بين مكة والمدينة ودمشق داعياً إلى ترك الرفاهية وإكتناز الأموال ، وأن المسلم لا ينبغى له أن يكون فى مُلكه أكثر من قوت يومه وليلته ؛ وكان يثير الناس ضد عثمان وعماله ؛ بحيث أن معاوية — عامل عثمان فى دمشق — اضطر إلى إرجاعه إلى المدينة ، فنفاه عثمان إلى الربذة(٨) — من قرى المدينة - ولم يخلص منه إلا بموته سنة ٣١ هـ .

ثم إن عثمان لم يراع المصلحة العامة بقدر رعايته لمصلحة أقربائه : فقد عزل(٩)

---

(١) انظر شعر عمر بن أبى ربيعة . انظر. Nallino : La Littérature arabe, P. 86

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٣٩ س ٤ .

(٣) انظر عنهم . الأغانى ، (طبعة بولاق) ٤ ص ٣٨ ؛ دائرة المعارف الموسيقية تأليف Rouant ، ترجمة شلفون ، ص ٥٨ حاشية (١) .

(٤) انساب الأشراف ، ٥ ص ٤ س ٦ .

(٥) الطبرى (طبعة مصر) ٣ ص ٤٣٠ .

(٦) الكامل، ٣ ص ٥٧؛ الذهبى ، دول الاسلام ، ١ ص ٣ ؛ الأنساب ، ٥ ص ٥٢ فما بعدها ؛ انظر . العبادى ، صور من التاريخ الاسلامى ، ص ١٠٨ — ١١٦ .

(٧) هذا الصحابى اشترك فى فتح مصر ، وغزا افريقية فى عهد عثمان . المالكى . رياض النفوس ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٤٧ — ٤٨ .

(٨) الكامل، ٣ ص ٥٦ فما بعدها ، انظر عنها، معجم البلدان، ٤ ص ٢٢١ — ٢٢٢.

(٩) انساب ، ٥ ص ٢٩ س ١٥ — ١٧ ؛ الكامل ، ٣ ص ٤١ .

معظم العمال الذين كانوا قد ولاهم عمر بن الخطاب ، وعين بدلهم[١] أقرباءه من الأمويين ؛ مع أن عبد الرحمن قبل اعلان خلافته أخذ عليه المواثيق ألا يحمّل بني أميّة على رقاب[٢] الناس : فولى مروان بن الحكم[٣] — ابن عمه — على المدينة ، وكتب له بخمس[٤] غنائم افريقية ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح[٥] — أخوه من الرضاعة[٦] — على مصر ، مكان عاملها الكفء عمرو بن العاص ، وعبد الله بن[٧] عامر — ابن خاله — على البصرة ، وسعد بن أبي وقاص والوليد[٨] بن عقبة وسعيد بن العاص — وكلهم من أقربائه — على الكوفة[٩] . وكان معظم هؤلاء العمال غير جديرين بمناصبهم ، وكان عرب الأمصار يشكون منهم ويتمنون زوالهم[١٠] : فقد كان مروان يسمى طريد[١١] النبي ، وعبد الله بن سعد مطعون الخلق والدين ، قد هُدر دمه بسبب تغييره في القرآن عند كتابته الوحي لولا شفاعة[١٢] عثمان ، والوليد بن عقبة كذب[١٣] على النبي ، ونزلت هذه الآية بسببه : ﴿يَا أيها الذين آمَنوا إن جاءَكم فاسق بِنَبأ فتبينوا ٤٩:٦﴾ ، وأنه كان يشرب[١٤] الخمر ، وسعيد بن العاص كان يعبث بالأموال وينزع نحو التمتع بالملك كأي ملك من الفرس أو الروم ، بحيث كان يقول إنما هذا السواد بستان[١٥] لقريش ؛ وأخيرا

(١) انساب ، ٥ ص ٢٥ س ١٥ — ١٦ .
(٢) نفسه ، ٥ ص ٢٢ س ٨ — ٩ .
(٣) نفسه ، ٥ ص ١٢٥ .
(٤) نفسه ، ٥ ص ٢٥ س ١٧ ؛ ص ٢٧ س ٢٣ .
(٥) نفسه ، ٥ ص ٢٦ س ٥ ؛ انظر . جاد المولى ، انصاف عثمان ، القاهرة ١٩٤٤ ، ص ٣٢ .
(٦) انساب ، ٥ ص ٢٨ س ٢ : عن عزل عمرو . انظر . الكامل ؛ ٣ ص ٤٥ س ٦ .
(٧) انساب ، ص ٣٠ س ٣ .
(٨) هو أخو عثمان لأمه . نفسه ، ٥ ص ٢٩ س ١٨ ؛ النويري ، ٤ ص ٨٩ .
(٩) الكامل ، ٣ ص ٤٢ ؛ ٦٩ .
(١٠) مثل عرب مصر ، الذين كانوا يتمنون زوال عبد الله بن سعد . انساب ، ٥ ص ٢٦ س ٦ ، ٩ ، ١١ — ١٢ .
(١١) نفسه ، ص ١٢٥ .
(١٢) انظر . جاد المولى ، عثمان ، ص ٣٢ .
(١٣) انساب ، ٥ ص ٣٥ س ١١ — ١٢ ؛ انظر . طه حسين ، عثمان ، ص ٩٣ .
(١٤) انساب ، ٥ ص ٣١ س ٧ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٠ س ٢٠ .
(١٥) انساب ، ٥ ص ٤٠ س ١٧ .

سعد بن أبى[(١)] وقاص، الذى عزل عن الكوفة بسبب اتهامه بالعبث بأموال الصدقة .

أضف إلى ذلك أن عثمان ينتمى إلى الأمويين ، مما جعل بنى هاشم يقفون له بالمرصاد ، ويعدون عليه هناته، لما بينهما من تنافس قديم[(٢)] يرجع إلى أيام الجاهلية. وقد وجد بنو هاشم لهم داعية جريئاً فى شخص رجل يعرف باسم عبد الله[(٣)] بن سبأ ، ويتلقب بابن السوداء ؛ يبدو أنه كان يهودياً من اليمن، وأسلم زمن عثمان. فقد كان هذا الرجل يجوب الحجاز والعراق والشام ومصر[(٤)] داعياً ضد عثمان ، الذى اغتصب الخلافة مع وجود علىّ وصىّ النبى ، بل اتهم عثمان بتبديل بعض السور التى تشير إلى وصاية النبى لعلىّ فى إمامة المسلمين ؛ خصوصاً وأن حرق مصاحف الصحابة أوجد المجال لمثل هذه الاتهامات[(٥)] ؛ مما هيأ جو المعارضة فى الأمصار .

ومع ذلك لم تظهر الفتنة إلا بين عرب الأمصار ، الذين كان معظمهم[(٦)] جفاة من صميم البادية ، لا تهمهم[(٧)] قريش بقدر اهتمامهم بسير أمور الدولة الإسلامية سيراً حسناً ؛ فضلاً عن حقدهم على قريش مكانتها ، لظهور الاسلام فيهم ، وتمتعها بعظم خيرات الفتوح . فهؤلاء الذين قامت الفتوح على أكتافهم ، كانوا يريدون أن يكون لهم رأى مسموع[(٨)] فى إختيار الخليفة ، بحيث أنهم أرسلوا امراءهم « امراء الأجناد[(٩)] » إلى المدينة بعد موت عمر .

---

(١) الكامل ، ٣ ص ٤٢ س ١٩ .

(٢) انظر . قبله .

(٣) ابن حزم ، الفصل ، ٢ ص ١١٥ ؛ الكامل ، ٣ ص ٧٧ س ٢١ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art 'Abd Allâh B. Saba) tl, P. 30 ؛ طه حسين ، عثمان ، ص ١٣١ فما بعدها .

(٤) الكامل ، ٣ ص ٨٧ ؛ النوبختى ، فرق الشيعة ، ص ٢٢ ؛ انظر . جاد المولى ، عثمان ، ص ٤٠

(٥) انساب ، ٥ ص ٦٢ س ١٧ .

(٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٠ س ٨ ؛ الكامل ، ٣ ص ٨٧ س ١٧ .

(٧) ابن خلدن ، المقدمة ، ص ١٧٠ س ١٤ .

(٨) الكامل ، ٣ ص ٣٧ .

(٩) نفسه ، ٣ ص ٣٧ س ٨ .

وإذا كانوا قد ارتضوا الخليفتين[١] الأولين دون معارضة فلمكانتهما ؛ ولجسامة الظروف فى ذلك الوقت ، وهى ظروف ارتداد العرب والفتح . ولكن هذه الظروف الحرجة كانت قد انتهت ، واقتصرت الفتوح فقط على تأمين[٢] حدود الإمبراطورية ؛ فلم تعجبهم طريقة اختيار خليفةالاسلام دون[٣] مشورتهم، ومن وراء الكواليس . ومن ناحية أخرى لم ير أهل المدينة تحقيقاً للوعد الذى بذله لهم المهاجرون فى سقيفة بنى ساعدة بأن يكونوا هم الوزراء[٤] ؛ فهم لم يستشاروا اطلاقاً فى اختيار عثمان .

لذلك نجد أنه فشت القالة[٥] بين عرب الأمصار بنقد الخليفة وتصرفاته ، وساعد على ذلك لينه[٦] وحلمه بعد شدة[٧] عمر ، وأيضا كبر سنه ، فقد بلغ الثانية والثمانين من عمره[٨] ؛ مع العلم بأنه لم يجرؤ أحد من قبل نقد أبى بكر وعمر ؛ حيث كان كل منهما يسوس الأموال والمناصب بالعدل والقسطاس . كذلك وجدنا بعض الصحابة[٩] ، وبخاصة على[١٠] يقف موقف المدافع عن سنة السلف والعدل ، ويلومه على توليته لأقاربه[١١] ، وإنحرافه عن طريق الخلافة .

(١) الكامل ، ٣ ص ١١١ .
(٢) أنظر . قبله .
(٣) الكامل ، ٣ ص ١١١ س ١١ ؛ انظر . Lamnens : Etudes sur le siècle des Omeyyades, P. 193.
(٤) انظر . قبله .
(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٠ س ١٦ .
(٦) انساب ، ٥ ص ٢٥ س ١٥ .
(٧) نفسه ؛ انظر . طه حسين ، على وبنوه ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ١٣ .
(٨) سعيد بن بطريق ، ٢ ص ٣٣ . هناك رواية أخرى تفيد أن عمره خمس وثمانون سنه . انساب ، ٥ ص ٩٩ س ٥ — ٦ .
(٩) قد يكون منهم عائشة وطلحة والزبير. انظر. نفسه ، ٥ ص ٢٦ س ١٣ — ١٤ ؛ ص ٣٤ س ١٦ ؛ ص ٤٩ س ٩ فما بعدها .
(١٠) نفسه ، ٥ ص ٢٦ س ١٤ — ١٥ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art 'Ali B. Abî Tâlib) tI, P. 285.
(١١) انساب ، ٥ ص ٨٨ .

وسياتها قبله . وقد ظهرت المعارضة بشكل جدى حينما تزعمها القراء[١] فى الأمصار وأخذ الخليفة يرضى معارضيه[٢] بعزل عماله على الكوفة ومصر والبصرة أكثر من مرة .

وفى سنة ٣٥ / ٦٥٥ خرجت[٣] جماعة من المنحرفين على عثمان من مصر والبصرة والكوفة إلى المدينة للوم الخليفة ، أما الشام فلم يظهر منها ممتعض لوجود معاوية القوى[٤] . وبدلاً من أن يُظهر الخليفة قوة وحزماً أمام عرب الأمصار ، ضعف ولجأ إلى مفاوضتهم ، ووعدهم باصلاح الأخطاء[٥] ، واعترف بأنه زل وتاب[٦] ؛ مما جعل أغلبهم يقبلون العودة إلى الأمصار .

ولكن بعد رحيلهم عن المدينة ، ادعى عثمان فى إحدى خطبه أن عرب الأمصار اعترفوا له بأن ما بلغهم عنه باطلا[٧] ؛ ولما كان أهل المدينةعلى علم بحقائق الأمور فقد استكثروا على الخليفة الكذب، فحصبوه[٨] بالحجارة حتى وقع مغشياً عليه. ومن ناحية أخرى وقع فى أيدى عرب مصر الفساط كتاب[٩] مرسل من عثمان إلى عامله يأمره بجلد المتمردين والمثلة بهم وطول الحبس[١٠]. ولذلك أسرع عرب الأمصار بالعودة إلى المدينة ليجابهوه بالكتاب ، ولكنهأنكره ، مما أوغر صدورهم ؛ وجعلهم يحاصرون[١١] بيته بقصد تعطيشه ومنع القوتعنه ، حتى يخلع

---

(١) نفسه ، ٥ ص ٤٤ س ٢٠ .

(٢) ابن خلدون ، ص ١٧٠ ؛ الكامل ، ٣ ص ٤٩ .

(٣) انساب ، ٥ ص ٣٠ س ٦ فما بعدها ، ص ٥٩ .

(٤) الكامل ، ٣ ص ٧٥ س ١١ .

(٥) انساب ؛ ٥ ص ٤٦ س ٢١ ؛ ٦٤ س ٧ — ١٣ ؛ انظر . جاد المولى ، عثمان ، ص ٧٧ — ٧٧ .

(٦) انساب ، ٥ ص ٦٤ س ١٨ ؛ الكامل ، ٣ ص ٨٢ س ٩ ، س ١٩ — ٢٠ .

(٧) الكامل ، ٣ ص ٨٢ س ٥ — ٦ .

(٨) انساب ، ٥ ص ٧١ س ١٢ — ١٣ ؛ انظر . جاد المولى ، عثمان ، ص ٦٨ .

(٩) نفسه ، ٥ ص ٦٢ ؛ ص ٦٥ — ٦٦ ؛ ٦٧ ؛ انظر . نفسه ، ص ٦٥ .

(١٠) الكامل ، ٣ ص ٨٥ س ١٥ .

(١١) الجاحظ ، رسالة فى معاوية والأمويين ، ص ١١ .

نفسه عن الخلافة . ولكن عثمان رفض وقال[١] : «لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله» . ويظهر أن الأمور تطورت بسرعة، وخرج بعض الصحابة من المدينة ، حتى لا يظن بأنهم المحركون للمتمردين على الخليفة : فعليّ خرج إلى مكان مجاور المدينة ، كما أن جلة المهاجرين والأنصار لم يحركوا ساكناً[٢] .

فلما سمع المحاصرون بأن عثمان قد كتب إلى معاوية وعماله[٣] فى الأمصار ، يستنجد بهم ويأمرهم بارسال الجنود إليه ، أشعلوا النار فى باب داره واقتحموه ، وكان جالساً فى محرابه يقرأ القرآن ، فضربوه بالسلاح ، وبعجوا بطنه بالحراب ، وشدخوا هامته بالعمد ، فسال دمه على المصحف[٤] فى حجره . وقد حاولت زوجته نائلة بنت[٥] الفرافصة — التى تزوجها من قبيلة كلب على حدود الشام — اتقاء سيوف الثوار بيدها ، فقطعوا أصبعين[٦] من أصابعها ، فكشفت عن قناعها ورفعت عن ذيلها ، ليكون ذلك ردعاً لهم ، ولكن هذا لم يمنع من قتل زوجها ، الذى ألقى بجسده فى الأوساخ[٧] . وقد سعت نائلة إلى دفن زوجها ، وأرسلت بقميصه المخضب بالدم وأصابعها التى قطعت إلى معاوية ابن عمه ، لتحريضه على الأخذ الخليفة عثمان ؛ مما ترتب عليه أن هبت ريح الفتنة بين المسلمين .

* * *

(١) الكامل ، ٣ ص ٨٥ س ٢٠.
(٢) الجاحظ ، رسالة ، ص ١٢ — ١٣ .
(٣) انساب ، ٥ ص ٩٧ س ٥ — ٦ ؛ الكامل ، ٣ ص ٨٥ س ٢٦ .
(٤) انساب ، ٥ ص ٨٣ ؛ الجاحظ ، رسالة ، ص ١١ — ١٢ .
(٥) انساب ، ٥ ص ١٢ ؛ ابن قتيبة ، عيون ، ٤ ص ٤٦ ؛ الجاحظ ، رسالة ، ص ١١ .
(٦) انساب ، ص ١٢ .
(٧) الجاحظ ، رسالة ، ص ١١ .

بعد مقتل عثمان أصبح عليّ وشيك تنفيذ رغبات قلبه فى تولى الخلافة ، فقد جاءه الناس كلهم يهرعون وهم يقولون: أمير المؤمنين[١]. وفى الحقيقة أن عليّاً كان قد شعر فى قرارة نفسه — وهو قريب النبي — أنه نُحى عن الخلافة، وأن قريش تحاملت[٢] ضده لأنه من بيت هاشم الذى ظهرت فيه النبوة ، وعارض عشائرها إلى أن بسط الاسلام سلطانه؛ فاضطروه إلى بيعة أبى بكر وعمر، وأخيراً بيعة عثمان بحد السيف[٣]. ولذلك قبل عليّ الخلافة من عرب الامصار وكبار[٤] أهل المدينة لما عرضوها عليه؛ وإن كان بعض الصحابة توقفوا[٥] عن بيعته حتى تنجلي الأمور . وقد اتخذ عليّ بجانب ألقاب الخلافة لقب : «الامام[٦]» ، لما فيه من معنى أحقيته[٧] امامة المسلمين كما فى الصلاة ؛ وبذلك أضفى على الخلافة سلطة دينية بجانب سلطتها الزمنية ، حتى لا يسهل معارضتها .

ولكى يؤكد عليّ سلطته فى جميع أرجاء الدولة الاسلامية أرسل بالكتب[٨] يشرح فيها قبوله الخلافة من أيدى عرب الأمصار ، وأهل المدينة . ولكن هذه البيعة جعلت العرب فى مناطق الأعمال تنقسم على نفسها؛ بحيث لم يكن يخلو قطر من أقطارها من وجود أعداء له أو حاقدين عليه. وفى نفس الوقت بادر تحت تحريض الثوار بعزل العمال الذين عينهم عثمان؛ وقد أذعن جميعهم ماعدا معاوية فى الشام، الذى كان هدده

---

(١) انساب ، ٥ ص ٧٠ س ٩ .
(٢) الكامل ، ٣ ص
(٣) انساب ، ٥ ص ٢٢ س ١٥ — ١٨ .
(٤) نفسه ، ٥ ص ٧٠ .
(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٦٩ .
(٦) الكامل ، ٣ ص ٩٨ س ٧ ، تدل كلمة « امام » على عدة معان فى القرآن ، منها : « مقدم » و« هاد » و« زعيم » و« قدوة » . انظر القرآن ٢١ : ٧٣ ؛ ٢٥ : ٧٤ ؛ ٤٦ : ١٢ . انظر . عن هذا اللقب أيضا . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٧٢ — ٧٣ .
(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، س ١٧٩ — ١٨٠ .
(٨) الكامل ، ٣ ص ١٠٤ .

إن نال الخلافة بالمقاومة(١) : فكان يعلق على المنبر فى دمشق قميص عثمان وفيه أصابع(٢) نائلة ، ويحرض أهل الشام على الأخذ بثأر الخليفة المقتول .

ويظهر أن أعداء علىّ لم ينتظروا طويلاً فى اعلان مقاومتهم لبيعته ، فقد تجمع فى مكة ذاتها الأمويون(٣) الهاربون من المدينة ، والحاقدون عليه قبوله الخلافة من أيدى قتلة عثمان ، ومن بينهم أزواج(٤) النبى ، وعلى رأسهن أم المؤمنين(٥) عائشة . ومن المحقق أن عائشة كانت مؤهلة للقيام بدور سياسى فى تاريخ المسلمين ، فهى بالإضافة إلى أنها أحب(٦) النساء إلى النبى ، كانت تعتبر حجة(٧) للرجال والنساء فى الدين . وقد ازداد العداء لعلىّ بمجىء طلحة(٨) والزبير(٩) من المدينة — وكلاهما من صحابة النبى وأنصار عثمان — فادعيا أنهما بايعا(١٠) علياً بالإكراه ، وأنه ليس(١١) أهلاً للخلافة

(١) الكامل ، ٣ ص ٨١ س ٨ — ٩ .

(٢) ابن قتيبة ، الامامة ، ١ ص ١٣٣ ؛ الأغانى (طبعة بولاق) ١٥ ص ٧٠ ؛ انظر . جاد المولى ، عثمان ، ص ٨٧ .

(٣) الكامل ، ٣ ص ٩٩ س ٣ ؛ ١٠٦ س١٥ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ١٠٦ . كان عثمان يحج بهن كل عام . نفسه ، ٣ ص ٩١ س ١٨ .

(٥) كان يشاركنها فى هذا اللقب معظم زوجات النبى . (ابن هشام ، ٢ ص ١٠٠١ ؛ انظر . Essad Bey : Mah, p. 211.) . ولا ريب أنها كانت لا تزال تحقد عليه منذ ذاك اليوم الذى تاهت فيه فى الصحراء أثناء إحدى غزوات النبى ، حينما انسل عقدها وخرجت للبحث عنه ، فلما رجعت كانت القافلة قد رحلت ، وهى تجر هودجها ظناً منهم أنها فيه ، فأحضرها أحد الأعراب إلى النبى وكثر قول أهل الإفك ، فأشار علىّ على النبى بطلاقها ، ولكن القرآن برأها وعرف ذلك « بالافك » أو بحادثة « العقد » . انظر . البخارى ، ٥ (مجلد ٢) ص ١١٦ ؛ ابن هشام ، ٢ ص ٧٣١ فا بعدها ؛ طه حسين ، على وبنوه ، ص٢٩ .

(٦) الكامل ، ٣ ص ١١٠ س ٢٠ .

(٧) انظر . Essad Bey : Mah, P. 214.

(٨) هو أحد ذوى قربى أبى بكر ، أسلم صغيراً ، وشهد بدراً ، ودافع عن النبى يوم أحد ، ووقى رسول الله بيديه . الكامل ، ٣ ص ١٠٩ ؛ ابن سعد ؛ ٣/١ ص ١٥٢ — ١٦١ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Talha) t4, p. 673sqq.

(٩) أسلم وقت اسلام عثمان (انساب ، ٥ ص ١) وهو حوارى الرسول ، وأحد العشرة الذين وعدوا بالجنة ، كان قاد المدد الذى أرسل لفتح مصر (انظر . قبله) وهو وأحد أصحاب الشورى . المعارف ، ص ١١٣ ؛ انظر . Wüstenfeld : Die Familie el-Zubeir, Göttingen 1878, p. 28sqq.

(١٠) الكامل ، ٣ ص ١١٠ س ١ ؛ ١٢٢ .

(١١) نفسه ، ٣ ص ٨٠ س ٣ — ٤ ؛ ٩ — ١٠ .

بعد عثمان ولا أولى بها منهما . ولكن لما كانت مكة بلداً حراماً لا يقاتل فيها ، اتخذ أعداء علىّ طريق العراق ؛ خصوصاً وأنه كان لطلحة والزبير فيه أنصار [١] يرشحونهما للخلافة ، ويحقدون على علىّ قبوله الخلافة من قتلة عثمان .

وقد كان على هذا الثالوث : عائشة وطلحة والزبير ، أن يواجهوا أنصار علىّ فى العراق . وقد حاولت عائشة أن تثير العرب فى هذه النواحى [٢] على علىّ ، على أساس أن غايتها « الإصلاح [٣] » حتى يختار المسلمون من يرغبون فى ولاية أمرهم . ولكن كثيراً من العرب استكبروا على زوجة النبي خروجها [٤] من بيتها ؛ وانقسمت [٥] القبائل على بعضها : فيما بين مؤيدلها ومعارض . ولما كان أنصار علىّ كثيرين فى البصرة ، اضطرت إلى محاربتهم وانتصرت عليهم ، وحكمت على عامل [٦] البصرة من قبل علىّ بالضرب ، ونتف لحيته . كذلك كاد يحدث انقسام [٧] بين طلحة والزبير على امامة الصلاة ، لولا تدخل عائشة ، بأن أسندت الصلاة يوماً إلى طلحة ويوماً إلى الزبير .

وقد كان لا بد لعلىّ أن يترك المدينة ويسير إلى العراق ، فخرجت عائشة وأنصارها للقائه ، وأخذت مكانها فى المعركة وهى جالسة فى هودج على جمل كالراية لتحميس الجند ؛ إلا أن علياً لم يستطع أن ينال النصر إلا بعد أن دارت معركة حامية [٨] قتل فيها طلحة والزبير ، وعُقر جمل عائشة ، الذى قتل حوله سبعون [٩] رجلا ، ولذا عرفت هذه الوقعة التى دارت رحاها

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٨٠ .
(٢) نفسه ، ٣ ص ١١٠ ؛ ١١٢ .
(٣) نفسه ، ٣ ص ١١٩ س ١٠ .
(٤) نفسه ، ٣ ص ١١٠ س ٢٢ .
(٥) نفسه ، ٣ ص ١٢٥ .
(٦) نفسه ، ٣ ص ١١٠ س ١٦ .
(٧) نفسه ، ٣ ص ١٠٧ .
(٨) نفسه ، ٣ ص ١٢٤ .
(٩) نفسه ، ٣ ص ١٢٧ .

فى سنة ٣٦ / ٦٥٦ بوقعة الجمل[١] . ومع موقف عائشة العدائى ، فإن علياً أعادها إلى مكة معززة مكرمة[٢] ، حيث عاشت بعد ذلك عيشة هادئة إلى أن ماتت سنة ٨٥[٣]/٦٧٨ ، بعد حوالى سبعة وأربعين عاماً من موت النبى . وبذلك خضعت العراق لعلى ، وإن هرب[٤] منها قوم؛ فصاروا إلى معاوية ليحاربوا معه .

وقد استفاد معاوية — عامل الشام الجرىء — من هذه العداوة الطارئة ، ليتأهب للقاء على ؛ كما سعى إلى تحسين علاقته بالبيزنطيين[٥] ، برد أسراهم وعقد الصلح معهم ، خوفاً من أن ينتهزوا الفرصة فيهجموا على سورية . فلما تم له ذلك ، خرج فى سنة ٣٧[٦] / ٦٥٧ ، على رأس أهل الشام ، الذين كان عثمان — الخليفة المقتول — قد تزوج[٧] من كلب إحدى قبائلهم الكبيرة ؛ بحيث أن منهم من أقسم ألا يغتسل[٨] أو ينام على الفرش حتى يقتل قتلة عثمان ؛ كما كان يحدث عند الأخذ بالثأر فى الجاهلية. فتلاقت هذه الجيوش مع جيوش على من أهل العراق، أمام «صفين»[٩]؛ وهى قرية قديمة غربى نهر الفرات، ليس بينها وبينه غير غيضة ماء وطريق مفروش بالحجارة . وبذلك عادت ذكرى العداء القديم بين عرب

---

(١) الكامل ، ٣ ص ١٠٥ فما بعدها .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٣٢ .

(٣) نفسه ، ٢ ص ٢١٠ ؛ انظر . Mah, P. 214 : Essad Bey

(٤) النوبختى ، فرق الشيعة ، ص ٥ س ١٤ .

(٥) انظر . Sebêos, P. (1) ؛ الأخبار الطوال ، ص ١٦٠ ؛ فتوح البلدان ، ص ٥٩ ؛ ١٦٠ ؛ انظر أومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة طه بدر ، ص ١٣١ ؛ انظر . La lutte, P. 105 : Cheira

(٦) الكامل ، ٣ ص ١٤٧ .

(٧) انظر . قبله .

(٨) الكامل ، ٣ ص ١٤١—١٤٢ .

(٩) انظر . Chronog. p. 423 : Theophanis ؛ الأخبار الطوال ، ص ١٧٠ ؛ Ency. de l'Isl, (art Siffîn,) t4, P. 347 . انظر عن صفين . ياقوت ، معجم البلدان ، ٥ ص ٣٧٠ .

العراق وعرب سورية ، وهو عداء ليس مبعثه النزاع بين العرب حلفاء الفرس أو الروم — كما كان الحال سابقاً — وإنما الآن بين أشياع علىّ وأنصار معاوية ، وهم جميعاً من المسلمين .

تراصت[١] القبائل العربية المتعادية أمام بعضها فى صفوف براياتها لتدافع عن أحسابها ، وبدأت الحرب بتبادل الخطب[٢] الحماسية والمبارزات[٣] الفردية ؛ وإن كان علىّ فى هذه المرحلة الأولى استطاع بقيادة قائده الأشتر[٤] النخعى السيطرة على مشارب[٥] الماء . كذلك تبادل كل من علىّ ومعاوية الرسل[٦] ، وكان قصد علىّ من ذلك أن يبايعه معاوية ، أما معاوية فصمم على أن يسلم إليه علىّ قتلة عثمان ، وأن يتخلى عن الخلافة ويجعلها شورى ؛ ولكن عسكر علىّ أجابت على ذلك أمام رسل معاوية بأنها جميعها قتلة[٧] عثمان . ويروى المؤرخون وقوع معارك عنيفة بين الطرفين بلغ عددها تسعين[٨] معركة ؛ خاض فيها علىّ ومعاوية وقائع رهيبة وأبديا من صنوف الشجاعة الشيء الكثير .

ولكن يظهر أنه مع تصميم كل من علىّ ومعاوية على القتال إلى آخر رمق ؛ فإن الرغبة فى الاستمرار فى القتال عند اتباعهما أخذت تضعف[٩] ؛ وبخاصة عند اتباع علىّ بين عصبة القراء[١٠] والحفاظ الكثيرين ، الذين قدروا بحكم حماسهم

(١) الكامل ، ٣ ص ١٥١ ؛ ١٥٦ ؛ ١٥٧ ؛ الأخبار الطوال ، ص ١٧٣ ؛ ١٨٥
(٢) الكامل ، ٣ ص ١٥٠ .
(٣) نفسه ، ٣ ص ١٤٤ ؛ الأخبار الطوال ، ص ١٧٦ ؛ ١٨٢ .
(٤) الأشتر عرف فى حروب الروم (فتوح البلدان ، ص ١٦٤) ، واشترك فى موقعة الجمل . انظر . عنه Ency. de l'Isl, (art al-Ashtar) I, P. 492—93
(٥) الأخبار الطوال ، ص ١٧٠ — ١٧١ ؛ الكامل ، ٣ ص ١٤٥ .
(٦) الأخبار الطوال ، ص ١٦٢ :
(٧) نفسه ، ص ١٦٥ س ٧ .
(٨) التنبيه ، ص ٢٩٥ ؛ معجم البلدان ، ٥ ص ٣٧٠ .
(٩) الأخبار الطوال ، ص ١٩١ ؛ انظر . رضا ، على ، ص ١٧٣ .
(١٠) الكامل ، ٣ ص ١٥٢ س ٤ ؛ ١٥٦ س ١٨ ؛ ١٥٩ س ٩ ؛ الطبرى (Annales) ١ : ٣٢٧٢ ؛ ٣٢٨٣ ؛ ٣٢٩٢ .

للاسلام أنه إن استمر العرب فى إراقة دمائهم رجع الروم والفرس[(١)] إلى قتالهم والطمع فيهم ؛ وفقدوا فتوحاتها الواسعة، التى درت عليهم الشرف والعطاء والخير العميم. لذلك أخذ الحماس للقتال يفتر بين الطرفين، فكانت المعارك تدور يوماً ، ثم لاتلبث أن تخمد فى اليوم التالى . ولاريب أن عمرو بن العاص الذى عرف بالدهاء[(٢)]، واستطاع معاوية أن يستميله إلى صفه ، أحس بهذه الروح الفاترة للحرب بخاصة فى جيش علىّ ، فنصح معاوية بربط مصحف دمشق الأعظم على خمسة رماح يحملها خمسة رجال[(٣)] أمام المحاربين ، بقصد التحكيم[(٤)] إلى كتاب الله وسنة نبيه ، ووقف إراقة دماء المسلمين، ولم شمث الأمة وصلاحها. وكان نتيجة ذلك أن أجبر علىّ على إيقاف القتال مع تعارض ذلك لمصلحته ، خصوصاً وأن كفته كانت الراجحة . وتحت الحاح المعارضين فى القتال وبخاصة القراء ، قبل علىّ التحكيم ، وكتبوا لهذا صحيفة[(٥)] بدأت بذكر أسماء المتقاضين ، وهم علىّ ومعاوية دون أن يذكروا للأول لقب أمير المؤمنين ، وإنما اسمه واسم أبيه ، وحددوا زمان التحكيم فى أجل غايته انقضاء رمضان؛ وإلا فالطرفان فى حل من العودة إلى الحرب، وأن يكون باذْرُح[(٦)] مكان وسط بين أهل الشام والعراق، وسموا الحكمين الذين سيحكمان فى هذا النزاع، وهما عمرو بن العاص ممثلاً لمعاوية ، وأبو موسى الأشعرى[(٧)] ممثلاً لعلىّ ؛ على أن يتخذا

---

(١) الاخبار الطوال ، ص ١٩١ .

(٢) الكامل ، ٣ ص ١٤١ س ٨ . يوصف بأنه ناب من أنياب العرب . نفسه . ٣ ص ١٤١ س ٨ .

(٣) الدينورى ، الأخبار الطوال . ص ١٩١ — ١٩٢ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Siffîn) t4, P. 424.

(٤) الكامل ، ٣ ص ١٦٨ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ١٦٢ — ١٦٣ ؛ انظر. مجموعة الوثائق ، ص ٢٨١ فما بعدها.

(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، ١ ص ١٦١ يخلط المؤرخون بينها وبين دومة الجندل ، ولكن هى ولاريب أذرح . الكامل ، ٣ ص ١٦٣ س١٥ — ١٦ ؛ أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ١٧٨ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Adhroh) tI, P. 138

(٧) كان قاضيا على الكوفة من قبل عمر (المقدمة ، ص ١٧٤ س ٢١ — ٢٢) ، ثم عاملا لعثمان (ابن سعد ٤/١ ص٧٨ فما بعدها ؛ فتوح البلدان ، ص٥٥)، ولكنه عزل، انظر Ency. de l'Isl, (al-Ash'arî) tI, P. 488. ؛ أنظر . جاد المولى ، عثمان ، ص ٥٤ ؛ طه حسين ، على وبنوه ، ص ٢٥ .

القرآن والسنة وحدها وراعيا فى ذلك الذمة ؛ وأن يقبل علىّ ومعاوية حكمهما وليس لهما أن ينقضاه ؛ وقد صدّق صحابة علىّ وأنصار معاوية على هذه الصحيفة .

فى الواقع أن قبول علىّ لهذه الهدنة كان أول الوهن ، فقد أحدث انقساماً فى صفوف اتباعه ، فنجد جزءاً من جيشه ، ينكر عليه وضع حقه فى الخلافة — وهو مقدس — للتحكيم بين الناس ، مع أن عثمان رفض التنازل عنها وقُتل فى سبيلها ؛ بدلاً من أن تكون المعركة وحدها هى الناطقة بحكم الله[١] ، على عادة العرب فى القتال ؛ فعرفوا بسبب ذلك بالمحكمة[٢] . فلما انسحبوا إلى قرية حروراء[٣] — مكان قريب من الكوفة — عرفوا أيضاً بالحرورية[٤] ، حيث اختاروا واحداً منهم جعلوه زعيماً لهم ، هو عبد الله بن وهب الراسبى[٥] . وقد بدأت تختمر بين هذه الجماعة المنفصلة فكرة الخروج ، التى لا تجعل لقريش أو لقرابة علىّ للنبى أى درجة ، وأن الخلافة يجب أن تعود إلى أفضل الناس مهما يكن أصله أو جنسه ؛ وبسبب ذلك سيعرفون أيضا « بالخوارج » ، أى الخارجين على علىّ ومعاوية .

ولكن جماعة أخرى كان التحكيم هو السبب فى ظهورها ، هى المعتزلة ، لأنها اعتزلت[٦] بيعة علىّ ، وامتنعت عن محاربته أو المحاربة معه ؛ فلم تنغمس فى حرب

(١) ابن حزم ، الفصل ، ٤ ص ١٥٥ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Kharidjites) 2, P. 957sqq.

(٢) ابن حزم ، الفصل ، ٢ ص ١١٣ .

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٢٥٦ .

(٤) النوبختى ، فرق الشيعة ، ص ٦ س ٤ .

(٥) البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص ٥٧ .

(٦) ابن حزم ، الفصل ، ٤ ص ١٥٣ ؛ الكامل ، ٣ ص ١٣١ س ٢٠ .

الجمل ، ولم تشترك فى موقعة صفين . ولعل هـذه الجماعة التى أعتزلت السياسة هى أسلاف[١] المعتزلة ، التى ستكون لها آراء دينية متمددة[٢] فى العقيدة والقرآن .

وعلى العكس ظهرت فرقة أخرى وقفت موقف التأييد على الأقل من الأمويين هى : المرجئة[٣] ، التى نشأت هى الأخرى فى هذه الفتنة ؛ وسميت هكذا لأنها قالت بإرجاء الاختلاف فى تكفير الناس فى أيمانهم[٤] وأعمالهم إلى الله . فهى فرقة لا تقبل رأى الخوارج فى التكفير ، ولا تريد أن تنغمس فى الفتن ، وتريد أن تسالم الجميع وتترك الأمور إلى الله ؛ وهذه العقيدة المحايدة هى أساس فرق المرجئة بفروعها[٥] .

وفوق ذلك فإن صحب علىّ وأتباعه[٦] ، وهم الذين عرفوا : بشيعة علىّ أو فقط بالشيعة ، كانوا يرون أن الخلافة من أركان الدين والمصالح العامة التى لا تفوض[٧]

---

(١) النوبختى ، فرق الشيعة ، ص ٥ .

(٢) انظر . الشهرستانى، الملل والنحل ، ١ ، ص ٢٩ — ٣٠ ؛ انظر . Ency. de, l'Isl, (art al-Mu'tazila) t3, P. 841sqq.

(٣) النوبختى ، فرق الشيعة ، ص ٦ ؛ Ency, de l'Isl, (art al-Murdji'a), t3, P. 784. ؛ انظر . Gold : Macdonald؛ Mah. Studien, 2, P. 21 : Van Vloten, Irdjâ. , ؛ Develop. of Muslim Theology, P. 122sqq. ؛ Z. D. M. G. 45, 1891, pp. 161-171. ؛ فون كريمر ، الحضارة ، تعريب طه بدر ، ص ١٩ ، ٦٥ ؛ ٦٦ فما بعدها ، وتعليق (١) ص ١٤٥ .

(٤) الشهرستانى ، الملل ، ١ ص ١٨٥ ؛ البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص ١٩٠ . لعل هذا الشعر هو أصدق ما يعبر عن مبادىء هذه الفرقة .

يا هند فاستمعى لى إن سيرتنا ... أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
نرجى الأمور إذا كانت مشبهة ... ونصدق القول فيمن جار أو عندا
أما على وعثمان فإنهما ... عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا

الأغانى (طبعة بولاق) ١٣ ص ٥٢ .

(٥) ستنقسم إلى فرق أغلبها نسبة إلى مؤسسيها ، منها : الجهمية فى خراسان ، والغيلانية فى الشام ، والماصرية فى العراق ، والشكاك والبترية والحشوية . النوبختى ، فرق الشيعة ، ص ٦ — ٧ .

(٦) نفسه ، ص ١٧ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٥٥ س ١٢ ؛ الكامل ، ٣ ص ١٦٥ س ٢٧ .

(٧) ابن خلدون المقدمة ، ص ١٥٥ ؛ ص ١٦٨ .

إلى نظر الناس : ولذلك أوصى[١] بها النبي لعليّ فى غدير خمّ ، وأنه بناء على هذه الوصاية يعتبر « وليّ الله » ، وأجدر من يتولاها . ولعل المذهب الشيعى الذى قد يكون ظهر منذ موت النبي — كما يقول النوبختى[٢] — زادته هذه المحن تضامناً ، حتى أنه لما خرجت طائفة المحكمة من صفوف عليّ ، أتت الشيعة لمبايعة[٣] عليّ .

على العموم اجتمع حكماً[٤] عليّ ومعاوية : أبو موسى الأشعرى وعمرو ابن العاص فى أذرح[٥] بين سورية والعراق ، فى رمضان ٣٨ / ٦٥٨ ، وصحب كل منهما أربعمائة[٦] رجل من أنصاره ، كما حضره كثير من أبناء الصحابة ؛ مثل: عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عباس . ومع أنه لم يكن قد اتفق فى الصحيفة على موضوع النقاش : فقد كان المفروض أن ينظر الحكمان فى لم شعث[٧] الأمة الإسلامية وصلاحها على أساس ما ورد فى كتاب الله وسنة نبيه . وقد رأى الحكمان بعد المداولة أن يخلعا علياً ومعاوية ، ويولى الناس أمرهم من يحبون ؛ واتفق أن يبدأ موسى بخلع صاحبه ويتبعه عمرو ، ولكن هذا الأخير على العكس عمل على تولية[٨] معاوية فى الخلافة ؛ مما جعل أبو موسى يعلن

(١) النعمان ، دعائم ، ١ ص ٢٠ ، ٥٢ ؛ الغزالى ، فضائح الباطنية ، تحقيق Gold ، طبعة Leyden ، ١٩١٦ ، ص ٤٨ . ففى أثناء حجة الوداع فى السنة العاشرة من الهجرة بالقرب من غدير خم ، قام محمد خطيبا فى الحجيج ، فقال لهم : « ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ » ، قالوا : « بلى يارسول الله » ، قال : « فمن كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله » . النعمان ، دعائم ، ١ ص ٢١ ؛ ٢٤ ؛ انظر عن هذه الوصاية . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٥١ فما بعدها .

(٢) النوبختى ، فرق الشيعة ، ص ١٧ .

(٣) الكامل ، ٣ ص ١٧٠ س ٢٦ .

(٤) ابن حزم ، الفصل ، ٤ ص ١٥٦ .

(٥) انظر . قبله .

(٦) الكامل ، ٣ ص ١٦٦ — ١٦٧ .

(٧) نفسه ، ٣ ص ١٦٧ ؛ الدينورى ، الأخبار الطوال ، ص ٢٠٣ .

(٨) الدينورى ، ص ٢٠٤ .

بين الحاضرين خدعة [١] عمرو ، وقرر علىّ من جانبه العودة إلى القتال .

إلا أن الموقف فى العراق لم يكن موطداً لعلىّ ، فإن المحكمة أصبحت وقتئذ عقلية متعصبة تكفر [٢] الناس للهفوة البسيطة ، وتقتلهم ؛ بحيث أثارت الذعر فى منطقة النهروان [٣] ، وهى مركز قرى قرب المدائن . ومع أن علياً بذل جهده لاستمالتهم [٤] — وقد عاد إلى القتال — إلا أنهم رفضوا الانضمام إليه، وكفروه [٥] وكفروا الحكمين ، وأعلنوا أن علياً لم يقبل حكم الله ، وانه إنما كان يقاتل [٦] لنفسه ، وليس لمبدأ الخلافة . لذلك عزم علىّ على قتالهم، وحاربهم فى منطقة تجمعهم بالنهروان ، وكان يقول [٧] كلمته المشهورة : «الله أكبر كلمة حق أريد بها باطل» ؛ فأنزل بهم هزيمة منكرة ، وذلك فى أواخر سنة ٣٧ / ٦٥٨ ؛ وإن لم يقض عليهم نهائياً ، فهم سيظلون شوكة فى جنب الدولة العربية ، وإن كانوا سيتفرقون بدورهم إلى فرق عديدة [٨] .

فى ذلك الوقت كان معاوية قد أخذ يستفيد من هذا الفوز السياسى [٩] بإثارة الإضطرابات ضد علىّ فى كل أرجاء الإمبراطورية العربية : فأرسل عمرو بن العاص فى بداية سنة ٣٨ / ٦٥٨ ليخضع له مصر الغنية بخراجها [١٠] ، والتى كانت تهدد

(١) نفسه . يظهر أن أبا موسى هرب إلى مكة بعد ذلك. الكامل ، ٣ ص ١٦٨ .

(٢) نفسه ، ١ ص ٢٠٩ ؛ البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص ٥٠ .

(٣) معجم البلدان ، ٨ ص ٣٤٧ .

(٤) الدينورى ، الأخبار الطوال ، ص ٢١١ — ٢١٢ ؛ الكامل ، ٣ ص ١٧٢ .

(٥) النوبختى ، ص ١٥ — ١٦ . اعتلوا بقول القرآن الكريم ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ٥ : ٤٧ ﴾ .

(٦) الكامل ، ٣ ص ١٧١ ؛ انظر . طه حسين ، على وبنوه ، ص ١١٣ .

(٧) نفسه ، ٣ ص ١٦٩ ؛ انظر . نفسه .

(٨) النوبختى ، فرق الشيعة ، ص ٦ س ٥ ؛ انظر . بعده . كبار فرق الخوارج ستة : الأزارقة والنجدية والصفرية والعجاردة والاباضية والثعالبة . الشهرستانى ، الملل ، ١ ص ٨٦

(٩) الكامل ، ٣ ص ١٣٨ ؛ ١٨٠ ؛ انظر Ency. de l'Isl, t1, P. 286.

(١٠) نفسه ، ٣ ص ١٨٠ .

وجوده فى الشام لكثرة اتباع علىّ فيها ؛ فاستطاع عمرو(١) أن ينتزعها من يد عاملها من قبل علىّ وهو محمد بن أبى بكر الذى قتل ؛ كذلك أرسل معاوية السرايا(٢) المتتابعة نحو العراق والجزيرة ومكة ، وضيق على علىّ الخناق فى كل مكان . إزاء هذه المضايقات العديدة ، ولكثرة ما أسيل من دماء ، يقبل علىّ هدنة(٣) من معاوية على أن يكون نصيبه العراق والمشرق ، ولمعاوية الشام والمغرب ؛ ولا يدخل أحدهما بلد الآخر بغارة .

زاد هذا الضعف من جانب علىّ والطمع من جانب معاوية من سخط الخوارج؛ ولذا قرروا قتل علىّ ومعاوية ، واستعانوا فى سبيل ذلك باثنين: وجهوا أحدهما لقتل معاوية ولكنه لم ينجح(٤) فى مهمته ، ووجهوا الآخر وهو عبد الله بن ملجم الخارجى لقتل علىّ ، فتمكن من قتله فى المسجد فى رمضان من سنة ٤٠/يناير ٦٦١ ؛ وهو يردد(٥) : « الحكم لله لا لك يا علىّ » ؛ ولكن قبل أن يموت علىّ أوصى بأن يقتل قاتله ، وألا يمثل به . وقد دفنه أشياعه سراً فى قرية « النجف »(٦) ، على حافة الصحراء بقرب الكوفة ، خوفاً من أن ينبش الخوارج قبره(٧) ؛ وهى ستصبح مزاراً للشيعة فيما بعد يحجون إليها حتى وقتنا الحاضر .

---

(١) وليها من قبل على عدة عمال ، منهم : قيس بن سعد (الكامل ، ٣ ص ١٠٣ س ٤)، ولكن علىّ عزله ، وولاها قائده الأشتر الذى توصل معاوية إلى قتله بالسم (نفسه ، ٣ ص ١٣٩ ؛ ١٧٨)، ثم وليها محمد بن أبى بكر . ولكن بعد موقعة صفين نجد أن أنصار معاوية يكثرون ويتمكنون من قتل محمد بن أبى بكر ، وبذلك يتمكن عمرو من الاستيلاء على مصر . نفسه ، ٣ ص ١٧٨ ؛ انظر . الشرقاوى ، كتاب تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين، ص ١٠١ — ١٠٢ .

(٢) الكامل ، ٣ ص ١٨٨ ؛ ص ١٩٠ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ١٩٣ .

(٤) انظر . نفسه ، ٣ ص ١٩٨ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ١٩٦ س ٥ .

(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، ٨ ، ص ٢٦٦ انظر . Ency. de l'Isl. (art . al-Nadjaf) 13, P. 871sqq.

(٧) دونلدس ، عقيدة الشيعة ، مكتبة الخانجى ، ص ٧٠ ؛ انظر ما قيل عن دفنه ، والاختلاف فى ذلك . ص ٧ فما بعدها .

وهكذا مهدت الأقدار لمعاوية التخلص من منافسه ، فوجد الفرصة سانحة ليعلن خلافته فى الشام[١] ؛ وبهذا الإعلان انتهت خلافة «الصحابة» ، أو ماسماهم المؤرخون « بالراشدين»[٢] ، أى الذين كانوا مرشدين من قبل النبى للسير على سنته فى الحكم ، أما بعدهم فسيأتى الأمويون ، الذين سيغيرون من نظم الحكم . وبذلك ستخمد ريح الفتنة ، ويعود المسلمون جماعة واحدة ؛ بحيث سمى هذا العام — الذى أعلن فيه خلافته — «بعام الجماعة[٣] » .

*
* *

(الجزء الثانى تحت الطبع)

---

(١) الكامل ، ٣ ص ١٧٨ .
(٢) انظر لسان ، ٤ ص ١٥٦ .
(٣) الذهبى ، دول الإسلام ، ١ ص ١٠٩ .

تصويب الخطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٤	هامش (٤)	Gundriss	Grundriss
٢٠	١١	راوبة	راوية
٣٢	هامش (٤)	Müler	Müller
٣٧	٦	يعرص	يعرض
	٩	رلا	ولا
	هامش (٧)	(١)	(٧)
٣٨	هامش (٤)	Paris 1888.	Paris 1879.
٣٩	هامش (٥)	vol. 13.	vol. 4 ; 7 ; 13
٤٧	هامش (١)	ممشر	معشر
٨٧	١٢	والضحاعمة	والضجاعمة
١١٣	١٣	تستهر	تستهتر
١٢٠	٨	لا بنازع	لا ينازع
١٢٢	٤	الباطل	الباطل
١٢٧	١٤	الملائكة إلى	الملائكة
	هامش (١)	الظر	انظر
١٤١	١	إلى يثرب ،	إلى يثرب —
١٦٥	١١	Caeta i	Caetani
١٧٢	هامش (٥)	عمت	عمت
١٨٤	هامش (٤)	المركة	المعركة
	هامش (١١)	٤٠٠ ألفا ، ٣٠٠ ألفا أو ٤٠٠ ألفا ، ٢٠٠ ألفا	٤٠٠ ألف ، ٣٠٠ ألف أو ٤٠٠ ألف ، ٢٠٠ ألف
١٨٧	هامش (٥)	الذين بعد بهم	بعد بهم
١٨٨	١	م	ثم
١٩٣	٥	باله	ياله
١٩٤	٩	وحاول هذا النبي تفسير	وحاول تفسير
١٩٦	٦	وقد ظهرت	وقد ظهر
	١٠	كما ألف مائى كتبا	كما ألف كتباً
	هامش (٤)	المتاينة	المتانية
١٩٩	١١	دادكر	دادگر
٢٠٢	١١	الموقعة . كانت	الموقعة ، كانت
٢١٨	١١	حيث قاتلوا	فقاتلهم
٢٢١	٧	ان هؤلاء	أنهم

[تم بحمد الله وحسن توفيقه طبع كتاب «التاريخ السياسى للدولة العربية» فى مطبعة الرسالة الكائنة بشارع حموده المقاول رقم ٣ عابدين بالقاهرة فى يوم الخميس ٢٣ شعبان سنة ١٣٧٥ ه الموافق ٥ ابريل سنة ١٩٥٦] .

عبد الحميد على حسين

مدير المطبعة

كلمة شكر

قبل أن ابدأ الجزء الثانى من هذا الكتاب اتقدم بشكرى الجزيل إلى حضرة استاذى وصديق وزميلى الدكتور عبد الهادى شعيرة استاذ التاريخ الإسلامى بجامعة عين شمس، فبفضله أولاً وآخراً وجدت الفكرة فى ظهور هذا الكتاب، حينما أسند لى منذ خمس سنوات تدريس مادة : تاريخ الدولة العربية .

كما أخص بالشكر والاعتراف بالجميل أستاذين جليلين قدما إلىّ كل مساعدة : فالأستاذ الدكتور خليل يحيى نامى وضع تحت تصرفى مكتبته الذاخرة بالكتب التى تتناول تاريخ العرب قبل الاسلام ، والدكتور عبد العزيز الأهوانى أمدنى بما احتاج إليه من مكتبته الاسلامية .

كذلك أعبر عن إعجابى وتقديرى لحضرات زملائى الأعزاء الذين لم يبخلوا علىّ بعلمهم ، واخص منهم بالذكر : الدكتور محمد محمود السلاموني ، والدكتور عبد اللطيف احمد ، والدكتور محمد عواد حسين ، والدكتور عبد النعيم حسنين ، والدكتور فؤاد الصياد، والدكتور حسين مجيب المصرى، والأستاذ العزيز مصطفى عبد العليم .

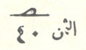
وأخيرا حق على تقديم واجب الشكر نحو سيدة مكتبة المعهد الاسلامى بباريس « Institut Islamique » ، التى لم تتأخر عن فتح أبواب مكتبته ، على الرغم من اغلاقه رسميا فى العطلة الصيفية .

HISTOIRE POLITIQUE DE L'ETAT ARABE

A. M. MAGUED

Maître de Conférences à L'Université Aïn-Chams
Docteur ès-Lettres de la Sorbonne.

TOME 1.



LE CAIRE 1956
Librairie Anglo-Egyptienne.
Tel. 50337